تفسير القرآن الكريم

التحرير والتنوير

المقدمات وتفسير سورة الفاتحة وجزء عم

تأليف

المولى الامام الاستاذ الاكبر

فضيلة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور

شيخ الجامع الاعظم وفروعه

منشورات دار الكتب الشرقية

تونس

تفسير القرآن الكريم



المقدمات وتفسير سورة الفاتحة وجزء عم

تأليف

المولى الامام الاستاذ الاكبر

فضيلة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور

شيخ الجامع الأعظم وفروعه

منشورات

دار الكتب الشرقية تونس



الحمد لله على أنْ بَيَّن للمستهدين معالم مراده ، ونصب لجحافل المستفتحين أعلام أَمداده ، فأنزل القرآن قانونا عاما معصوما ، وأعجز بعجائبه فظهرت يوما فيوما ، وجعله مصدّقا لما بين يديه ومهيمنا ، وما فرط فيه من شيء يعظ مسيئا ومحسنا ، حتى عرفه المنصفون من مؤمن وجاحد ، وشهد له الراغب والمحتار والحاسد ، فكان الحال بتصديقه أنطَق من اللسان ، وبرهانُ العقل فيه أبْصَرَ من شاهِد العيان ، وأبرزَ آياته في الآفاق للمؤمنين فتبيَّن لهم أنه الحق ، كما أنزله على أفضلِ رسول فبشَّرَ بأنَّ لهم قَـدَم صدق ، فبه أصبح الرسول الامّيّ سيدَ الحكماء المربّين ، وبه شرح صدره اذ قال إنك على الحق المبين ، فلم يزل كتابه مُشعًّا نيِّرا ، محفوظا من لدنه أن يسلّط عليه مبدلا ومغيرا ·

ثم قيض لتبيينه أصحابَه الاشداءَ الرحماء ، وأبان أَسراره من بَعدَهم في الامة من العلماء · فصلاة الله وسلامه على رسوله وآله الطاهرين ، وعلى أصحابه نجوم الاقتداء للسائرين والماخرين · (١)

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه : اصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم فبنيت على هذا التشبيه تشبيه المهتدين بهم بفريقين : فريق سائرون في البر وفي ذلك تشبيه عملهم في الاهتداء ، وهو اتباع طريق السنـة بالسير في طرق البر ؛ وفريق ماخرون أي سائرون في الفلك المواخر في البحر وتضمن ذلك تشبيه عملهم في الاهتداء وهو الخوض في العلوم بالمخر في البحر ومن ذلك الاشارة الى ان العلم كالبحر كما هو شائع ، وان السنة كالسبيل المبلغ للمقصود .

أما بعد فقد كان أكبر أمنيتي منذ أمد بعيد ، إقراء تفسير الكتاب المجيد ، الجامع لمصالح الدنيا والدين ، وموثق شديد العرى من الحق المتين ، والحاوي لكليات العلوم ومعاقد استنباطها ، والآخذ قوس البلاغة من محل نياطها ، طمعا في بيان نكت من العلم وكليات من التشريع ، وتفاصيل من مكارم الاخلاق ، كان يلوح انموذج من جميعها في خلال تدبره ، أو مطالعة كلام مفسره ، (١) ولكنني كنت على كلفي بذلك أتجهم التقحم على هذا المجال ، وأحجم عن الزج بسية قوسي في هذا النضال ؛ اتقاء ما عسى أن يعرض له المرء نفسه من متاعب تنوء بالقوة ، أو فلتات سهام الفهم وإن بلغ ساعد الذهن كمال الفتوة. فبقيت أسوف النفس مرة ومرة أسومها زجرا، فان رأيت منها تصميما أحلتها على فرصة أخرى ، وأنا آمل أن يمنح من التيسير . ما يشجع على قصد هذا الغرض العسير • وفيما أنا بين إقدام وإحجام ، أتخيل هذا الحقل مرة القتاد وأخرى الثمام. إذا أنا بأملي قد خيل إلي أنه تباعد أو انقضى ، إذ قدر أن تسند إلي خطة القضا (٢) ؛ فبقيت منلهفا ولات حين مناص ، وأضمرت تحقيق هاته الامنية متى أجمل الله الخلاص، وكنت أحادث بذلك الاصحاب والاخوان ، وأضرب المثل بأبي الوليد ابن رشد في إتمام كتاب

(١) اشير بهذا الى ان المهم من كلام المفسرين يرشد الى الزيادة على ما ذكروه والذي دون ذلك من كلامهم ينبه الى تقويم ما ذكروه ، والمفسر هنا مراد به الجنس .

(٢) في ٢٦ رمضان سنة ١٣٣١ والقضاء هنا بالقصر لمراعاة السجع.

البيان (١) ولم أزل كُلَّما مضت مدة يزداد التمني وأرجو انجازه ، إلى أن أوشك أن تمضي عليه مدة الحيازة ؛ فاذا الله قد منَّ بالنقلة إلى خطة الفتيا (٢). وأصبحت الهمة مصروفةً إلى ما تنصرف اليه الهمم العُليا، فتحول الى الرجاء ذلك الياس ، وطمعت أن اكون ممن أوتيَ الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس (٣). هنالك عقدتُ العزم على تحقيق ما كنت أضمرتُه ، واستعنت بالله تعالى واستخرتُهوعَلِمتُ أن ما يهولُ من توقع كلل أو غلط ، لا ينبغي أن يحول بيني وبين نسج هذا النمط ، إذا بذلتُ الوسع من الاجتهاد ، وتوخيت طرق الصواب والسداد .

أقدمت على هذا المهم إقدامَ الشجاع على وادي السباع (٤) متوسطا في معترك أنظار الناظرين ، وزائرا بين ضُباح الزائرين (٥) ، فجلعتُ

---

(١) حيث ذكر انه شرع فيه ، ثم عاقه عنه تقليد خطة القضاء بقرطبة فعزم على الرجوع اليه إن أريح من القضاء، وانه عَرَض عزمه على امير المسلمين علي بن يوسف ابن تاشفين،فأجابه لذلك واعفاه من القضاء؛ليعود الى اكمال كتابه«البيان والتحصيل» وهذا الكتاب هو شرح جليل على كتاب العتبية الذي جمع فيه العتبي سماع اصحاب مالك منه ، وسماع اصحاب ابن القاسم منه.

(٢) في ٢٦ رجب ١٣٤١

(٣) اردت الاشارة الى الحديث لا حسد الا في اثنتين لانه يتعين ان لا يكون المراد الجمع بين القضاء بها وتعليمها بل يحصل المقصود ولو بان يقضي بها مدة ، ويعلمها الناس مدة اخرى .

(٤) وادي السباع موضع بين مكة والبصرة وهو واد قفر من السكان تكثر به السباع قال سُحيم بن وثيل :

مررت على وادي السباع ولا ارى   كوادي السباع حين يظلم واديا
اقلَّ به ركب اتوه تئيَّةً   واخوفَ الا ما وقى الله ساريا

(٥) الزائرون هنا اسم فاعل من زأر بهمزة بعد الزاي، وهو الذي مصدره الزئير، وهو صوت الاسد قال عنترة :

حلت بأرض الزائرين فأصبحت   عَسرا عليَّ طِلابُك ابنةَ مخرم

حقا عليَّ أن أقف مواقف الحَكَم بين طوائف المفسرين تارة لها وآونة عليها ، وأن أُبديَ في تفسير القرآن نكتا لم أر من سبقني اليها ؛ فان الاقتصار على الحديث المعاد ، تعطيل لفيض القرآن الذي ما له من نفاد .
ولقد رأيت الناس حول كلام الاقدمين أحَدَ رجلين : رجلٍ معتكفٍ فيما شاده الاقَدمون ، وآخرَ آخذ بمِعْوَلِه في هدم ما مضت عليه القرون ، وفي كلتا الحالتين ضر كثير ، وهنالك حالة أُخرى ينجبر بها الجناح الكسير ، وهي أن نعمد الى ما أشاده الاقدمون فنهذبه ونزيده ، وحاشا أن نقضه أو نبيده ، عالما بان غمص فضلهم كفران للنعمة ، وجَحْدُ مزايا سلفها ليس من حميد صفات الامة ، فالحمد لله الذي صدَّقَ الامل ، ويسَّر الى هذا الخير ودَلّ .

والتفاسير وان كانت كثيرة فانك لا تجد الكثير منها إلا عالة على كلام سابق بحيث لاحظّ لمؤلفه إلا الجمعُ على تفاوت بين اختصار وتطويل ، وإن أهم التفاسير « تفسير الكشاف » و « المحرر الوجيز » لابن عطية و « مفاتيح الغيب » لفخر الدين الرازى ، وتفسير البيضاوي الملخص من الكشاف ومن مفاتيح الغيب بتحقيق بديع ، وتفسيرُ الشهاب الآلوسي ، وما كتبه الطِّيبى والقزويني والقطب الشيرازى والتفتزاني على الكشاف ، وما كتبه الخفاجى على تفسير البيضاوى ، وتفسير أبى السعود ، وتفسير القرطبي والموجود من تفسير الشيخ محمد بن عرفة التونسي من تقييد تلميذه الأُبِّي وتفاسير الاحكام ، وتفسير الامام محمد بن جرير

الطبري ، وكتاب « درة التنزيل » لفخر الدين الرازي. ولقصد الاختصار أعرض عن العزو إليها ، وقد ميزت ما يفتح الله لى من فهم في معاني كتابه وما أجلبه من المسائل العلمية ، وأقوال العلماء مما لم يذكره المفسرون بعلامة نجم في ابتدائه ونقطة غليظة في انتهائه ، وانما حسبي في ذالك عدم عثوري عليه فيما بين يديّ من التفاسير في تلك الآية خاصة ، ولست ادعي انفرادي به في نفس الامر فكم من كلام تنشئه تجدك قد سبقك اليه متكلم ، وكم من فهم تستظهره وقد تقدمك اليه متفهم. وقديما قيل : هل غادر الشعراء من متردم .

وقد اهتممت في تفسيري هذا ببيان وجوه الاعجاز ، ونكت البلاغة العربية وأساليب الاستعمال ، واهتممت أيضا ببيان تناسب اتصال الآي بعضها ببعض ، وهو منزع جليل قد عُني به فخر الدين الرازى ، وألف فيه برهان الدين البِقاعى كتابه المسمى « نظم الدرر في تناسب الآي والسور » إلا أنهما لم يأتيا في كثير من الآي بما فيه مقنع ، فلم تزل أنظار المتأملين لفصل القول تتطلع ، اما البحث عن تناسب مواقع السور بعضها إثر بعض ، فلا اراه حقا على المفسر .

وها أنا ابتدئى بتقديم مقدمات تكون عونا للباحث في علم التفسير ، وتغنيه عن مُعاد كثير .



المقدمة الاولى

في التفسير والتاويل وكون التفسير علما

التفسير مصدر فَسَّر بتشديد السين الذي هو مضاعف فَسَر بالتخفيف (من بابي نصر وضرب) الذي مصدره الفَسْر وكلاهما فعل متعد فالتضعيف ليس للتعدية .

والفَسْر الابانة والكشف لمدلول كلام أو لفظ بكلام آخر هو أوضح لمعنى المفسَّر عند السامع ، ثم قيل المصدران والفعلان متساويان في المعنى، وقيل يختص المضاعف بابانة المعقولات قاله الراغب وصاحب البصائر وكأنّ وجهه أن بيان المعقولات يكلف الذي يبينه كثرة القول كقول أوس بن حَجَر :

الالمعي الذي يظن بك الظـ ـن كأن قد رأى وقد سمعا

فكانَ البيتُ تفسيرا لمعنى الالمعي ،وكذلك الحدود المنطقية المفسِّرة للمواهي والاجناس لا سيما الاجناس العالية الملقبة بالمقولات فناسب أن يخص هذا البيان بصيغة المضاعفة بناء على أن فعل المضاعف إذا لم يكن للتعدية كان المقصود منه الدلالة على التكثير من المصدر قال في الشافية « وفعّل للتكثير غالبا » . وقد يكون التكثير في ذلك مجازيًا واعتباريا بأن ينزل كدُّ الفكر في تحصيل المعاني الدقيقة ، ثم في اختيار اضبط الاقوال لابانتها منزلة العمل الكثير كتفسير صُحَارٍ العَبدي(١) وقد سأله معاوية عن البلاغة فقال « أن تقول فلا تخطيء ، وتجيب فلا تبطيء » ثم قال لسائله أقِلْني « لا تخطيء ولا تبطيء »

ويشهد لهذا قوله تعالى « ولا ياتونك بمثل إلا جئناك بالحق واحسن تفسيرا »

فاما اذا كان فعّل المضاعف للتعدية فانّ افادتَه التكثيرَ مختلَفٌ فيها والتحقيق أن المتكلم قد يعدل عن تعدية الفعل بالهمزة الى تعديته بالتضعيف لقصد الدلالة على

(١) صحار بضم الصاد وتخفيف الحاء المهملتين ، وهو ابن عياش بليغ من بلغاء قبيلة عبدالقيس في صدر الدولة الاموية .

التكثير ؛ لان المضاعف قدعُرف بتلك الدلالة في حالة كونه فعلا لازما فقارنته تلك الدلالة عند استعماله للتعدية مقارنة تبعية ولذلك قال العلامة الزمخشري في خطبة الكشاف « الحمد لله الذي أنزل القرآن كلاما مؤلفا منظما ؛ ونَزَّله على حسب المصالح منجما » فقال المحققون من شراحه جمع بين أنزل ونزل لما في نزل من الدلالة على التكثير الذي يناسب ما اراده العلّامة من التدريج والتنجيم . وانا ارى ان استفادة معنى التكثير في حال استعمال التضعيف للتعديةأمر من مستتبعات الكلام حاصل من قرينة عدول المتكلم البليغ عن المهموز الذي هو خفيف الى المضعف الذي هو ثقيل فذلك العدول قرينة على المراد وكذلك الجمع بينهما في مثل كلام الكشاف قرينة على ارادة التكثير .

وعزا شهاب الدين القرافي في اول أنواء البروق الى بعض مشائخه انالعرب فرقوا بين فَرَق بالتخفيف ، وفرَّق بالتشديد فجعلوا الاول للمعاني والثاني للاجسام بناء على أن كثرة الحروف تقتضي زيادة المعنى او قوتَه ، والمعاني لطيفة يناسبها المخفف ، والاجسام كثيفة يناسبها التشديد ، واستشكله هو بعدم الطرادة وهو ليس من التحرير بالمحل اللائق . بل هو اشبه باللطائف منه بالحقائق ، اذ لم يراع العرب في هذا الاستعمال معقولا ولا محسوسا ، وانما راعوا الكثرة الحقيقية او المجازية كما قررناه ودل عليه استعمال القرآن الا ترى أن الاستعمالين ثابتان في الموضع الواحد كقوله تعالى « وقرآنا فرقناه » قرىء بالتشديد والتخفيف وقال تعالى حكاية لقول المؤمنين « لا نفرق بين احد من رسله » وهي تفرقة معنوية لا جسمية كما هو واضح .

والتفسير في الاصطلاح نقول :

هو اسم للعلم الباحث عن بيان معاني الفاظ القرآن وما يستفاد منها باختصار او توسع .

والمناسبة بين المعنى الاصلي والمعنى المنقول اليه لا يحتاج الى تطويل .

وموضوع التفسير : الفاظ القرآن من حيث البحث عن معانيه ، وما يستنبط منه وبهذه الحيثية خالف علمَ القراءات لان تمايز العلوم كما يقولون بتمايز الموضوعات ،وحيثيات الموضوعات .

هذا وفي عد التفسير علما تسامح إذ العلم اذا أطلق إما أن يراد به نفس الادراك نحو قول أهل المنطق العلم إما تصور وإما تصديق؛ واما أن يراد به الملكة المسماة بالعقل ؛ واما أن يراد به التصديق الجازم وهو مقابل الجهل (وهذا غير مراد في عد العلوم) واما ان يراد بالعلم المسائل المعلومات وهي مطلوبات خبرية يبرهن عليها في ذلك العلم وهي قضايا كلية ومباحث هذا العلم ليست بقضايا يبرهن عليها فما هي بكلية ، بل هي تصورات جزئية غالبا لانه تفسير ألفاظ أو استنباط معان . فأما تفسير الالفاظ فهو من قبيل التعريف اللفظي ، وأما الاستنباط فمن دلالة الالتزام وليس ذلك من القضية .

فاذا قلنا ان يوم الدين في قوله تعالى « ملك يوم الدين » هو يوم الجزاء ، واذا قلنا ان قوله « وحمله وفصاله ثلاثون شهرا » مع قوله وفصاله في عامين يؤخذ منه أن اقل الحمل ستة اشهر عند من قال ذلك ، لم يكن شيء من ذلك قضية بل الاول تعريف لفظي ، والثاني من دلالة الالتزام ، ولكنهم عدوا تفسير ألفاظ القرآن علما مستقلا اراهم فعلوا ذلك لواحد من وجوه ستة :

الاول ان مباحثه لكونها تؤدي إل استنباط علوم كثيرة وقواعد كلية ، نُزلت منزلة القواعد الكلية لانها مبدأ لها ومنشأ ولا شك أن ما تستخرج منه القواعد الكلية والعلومُ أجدرُ بأن بعد علما مِن عَد فروعه علما وهم قد عدوا تدوين الشعر علما لما في حفظه من استخراج نكت بلاغية وقواعد لغوية .

والثاني أن تقول : إن اشتراط كون مسائل العلم قضايا كلية يبرهن عليها في العلم خاصّ بالعلوم المعقولة ؛ لان هذا انتراط دكره الحكماء في تقسيم العلوم . أما العلوم الشرعية والادبية فلا يشترط فيها ذلك، بل يكفى أن تكون مباحثُها مفيدةً كمالا علميا لمزاولها ، والتفسيرُ أعلاها في ذلك كيف وهو بيان مراد الله تعالى من كلامه وهم قد عدوا البديع علما والعَروض علما وما هي إلا تعاريف لالقاب اصطلاحية .

والثالث أن تقول : التعاريف اللفظية تصديقات على رأي بعض المحققين فهي تؤول إلى قضايا ، وتفرّعُ المعاني الجمة عنها نزّلها منزلة الكلية ، والاحتجاجُ عليها بشعر العرب وغيره يقوم مقام البرهان على المسألة وهذا الوجه يشترك مع الوجه الاول في تنزيل مباحث التفسير منزلة المسائل إلا أن وجه التنزيل في الاول

راجع إلى ما يتفرع عنها وهنا راجع الى ذاتها مع ان التنزيـل في الوجه الاول في جميع الشروط الثلاثة وهنا في شرطين ؛ لان كونها قضايا إنما يجيء على مـذهب بعض المنطقيين .

الرابع ان تقول : إن علم التفسير لا يخلو من تقرير قواعد كلية في أثنائه مثل تقرير قواعـد النسخ عند تفسير « مـا ننسخ من ءايـة » وتقرير قـواعد التأويل عند تقرير « وما يعلم تأويله » وقواعد المحكم عنـد تقرير « منه آيـات محكمات » فسمي مجموع ذلك وما معه علما تغليبا . وقـد اعتنى العلماء باحصاء كليات تتعلق بالقرآن ، وجمَعها ابن فارس وذكرها عنه في الاتقان وعُني بها أبـو البقاء الكفوي في كليـاته فـلا بدع ان تزاد تلك في وجوه شَبَه مسائـل التفسير بالقواعد الكلية .

الخامس ان حق التفسير ان يشتمل على بيـان اصول التشريع وكلياته فـكان بذلك حقيقا بان يسمّى علما ولكن المفسرين ابتدأوا بتقصّي معاني القرآن فطفحت عليهم ، وحَسِرت دون كثرتها قُواهم فانصرفوا عن الاشتغال بانتزاع كليـات التشريع الا في مواضع قليلة .

السادس وهو الفصل أن التفسير كان اول ما اشتغل به علماء الاسلام قبـل الاشتغال بتدوين بقية العلـوم وفيه كثرت منـاظراتهم وكان يحصل من مزاولته والدُّربة فيه لصاحبه ملكة يدرك بها أساليب القرآن ودقـائقَ نظمه فـكان بذلك مفيدا علوما كلية لها مزيد اختصاص بالقرآن المجيد فمن أجل ذلك سمي علما .

ويظهر أن هذا العلم إن أُخذ من حيث إنه بيان وتفسير لمراد الله من كلامه كان معدودا من أصول العلوم الشرعية وهي التي ذكرها الغزالى في الضرب الاول من العلوم الشرعية المحمودة من كتاب الاحياء ؛ لانه عد أولها الكتاب والسنة ولا شك انه لا يعني بعلم الكتاب حفظ الفاظه بل فهم معانيها وبذلك صح ان يعد راس العلوم الاسلامية كما وصفه البيضاوي بذالك ، وان أُخذ من حيث ما فيه من بيـان مكي ومدني، وناسخ ومنسوخ، ومن قواعد الاستنباط التي تذكر ايضا في علم اصول الفقه من عمـوم وخصوص وغيرهما ، كان معدودا في متممات العلوم الشرعية

المذكورة في الضرب الرابع من كلام الغزالي (١) وبذالك الاعتبار عد فيها اذ قال « الضرب الرابع المتممات وذلك في علم القرآن ينقسم الى ما يتعلق باللفظ كعلم القراءات والى مايتعلق بالمعنى كالتفسير ، فان اعتماده ايضا على النقل ، والى مايتعلق بأحكامه كالناسخ والمنسوخ والعام والخاص وكيفية استعمال البعض منه مع البعض وهو العلم الذي يسمى اصول الفقه » انتهى وهو بهذا الاعتبار لا يكون رئيس العلوم الشرعية .

والتفسير اول العلوم الاسلامية ظهورا اذ قد ظهر الخوض فيه من عصر النبي صلى الله عليه وسلم اذ كان بعض الصحابة قد سأل عن بعض معاني القرآن كما سأله عمر رضي الله عنه عن الكلالة ، ثم اشتهر فيه بعد من الصحابة علي وابن عباس وهما اكثر الصحابة قولا في التفسير ، وزيدُ بن ثابت ، وأبي بن كعب ، وعبد الله ابن مسعود ، وعبد الله بن عَمرو بن العاص رضي الله عنهم وكثر الخوض فيه حين دخل في الاسلام من لم يكن عربيّ السجية فلزم التصدي لبيان معاني القرآن لهم وشاع عن التابعين واشهرهم في ذلك مجاهد وابن جبير .

واما تصنيفه فاول من صنف فيه عبد الملك بن جُريج المكي (المولود سنة ٨٠ هـ والمتوفي سنة ١٤٩ هـ) صنف كتابه في تفسير آيات كثيرة وجمع فيه آثارا وغيرها وأكثر روايته عن اصحاب ابن عباس مثل عطاء ومجاهد ، وصُنفت تفاسير ونسبت روايتها عن ابن عباس ، لكن أهل الاثر تكلموا فيها وهي تفسير محمد بن السائب الكلبي (المتوفي سنة ١٤٦ هـ) عن ابي صالح عن ابن عباس ، وقد رُمي ابو صالح بالكذب حتى لقب بكلمة «دروغدت» بالفارسية بمعنى الكذاب وهي أوهى الروايات فاذا انضم اليها رواية محمد بن مروان السُّدِّي عن الكلبي فهي سلسلة الكذب ارادوا بذلك أنها ضد ما لقبوه بسلسلة الذهب، وهي مالك عن

---

(١) حيث قسم العلوم الى شرعية وغيرها ، وقسم الشرعيةا لى محمودة ومذمومة ، وقسم المحمودة منها الى اضرب أربعة : اصول وفروع ومقدمات ومتممات ، فالاصول الكتاب والسنة والاجماع وآثار الصحابة ، والثاني الفروع وهو ما فهم من الاصول وهو الفقه وعلم أحوال القلوب ، والثالث المقدمات كالنحو واللغة. والرابع المتممات للقرآن وللسنة وللاثار وهي القراءات والتفسير والاصول وعلم الرجال . وليس في العلوم الشرعية مذموم الا عرضا كبعض أحوال علم الكلام . وبعض الفقه الذي يقصد للتحيل ونحوه.

نافع عن ابن عمر . وهنا لك رواية مقاتل . ورواية الضحاك . ورواية علي ابن أبي طلحة الهاشمي كلها عن ابن عباس . وأصحها رواية علي ابن أبي طلحة . وهي التي اعتمدها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه فيما يصدّر به من تفسير المفردات على طريقة التعليق . وقد خرّج في الاتقان جميع ما ذكره البخاري من تفسير المفردات عن ابن أبي طلحة عن ابن عباس مرتبةً على سور القرآن . والحاصل أن الرواية عن ابن عباس قد اتخذها الوضّاعون والمدلسون ملجأ لتصحيح ما يروونه كدأب الناس في نسبة كل امر مجهول من الاخبار والنوادر لاشهر الناس في ذلك المقصد .

وهنالك روايات تسند لعلي رضي الله عنه اكثرها من الموضوعات إلا ما روي بسند صحيح مثل ما في صحيح البخاري ونحوه . لان لعلي أفهاما في القرآن كما ورد في صحيح البخاري عن ابي جحيفة قال قلت لعلي هل عندكم شيء من الوحي ليس في كتاب الله فقال « لا والذي فلَق الحبة . وبرا النّسمة ما أعلمُه الا فهما يعطيه الله رجلا في القرآن ». ثم تلاحق العلماءُ في تفسير القرآن وسلك كل فريق مسلكا ياوى اليه . وذوقا يعتمد عليه . فمنهم من سلك مسلك نقل ما يؤثر عن السلف واول من صنف في هذا المعنى مالك بن انس ذكر ذلك الدوادي تلميذ السيوطي في طبقات المفسرين . وذكره عياض في المدارك اجمالا . واشهر اهل هذه الطريقة فيما هو بأيدي الناس محمد بن جرير الطبرى . ومنهم من سلك مسلك النظر كابي اسحاق الزجاج وابي علي الفارسي . وشغف كثير بنقل القصص عن الاسرائيليات فكثرت في كتبهم الموضوعات الى ان جاء في عصر واحد عالمان جليلان احدهما بالمشرق . وهو العلامة ابو القاسم محمود الزمخشري صاحب الكشاف . والآخر بالمغرب بالاندلس وهو الشيخ عبد الحق ابن عطية فألف تفسيره المسمى بـ « المحرر الوجيز » كلاهما يغوص على معاني الآيات وياتي بشواهدها من كلام العرب ويذكر كلام المفسرين إلا أن منحى البلاغة والعربية بالزمخشري اخص . ومنحى الشريعة علَى ابن عطية اغلبْ وكلاهما عِضادتا الباب . ومرجِع مَن بعدهما من اولي الالباب .

وقد جرت عادة المفسرين بالخوض في بيان معنى التاويل وهل هو مساو للتفسير او أخص منه او مباين . وجماع القول في دلك أن من العلماء من جعلهما متساويين . والى ذلك ذهب تعلب وابن الاعرابي وابو عبيدة وهو ظاهر كلام

الراغب . ومنهم من جعل التفسير للمعنى الظاهر والتاويل للمتشابه ، ومنهم من قال التاويل صرف اللفظ عن ظاهر معناه الى معنى آخر محتمَل لدليل فيكون هنا بالمعنى الاصولي فاذا فُسر قوله تعالى «يخرج الحي من الميت» باخراج الطير من البيضة فهو التفسير او باخراج المسلم من الكافر فهو التاويل ، وهنا لك اقوال أخر لا عبرة بها. وهذه كلها اصطلاحات لا مشاحة فيها الا أن اللغة والآثار تشهد للقـول الاول ؛ لان التـاويل مصدر اوَّله اذا ارجعه الى الغاية المقصودة ، والغايةُ المقصودة من اللفظ هو معناه ومـا ارادة منه المتكلم به من المعاني ، فساوى التفسيرَ من حيث انه لا يطلق إلا على ما فيه تفصيل معنى خفي معقول قال الاعشى :

على انها كاَنتْ تَأَوُّلُ حُبِّها تَأَوُّلُ رِبْعِيّ السّقَابِ فأَصْحَبَا

اي تَفسِيرُ حبها أنه كان صغيرا في قلبـه فلم يزل يشب حتى صار كبيرا كهذا السقب اي ولد الناقة الذي هو من السقاب الربيعية لم يزل يشب حتى كبر وصار له ولد يَصحبه قاله ابو عبيدة ، وقد قال الله تعالى « هل ينظرون إلا تاويله» اي لا ينتظرون إلا بيانه الذي هو المراد منه ، وقال صلى الله عليه وسلم في دعائه لابن عباس « اللهم فقهه في الدين وعلِّمْه التاويل » اي فهم معـاني القرآن ، وفي حديث عـائشة رضي الله عنها « كان صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفرلي يَتاوَّلُ القرآن » اي يعمـل بقوله تعالى فسبح بحمد ربك واستغفره فلذلك جمع في دعائه التسبيح والحمد وذكر لفظ الرب وطلب المغفرة فقولها « يتاول » صريح في انه فسر الآية بالظاهر منهاولم يحملها على ما تشير اليه من انتهاء مدة الرسالة وقرب انتقاله صلى الله عليه وسلم الذي فهمه منها عمر ، وابن عباس رضي الله عنهما .

المقدمة الثانية

في استمداد علم التفسير

استمداد العلم يراد به توقفه على معلومات سابقٍ وجودُها على وجود ذلك العلم عند مُدوِّنيه لتكون عونا لهم على اتقان تدوين ذلك العلم . وسُمي ذلك في الاصطلاح بالاستمداد على تشبيه احتياج العلم لتلك المعلومات بطلب المدد . والمدد العون والغُواث فقرنوا الفعل بحَرْفَيْ الطلب وهما السين والتاء . وليس كل ما يذكر في العلم معدودا من مَدده ، بل مَدده ما يتوقف عليه تقومه فاما ما يورد في العلم من مسائل علوم اخرى عند الافاضة في البيان مثل كثير من افاضات فخر الدين الرازي في مفاتيح الغيب فلا يعد مَددا للعلم ولا ينحصر ذلك ولا ينضبط بل هو متفاوت على حسب مقادير توسع المفسرين ومستطرداتهم . فاستمداد علم التفسير للمفسر العربي والمولّد من المجموع الملتئم من علم العربية وعلم الآثار ، ومن اخبار العرب واصول الفقه قيل وعلم الكلام وعلم القراءات .

اما العربية فالمراد بها معرفة مقاصد العرب من كلامهم وادب لغتهم سواء حصلت تلك المعرفة بالسجية والسليقة كالمعرفة الحاصلة للعرب الذين نزل القرآن بين ظهرانيهم . أم حصلت بالتلقي والتعلم كالمعرفة الحاصلة للمولدين الذين شافهوا بقية العرب ومارسوهم والمولدين الذين درسوا علوم اللسان ودونوها .

ان القرآن كلام عربي فكانت قواعد العربية طريقا لفهم معانيه وبدون ذلك يقع الغلط وسوء الفهم لمن ليس بعربي بالسليقة . ونعنى بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي ، وهي متن اللغة والتصريف والنحو والمعاني والبيان . ومن وراء ذلك استعمال العرب المتبع من اساليبهم في خطبهم واشعارهم وتراكيب بلغائهم ويدخل في ذلك ما يجري مجرى التمثيل والاستئناس للتفسير من افهام أهل اللسان انفسهم لمعاني آيات غير واضحة الدلالة عند المولدين . قال في الكشاف

ومن حق مفسر كتاب الله الباهر وكلامه المعجز ان يتعاهد في مذاهبه بقاء النظم على حسنه والبلاغة على كمالها . وما وقع به التحدي سليما من القادح . فاذا لم يتعاهد اوضاع اللغة فهو من تعاهد النظم والبلاغة على مراحل (١) . ولعلمي المعاني والبيان مزيد اختصاص بعلم التفسير لانهما وسيلة لاظهار خصائص البلاغة القرآنية . وما تشتمل عليه الآيات من تفاصيل المعاني واظهار وجه الاعجاز ولذلك كان هذان العلمان يسميان في القديم علم دلائل الاعجاز . قال في الكشاف « علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه واجالة النظر فيه كلُّ ذي علم . فالفقيهُ وان بَرَّز على الاقران في علم الفتاوى والاحكام . والمتكلم وان بز أهل الدنيا في صناعة الكلام . وحافظ القَصص والاخبار وان كان من ابن القِرِّيَة أحفظ . والواعظ وان كان من الحسن البصري أو عظ . والنحوي وان كانَ أنحَى من سيبويه . واللُّغَوي وان علك اللغاتِ بقوة لحييه . لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق . الا رجل قد بَرَع في علمين مختصين بالقرآن وهما علما المعاني والبيان اه » (٢) وقال السكاكي في مقدمة القسم الثالث من كتاب المفتاح « وفيما ذكرنا ما ينبه على أن الواقف على تمام مراد الحكيم تعالى وتقدس من كلامه مفتقر الى هذين العلمين (المعاني والبيان) كلّ الافتقار فالويل كلُّ الويل لمن تعاطى التفسيرَ وهو فيهما راجل » قال السيد الجرجاني في شرحه « لا شك ان خواص نظم القرآن أكثر من غيرها فلا بد لمن أراد الوقوف عليها ان لم يكن بليغا سليقةً من هذين العلمين وقد أصاب (السكاكي) بذكر الحكيم المجز (اي اصاب المحز اذ خصّ بالذكر هذا الاسمَ من بين الاسماء الحسنى؛ لان كلام الحكيم يحتوي على مقاصد جليلة ومعاني عَالية لا يحصل الاطلاع على جميعها أو معظمها الا بعد التمرس بقواعد بلاغة الكلام المفرغة فيه) وفي قوله ينبه اشارة الى ان من حقه ان يكون معلوما ولكنه قد يُغفَل عنه وقوله فالويل كل الويل تنفير لانَّ من لم يعرف هذين العلمين اذا شرع في تفسير القرآن واستخراج لطائفه أخطأ غالبا وان اصاب نادرا كان مخطئا في اقدامه عليه اه »

---

(١) انظره عند قوله تعالى ويمدهم في طغيانهم يعمهون في سورة البقرة .

(٢) انظر كلامه في ديباجة الكشاف .

واما استعمال العرب فهو التملّي من اساليبهم في خطبهم واشعارهم وامثالهم وعوائدهم ومحادثتهم ليحصل بذلك لممارسه المولّد ذوقٌ يقوم عنده مقام السليقة والسجية عند العربي القُح ، وهذا كما قلناه آنفا شيء وراء قواعد علم العربية وعلم البلاغة به يحصل انكشاف بعض المعاني واطمئنان النفس لها وبه يترجح احد الاحتمالين على الآخر في معاني القرآن ومن اجله نرى ائمة التفسير يكثرون من الشواهد من شعر العرب على الاستظهار في معاني القرآن الا ترى انه لو اطلع احد على تفسير قوله تعالى « يايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم ولا نساءٌ من نساء » وعَرض لديه احتمال ان يكون عطفُ قوله ولا نساءٌ على قوله قومٌ عطفَ مباين ، او عطفَ خاص على عام فاستشهد المفسر على ذلك بقول زهير :

وما ادري وسوف إخال ادري ... أقومٌ آلُ حِصن ام نساءُ

كيف تطمئن نفسه لاحتمال عطف المباين دون عطف الخاص على العام ، وكذلك إذا رأى تفسير قوله تعالى « وامسحوا برؤوسكم » وتردد عنده احتمال ان الباء فيه للتاكيد ، او انها للتبعيض او للالة وكانت نفسه غير مطمئنة لاحتمال التاكيد إذ كان مدخول الباء مفعولا فاذا استُشهد له على ذلك بقول النابغة :

لك الخير إن وارت الارض واحدا ... واصبح جَدُّ الناس يظلع عاثرا

وقول الاعشى :

فكلنا مغرم يهوَى بصاحبه ... قاص وداني ومحبولٌ ومحتَبِل

رجح عنده احتمال التاكيد وظهر له ان دخول الباء على المفعول للتاكيد طريقة مسلوكة في الاستعمال .

روى ائمة الادب أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ على المنبر قوله تعالى «او يأخذهم على تَخَوّف » ثم قال ما تقولون فيها أي في معنى التخوف فقام شيخ من هذيل فقال هذه لغتنا التخوفُ التنقص فقال عمر وهل تعرف العرب ذلك في كلامها قال نعم قال ابو كبير الهذلي :

تخوَّفَ الرَّحْلُ منها تَامِكاً قَرِدًا ... كَما تخوَّف عُودَ النَّبعَةِ السفَنُ(١)

---

(١) التامك السنام ٠وقرد بفتح القاف وكسر الراء كثير القراد والسفن بفتحتين المبرد .

فقـال عمر « عليكم بديوانكم لا تضلـوا هو شعر العرب فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم » وعن ابن عبـاس « الشعر ديوان العرب فـاذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزلـه الله بلغتهم رجعنـا الى ديوانهم فالتمسنا معرفة ذلك منه » وكان كثيرا ما ينشد الشعر اذا سئل عن بعض حروف القرآن قال القرطبي سئل ابن عباس عن السِّنَة في قوله تعالى « لا تاخذه سنة ولا نوم» فقال النعاس وأنشد قول زهير :

لا سِنَةٌ في طُوال الليل تاخذه ولا ينامُ ولا في امره فنَد

فما يؤثر عن أحمد بن حنبل رحمه الله انه سئل عن تمثل الرجل ببيت شعر لبيان معنى في القرآن فقال « ما يعجبني » فهو عجيب ، وإن صح عنه فلعله يريد كراهة ان يذكر الشعر لاثبـات صحة الفاظ القرآن كما يقع من بعض الملاحدة . روي أن ابن الراوندي (وكان يُزَنٌّ بالالحاد) قال لابن الاعرابي « اتقول العرب لباسُ التقوى » فقـال ابن الاعرابي « لا بـاس لا باس ، واذا انجى الله الناس فلا نجى ذلك الراس . هبك يابن الراوندي تنكر أن يكون محمد نبيا ، افتنكر ان يكون فصيحا عربيا ؟»

ويدخل في مادة الاستعمال العربي ما يؤثر عن بعض السلف في فهم معاني بعض الآيات على قوانين استعمالهم كما روى مالك في الموطأ عن عروة بن الزبير قـال « قلت لعائشة وانا يومئـذ حديث السن أرأيتِ قـول الله تعالى : ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت او اعتمر فلا جناح عليه ان يَطّـوّف بهما فمـا على الرجـل شيء ان لا يطـوف بهما فقالت عائشة كلا لو كان كما تقول لكانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، إنما نزلت هذه الآية في الانصار كانوا يهلون لمناةَ الطاغية ، وكانت مناةُ حذو قديد ، وكانوا يتحرجون ان يطوفوا بين الصفا والمروة فلما جـاء الاسلام سألوا رسول الله من ذلك فـأنزل الله إن الصفا والمروة الآيـة اهـ » فبينتْ له ابتداءً طريقة استعمال العرب لو كان المعنى كما وهمه عروة ثم بينت له منار شبهته الناشئة عن قوله تعالى « فلا جنـاح عليه » الذي ظاهره رفع الجناح عن الساعي الذي يَصدق بالاباحة دون الوجوب .

واما الآثار فالمعنيُّ بها ما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم من بيـان المراد من بعض القرآن في مواضع الاشكال والاجمـال ، وذلك شيء قليل . قـال ابن

عطية عن عائشة « ماكان رسول الله يفسر من القرآن إلا آيات معدودات علمه إياهن جبريل قال معناه في مغيبات القرآن وتفسير مجمله مما لا سبيل اليه الا بتوقيف .

قلت اوكان تفسيرا لا توقيف فيه كما بين لعدي بن حاتم ان الخيط الابيض والخيط الاسود هما سواد الليل وبياض النهار . وقال له إنك لعريض الوسادة وفي رواية إنك لعريض القفا . وما نقل عن الصحابة الذين شاهدوا نزول الوحي من بيان سبب نزول . وناسخ ومنسوخ . وتفسير مبهم . وتوضيح واقعة من كل ما طريقهم فيه الرواية عن الرسول صلى الله عليه وسلم دون الرأي وذلك مثل كون المراد من المغضوب عليهم اليهود ومن الضالين النصارى . ومثل كون المراد من قوله تعالى « ذرني ومن خلقت وحيدا » هو الوليد ابن المغيرة المخزومي أبا خالد ابن الوليد . قال ابن عباس مكثت سنين اريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يمنعني الا مهابته ، ثم سألته فقال هما حفصة وعائشة . ومعنى كون اسباب النزول من مادة التفسير انها تعين على تفسير المراد وليس المراد ان لفظ الآية يقصر علينا لان سبب النزول لا يخصص . قال تقي الدين السبكي وكما أن سبب النزول لا يخصص كذلك خصوص غرض الكلام لا يخصص ، كأن يرد خاص . ثم عقبه عام للمناسبة فلا يقتضي تخصيص العام نحو فلا جناح عليهما ان يصالحا بينهما صلحا والصلح خير . وتشمل الآثار إجماع الامة على تفسير معنى اذ لا يكون إلا عن مستند كإجماعهم على ان المراد من الاخت في آية الكلالة الاولى هي الاخت للام . وأن المراد من الصلاة في سورة الجمعة هي صلاة الجمعة . وكذلك المعلومات بالضرورة كلها ككون الصلاة مرادا منها الهيئة المخصوصة دون الدعاء والزكاة المال المخصوص المدفوع .

وأما القراءات فلا يحتاج اليها إلا في حين الاستدلال بالقراءة على تفسير غيرها . وإنما يكون في معنى الترجيح لاحد المعاني القائمة من الآية او لاستظهار على المعنى . فذكر القراءة كذكر الشاهد من كلام العرب لانها إن كانت مشهورة فلا جَرَم أنها تكون حجة لغوية وان كانت شاذة فحجتها لا من حيث الرواية لانها لا تكون صحيحة الرواية . ولكن من حيث أن قارئها ما قرأ بها إلا استنادا لاستعمال عربي صحيح إذ لا يكون القارىء معتدا به الا اذا عرفت سلامة عربيته

كما احتجوا على أن أصل الحمد لله انه منصوب على المفعول المطلق بقراءة هارون العتكي الحمدَ لله بالنصب كما في الكشاف وبذلك يظهر أن القراءة لا تعد تفسيرا من حيث هي طريق في أداء الفاظ القرآن . بل من حيث انها شاهد لغوي فرجعت إلى علم اللغة .

واما أخبار العرب فهي من جملة أدبهم وإنما خصصتُها بالذكر تنبيها لمن يتوهم أن الاشتغال بها من اللغو فهي يستعان بها على فهم ما أوجزه القرآن في سوقها لان القرآن انما يذكر القصص والاخبار للموعظة والاعتبار . لا لان يتحادث بها الناس في الاسمار . فبمعرفة الاخبار يعرف ما أشارت له الآيات من دقائق المعاني فنحو قوله تعالى « ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا » وقوله « قتل أصحاب الاخدود » يتوقف على معرفة أخبارهم عند العرب .

وأما أصول الفقه فلم يكونوا يعدونه من مادة التفسير . ولكنهم يذكرون أحكام الاوامر والنواهي والعموم . وهي من أصول الفقه فتحصل أن بعضه يكون مادة للتفسير وذلك من جهتين : احداهما ان علم الاصول قد أودعت فيه مسائل كثيرة هي من طرق استعمال كلام العرب وفهم موارد اللغة اهمل التنبيه عليها علماء العربية مثل مسائل الفحوى ومفهوم المخالفة وقد عد الغزالي علم الاصول من جملة العلوم التي تتعلق بالقرآن باحكامه فلا جرم أن يكون مادة للتفسير .

الجهة الثانية ان علم الاصول يضبط قواعد الاستنباط ويفصح عنها فهو آلة للمفسر في استنباط المعاني الشرعية من آياتها .

وقد عد عبد الحكيم والالوسي علم الكلام في جملة ما يتوقف عليه علم التفسير قال عبد الحكيم « لتوقف علم التفسير على اثبات كونه تعالى متكلما وذلك يحتاج إلى علم الكلام» وقال الالوسي «لتوقف فهم ما يجوز على الله ويستحيل على الكلام» يعني من آيات التشابه في الصفات ولعل هذا التوجيه أقرب من توجيه عبد الحكيم وكلاهما اشتباه لان كون القرآن كلام الله قد تقرر عند سلف الامة قبل علم الكلام ولا اثر له في التفسير واما معرفة ما يجوز وما يستحيل فكذلك ولا يحتاج لعلم الكلام الا في التوسيع في اقامة الادلة على استحالة بعض المعاني وقد أبنت لكم ان ما يحتاج اليه المتوسع لا يصير مادة للتفسير .

ولم نعُدّ الفقه من مادة علم التفسير كما فعل السيوطى لعدم توقف فهم القرآن على مسائل الفقه فان علم الفقه متأخر عن التفسير وفرع عنه، وانما يحتاج المفسر الى مسائل الفقه عند قصد التوسع في تفسيره للتوسع في طرق الاستنباط وتفصيل المعاني تشريعا وآدابا وعلوما ولذلك لا يكاد يحصر ما يحتاجه المتبحر في ذلك من العلوم ويوشك ان يكون المفسر المتوسع محتاجا الى الالمام بكل العلوم وهذا المقام هو الذي اشار له البيضاوي بقوله « لا يليق لتعاطيه والتصدى للتكلم فيه الا من برع في العلوم الدينية كلها اصولها وفروعها، وفي الصناعات العربية والفنون الادبية بأنواعها »

المقدمة الثالثة

في صحة التفسير بغير المأثور ومعنى التفسير بالرأي ونحوه

إن قلتَ أتَرَاك بما عددتَ من علوم استمدادِ التفسير تُثبت ان تفسيرا كثيرا للقرآن لم يستند الى مأثور عن النبيء صلى الله عليه وسلم ولا عن أصحابه، وتبيح لمن استجمع من تلك العلوم حظا كافيا وذوقا ينفتح له بهما من معاني القرآن ما ينفتح عليه، أنْ يفسر من آي القرآن بما لم يؤثر فيفسر بمعان تقتضيها العلوم التي يَستمد منها علم التفسير. وكيف حال التحذير الواقع في الحديث الذي رواه الترمذي عن ابن عباس أن رسول الله قال: من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار ـ وفي رواية من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار ـ والحديث الذي رواه أبو داود والترمذي والنسائي أن النبيء صلى الله عليه وسلم قال من تكلم في القرآن برأيه فاصاب فقد أخطأ، وكيف محَمل ما روي من تحاشي بعض السلف عن التفسير بغير توقيف فقد روي عن أبي بكر الصديق أنه سئل عن تفسير الابِّ في قوله. وفاكهةً وأباً فقال «أيُّ أرضٍ تُقلني، وأيُّ سماء تُظلني إذا قلتُ في القرآن برأي» ويروى عن سعيد بن المسيب والشعبي احجامهما عن ذلك.

قلت أراني كما حسبتَ أثبت ذلك وأبيحه وهل اتسعتْ التفاسير وتفننت مستنبطات معاني القرآن الا بما رزقه الذين أوتوا العلم من فهم في كتاب الله، وهل يتحقق قول علمائنا «ان القرآن لا تنقضي عجائبه» الا بازدياد المعاني باتساع التفسير ولولا ذلك لكان تفسير القرآن مختصرا في ورقات قليلة وقد قالت عائشة ما كان رسول الله يفسر من كتاب الله إلا آيات معدودات علمه جبريل اياهن كما تقدم في المقدمة الثانية.

ثم لو كان التفسير مقصورا على بيان معاني مفردات القرآن من جهة العربية لكان التفسير نزرا، ونحن نشاهد كثرة اقوال السلف من الصحابة، فمن يليهم في تفسير آيات القرآن وما أكثرُ ذلك الا استنباط برأيهم وعلمهم. قال الغزالي

والقرطبي لا يصح ان يكون كل ما قاله الصحابة في التفسير مسموعا من النبيء صلى الله عليه وسلم لوجهين : أحدهما أن النبيء صلى الله عليه وسلم لم يثبت عنه من التفسير إلا تفسير آيات قليلة وهي ما تقدم عن عائشة ، الثاني انهم اختلفوا في التفسير على وجوه مختلفة لا يمكن الجمع بينها ، وسماع جميعها من رسول الله محال ، ولو كان بعضها مسموعا لترك الآخَرُ أي لو كان بعضها مسموعا لقال قائله انه سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع إليه من خالفه ، فتبين على القطع ان كل مفسر قال في معنى الآية بما ظهر له باستنباطه ، روى البخاري في صحيحه عن أبي جحيفة قال : قلت لعلي هل عندكم شيء من الوحي الاما في كتاب الله قال لا والذي فلَق الحبة وبرا النَّسَمة لا اعلمه إلا فهما يعطيه اللهُ رجلا في القرآن الخ »، وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس فقال « اللهم فقهه في الدين وعلمه التاويل » واتفق العلماء على ان المراد بالتاويل تأويل القرآن ، وقد ذكر فقهاؤنا في آداب قراءة القرآن ان التفهم مع قلة القراءة افضل من كثرة القراءة بلا تفهم ، وقال الغزالي في الاحياء التدبر في قراءته اعادة النظر في الآية ، والتفهم أن يستوضح من كل آية ما يليق بها كي تنكشف له من الاسرار معان مكنونة لا تنكشف الا للموفقين . قال : ومن موانع الفهم ان يكون قد قرأ تفسيرا واعتقد ان لامعنى لكلمات القرآن الا ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد ، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأي فهذا من الحجب العظيمة ، وقال فخر الدين في تفسير قوله تعالى وعاشر وهن بالمعروف في سورة النساء « وقد ثبت في أصول الفقه أن المتقدمين إذا ذكروا وجها في تفسير الآية فذلك لا يمنع المتأخرين من استخراج وجه آخر في تفسيرها ، والا لصارت الدقائق التي يستنبطها المتأخرون في التفسير مردودة وذلك لا يقوله الا مقلد خَلْف (بضم الخاء) اه » وقال ابو بكر بن العربي في العواصم انه أملى على سورة نوح خمسمائة مسالة وعلى قصة موسى ثمانمائة مسالة ،

وهل استنباط الاحكام التشريعية من القرآن في خلال القرون الثلاثة الاولى من قرون الاسلام إلا من قبيل التفسير لآيات القرآن بما لم يسبق تفسيرها به قبل ذلك ، وهذا الامام الشافعي يقول تطلبت دليلا على حجية الاجماع فظفرت به في قوله تعالى « ومن يشاقق الرسول من بعد تبين له الهدى ، ويتبع غير سبيل

المؤمنين نوله ما تولى ، ونصله جهنم . وساءت مصيرا »

قال شرف الدين الطِيبي في شرح الكشاف في سورة الشعراء : شرط التفسير الصحيح أن يكون مطابقا للفظ من حيث الاستعمال ، سليما من التكلف ، عريا عن التعسف ، وصاحب الكشاف يسمي ما كان على خلاف ذالك بِدَع التفاسير .

واما الجواب عن الشبهة التي نشأت من الآثار المروية في التحذير من تفسير القرآن بالرأي فمرجعه الى أحد خمسة وجوه :

أولها ان المراد بالرأي هو القول عن مجرد خاطر دون استناد الى نظر في ادلة العربية ومقاصد الشريعة وتصاريفها وما لا بد منه من معرفة الناسخ والمنسوخ وسبب النزول فهذا لا محالة ان اصاب فقد اخطأ في تسوره بلا علم لانه لم يكن مضمون الصواب كقول المثل « رميةٌ من غير رام »

وهذا كمن فسر «آلم» ان الله أنزل جبريلَ على محمد بالقرآن فانه لا مستند لذلك. وأما ماروي عن الصديق رضي الله عنه فيما تقدم فذلك من الورع خشية الوقوع في الخطأ في كل ما لم يقم له فه دليل ، أو في مواضع لم تدع الحاجة الى التفسير فيها الم تر أنه سئل عن الكلالة في آية النساء فقال : « اقول فيها برأيي فان كان صوابا فمن الله ، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان الخ » وعلى هذا المحمل ما روي عن الشعبي وسعيد أي أنهما تباعدا عما يوقع في ذلك ولو على احتمال بعيد مبالغة في الورع ودفعا للاحتمال الضعيف ، وإلا فان الله تعالى ما تعبدنا في مثل هذا الا ببذل الوسع مع ظن الاصابة .

ثانيها ــ ان لا يتدبر القرآنَ حق تدبره فيفسره بما يخطر له من بادىء الرأي دون إحاطة بجوانب الآية ومواد التفسير مقتصرا على بعض الادلة دون بعض كأن يعتمد على ما يبدو من وجه في العربية فقط كمن يفسر قوله تعالى « ما أصابك من حسنة فمن الله » الآية على ظاهر معناها يقول إن الخير من الله والشر من فعل الانسان بقطع النظر عن الادلة الشرعية التي تقتضي أن لا يقع إلا ما أراد الله غافلا عما سبق من قوله تعالى « قل كل من عند الله » (١) . او بما يبدو من

---

(١) هذا التمثيل للغزالي على احد تفسيرين والمثال يكفي فيه الفرض وذكر الفخر في تفسير قوله تعالى « ما اصابك من حسنة فمن الله » انه جرى على معنى التعليم للتادب مع الخالق وقوله « كل من عند الله » جرى مجرى بيان الحقيقة .

.اما ما يتكلم به اهل الاشارات من الصوفية في بعض آيات القرآن من معان لا تجرى على لفاظ القرآن ظاهرا ولكن بتاويل ونحوه فينبغي ان تعلموا انهم ما كانوا يدّعون ان كلامهم في ذلك تفسير للقران بل يعنون ان الآية تصلح للتمثل بها في الغرض المتكلّم فيه ، وحسبكم في ذلك انهم سمّوها اشارات ولم يسموها معانيَ فبذلك فارق قولُهم قولَ الباطنية، ولعلماء الحق فيها رأيان : فالغزالي يراها مقبولة قال في كتاب العلم من الاحياء : اذا قلنا في قوله صلى الله عليه وسلم « لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة » فهذا ظاهره واشارته ان القلب بيت وهو مهبط الملائكة ومستقر آثارهم ، والصفات الرديئة كالغضب والشهوة والحسد والحقد والعجب كلاب نابحة في القلب فلا تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب ونور الله لا يقذفه في القلب الا بواسطة الملائكة فقلب كهذا لا يقذف فيه النور ، وقال ولست اقول ان المراد من الحديث بلفظ البيت القلب وبالكلب الصفة المذمومة ولكن اقول هو تنبيه عليه وفرق بين تغيير الظاهر للباطن وبين التنبيه على البواطن من ذكر الظواهر اه فبهذه الدقيقة فارق نزعة الباطنية ، ومثل هذا قريب من تفسير لفظ عامٍّ في آية بخاصّ من جزئياته كما وقع في كتاب المغازي من صحيح البخاري عن عمرو بن عطاء في قوله تعالى « الم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا » قال هم كفار قريش ، ومحمد نعمة الله « واحلوا قومهم دار البوار » قال يومَ بدر ، وابن العربي في كتاب العواصم يرى ابطال هذه الاشارات كلها حتى انه بعد ان ذكر نحلة الباطنية وذكر رسائل اخوان الصفاء اطلق القول في ابطال ان يكون للقرآن باطن غير ظاهره ، وحتى انه بعد ان نوه بالثناء على الغزالي في تصديه للرد على الباطنية والفلاسفة قال :« وقد كان ابو حامد بدرا في ظلمة الليالي ، وعِقْدا في لبة المعالي ، حتى أوغل في التصوف ، واكثر معهم التصرف ، فخرج عن الحقيقة وحاد في اكثر اقواله عن الطريقة اه »

وعندي ان هذه الاشارات لا تعدو واحدا من ثلاثة انحاء : الاول ما كان يجري فيه معنى الآية مجرى التمثيل لحال شبيه بذلك المعنى كما يقولون مثلا « ومن اظلم ممن منع مساجد الله ان يذكر فيها اسمه » انه اشارة للقلوب لانها مواضع الخضوع لله تعالى اذ بها يعرف فتسجد له القلوب بفناء النفوس ومنعها من ذكر هو الحيلولة بينها وبين المعارف اللدنية وسعى في خرابها بتكديرها بالتعصبات وغلبة

لمعان خفية في صورة الفاظ تفيد معاني ظاهرة ليشتغل بها عامة المسلمين . وزعموا أن ذلك شان الحكماء فمذهبهم مبني على قواعد الحكمة الاشراقية ومذهب التناسخ والحلولية فهو خليط من ذلك . ومن طقوس الديانات اليهودية والنصرانية وبعض طرائق الفلسفة ودين زرادشت . وعندهم ان الله يحل في كل رسول وامام وفي الاماكن المقدسة وانه يشبه الخلق ـ تعالى وتقدس ـ وكل علوي يحل فيه الاله. وتكلفوا لتفسير القرآن بما يساعد هاته الاصول التي اسسوها . ولهم في التفسير تكلفات ثقيلة منها قولهم ان قوله تعالى «وعلى الاعراف رجال» ان جبلا يقال له الاعراف هو مقر اهل المعارف الذين يعرفون كلا بسيماهم . وان قوله تعالى « وان منكم إلا واردها » اي لا يصل احد الى الله الا بعد جوازه على الآراء الفاسدة اما في ايام صباه ، او بعد ذلك ، ثم ينجي الله من يشاء . وان قوله تعالى « اذهبا الى فرعون انه طغى » أراد بفرعون القلب . وقد تصدى للرد عليهم الغزالي في كتابه الملقب بـ «المستظهري»، وقال اذا قلنا بالباطن فالباطن لا ضبط له بل تتعارض فيه الخواطر فيمكن تنزيل الآية على وجوه شتى اهـ يعني والذي يتخذونه حجة لهم يمكن ان نقلبه عليهم وندعي انه باطن القرآن لان المعنى الظاهر هو الذي لا يمكن اختلاف الناس فيه لاستناده للغة الموضوعة من قبل.واما الباطن فلايقوم فهم أحد فيهحجة على غيره اللهم إلا اذا زعموا انه لا يتلقى الا من الامام المعصوم ولا إخا لهم الا قائلين ذلك ويؤيد هذا ما وقع في بعض قراطيسهم قالوا « انما ينتقل الى البدل مع عدم الاصل، والنظر بدل من الخبر فان كلام الله هو الاصل فهو خلق الانسان وعلمه البيان والامام هو خليفته ومع وجود الخليفةالذي يبين قوله فلا ينتقل الى النظر » اهـ وبين ابن العربي في كتاب العواصم شيئا من فضائح مذهبهم بما لا حاجة الى التطويل به هنا . فان قلت فما روي : ان النبيء صلى الله عليه وسلم قال ان للقرآن ظهرا وبطنا وحدا ومطلعا وعن ابن عباس انه قال ان للقرآن ظهرا وبطنا . قلت لم يصح ما روي عن النبيء صلى الله عليه وسلم بله المروي عن ابن عباس فمن هو المتصدي لروايته عنه ! على انهم ذكروا من بقية كلام ابن عباس انه قال : فظهره التلاوة وبطنه التأويل فقد اوضح مراده إن صح عنه بان الظهر هو اللفظ والبطن هو المعنى . ومن تفاسير الباطنية تفسير القاشاني وتفسير الطبرسي وكثير من افوالهم مبثوث في رسائل اخوان الصفاء .

الهوى فهذا يشبه ضَرْبَ المثل لحال من لا يزكي نفسه بالمعرفة ويمنع قلبه ان تدخله صفات الكمال الناشئة عنها بحال مانع المساجد ان يذكر فيها اسم الله وذكر الآية عند تلك الحالة كالنطق بلفظ المثل . ومن هذا قولهم في حديث « لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب » كما تقدم عن الغزالي . الثاني ما كان من نحو التفاؤل فقد يكون للكلمة معنى يسبق من صورتها الى السمع هو غير معناها المراد وذلك من باب انصراف ذهن السامع الى ما هو المهم عنده والذي يجول في خاطره وهذا كمن قال في قوله تعالى « من ذا الذي يشفع » من ذل ذى اشارة للنفس يصير من المقربين الشفعاء فهذا ياخذ صدى موقع الكلام في السمع ويتاوله على ما شغل به قلبه . ورايت الشيخ محيي الدين يسمي هذا النوع سماعا ولقد ابدع . الثالث عِبَر ومواعظ وشأن اهل النفوس اليقظى ان ينتفعوا من كل شيء ويأخذوا الحكمة حيث وجدوها فما ظنك بهم اذا قرأوا القرآن وتدبروه فاتعظوا بمواعظه فاذا اخذوا من قوله تعالى « فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا » اقتبسوا ان القلب الذي لم يمتثل رسول المعارف العليا تكون عاقبته وبالا . ومن حكاياتهم في غير باب التفسير ان بعضهم مر برجل يقول لآخر : هذا العود لا ثمرة فيه فلم يعد صالحا الا للنار . فجعل يبكي ويقول : اذن فالقلب غير المثمر لا يصلح الا للنار .

فنسبة الاشارة الى لفظ القرآن مجازية لانها انما تشير لمن استعدّت عقولهم وتدبرهم في حال من الاحوال الثلاثة ولا ينتفع بها غير اولئك فلما كانت آيات القرآن قد انارت تدبرهم واثارت اعتبارهم نسبوا تلك الاشارة للاية . فليست تلك الاشارة هي حق الدلالة اللفظية او الاستعمالية حتى تكون من لوازم اللفظ وتوابعه كما قد تبين . وكل اشارة خرجت عن حد هذه الثلاثة الاحوال الى ما عداها فهي تقترب الى قول الباطنية رويدا رويدا الى ان تبلغ عين مقالاتهم وقد بصرناكم بالحد الفارق بينهما فاذا رايتم اختلاطه . فحققوا مناطه . وفي ايديكم فيصل الحق فدونكم اختراطه .

وليس من الاشارة ما يعرف في الاصول بدلالة الاشارة وفحوى الخطاب وفهم الاستغراق من لام التعريف في المقام الخطابي ودلالة التضمن والالتزام كما اخذ العلماء من تنبيهات القرآن استدلالا لمشروعية اشياء كاستدلالهم على

مشروعية الوكالة من قوله تعالى « فابعثوا احدكم بورقكم هذه »ومشروعية الضمان من قوله « وانا به زعيم » ، ومشروعية القياس من قوله « لتحكم بين الناس بما اراك الله »: ولا بما هو بالمعنى المجازي نحو « يا جبال اوبي معه - فقال لها وللارض ايتيا طوعا او كرها قالتا أتينا طائعين» ولا ما هو من تنزيل الحال منزلة المقال نحو « وانّ من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » لان جميع هذا مما قامت فيه الدلالة العرفية مقام الوضعية واتحدت في ادراكه افهام اهل العربية فكان من المدلولات التبعية.

قال في الكشاف وكم من آية انزلت في شأن الكافرين وفيها أوفر نصيب للمؤمنين تدبرا لها واعتبارا بموردها يعني أنها في شأن الكافرين من دلالة العبارة ، وفي شأن المؤمنين من دلالة الاشارة .

هذا وان واجب النصح في الدين والتنبيه الى ما يغفل عنه المسلمون مما يحسبونه هينا وهو عند الله عظيم قضى عليّ ان انبه الى خطر امر تفسير الكتاب والقول فيه دون مستند من نقل صحيح عن اساطين المفسرين او من ابداء تفسير او تاويل من قائله اذا كان القائل توفرت فيه شروط الضلاعة في العلوم التي سبق ذكرها في المقدمة الثانية .

فقد رأينا تهافت كثير من الناس على الخوض في تفسير آيات من القرآن فمنهم من يتصدى لبيان معنى الآيات على طريقة كتب التفسير ومنهم من يضع الآية ثم يركض في مجالات من اساليب المقالات تاركا معنى الآية جانبا ، جالبا من معاني الدعوة والموعظة ما كان جالبا ، وقد دلت شواهد الحال على ضعف كفاءة البعض لهذا العمل العلمي الجليل فيجب على العاقل ان يعرف قدره ، وان لا يتعدى طوره ، وان يرد الاشياء الى اربابها ، وياتي البيوت من ابوابها ، كي لا يختلط الخاثر بالزباد ، ولا يكون كحاطب في حالك سواد ، وان سكوت العلماء على ذلك زيادة في الورطة ، وافحاش لاهل هذه الغلطة ، فمن يركب متن عمياء ، ويخبط خبط عشواء ، فحق على اساطين العلم تقويمُ اعوجاجه وتمييزُ حلوه من اجاجه ، تحذيرا للمطالع ، وتنزيلا في البُرج والطالع .

المقدمة الرابعة

في غرض المفسر

كأني بكم وقد مر على أسماعكم ووعتْ ألبابكم ما قررته من استمداد علم التفسير، ومن صحة تفسير القرآن بغير المأثور، ومن الانحاء على من يفسر القرآن بما يدعيه باطنا منافي مقصود القرآن. ومن التفرقة بين ذلك وبين الاشارات. تتطلعون بعد إلى الافصاح عن غاية المفسر من التفسير. وعن معرفة المقاصد التي نزل القرآن لبيانها حتى تستبين لكم غاية المفسرين من التفسير على اختلاف طرائقهم، وحتى تعلموا عند مطالعة التفاسير مقادير اتصال ما تشتمل عليه بالغاية التي يرمي اليها المفسر فتَزنوا بذلك مقدار ما أوفى به من المقصد، ومقدارَ ما تجاوزه، ثم ينعطف القول إلى التفرقة بين من يفسر القرآن بما يخرج عن الاغراض المرادة منه. وبين من يفصل معانيه تفصيلا. ثم ينعطف القول إلى نموذج مما استخرجه العلماء من مستنبطات القرآن في كثير من العلوم.

إن القرآن أنزله الله تعالى كتابا لصلاح أمر الناس كافة رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم قال الله تعالى «وأنزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين» (١) فكان المقصد الاعلى منه صلاح الاحوال الفردية، والجماعية والعمرانية. فالصلاح الفردي يعتمد تهذيب النفس وتزكيتها، ورأس الامر فيه صلاح الاعتقاد لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السريرة الخاصة، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة والباطنة كالتخلق بترك الحسد والحقد

(١) المراد من «كل شيء» باتفاق المفسرين إنما هو كليات الاشياء واصولها فيما يرجع الى ما جاء القرآن لاجله غير ان ظاهر كلام الشاطبي وغيره ان ذلك فيما يرجع الى الاحكام. وأنا لا أرى تخصيص ذلك بذلك. بل أرى انه ما فرط شيئا مما جاء القرآن لاجله والبقية مشار اليها بطرق الاستدلال من دلالة اشارة وفحوى ودليل خطاب وقياس وغير ذلك. وليس خاصا بالاحكام. أما الهدى فهو الارشاد الى ما فيه صلاح الناس والرحمة لهم بما يعود عليهم من إقامة مصالحهم وهناء عيشتهم والبشرى لهم بالفوز عاجلا وآجلا مثل قوله في العاجل وعد الله الذي آمنوا الآية وهذه المعطوفات مرتبة الحصول كما ترى.

والكبر . واما الصلاح الجماعي فيحصل أولا من الصلاح الفردي إذ الافراد أجزاء المجتمع ، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه ، ومن شيء زائد على ذلك وهو ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض على وجه يعصمهم من مزاحمة الشهوات ومواثبة القوى النفسانية وهذا هو علم المعاملات ، ويعبر عنه عند الحكماء بالسياسة المدنية .

وأما الصلاح العمراني فهو أوسع من ذلك إذ هو حفظ نظام العالم الاسلامي، وضبط تصرف الجماعات والاقاليم بعضهم مع بعض على وجه يحفظ مصالح الجميع، ورعي المصالح الكلية الاسلامية ، وحفظ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لها ، ويسمى هذا بعلم العمران وعلم الاجتماع .

فمراد الله من كتابه هو بيان تصاريف ما يرجع الى حفظ مقاصد الدين وقد أودع ذلك في ألفاظ القرآن التي خاطبنا بها خطابا واضحا بينا وتعبدنا بمعرفة مراده والاطلاع عليه فقال :« كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ، وليتذكر أولوا الالباب » سواء قلنا انه يمكن الاطلاع على تمام مراد الله تعالى وهو قول علمائنا والمشائخيّ والسكاكي وهما من المعتزلة أم قال قائل بقول بقية المعتزلة ان الاطلاع على تمام مراد الله تعالى غير ممكن (وهو خلاف لا طائل تحته) اذ القصد هو الامكان الوقوعي لا العقلي فلا مانع من التكليف باستقصاء البحث عنه بحسب الطاقة ومبلغ العلم مع تعذر الاطلاع على تمامه .

وقد اختار الله تعالى أن يكون اللسان العربي مظهرا لوحيه ، ومستودعا لمراده ، وان يكون العرب هم المتلقين أولا لشرعه وإبلاغ مراده لحكمة علمها : منها كون لسانهم أفصح الالسن ، واسهلها انتشارا ، وأكثرها تحملا للمعاني مع إيجاز لفظه . ولتكون الامة المتلقية للتشريع والناشرة له امة قد سلمت من أفن الرأي عند المجادلة ، ولم تقعد بها عن النهوض أغلالُ التكالب على الرفاهية ، ولا عن تلقي الكمال الحقيقي إذ يسبب لها خلطهُ بما يجر إلى اضمحلاله (١) . فيجب آن تعلموا قطعا ان ليس المراد من خطاب العرب بالقرآن ان يكون

---

(١) يعني ان ان الاحوال التي رسخت في الامم المعاصرة للعرب كالفرس والروم كانت تعوقهم عن تلقي الكمال الحقيقي لعسر انخلاعهم عنها بخلاف العرب فكانوا على الفطرة وما عرض لهم من التغير إنما هو شيء قليل إلا ان سلامة ادراكهم وبقاءهم على الفطرة يغلب على قليل تلك العوائد ولولا خشية التطويل لبسطنا كيف كانت احوال الامم المعاصرة للعرب يومئذ .

التشريع قاصرا عليهم ، او مراعيا لخاصة احوالهم . بل ان عموم الشريعة ودوامها ، وكون القرآن معجزة دائمة مستمرة على تعاقب السنين ينافي ذلك ، نعم إن مقاصده تصفية نفوس العرب الذين اختارهم كما قلنا لتلقي شريعته وبثها ونشرها فهُم المخاطبون ابتداء قبل بقية امة الدعوة فكانت أحوالهم مرعية لا محالة ، وكان كثير من القرآن مقصودا به خطابهم خاصة ، واصلاح أحوالهم قال تعالى « ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا » وقال « أن تقولوا انما انزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ، وان كنا عن دراستهم لغافلين ، أو تقولوا لو أنا انزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم » لكن ليس ذلك بوجه الاقتصار على احوالهم كما سياتي.

اليس قد وجب على الآخذ في هذا الفن ان يعلم المقاصد الاصلية التي جاء القرآن لتبيانها فلنلم بها الآن بحسب ما بلغ إليه استقراؤنا وهي ثمانية أمور :

اولها اصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح وهذا اعظم سبب لاصلاح الخلق : لانه يزيل عن النفس عادة الاذعان لغير ما قام عليه الدليل ، ويطهر القلب من الاوهام الناشئة عن الاشراك والدهرية وما بينهما ، وقد اشار الى هذا المعنى قوله تعالى « فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب» فاسند لآلهتهم زيادة تتبيبهم وليس هو من فعل الآلهة ، ولكنه من آثار الاعتقاد بالآلهة .

الثاني تهذيب الاخلاق قال تعالى « وانك لعلى خلق عظيم » وفسرت عائشة رضي الله تعالى عنها لما سئلت عن خلقه صلى الله عليه وسلم فقالت كان خلقه القرآن وفي الحديث الذي رواه مالك في الموطأ بلاغا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « بعثت لاتمم حسن الاخلاق » وهذا المقصد قد فهمه عامة العرب بله خاصة الصحابة وقال ابو خِرَاش الهذلي (١) مشيرا الى ما دخل على العرب من أحكام الاسلام باحسن تعبير :

فليس كعهد الدار يا أمّ مالك ... ولكنْ أحاطتْ بالرقاب السلاسل

وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل ... سوى العدلِ شيئا فاستراح العواذل

---

(١) اسمه خويلد بن مرة شاعر مخضرم . وليست له صحبة توفي في خلافة عمر . وخراش بكسر الخاء المعجمة وتخفيف الراء .

أراد باحاطة السلاسل بالرقاب احكامَ الاسلام ، والشاهد في قوله وعاد الفتى كالكهل ،

الثالث التشريع وهو الاحكام خاصةً وعامةً قال تعالى : «انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اراك الله - وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لمابين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما انزل الله » ولقد جمع القرآن جميع الاحكام جمعا كليا في الغالب ، وجزئيا في المهم فقوله تبيانا لكل شيء - وقوله - اليوم اكملت لكم دينكم المراد بهما إكمال الكليات التي منها الامر بالاستنباط والقياس ، قال الشاطبي لانه على اختصاره جامع والشريعة تمت بتمامه ولا يكون جامعا لتمام الدين الا والمجموع فيه امور كلية ،

الرابع سياسة الامة وهو باب عظيم في القرآن القصد منه صلاح الامة وحفظ نظامها كالارشاد الى تكوين الجامعة بقوله « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها » وقوله « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء » وقوله «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم» وقوله « وامرهم شورى بينهم »

الخامس القصص واخبار الامم السالفة للتاسي بصالح احوالهم قال «نحن نقص عليك احسن القصص بما اوحينا اليك هذا القرآن، وان كنت من قبله لمن الغافلين » - اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » وللتحذير من مساويهم قال « و تبيّنَ لكم كيف فعلنا بهم » وفي خلالها تعليم وكنا اشرنا إليها في المقدمة الثانية ،

السادس التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين ، وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها وذلك علم الشرائع وعلم الاخبار وكان ذلك مبلغَ علم مخالطي العرب من اهل الكتاب . وقد زاد القرآن على ذلك تعليم حكمة ميزان العقول وصحة الاستدلال في افانين مجادلاته للضالين ، وفي عودته إلى النظر ثم نوه بشان الحكمة فقال « يؤتي الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا » وهذا اوسع باب انبجست منه عيون المعارف .وانفتحت به عيون الاميين الى العلم، وقد لحق به التنبيه المتكرر على فائدة العلم ، وذلك شيء لم يطرق اسماع

العرب من ، قبل إنما قصارى علومهم امور تجريبية ، وكان حكماؤهم افردا اختصوا بفرط ذكاء تضم اليه تجربة وهم العرفاء فجاء القرآن بقوله «وما يعقلها الا العالمون» ـ «هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» وقال «ن والقلم» فنبه الى مزية الكتابة.

السابع : المواعظ والانذار والتحذير والتبشير وهذا يجمع جميع آيات الوعد والوعيد . وكذلك المحاجة والمجادلة للمعاندين . وهذا باب الترغيب والترهيب .

الثامن : الاعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول اذ التصديق يتوقف على دلالة المعجزة بعد التحدى ، والقرآن جمع كونه معجزة بلفظه ومتحدى لاجله بمعناه والتحدي وقع فيه «قل فأتوا بسورة مثله». ولمعرفة أسباب النزول مدخل في ظهور مقتضى الحال ووضوحه ، هذا ما بلغ اليه استقرائي وللغزالي في إحياء علوم الدين بعض من ذلك .

فغرض المفسر بيان ما يصل إليه أو ما يقصده من مراد الله تعالى في كتابه باتم بيان يحتمله المعنى . ولا يأباه اللفظ من كل ما يوضح المراد من مقاصد القرآن. أو ما يتوقف عليه فهمه اكمل فهم . أو يخدم المقصد تفصيلا وتفريعا كما أشرنا اليه في المقدمة الاولى. مع إقامة الحجة على ذلك إن كان به خفاء . أو لتوقع مكابرة من معاند أو جاهل. فلا جرم كان رائد المفسر في ذلك أن يعرف على الاجمال مقاصد القرآن مما جاء لاجله ، ويعرف اصطلاحه في اطلاق الالفاظ. وللتنزيل اصطلاح وعادات وتعرض صاحب الكشاف الى شيء من عادات القرآن في متناثر كلامه في تفسيره .

فطرائق المفسرين للقرآن ثلاث : اما الاقتصار على الظاهر من المعنى الاصلي للتركيب مع بيانه وايضاحه وهذا هو الاصل. واما استنباط معان من وراء الظاهر تقتضيها دلالة اللفظ او المقام ولا يجافيها الاستعمال . ولا مقصد القرآن وتلك هي مستتبعات التراكيب وهي من خصائص اللغة العربية المبحوث عنها في علم البلاغة ككون التأكيد يدل على انكار المخاطب او تردده . وكفحوى الخطاب ودلالة الاشارة واحتمال المجاز مع الحقيقة . واما ان يجلب المسائل ويبسطها

لمناسبة بينها وبين المعنى ، او لان زيادة فهم المعنى متوقفة عليها ، او للتوفيق بين المعنى القرآني وبين بعض العلوم مما له تعلق بمقصد من مقاصد التشريع لزيادة تنبيه اليه ، او لرد مطاعن من يزعم انه ينافيه لا على انها مما هو مراد الله من تلك الآية ، بل لقصد التوسع كما اشرنا اليه في المقدمة الثانية.

ففي الطريقة الثانية قد فرع العلماء وفصلوا في الاحكام ، وخصوها بالتآليف الواسعة ، وكذلك تفاريع الاخلاق والآداب التي اكثر منها حجة الاسلام الغزالي في كتاب الاحياء ، فلا يلام المفسر اذا اتى بشي من تفاريع العلوم مما له خدمة للمقاصد القرآنية ، وله مزيد تعلق بالامور الاسلامية كما نفرض ان يفسر قوله تعالى : « وكلم الله موسى تكليما » بما ذكره المتكلمون في اثبات الكلام النفسي والحجج لذلك ، والقول في الفاظ القرآن وما قاله اهل المذاهب في ذلك. وكذا ان يُفسر ماحكاه الله تعالى في قصة موسى مع الخضر بكثير من آداب المعلم والمتعلم كما فعل الغزالي . وقد قال ابن العربي انه املى عليها ثمانمائة مسالة. وكذلك تقرير مسائل من علم التشريح لزيادة بيان قوله تعالى في خلق الانسان « من نطفة ثم من علقة » الآيات فانه راجع الى المقصد وهو مزيد تقرير عظمة القدرة الالهية .

وفي الطريقة الثالثة تُجلب مسائل علمية من علوم لها مناسبة بمقصد الآية : اما على ان بعضها يومئ اليه معنى الآية ولو بتلويح مّا كما يفسر احد قوله تعالى « ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا » فيذكر تقسيم علوم الحكمة ومنافعها مُدخِلا ذلك تحت قوله خيراً كثيرا .

فالحكمة وان كانت علما اصطلاحيا وليس هو تمام المعنى للاية الا ان معنى الآية الاصلي لا يفوت وتفاريعُ الحكمة تعين عليه . وكذلك ان ناخذ من قوله تعالى « كيلا يكون دولة بين الاغنياء منكم » تفاصيل من علم الاقتصاد السياسي وتوزيع الثروة العامة ونعلل بذلك مشروعية الزكاة والموارث والمعاملات المركبة من راس مال وعمل على ان ذلك تومىء اليه الآية ايماء .

وان بعض مسائل العلوم قد تكون اشد تعلقا بتفسير ءاي القرءان كما نفرض مسألة كلامية لتقرير دليل قرآني مثل برهان التمانع لتقرير معنى قوله تعالى «لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا» وكتقرير مسالة المتشابه لتحقيق معنى نحو قوله تعالى «والسماء بنيناها بأيد» فهذا كونه من غايات التفسير واضح وكذا قوله تعالى «أولم ينظروا إلى السماء كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج» فان القصد منه الاعتبار بالحالة المشاهدة

فلو زاد المفسر ففصل تلك الحالة وبيّن اسرارها وعِلَلها بما هو مبين في علم الهيأة كان قد زاد المقصد خدمة، واما على وجه التوفيق بين المعنى القرآني وبين المسائل الصحيحة من العلم حيث يمكن الجمع، واما على وجه الاسترواح من الآية كما يؤخذ من قوله تعالى « ويوم نسير الجبال » أن فناء العالم يكون بالزلازل ومن قوله « اذا الشمس كورت » الآية ان نظام الجاذبية يختل عند فناء العالم .

وشرط كون ذلك مقبولا ان يسلك فيه مسلك الايجاز فلا يجلب الا الخلاصة من ذلك العلم ولا يصير الاستطراد كالغرض المقصود له لئلا يكون كقولهم السّيُّ بالسّيِّ يذكر . (١)

وللعلماء في سلوك هذه الطريقة الثالثة على الاجمال آراء : فاما جماعة منهم فيرون من الحسَن التوفيقَ بين العلوم غير الدينية وآلاتها وبين المعاني القرآنية ، ويرون القرآن مشيرا الى كثير منها . قال ابن رشد الحفيد في فصل المقال « اجمع المسلمون على انه ليس يجب ان تحمل الفاظ الشرع كلها على ظاهرها ، ولا ان تخرج كلها عن ظاهرها بالتاويل والسبب وورود الشرع بظاهر وباطن هو اختلاف نظر الناس ، وتباين قرائحهم في التصديق » وتخلص الى القول بأن بين العلوم الشرعية والفلسفية اتصالا . والى مثل ذلك ذهب قطب الدين محمود الشيرازي في شرح حكمة الاشراق . وهذا الغزالي والامام الرازي وابو بكر بن العربي وامثالهم صنيعهم يقتضي التبسط وتوفيق المسائل العلمية فقد ملاوا كتبهم من الاستدلال على المعاني القرآنية بقواعد العلوم الحكمية وغيرها وكذلك الفقهاء في كتب احكام القرآن . وقد علمت ما قاله ابن العربي فيما املاه على سورة نوح وقصة الخضر . وكذلك كان ابن جنى والزجاج وابو حيان قد اشبعوا تفاسيرهم من الاستدلال على القواعد العربية . ولا شك ان الكلام الصادر عن علام الغيوب تعالى وتقدس لا تبنى معانيه على فهم طائفة واحدة ولكن معانيه تطابق الحقائق وكل ما كان من الحقيقة في علم من العلوم وكانت الآية لها اعتلاق بذلك فالحقيقة العلمية مرادة بمقدار ما بلغت اليه افهام البشر وبمقدار ما ستبلغ اليه وذلك يختلف باختلاف المقامات ويبنى على توفر الفهم . وشرطه ان لا يخرج عما يصلح له اللفظ عربية ، ولا يبعدَ عن الظاهر الا بدليل ، ولا يكونَ تكلفا بينا ولا خروجا عن المعنى الاصلي حتى لا يكون في ذلك كتفاسير الباطنية . واما ابو اسحاق الشاطبي

---

(١) السي بالسين المهملة وبمثناة مشددة هو المثل اي النظير يتذكر بنظيره ونطقها وكتابتها [illegible]

فقال في الفصل الثالث من المسالة الرابعة « لا يصح في مسلك الفهم والافهام الا ما يكون عاما لجميع العرب فلا يتكلف فيه فوق ما يقدرون عليه » وقال في المسالة الرابعة من النوع الثاني « ما تقرر من امية الشريعة وانها جارية على مذاهب اهلها وهم العرب تنبني عليه قواعد منها : ان كثيرا من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد فأضافوا اليه كل علم يذكر للمتقدمين او المتاخرين من علوم الطبيعات والتعاليم والمنطق وعلم الحروف واشباهها وهذا اذا عرضناه على ما تقدم لم يصح فان السلف الصالح كانوا اعلم بالقرآن وبعلومه وما اودع فيه ولم يبلغنا ان احدا منهم تكلم في شيء من هذا سوى ما ثبت فيه من احكام التكاليف واحكام الآخرة . نعم تضمن علوما من جنس علوم العرب وما هو على معهودها مما يتعجب منه اولو الالباب ولا تبلغه ادراكات العقول الراجحة الخ » . وهذا مبني على ما اسسه من كون القرآن لما كان خطابا للاميين وهم العرب فانما يعتمد في مسلك فهمه وافهامه على مقدرتهم وطاقتهم ، وأن الشريعة امية . وهو اساس واه لوجوه ستة : احدها ان ما بناه عليه يقتضي ان القرآن لم يقصد منه انتقال العرب من حال الى حال وهذا باطل لما قدمناه قال تعالى « تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا » . الثاني ان مقاصد القرآن راجعة الى عموم الدعوة وهو معجزة باقية فلا بد ان يكون فيه مايصلح لان تتناوله افهام من ياتي من الناس في عصور انتشار العلوم في الامة . الثالث ان السلف قالوا ان القرآن لا تنقضي عجائبه يعنون معانيه ولو كان كما قال الشاطبي لانقضت عجائبه بانحصار انواع معانيه . الرابع ان من تمام اعجازه ان يتضمن من المعاني مع ايجاز لفظه ما لم تف به الاسفار المتكاثرة . الخامس ان مقدار أفهام المخاطبين به ابتداءً لا يقتضي الا ان يكون المعنى الاصلي مفهوما لديهم فاما ما زاد على المعاني الاساسية فقد يتهيأ لفهمه اقوام ، وتحجب عنه اقوام ، ورب حامل فقه الى من هو افقه منه . السادس ان عدم تكلم السلف عليها ان كان فيما ليس راجعا الى مقاصده فنحن نساعد عليه وان كان فيما يرجع اليها فلا نسلم وقوفهم فيها عند ظواهر الآيات ، بل قد بينوا وفصلوا وفرعوا فكان ذلك في علوم عنوا بها ولا يمنعنا ذلك ان نقفى على آثارهم في علوم اخرى راجعة لخدمة المقاصد القرآنية او لبيان سعة العلوم الاسلامية . اما ما وراء ذلك فان كان ذكره لايضاح المعنى فذلك

تابع للتفسير ايضا لان العلوم العقلية انما تبحث عن احوال الاشياء على ما هي عليه، وان كان فيما زاد على ذلك فذلك ليس من التفسير ولكنه تكملة للمباحث العلمية واستطراد في العلم لمناسبة التفسير ليكون متعاطى التفسير اوسع قريحة في العلوم .

وذهب ابن العربي في العواصم الى انكار التوفيق بين العلوم الفلسفية والمعاني القرآنية ، ولم يتكلم على غير هاته العلوم وذلك على عادته في تحقير الفلسفة لاجل ما خولطت به من الضلالات الاعتقادية ، وهو مفرط في ذلك مستخف بالحكماء .

وانا اقول ان علاقة العلوم بالقرآن على اربع مراتب .

الاولى علوم تضمنها القرآن كاخبار الانبياء والامم وتهذيب الاخلاق والفقه والتشريع والاعتقاد والاصول والعربية والبلاغة .

الثانية علوم تزيد المفسر علما كالحكمة والهيأة وخواص المخلوقات .

الثالثة علوم اشار اليها او جاءت مؤيدة له كعلم طبقات الارض والطب والمنطق .

الرابعة علوم لا علاقة لها به إما لبطلانها كالزجر والعيافة والميتولوجيا .

واما لانها لا تعين على خدمته كعلم العروض والقوافي . قال ابن العربي في تفسير سورة النور «ان المحققين الذين ينزلون التفسير منازله ويضعون التاويل مواضعه من غير افراط ولا تفريط» وهذا اعدل الآراء واجدرها بان يكون رائد المفسر .

المقدمة الخامسة

في اسباب النزول

اولع كثير من المفسرين بتطلب اسباب نزول آي القرآن وهي حوادث يروى ان آيات من القرآن نزلت لاجلها لبيان حكمها او لحكايتها او انكارها او نحو ذلك ، واغربوا في ذلك واكثروا حتى كاد بعضهم ان يوهم الناس ان كل آية من القرآن نزلت على سبب ، وحتى رفعوا الثقة بما ذكروا ، بيد انا نجد في بعض آي القرآن اشارة الى الاسباب التي دعت الى نزولها ونجد لبعض الآي اسبابا ثبتت بالنقل دون احتمال ان يكون ذلك رأي الناقل ، فكان امر اسباب نزول القرآن دائرا بين القصد والاسراف ، وكان في غض النظر عنه وارسال حبله على غاربه خطر عظيم في فهم القرآن ، فذلك الذي دعاني الى خوض هذا الغرض في مقدمات التفسير لظهور شدة الحاجة الى تمحيصه في اثناء التفسير ، وللاستغناء عن اعادة الكلام عليه عند عروض تلك المسائل غير مدخر ما اراه في ذلك رايا يجمع شتاتها ، وانا عاذر المتقدمين الذين القوا في اسباب النزول فاستكثروا منها ، بان كل من يتصدى لتاليف كتاب في موضوع غير مشبَع تمتلكه محبة التوسع فيه فلا ينفك يستزيد من ملتقطاته ليذكي قبسه ، ويمد نفسه ، فيرضى بما يجد رضى الصب بالوعد ، ويقول زدني من حديثك يا سعد ، غير هياب لعادل ، ولا متطلب معذرة عاذر ، وكذلك شأن الولع اذا امتلك القلب ، ولكني لا اعذر اساطين المفسرين الذين تلقفوا الروايات الضعيفة فاثبتوها في كتبهم ولم ينبهوا على مراتبها قوة وضعفا حتى اوهموا كثيرا من الناس ان القرآن لا تنزل آياته الا لاجل حوادث تدعو اليها ، وبئس هذا الوهم فان القرآن جاء هاديا الى ما به صلاح الامة في اصناف الصلاح فلا يتوقف نزوله على حدوث الحوادث الداعية الى تشريع الاحكام ، نعم ان العلماء توجسوا منها فقالوا ان سبب النزول لا يخصص ، الا طائفة شاذة ادعت التخصيص ، بها

ولو ان اسباب النزول كانت كلها متعلقة بآيات عامة لما دخل من ذلك ضر على عمومها اذ قد اراحنا ايمة الاصول حين قالوا « العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص

السبب» ،ولكن اسبابا كثيرة رام رواتها تعيين مراد من تخصيص عام ،او تقييدمطلق او الجاء الى محمل . فتلك هي التي قد تقف عرضة أمام معاني التفسير قبل التنبيه على ضعفها او تاويلها ، وقد قال الواحدي في اول كتابه في اسباب النزول « اما اليوم فكل احد يخترع للاية سببا. ويختلق افكارا وكذبا ، ملقيا زمامه الى الجهالة،غير مفكر في الوعيد . وقال لا يحل القول في اسباب نزول الكتاب الا بالروايةوالسماع ممن شاهدوا التنزيل » اهـ

ان من اسباب النزول ما ليس المفسر بغني عن علمه لان فيها بيان مجمل او ايضاح خفي وموجز ، ومنها ما يكون وحده تفسيرا ، ومنها ما يدل المفسرَ على تطلب الادلة التي بها تاويل الآية او نحو ذلك ، ففي صحيح البخاري ان مروان ابن الحكم ارسل الى ابن عباس يقول لئن كان كل امرىء فرح بما اتى،واحب ان يُحمد بما لم يَفعل معذَّبا لنُعَذبَنَّ اجمعون يشير الى قوله تعالى « لايحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون ان يُحمدوا بمالم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب اليم » فاجاب ابن عباس قائلا انما دعا النبيءْ اليهودَ فسألهم على شيء فكتموه اياه واخبروه بغيره فَارَوْه انهم فد استحمدوا اليه بما اخبروه عنه فيما سالهم وفرحوا بما أتوا من كتمانهم . ثم قرأ ابن عباس « واذا اخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولاتكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون لا يحسبن الذين يفرحون الآيات » ، وفي الموطأ عن هشام بن عروة بن الزبير عن ابيه انه قال قلت لعائشة ام المؤمنين وانا يومئذ حديث السن ارأيت قول الله تعالى « ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت او اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما » فما على الرجل شيء الا يطوف بهما . قالت عائشة كلا لو كان كما تقول لكانت فلا جناح عليه ان لايطوف بهما انما نزلت هذه الآية في الانصار كانوا يُهلون لمناة ، وكانوا يتحرجون ان يطوفوا بين الصفا والمروة فلما جاء الاسلام سالوا رسول الله عن ذلك فانزل الله تعالى « ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت او اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما » اهـ

وقد تصفحتُ اسباب النزول التي صحت اسانيدها فوجدتها خمسة اقسام :

الاول قسم هو المقصود من الآية يتوقف فهم المراد منها على علمه فلا بد من البحث عنه للمفسر ، وهذا منه تفسير مبهمات القرآن مثل قوله تعالى «قد سمع

الله قول التي تجادلك في زوجها »، ونحو « عبس وتولى ان جاءه الاعمى »، ومنه ما اقتضاه حال خاص نحو « يايها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا» ومثل بعض الآيات التي فيها « ومن الناس » .

والثاني قسم هو حوادث تسببت عليها تشريعات احكام وصور تلك الحوادث لا تبين مجملا ولا تخالف مدلول الآية بوجه تخصيص او تعميم او تقييد ، ولكنها اذا ذكرت امثالُها وجدت مساوية لمدلولات الآيات النازلة عند حدوثها مثل حديث عويمر العجلاني الذي نزلت عنه آية اللعان ، ومثل حديث كعب بن عُجرة الذي نزلت عنه آية « ومن كان مريضا او به اذى من رأسه ففدية من صيام » الآية فقد قال كعب بن عجرَة هي لي خاصة ولكم عامة ، ومثل قول ام سلمة رضي الله عنها للنبي صلى الله عليه وسلم يغزو الرجال ولا نغزو فنزل قوله تعالى « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » الآية ، وهذا القسم لا يفيد البحث فيه الا زيادة تفهم في معنى الآية وتمثيلا لحكمها ولا يخشى توهم تخصيص الحكم بتلك الحادثة اذ قد اتفق العلماء او كادوا على ان سبب النزول في مثل هذا لا يخصص واتفقوا على ان اصل التشريع ان لا يكون خاصا .

والثالث قسم هو حوادث تكثر امثالها ولا تختص بشخص واحد فنزلت الآية لاعلانها وبيان احكامها وزجر من يرتكبها فكثيرا ما تجد المفسرين وغيرهم يقولون نزلت في كذا وكذا ، وهم يريدون ان من الاحوال التي تشير اليها تلك الآية تلك الحالةَ الخاصة فكانهم يريدون التمثيل. ففي كتاب الايمان من صحيح البخاري في باب قوله الله تعالى « ان الذين يشترون بعهد الله وايمانهم ثمنا قليلا » ان عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرىء مسلم لقي الله وهو عليه غضبان فانزل الله تصديق ذلك «ان الذين يشترون بعهد الله وايمانهم ثمنا قليلا » الآية فدخل الاشعث بن قيس فقال ما حدثكم ابو عبد الرحمان قالوا كذا وكذا قال فيَّ أُنزلت كانت لي بئر في ارض ابن عم لي الخ ، فابن مسعود جعل الآية عامة لانه جعلها تصديقا لحديث عام والاشعث بن قيس ظنها خاصة به اذ قال « في انزلت » بصيغة الحصر ، ومثل الآيات النازلة في المنافقين في سورة براءة المفتتحة بقوله تعالى «ومنهم ومنهم» ولذلك قال ابن عباس : كنا نسمي سورة التوبة سورة الفاضحة .ومثل قوله تعالى « ما يود الذين كفروا من

اهل الكتاب ولا المشركين ان ينزل عليكم من خير من ربكم » فلا حاجة لبيان انها نزلت لما اظهر بعض اليهود مودة المؤمنين . وهذا القسم قد اكثر من ذكره اهل القصص وبعض المفسرين ولا فائدة في ذكره على ان ذكره قد يوهم القاصرين قصر الآية على تلك الحادثة لعدم ظهور العموم من الفاظ تلك الآيات .

والرابع قسم هو حوادث حدثت وفي القرءان ءايات تناسب معانيها سابقة او لاحقة فيقع في عبارات بعض السلف ما يوهم ان تلك الحوادث هي المقصود من تلك الآيات مع ان المراد انها مما يدخل في معنى الآية ويدل لهذا النوع وجود احتلاف كثير بين الصحابة في كثير من اسباب النزول كما هو مبسوط في المسالة الخامسة من بحث اسباب النزول من الاتقان فارجعوا اليه ففيه امثلة كثيرة . وفي صحيح البخاري في سورة النساء ان ابن عباس قرأ قوله تعالى « ولا تقولوا لمن القى اليكم السلام لست مؤمنا » . بالف بعد لام السلام وقال كان رجل في غنيمة له (تصغير غنم) فلحقه المسلمون فقال السلام عليكم فقتلوه (اي ظنوه مشركا يريد ان يتقي منهم بالسلام) واخذوا غنيمته فانزل الله في ذلك (ولا تقولوا لمن القى اليكم السلام) الآية فالقصة لا بد أن تكون قد وقعت لان ابن عباس رواها لكن الآية ليست نازلة فيها بخصوصها ولكن نزلت في احكام الجهاد بدليل ما قبلها وما بعدها فان قبلها « يا ايها الذين ءامنوا اذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا » وبعدها « فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل » . وفي تفسير تلك السورة من صحيح البخاري بعد ان ذكر نزاع الزبير والانصاري في ماء شراج الحرة قال الزبير فما احسب هذه الآيات الا نزلت في ذلك « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم الآية » . قال السيوطي في الاتقان عن الزركشي قد عرف من عادة الصحابة والتابعين ان احدهم اذا قال نزلت هذه الآية في كذا فانه يريد بذلك انها تتضمن هذا الحكم لا ان هذا كان السبب في نزولها . وفيه عن ابن تيمية قد تنازع العلماء في قول الصحابي نزلت هذه الآية في كذا هل يجري مجرى المسند او يجري مجرى التفسير فالبخاري يدخله في المسند واكثر اهل المسانيد لا يدخلونه فيه بخلاف ما اذا ذكر سببا نزلت عقبه فانهم كلهم يدخلونه في المسند .

والخامس قسم يبين مجملات ويدفع متشابهات مثل قوله تعالى « ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون » فاذا ظن احد ان من هنا للشرط اشكل عليه كيف يكون الجور في الحكم كفرا ثم اذا علم ان سبب النزول هم النصارى

علم ان من موصولة وعلم ان الذين تـركوا الحكم بالانجيـل **لا** يتعجب منهم ان يكفروا بمحمد. وكذلك حديث عبد الله بن مسعود قال لما نزل قوله تعالى «الذين ءامنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم» شق ذلك على اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا اينا لم يلبس ايمانه بظلم (ظنوا ان الظلم هو المعصية) فقال رسول الله انه ليس بذلك الا تسمع لقول لقمان لابنه « ان الشرك لظلم عظيم » .

هـذا وان القرآن كتاب جاء لهدي امـة والتشريع لها وهذا الهدي قـد يكون واردا قبل الحاجة اليه، وقد يكون نازلا عند الحاجة، وقد يكون مخاطبا به قوم على وجه الزجر او الثناء او غيرهما ، وقد يكون مخاطبا به جميع من يصلح لخطابه . وهو في جميع ذلك قد جـاء بكليـات تشريعية وتهذيبية . والحكمة في ذلك ان يكون وعيُ الامة لدينهـا سهلا عليها، وليُمَكن تواتر الدين، وليكـون لعلماء الامة مزية الاستنباط . والا فان الله قادر ان يجعل القرآن اضعـاف هذا المنزل وان يطيل عمر النبيء صلى الله عليه وسلم للتشريع اكثر مما اطـال عمر ابراهيم وموسى ولذلك قال تعالى واتممت عليكم نعمتي . فكما لا يجوز حمل كلماته على خصوصيات جزئية لان ذلك يبطل مراد الله ، كذلك لا يجوز تعميم مـا قصد منه الخصوص ولا اطلاق مـا قصد منه التقييد لان ذلك قـد يفضي الى التخليط في المراد او الى ابطاله من اصله . وقد اغتر بعض الفرق بذلك قال ابن سيرين في الخوارج انهم عمدوا الى آيات الوعيد النازلة في المشركين فوضعوهـا على المسلمين فجاؤوا ببدعة القـول بالتفكير بالذنب . وقد قـال الحرورية لعلي رضي الله عنه يوم التحكيم إنِ الحكم الا لله فقال علي « كلمـة حق أُريدَ بها باطل » وفسرها في خطبة له في نهج البلاغة .

وثمة فائدة اخرى عظيمة لاسباب النزول وهي ان في نزول القرآن عند حدوث حوادث دلالةً على اعجازه من نـاحية الارتجال وهي احدى طريقـتين لبلغاء العرب في اقوالهم فنزوله على حوادث يقطع دعوى من ادعوا انه اساطير الاولـين .

المقدمة السادسة

في القراآت

لولا عناية كثير من المفسرين بذكر اختلاف القراءات في الفاظ القرآن حتى في كيفيات الاداء ، لكنت بمعزل عن التكلم في ذلك لان علم القراءات علم جليل مستقل قد خص بالتدوين والتاليف وقد اشبع فيه اصحابه واسهبوا بما ليس عليه مزيد . ولكني رايتني بمحل الاضطرار الى ان القيَ عليكم جملا في هذا الغرض تعرفون بها مقدار تعلق اختلاف القراآت بالتفسير . ومراتب القراءات قوة وضعفا . كيلا تعجبوا من اعراضي عن ذكر كثير من ذلك وكثير من القراءات في اثناء التفسير

ارى ان للقراءات حالتين احداهما لا تعلق لها بالتفسير بحال والثانية لها تعلق به من جهات متفاوتة

اما الحالة الاولى فهي اختلاف القراء في وجوه النطق بالحروف والحركات كمقادير المد والامالات والتخفيف والتسهيل والتحقيق والجهر والهمس والغنة . ومزية القراءات من هذه الجهة عائدة الى انها حفظت على ابناء اللغة العربية ما لم يحفظه غيرها وهو تحديد كيفيات نطق العرب بالحروف في مخارجها وصفاتها وبيان اختلاف العرب في لهجات النطق وهذا غرض مهم جدا لكنه لا علاقة له بالتفسير لعدم تأثيره في اختلاف معاني الآي . ولم ار من عرف لفن القراءات حقه من هذه الجهة . وفيها ايضا سعة من بيان وجوه الاعراب في العربية فهي لذلك مادة كبرى لعلوم اللغة العربية .

فائمة العربية لما قرأوا القرآن قرأوه بلهجات العرب الذين كانوا بين ظهرانيهم في الامصار التي وزعت عليها المصاحف : المدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام قيل واليمن والبحرين فقرأ كل فريق بعربية قومه في وجوه الاداء لا في زيادة الحروف ونقصها ولا في اختلاف الاعراب . ويحتمل ان يكون القارىء

الواحد قد قرأ بوجهين أُيري صحتهما في العربية قصدا لحفظ اللغة مع حفظ القرآن الذي انزل بها . ولذلك نجزم بان كثيرا من القراءات في هذه الناحية كان اختيارا كما جزم بذلك قبلنا ابن العربي والزمخشري وغير واحد وقد كره مالك رحمه الله القراءة بالامالة مع ثبوتها عن القراء فدلت كراهته على انه يرى ان القاريء بها ما قرا الا بمجرد الاختيار . وفي تفسير القرطبي في سورة الشعراء عن ابي اسحاق الزجاج يجوز ان يقرأ طسينَ مِيمُ بفتح نون سين وضم الميم الاخيرة من ميم كما يقال هذا معديكربُ اه قلت ولا ضير في ذلك ما دامت كلمات القرآن وجمله محفوظة على نحو ما كتب في المصحف الذي اجمع عليه اصحاب رسول الله الا من شذ منهم . فان عثمان لما امر بكتب المصحف على نحو ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم واثبته كتاب المصحف رأى ان يحمل الناس على اتباعه وترك قراءة ما خالفه وجمع جميع المصاحف المخالفة له واحرقها ووافقه جمهور الصحابة على ما فعله صار المصحف الذي كتب لعثمان قريبا من المجمع عليه وعلى كل قراءة توافقه وصار ما خالفه متروكا بما يقارب الاجماع وبقي الذين قراوا قراءات مخالفة لمصحف عثمان يقراون بما رووه لا ينهاهم احد عن قراءتهم ولكن يعدونهم شذاذا الى ان ترك الناس ذلك تدريجا ذكر الفخر في تفسير قوله تعالى اذ تلقونه بالسنتكم من سورة النور ان سفيان قال سمعت امي تقرا اذ تثقفونه بالسنتكم وكان ابوها يقرا بقراءة ابن مسعود

من اجل ذلك اتفق علماء القراءات والفقهاء على ان كل قراة وافقت وجها في العربية ووافقت خط المصحف اي مصحف عثمان وصح سند راويها فهي قراءة صحيحة لا يجوز ردها قال ابو بكر ابن العربي ومعنى ذلك عندي ان تواترها تبع لتواتر المصحف الذي وافقته وما دون ذلك فهو شاذ . على ان ابا علي الفارسي صنف كتاب الحجة للقراءات وهو معتمد عند المفسرين وقد رايت نسخة منه في مكاتب الاستانة . فالقراءات من هذه الجهة لا تفيد في علم التفسير .

والمراد بموافقة خط المصحف موافقة احد المصاحف الائمة التي وجه بها عثمان بن عفان الى امصار الاسلام اذ قد يكون اختلاف يسير نادر بين بعضها

اعتبار الحديث منسوخا. والآخر اعتباره محكما.

فاما الذين اعتبروا الحديث منسوخا وهو رأي جماعة منهم ابو بكر الباقلاني وابن عبد البر وابو بكر بن العربي والطبري والطحاوي وينسب الى ابن عيينة وابن وهب قالوا كان ذلك رخصة في صدر الاسلام اباح الله للعرب ان يقرأوا القرآن بلغاتهم التي جرت عادتهم باستعمالها ثم نسخ ذلك بحمل الناس على لغة قريش لانها التي بها نزل القرآن وزال العذر لكثرة الحفظ وتيسير الكتابة .
وقال ابن العربي دامت الرخصة مدة حياة النبي عليه السلام وظاهر كلامه ان ذلك نسخ بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاما نُسِخَ باجماع الصحابة او بوصاية من النبيء صلى الله عليه وسلم. واستدلوا على ذلك بقول عمر ان القرآن نزل بلسان قريش وبنهيه عبد الله بن مسعود ان يقرأ فتول عنهم عتّى حين وهي لغة هذيل في حتى . وبقول عثمانَ لكتّاب المصاحف فاذا اختلفتم في حرف فاكتبوه بلغة قريش فانما نزل بلسانهم . يريد ان لسان قريش هو الغالب على القرآن. او اراد انه نزل بما نطقوا به من لغتهم وما غلب على لغتهم من لغات القبائل اذ كان عكاظ بارض قريش وكانت مكة مهبط القبائل كلها .

ولهم في تحديد معنى الرخصة بسبعة احرف ثلاثة اقوال : الاول ان المراد بالاحرف الكلمات المترادفة للمعنى الواحد اي انزل بتخيير قارئه ان يقرأه باللفظ الذي يحضره من المرادفات تسهيلا عليهم حتى يحيطوا بالمعنى وعلى هذا الجواب فقيل المراد بالسبعة حقيقة العدد وهو قول الجمهور فيكون تحديدا للرخصة بان لا يتجاوز سبعة مرادفات او سبع لهجات اي من سبع لغات اذ لا يستقيم غير ذلك لانه لا يتأتى في كل كلمة من القرآن ان يكون لها ستة مرادفات اصلا. ولا في كلمة ان يكون فيها سبع لهجات الا كلمات قليلة مثل ـ اف ـ وجبريل ـ وأرجه ـ . وقد اختلفوا في تعيين اللغات السبع فقال ابو عبيدة وابن عطية وابو حاتم والباقلاني هي من عموم لغات العرب وهم : قريش . وهذيل وتيم الرباب . والازد . وربيعة . وهوازن . وسعد بن بكر من هوازن . وبعضهم يعد قريشا . وبني دارم . والعليا من هوازن وهم سعد بن بكر . وجشم ابن بكر . ونصر بن معاوية . وثقيف . قال ابو عمرو بن العلاء افصح العرب

عُليا هوازن وسفلى تميم ، وهم بنو دارم وبعضهم يعد خزاعة ويطرح تميما .
وقال ابو علي الاهوازي ، وابن عبد البر ، وابن قتيبة هي لغات قبائل من مضر
وهم قريش ، وهذيل ، وكنانة ، وقيس ، وضبة ، وتيم الرباب ، واسد بن
خزيمة ، وكلها من مضر .

القول الثاني لجماعة منهم عياض : ان العدد غير مراد به حقيقته ، بل هو
كناية عن التعدد والتوسع ، وكذلك المرادفات ولو من لغة واحدة كقوله ـ كالعهن
المنفوش وقرأ ابن مسعود كالصوف المنفوش . وقرأ أُبيٌّ كلما أضاء لهم مشَوا فيه
ـ مروا فيه ـ سعوا فيه . وقرأ ابن مسعود انظرونا نقتبس من نوركم ـ أخِّرونا ـ أمهلونا .
وأقرأ ابن مسعود رجلا : ان شجرة الزقوم طعام الاثيم . فقال الرجل طعام اليتيم
فاعاد له فلم يستطع ان يقول الاثيم فقال له ابن مسعود : اتستطيع ان تقول طعام
الفاجر قال نعم قال فاقرأ كذلك . وقد اختلف عمر وهشام بن حكيم ولغتهما واحدة .

القول الثالث ان المراد التوسعة في نحو كان الله سميعا عليما ان يقرأ عليما
حكيما ما لم يخرج عن المناسبة كذكره عقب آية عذاب ان يقول « وكان الله
غفورا رحيما » او عكسه والى هذا ذهب ابن عبد البر .

واما الذين اعتبروا الحديث محكما غير منسوخ فقد ذهبوا في تأويله مذاهب :
فقال جماعة منهم البيهقي وابو الفضل الرازي ان المراد من الاحرف انواع اغراض
القرءان كالامر والنهي والحلال والحرام ، او انواع كلامه كالخبر والانشاء والحقيقة
والمجاز ، او انواع دلالته كالعموم والخصوص والظاهر والمؤول . ولا يخفى ان
كل ذلك لا يناسب سياق الحديث على اختلاف رواياته من قصد التوسعة والرخصة
وقد تكلف هؤلاء حصر ما زعموه من الاغراض ونحوها في سبعة فذكروا كلاما
لا يسلم من النقض .

وذهب جماعة منهم أبو عبيد وثعلب والازهري وعُزي لابن عباس ان المراد
انه انزل مشتملا على سبع لغات من لغات العرب مبثوثة في آيات القرءان لكن لا
على تخيير القارىء وذهبوا في تعيينها الى نحو ما ذهب اليه القائلون بالنسخ الا ان
الخلاف بين الفريقين في ان الاولين ذهبوا إلى تخيير القارىء في الكلمة الواحدة

وهؤلاء ارادوا ان القرءان مبثوثة فيه كلمات من تلك اللغات ، لكن على وجه التعيين لا على وجه التخيير . وهذا كما قال ابو هريرة : ما سمعت السكين الا في قوله تعالى « وآتت كل واحدة منهن سكينا » ما كنا نقول الا المدية . (١) وفي البخاري إلى من النبيء في قصة حكم سليمان بين المرأتين عن قول سليمان « ايتوني بالسكين اقطعه بينكما » وهذا الجواب ايضا لا يلاقي مساق الحديث من التوسعة . ولا يستقيم من جهة العدد لان المحققين ذكروا ان في القرءان كلمات كثيرة من لغات قبائل العرب وانهاها السيوطي نقلا عن أبي بكر الواسطي الى خمسين لغة .

وذهب جماعة ان المـراد من الاحرف لهجات العرب في كيفيـات النطق كالفتح والامالة . والمد والقصر . والهمز والتخفيف . على معنى ان ذلك رخصة للعرب مع المحافظة على كلمات القرءان وهذا احسن الاجوبة لمن تقدمنا . وهنالك اجوبة اخرى ضعيفة لا ينبغي للعالم التعريج عليها وقد انهى بعضهم جملة الاجوبة الى خمسة وثلاثين جوابا .

وعندي انه ان كان حديث عمر وهشام بن حكيم قد حَسُن افصاح راويه عن مقصد عمر فيما حدَّث به بان لا يكون مرويا بالمعنى مع اخلال بالمقصود انه يحتمل ان يرجع الى ترتيب آي السور بان يكون هشام قرأ سورة الفرقان على غير الترتيب الذي قـرأ به عمر فتكون تلك رخصة لهم في ان يحفظوا سور القرءان بدون تعيين ترتيب الآيات من السورة ، وقد ذكر الباقلاني احتمـال ان يكون ترتيب السور من اجتهاد الصحابة كما ياتي في المقدمة الثامنة فعلى رأينا هـذا تكون هذه رخصة ، ثم لم يزل الناس يتوخون بقراءتهم موافقة قراءة رسول الله حتى كان ترتيب المصحف في زمن أبي بكر على نحو العرضة الاخيرة التي عرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمع الصحابة في عهد ابي بكر على ذلك لعلمهم بزوال موجب الرخصة .

ومن الناس من بظن المراد بالسبع في الحديث ما يطـابق القراآت السبـع

---

(١) رواه ابن وهب عن مالك وهو في احاديث ابن وهب عنه في جامع العتبية .

التي اشتهرت بين أهل فن القرا آت ، وذلك غلط ولم يقله احد من أهل العلم وأجمع العلماء على خلافه كما قال ابو شامة فان انحصار القرا آت في سبع لم يدل عليه دليل ، ولكنه امر حصل اما بدون قصد او بقصد التيمن بعدد السبعة، او بقصد ايهام ان هذه السبعة هي المرادة من الحديث تنويها بشأنها بين العامة ، ونقل السيوطي عن ابي العباس ابن عمار انه قال : لقد فعل جاعل عدد القرا آت سبعا ما لا ينبغي واشكل به الامر على العامة اذ أوهمهم ان هذه السبعة هي المرادة في الحديث وليت جامعها نقص عن السبعة او زاد عليها .

قال السيوطي وقد صنف ابن جبير المكي ، وهو قبل ابن مجاهد كتابا في القرا آت فاقتصر على خمسة أيمة من كل مصر اماما ، وانما اقتصر على ذلك لان المصاحف التي ارسلها عثمان الى الامصار كانت الى خمسة امصار .

قال ابن العربي في العواصم اول من جمع القرا آت في سبع ابن مجاهد غير انه عد قراءة يعقوب سابعا ، ثم عوضها بقراءة الكسائي . قال السيوطي وذلك على رأس الثلاثمائة وقد اتفق الايمة على ان قراءة يعقوب من القرا آت الصحيحة مثل بقية السبعة وكذلك قراءة ابي جعفر وشيبة واذ قد كان الاختلاف بين القراء سابقا على تدوين المصحف الامام في زمن عثمان ، وكان هو الداعي لجمع المسلمين على مصحف واحد تعين ان الاختلاف لم يكن ناشئا عن الاجتهاد في قراءة الفاظ المصحف فيما عدا اللهجات .

المتواتر من القرا آت والترجيح بينها

قال ابو بكر بن العربي في كتاب العواصم اتفق الايمة على ان القرا آت التي لا تخالف الالفاظ التي كتبت في مصحف عثمان هي متواترة وان اختلفت في وجوه الاداء وكيفيات النطق ومعنى ذلك ان تواترها تبع لتواتر صورة كتابة المصحف، وما كان نطقه صالحا لرسم المصحف، واختلف فيه فهو مقبول ، وما هو بمتواتر لان وجود الاختلاف فيه مناف لدعوى التواتر . فخرج بذلك ما كان من القرا آت مخالفا لمصحف عثمان مثل ما نقل من قراءة ابن مسعود . ولما قرأ

المسلمون بهذه القراآت من عصر الصحابة ولم يغير عليهم ، فقد صارت متواترة على التخيير وان كانت اسانيدها المعينة آحادا . وليس المراد ما يتوهمه بعض القراء من ان القراآت كلها بما فيها من طرائق اصحابها ورواياتهم متواترة وكيف وقد ذكروا اسانيدهم فيها فكانت اسانيد آحاد واقواها سندا ماكان له راويان عن الصحابة مثل قراءة نافع بن ابي نعيم وقد جزم ابن العربي . وابن عبد السلام التونسي ، وابو العباس ابن ادريس فقيه بجاية من المالكية والابياري من الشافعية بانها غير متواترة ،وقال امام الحرمين في البرهان هي متواترة ورده عليه الابياري ، وقال المازري في شرحه هي متواترة عند القراء وليست متواترة عند عموم الامة وهذا توسط بين امام الحرمين والابياري،ووافق امام الحرمين ابن سلامة الانصاري من المالكية وهذه مسألة مهمة جرى فيها حوار بين الشيخين ابن عرفة التونسي، وابن لب الاندلسي ذكرها الونشريسي في المعيار .

واما وجوه الاعراب في القرآن فاكثرها متواتر الا ما ساغ فيه اعرابان مع اتحاد المعاني نحو ولات حين مناص بنصب حين ورفعه ونحو وزلزلوا حتى يقول الرسول بنصب يقول وبرفعه . الا ترى ان الامه اجمعت على رفع اسم الجلالة في قوله تعالى « وكلم الله موسى تكليما » وقرأه بعض المعتزلة بنصب اسم الجلالة لئلا يثبتوا لله كلاما،وقرأ الرافضة «وماكنت متخذ المضلين عضدا بصيغة التثنية» وفسروها بابي بكر وعمر حاشاهما وقاتلهم الله .

واما ما خالف الوجوه الصحيحة في العربية ففيه نظر قوي لانا لا ثقة لنا بانحصار فصيح كلام العرب فيما صار الى نحاة البصرة والكوفة وبهذا نبطل كثيرا مما زيفه الزمخشري من القراآت بعلة انها جرت على وجوه ضعيفة في العربية لاسيما ماكان منه في قراءة مشهورة كقراءة عبد الله ابن عامر قوله تعالى «وكذلك زُين لكثير من المشركين قتل اولادهم شركائهم » ببناء زين للمفعول وبرفع قتل . ونصب اولادهم، وخفض شركائهم، ولو سلمنا ان ذلك وجه مرجوح فهو لا يعدو ان يكون من الاختلاف في كيفية النطق التي لا تناكد التواتر كما قدمناه آنفا على ما في اختلاف الاعرابين من افادة معنى غير الذى يفيده الآخر ، لان الاضافة المصدر

الى المفعول خصائص غير التي لاضافته الى فاعله، ولان لبناء الفعل للمجهول نكتا غير التي لبنائه للفاعل .

ثم إن القراآت الصحيحة المتواترة قد تتفاوت بما يشتمل عليه بعضها من خصوصيات البلاغة او الفصاحة او كثرة المعاني او الشهرة وهو تمايز متقارب وقل ان يكسب احدى القراآت في تلك الآية رجحانا . على ان كثيرا من العلماء كان لا يرى مانعا من ترجيح قراءة على غيرها ، ومن هؤلاء العلامة الزمخشري ، وقد سئل ابن رشد عما يقع في كتب المفسرين والمعربين من اختيار احدى القراءتين المتواترتين وقولهم هذه القراءة احسن أذاك صحيح ام لا؟ فاجاب اما ما سألت عنه مما يقع في كتب المفسرين والمعربين من تحسين بعض القراآت واختيارها على بعض لكونها اظهر من جهة الاعراب، واصح في النقل، وايسر في اللفظ فلا ينكر ذلك كرواية ورش التي اختارها الشيوخ المتقدمون عندنا (اي بالاندلس) فكان الامام في الجامع لا يقرأ الا بها لما فيها من تسهيل النبرات وترك تحقيقها في جميع المواضع ، وقد تؤول ذلك فيما روي عن مالك من كراهية النبر في القرآن في الصلاة .

وفي كتاب الصلاة الاول من العتبية سئل مالك عن النبر في القرآن فقال اني لاكرهه وما يعجبني ذلك قال ابن رشد في البيان يعني بالنبر ههنا اظهار الهمزة في كل موضع على الاصل فكره ذلك واستحب فيه التسهيل على رواية ورش لما جاء من ان رسول الله لم تكن لغته الهمز (اي اظهار الهمز في الكلمات المهموزة بل كان ينطق بالهمزة مسهلة الى حرف علة من جنس حركتها مثل ياجوج وماجوج بالالف دون الهمز ـ ومثل الذيب في الذئب ـ ومثل مومن في مؤمن)

ثم قال : ولهذا المعنى كان العمل جاريا بقرطبة قديما ـ ان لا يقرأ الامام بالجامع في الصلاة الا برواية ورش، وانما تغير ذلك وتركت المحافظة عليه منذ زمن قريب اهـ وهذا خلف بن هشام البزار راوي حمزة قد اختار لنفسه قراءة من بين قراآت الكوفيين، ومنهم شيخه حمزة بن حبيب وميزها قراءة خاصة فعدت عاشرة القراآت العشر وما هي الا اختيار .

فان قلت هل يفضي ترجيح بعض القراآت على بعض ان تكون الراجحة ابلغ من المرجوحة فيفضي الى ان المرجوحة اضعف في الاعجاز .

قلت : حدُّ الاعجاز مطابقة الكلام لجميع مقتضى الحال، وهو لايقبل التفاوت، ويجوز مع ذلك ان يكون بعض الكلام المعجز مشتملا على لطائف وخصوصيات تتعلق بوجوه الحسن كالجناس والمبالغة ، او تتعلق بزيادة الفصاحة ، او بالتفنن مثل « ام تسالهم خرجا فخراج ربك خير »

على انه يجوز ان تكون احدى القراآت نشأت عن ترخيص النبيء صلى الله عليه وسلم للقاريء ان يقرأ بالمرادف تيسيرا على الناس كما يشعر به حديث تنازع عمر مع هشام بن حكيم فتروى تلك القراءة للخلف فيكون تمييز غيرها عليها بسبب ان المتميزة هي البالغة غاية البلاغة وان الاخرى توسعة ورخصة ولايعكر ذلك على كونها ايضا بالغة الطرف الاعلى من البلاغة وهو مايقرب من حد الاعجاز .

واما الاعجاز فلا يلزم ان يتحقق في كل آية من آي القرآن لان التحدي انما وقع بسورة مثل سور القرآن واقصر سورة ثلاث آيات فكل مقدار ينتظم من ثلاث آيات من القرآن يجب ان يكون بمجموعه معجزا .

(تنبيه) انا اقتصر في هذا التفسير على التعرض لاختلاف القراآت السبع المشهورة خاصة لانها مع تواتر الفاظها قد امتازت على بقية القراآت العشر بالشهرة بين المسلمين في اقطار الاسلام .

وأبني اول التفسير على قراءة نافع لرواية قالون المدني لانها القراءة المدنية اماما وراويا ولانها التي يقرأ بها معظم اهل تونس ، ثم اذكر خلاف بقية القراء السبعة خاصة .

المقدمة السابعة

قصص القرآن

امتن الله على رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله « نحن نقص عليك احسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين » فعلمنا من قوله احسن القصص ان سياق القصص القرآنية لم يكن مساق الاحماض وتجديد النشاط، وما يحصل من استغراب مبلغ تلك الحوادث من خير او شر لان غرض القرآن اسمى واعلى من هذا . ولو كان من هذا لساوى كثيرا من قصص الاخبار الحسنة الصادقة فما كان جديرا بالتفضيل على كل جنس القصص .

والقصة الخبر عن حادثة غائبة عن المخبَر بها فليس ما في القرآن من ذكر الاحوال الحاضرة في زمن نزوله قصصا مثل ذكر وقائع المسلمين مع عدوهم . وجمع القصة قِصص بكسر القاف . واما القصص بفتح القاف فاسم للخبر المقصوص وهو مصدر سمي به المفعول يقال قص على فلان اذا اخبره بخبر .

وابصر اهل العلم ان لبس الغرض من سوقها قاصرا على حصول العبرة والموعظة مما تضمنته القصة من عواقب الخير او الشر . ولا على حصول التنويه باصحاب تلك القصص في عناية الله بهم او التشويه باصحابها فيما لقوه من غضب الله عليهم كما تقف عنده افهام القانعين بظواهر الاشياء واوائلها . بل الغرض من ذلك اسمى واجل . ان في تلك القصص لعبرا جمة وفوائد للامة ولذلك نرى القرآن يأخذ من كل قصة اشرف مواضيعها ويعرض عما عداه ليكون تعرضه للقصص منزها عن قصد التفكه بها . من اجل ذلك كله لم تأت القصص في القرآن متتالية متعاقبة في سورة او سور كما يكون كتاب تاريخ بل كانت مفرقة موزعة على مقامات تناسبها لان معظم الفوائد الحاصلة منها لها علاقة بذلك التوزيع هو ذكر وموعظة لاهل الدين فهو بالخطابة أشبه . وللقرآن اسلوب خاص هو الاسلوب المعبر عنه بالتذكير وبالذكر في آيات يأتي تفسيرها فكان اسلوبه

قاضيا للوطرين وكان اجل من اسلوب سوق القصص لمجرد معرفتها لان سوقها في مناسبتها يكسبها صفتين صفة البرهان وصفة التبيـان . وقد بث القصص باسلوب بديع اذ ساقها في مظان الاتعاظ بها مع المحافظة على الغرض الاصلي الذي جاء به القرآن من تشريع وتفريع فتوفرت من ذلك عشر فوائد :

الفائدة الاولى ان قصارى علم اهل الكتاب في ذلك العصر كان معرفة اخبار الانبياء وايـامهم واخبار من جاورهم من الامم ، فكان اشتمال القرآن على تلك القصص التي لا يعلمها الا الراسخون في العلم من اهل الكتاب تحديا عظيما لاهل الكتاب ، وتعجيزا لهم بقطع حجتهم على المسلمين قال تعالى « تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومـك من قبل هذا » فكان حملة القرآن بسبب ذلك احقاء بان يوصفوا بالعلم الذي وصفت به احبار اليهود وبذلك انقطعت صفة الامية عن المسلمين في نظر اليهود . وانقطعت السنة المعرضين بهم بانهم امة جاهلة . وهذه فائدة لم يبينها من سلفنا من المفسرين .

الفـائدة الثانية ان من ادب الشريعة معرفة تاريخ سلفها في التشريع من الانبياء بشرائعهم فكان اشتمال القرآن على قصص الانبياء واقوامهم تكليلا لهامة التشريع الاسلامي بذكر تاريخ المشرعين قال تعـالى « وكأين من نبيء قتل معه ربيون كثير الآية » وهذه فائدة من فتوحات الله لنا ايضا . وقد رأيت من اسلوب القرآن في هـذا الغرض انه لا يتعرض الا الى حال اصحـاب القصة في رسوخ الايمان وضعفه وفيما لذلك من اثر عناية الاهية او خذلان وفي هـذا الاسلـوب لا تجد في ذكر اصحاب هذه القصص بيـان انسابهم او بلدانهم اذ العبرة فيما وراء ذلك من ضلالهم او ايمـانهم . وكذلك مواضع العبرة في قدرة الله تعـالى في قصة اهل الكهف « ام حسبت ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ـ الى قوله ـ نحن نقص عليك نبأهم بالحق انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى الآيات » فلم يذكر انهم من اي قوم وفي اي عصر . وكذلك قوله فيها « فابعثـوا احدكم بورقكم هذه الى المدينة » فلم يذكر اية مدينة هي لان موضع العبرة هو انبعاثهم

ووصول رسولهم الى مدينة الى قوله « وكذلك اعثرنا عليهم ليعلموا ان وعد الله حق »

الفائدة الثالثة ـ ما فيها من فائدة التاريخ من معرفة ترتب المسببات على اسبابها في الخير والشر والتعمير والتخريب لتقتدي الامة وتحذر قال تعالى « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » وما فيها من فائدة ظهور المثل العليا في الفضيلة وزكاء النفوس او ضد ذلك .

الفائدة الرابعة ما فيها من موعظة المشركين وتهديدهم بما لحق الامم التي عاندت رسلها ، وعصت اوامر ربها حتى يرعووا عن غلوائهم ، ويتعظوا بمصارع نظرائهم و آبائهم ، وكيف يورث الارض اولياءه وعباده الصالحين قال تعالى فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ، وقال لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الالباب ـ وقال ـ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون» وهذا في القصص التي يذكر فيها ما لقيه المكذبون للرسل كقصص قوم نوح وعاد وثمود وأهل الرس واصحاب الايكة .

الفائدة الخامسة ان في حكاية القصص سلوك اسلوب التوصيف والمحاورة وذلك اسلوب لم يَكن معهودا للعرب فكان مجيئه في القرآن ابتكار اسلوب جديد في البلاغة العربية شديد التأثير في نفوس اهل اللسان ، وهو من اعجاز القرآن اذ لا ينكرون انه اسلوب بديع ولا يستطيعون الاتيان بمثله اذ لم يعتادوه . انظر الى حكاية احوال الناس في الجنة والنار والاعراف في سورة الاعراف وقد تقدم التنبيه عليه في المقدمة الخامسة فكان من مكملات عجز العرب عن المعارضة .

الفائدة السادسة ان العرب بتوغل الامية والجهل فيهم اصبحوا لا تهتدي عقولهم الا بما يقع تحت الحس ، او ما ينتزع منه فقدوا فائدة الاتعاظ باحوال الامم الماضية وجهلوا معظمها وجهلوا احوال البعض الذي علموا اسماءه فاعقبهم ذلك اعراضا عن السعي لاصلاح احوالهم بتطهيرها مما كان سبب هلاك من قبلهم . فكان في ذكر قصص الامم توسيعا لعلم المسلمين باحاطتها بوجود الامم ومعظم احوالها قال تعالى مشيرا الى غفلتهم قبل الاسلام «وسكنتم في مساكن الذين ظلموا

انفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم »

الفائدة السابعة تعويد المسلمين على معرفة سعة العالم وعظمة الامم والاعتراف لها بمزاياها حتى تدفع عنهم وصمة الغرور كما وعظهم قوله تعالى عن قوم عاد « وقالوا من اشد منا قوة » فاذا علمت الامة جوامع الخيرات وملائمات حياة الناس تطلبت كل ما ينقصها مما يتوقف عليه كمال حياتها وعظمتها .

الفائدة الثامنة ان ينشيء في المسلمين همةَ السعي الى سيادة العالم كما ساده امم من قبلهم ليخرجوا من الخمول الذي كان عليه العرب اذ رضوا من العزة باغتيال بعضهم بعضا فكان منتهى السيد منهم ان يغنم صريمة ، ومنتهى امل العامي ان يرعى غُنيمة ، وتقاصرت هممهم عن تطلب السيادة حتى آل بهم الحال الى ان فقدوا عزتهم فاصبحوا كالاتباع للفرس والروم فالعراق كله و اليمن كله وبلاد البحرين تبع لسيادة الفرس . والشام ومشارفه تبع لسيادة الروم . وبقي الحجاز ونجد لا غنية لهم عن الاعتزاز بملوك العجم والروم في رحلاتهم وتجاراتهم .

الفائدة التاسعة معرفة ان قوة الله تعالى فوق كل قوة وان الله ينصر من ينصره ، وانهم ان اخذوا بوسيلتيِ البقاءِ : من الاستعدادِ والاعتمادِ سلموا من تسلط غيرهم عليهم . وذكر العواقب الصالحة لاهل الخير ، وكيف ينصرهم الله تعالى كما في قوله « فنادى في الظلمات ان لا اله الا الله سبحانك اني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجي المؤمنين » .

الفائدة العاشرة انها يحصل منها بالتبع فوائد في تاريخ التشريع والحضارة وذلك يفتق اذهان المسلمين للالمام بفوائد المدنية كقوله تعالى « كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ اخاه في دين الملك الا ان يشاء الله » في قراءة من قرأ دين بكسر الدال أي في شرع فرعون يومئذ فعلمنا ان شريعة القبط كانت تخول استرقاق السارق . وقوله « قال معاذ الله ان نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده » فدل على ان شريعتهم ما كانت تسوغ اخذ البدل في الاسترقاق ، وان الحر لا يملك الا بوجه معتبر . ونعلم من قوله « وابعث في المدائن حاشرين ـ فارسل فرعون في المدائن

حاشرين » ان في نظام مصر في زمن موسى ارسال المؤذنين والبريح بالاعلام بالامور المهمة ، ونعلم من قوله « قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف والقوه في غيابات الجب يلتقطه بعض السيارة » انهم كانوا يعلمون وجود الاجباب في الطرقات وهي آبار قصيرة يقصدها المسافرون للاستقاء منها . وقول يعقوب (واخاف ان يأكله الذئب » ان بادية الشام الى مصر كانت توجد بها الذئاب المفترسة وقد انقطعت منها اليوم .

وفيما ذكرنا ما يدفع عنكم هاجسا رأيته خطر لكثير من اهل اليقين والمتشككين وهو ان يقال لماذا لم يقع الاستغناء بالقصة الواحدة في حصول المقصود منها . وما فائدة تكرار القصة في سور كثيرة . وربما تطرق هذا الهاجس ببعضهم الى مناهج الالحاد في القرءان . والذي يكشف لسائر المتحيرين حيرتهم على اختلاف نواياهم وتفاوت مداركهم هو ان القرءان كما قلنا هو بالخطب والمواعظ أشبه منه بالتاليف . وفوائد القصص تجتلبها المناسبات فتذكر القصة كالبرهان على الغرض المسوقة هي معه فلا يعد ذكرها مع غرضها تكريرا لها لان سبق ذكرها انما كان في مناسبات اخرى . كما لا يقال للخطيب اذا خطب في قوم ثم دعته المناسبات الى ان وقف خطيبا في مثل مقامه الاول فخطب بمعان تضمنتها خطبته السابقة ، انه اعاد الخطبة ، بل انه أعاد معانيها ولم يعد ألفاظ خطبته ، وهذا مقام تظهر فيه مقدرة الخطباء فيحصل من ذكرها هذا المقصد الخطابي . ثم تحصل معه مقاصد أخرى : أحدها رسوخها في الاذهان بتكريرها .

الثاني ظهور البلاغة فان تكرير الكلام في الغرض الواحد من شأنه أن يثقل على البليغ فاذا جاء اللاحق منه إثر السابق مع تفنن في المعاني باختلاف طرق أدائها من مجاز او استعارات أو تمثيل أو كناية . وتفنن الالفاظ وتراكيبها بما تقتضيه الفصاحة وسعة اللغة باستعمال المترادفات مثل ولئن رددت ولئن رُجعت وتفنن المحسنات البديعية المعنوية واللفظية ونحو ذلك كان ذلك من الحدود القصوى في البلاغة فذلك وجه من وجوه الاعجاز .

الثالث أن يسمع اللاحقون من المؤمنين في وقت نزول القرءان ذكر القصة التي

كانت فاتتهم مماثلتها قبل إسلامهم أو في مدة مغيبهم فان تلقى القرءان عند نزوله أوقع في النفوس من تطلبه من حافظيه .

الرابع ان جمع المؤمنين جميع القرءان حفظا كان نادرا بل تجد البعض يحفظ بعض السور فيكون الذي حفظ إحدى السور التي ذكرت فيها قصة معينة عالما بتلك القصة كعلم من حفظ سورة أخرى ذكرت فيها تلك القصة .

الخامس ان تلك القصص تختلف حكاية القصة الواحدة منها بأساليب مختلفة ويذكر في بعض حكاية القصة الواحدة ما لم يذكر في بعضها الاخر وذلك لاسباب :

منها تجنب التطويل في الحكاية الواحدة فيقتصر على موضع العبرة منها في موضع ويذكر آخر في موضع آخر فيحصل من متفرق مواضعها في القرءان كمال القصة او كمال المقصود منها ، وفي بعضها ما هو شرح لبعض .

ومنها أن يكون بعض القصة المذكور في موضع مناسبا للحالة المقصودة من سامعيها فانها تارة تساق إلى المشركين ، وتارة إلى أهل الكتاب ، وتارة تساق إلى المؤمنين ، وتارة الى كليهما وقد تساق للطائفة من هؤلاء في حالة خاصة . ثم تساق اليها في حالة أخرى وبذلك تتفاوت بالاطناب والايجاز على حسب المقامات الا ترى قصة بعث موسى كيف بُسطت في سورة طه . وسورة الشعراء وكيف أوجزت في آيتين في سورة الفرقان « ولقد ءاتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بئاياتنا فدمرناهم تدميرا »

ومنها أنه قد يقصد تارة التنبيه على خطإ المخاطبين فيما ينقلونه من تلك القصة وتارة لا يقصد ذلك .

فهذه تحقيقات سمحت بها القريحة . وربما كانت بعض معانيها في كلام السابقين غير صريحة .

المقدمة الثامنة

في آي القرآن وسوره وترتيبها

هذا غرض له مزيد اتصال بالقرآن لاختلاف قراء الصحابة فيه ، وله اتصال متين بالتفسير لان ما يتحقق فيه يُنتفع به في مواضع كثيرة من فواتح السور، ومناسبة بعضها ببعض فيغني المفسر عن اعادته .

فالآية هي مقدار من القرآن مركب ولو تقديرا أو الحاقا . فقولي ولو تقديرا لادخال قوله تعالى مدهآمتان إذ التقدير هما مدهآمتان ، ونحو والفجر اذ التقدير أقسم بالفجر . وقولي أو الحاقا : لادخال بعض فواتح السور من الحروف المقطعة فقد عُد اكثرها في المصاحف آيات ما عدا : الر . والمر . وطس . وذلك امر توفيقي وسنة متبعة ولا يظهر فرق بينها وبين غيرها . وتسمية هذه الاجزاء آيات هو من مبتكرات القرآن قال تعالى « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات » وقال « كتاب أحكمت آياته ثم فصّلت » وانما سميت آية لانها دليل على أنها موحى بها من عند الله الى النبيء صلى الله عليه وسلم ، لانها تشتمل على ما هو من الحد الاعلى في بلاغة نظم الكلام . ولانها لوقوعها مع غيرها من الآيات جعلت دليلا على أن القرآن منزل من عند الله وليس من تأليف البشر اذ قد تحدى النبيء به أهل الفصاحة والبلاغة من أهل اللسان العربي فعجزوا عن تأليف مثل سورة من سوره .

فلذا لا يحق ان تسمّى جمل التوراة والانجيل آيات اذ ليست فيها هذه الخصوصية في اللغة العبرانية والارامية . واما ما ورد في حديث رجم اليهوديين اللذين زنيا من قول الراوي « فوضع الذي نشر التوراةَ يدَه على آية الرجم » فذلك تعبير غلب على لسان الراوي على وجه المشاكلة التقديرية تشبيها بجمل القرآن اذ لم يجد لها اسما يعبر به عنها .

وتحديد مقادير الآيات مروي عن النبيء صلى الله عليه وسلم وقد تختلف الرواية في بعض الآيات وهو محمول على التخيير في حد تلك الآيات التي تختلف فيها الرواية . فكان أصحاب النبيء صلى الله عليه وسلم على علم من تحديد الآيات . ففي الحديث الصحيح أن فاتحة الكتاب هي السبع المثاني أي السبع الآيات التي تثنى أي تكرر في الصلوات . أو التي تَكَرَّر نزولها اذ نزلت بمكة . ثم اعيد نزولها بالمدينة على قول . وفي الحديث « من قرأ العشر الخواتم من آخر آل عمران وهي « إن في خلق السماوات والارض . واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب » إلى آخر السورة .

وكان المسلمون في عصر النبوءة وما بعده يقدرون تارة بعض الاوقات بمقدار ما يَقرأ القارىء عددا من الآيات كما ورد في حديث سحور النبيء صلى الله عليه وسلم انه كان بينه وبين طلوع الفجر مقدار ما يقرأ القارئ خمسين آية .
قال أبوبكر ابن العربي « وتحديد الآية من معضلات القرآن فمن آياته طويل وقصير ، ومنه ماينقطع ، ومنه ما ينتهي إلى تمام الكلام » . وقال الزمخشري «الآيات علم توقيفي » وانا أقول لا بعدان يكون تعيين مقدار الآية تبعا لانتهاء نزولها وامارته وقوع الفاصلة. فأما ما اختلف السلف فيه من عدد آيات القرآن بناء على الاختلاف في نهاية بعضها فقد يكون بعض ذلك عن اختلاف في الرواية كما قدمنا آنفا . وقد يكون بعضه عن اختلاف الاجتهاد .

قال ابو عمرو الداني أجمعوا على أن عدد آيات القرآن يبلغ ستة آلاف آية . واختلفوا فيما زاد على ذلك . فمنهم من لم يزد . ومنهم من قال ومائتين وأربع آيات ، وقيل واربع عشرة . وقيل وتسع عشرة . وقيل وخمسا وعشرين . وقيل وستا وثلاثين . وقيل وستمائة وست عشرة . ومعلوم ان الذين يعدون البسملة آية من أول كل سورة عدا سورة براءة يزيدون في العدد مائة وثلاث عشرة آية .

وكان لاهل المدينة عددان. ولاهل مكة عدد واحد وربما اتفقوا في عدد آي السورة المعينة . وربما اختلفوا . ولذلك تجد المفسرين يقولون في بعض السور عدد

آيها في المصحف الفلاني كذا . وقد كان عـدد آي السور معروفا في زمن النبيء صلى الله عليه وسلم روى محمد بن السائب عن ابن عباس انه لما نزلت آخر آيـة وهي قـوله تعالى « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله » الآيـة قال جبريل للنبيء صلى الله عليه وسلم ضَعْها في رأس ثمـانين ومائـتين من سورة البقرة . واستمر العمل بعدّ الآي في عصر الصحابة ففي صحيح البخـاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال اذا سرَّك ان تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومـائة من سورة الانعام « قد خسـر الذين قتلوا اولادهم سفها بغير علم » الآية

واما ترتيب الآي بعضها عقب بعض فهو بتوقيف من النبيء صلى الله عليه وسلم حسب نزول الوحي ومن المعلوم أن القرآن نزل منجما آيات ، فربما نزلت عدة آيات متتابعة أو سورةٌ كاملةٌ . وعلى ترتيب قراءة النبيء صلى الله عليه وسلم في الصلوات الجهرية وفي عديد المناسات حَفِظ القرآن كلٌ من حفظه كلًّا او بعضا. وليس لهم أصل في ذلك الا ما عُرفوا به من قوة الحوافظ ، ولم يكونوا يعتمدون على الكتابة ، وانما كان كُتاب الوحي يكتبون ما أنزل من القرآن باذن النبيء صلى الله عليه وسلم ولعل حكمة ذلك ان يرجع إليه المسلمون عند ما يحدث لهم شك او نسيان ولكن ذلك لم يقع .

ولما جُمع القرآن في عهـد أبي بكر لم يُؤْثَر عنهم انهم ترددوا في ترتيب آيات من احـدى السور ولا أثر عنهم انكار أو اختلاف فيما جمـع من القرآن فكان موافقا لما حفظتْه حوافظهم . قال ابن وهب سمعت مالكا يقول انما ألف القرآن على ما كانوا يسمعـونه من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقـال ابن الانباري كانت الآية تنزل جوابا لمستخبر يسأل ويوقِف جبريـل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم على موضع الآية .

واتساق الحروف واتساق الآيات واتساق السور كله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلهذا كان الاصل في آي القرآن ان يكون بين الآية ولاحقتهـا تناسب في الغرض أو الانتقال أو نحو ذلك من أساليب الكلام المنتظم المتصل ، ومما يدل عليه

وجود حروف العطف المفيدة الاتصال مثل الفاء ولكن وبل (١)

على انه قد يكون موقع الآية عقب التي قبلها لاجل نزولها عقب التي قبلها من سورة هي بصدد النزول فيومر النبي بان يقرأها عقب التي قبلها وهذا كقوله تعالى (وما نتنزل الا بامر ربك) عقب قوله (تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا) في سورة مريم فقد روي ان جبريل لبث اياما لم ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم بوحي فلما نزل بالآيات السابقة عاتبه النبيء فامر الله جبريل ان يقول وما نتنزل الا بأمر ربك . فكانت وحيا نزل به جبريل فقرىء مع الآية التي نزل باثرها وكذلك آية « ان الله لا يستحيي ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » عقب قوله تعالى « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات تجري »ـ الى قولهـ وهم فيها خالدون ، في سورة البقرة اذ كان ردا على المشركين في قولهم : أما يستحيي محمد أن يمثل بالذباب وبالعنكبوت، فلما ضرب لهم الامثال بقولـه مثلهم كمثل الذي استوقد نارا تخلص الى الـرد عليهم فيما انكروه من الامثال . على انه قد لا يكون في موقع الآية من التي قبلها ظهور مناسبة فلا يوجب ذلك حيرة للمفسر ، لانه قد يكون سبب وضعها في موضعها انها قد نزلت على سبب ، وكان حدوث سبب نزولها في مدة نزول السورة التي وضعت فيها فقرئت تلك الآية عقب آخر آية انتهى اليها النزول . وهذا كقوله تعالى « حافظوا على الصلوات ـ الى قوله ـ ما لم تكونوا تعلمون » بين تشريعات احكام كثيرة في شؤن الازواج والامهات وقد ذكرنا ذلك عند هذه الآية في التفسير .

وقد تكون الآية الحقت بالسورة بعد تمام نزولها بان امر الرسول بوضعها عقب آية معينة كما تقدم آنفا عن ابن عباس في آية (واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله) فلا يكون ذلك الا لمناسبة في المعنى او في الغرض او التشابه في اسلوب النظم . وقد لا تظهر مناسبة لنا فلا يعوز المفسر ذلك لان الاقتضاب أسلوب من أساليب الكلام البليغ .

( ) دون الواو لانها تعطف الجمل والقصص وكذلك ثم لانها قد تعطف الجمل .

ولما كان تعيين الآيات التي أمر النبيء صلى الله عليه وسلم بوضعها في موضع معين غير مروي الا في عدد قليل كان حقا على المفسر ان يتطلب مناسبات لمواقع الآيات ما وجد الى ذلك سبيلا موصلا والا فليُعرض عنه ولا يكن من المتكلفين .

وأما السورة فهي قطعة معينة من القرآن بمبدإ ونهاية لا يتغيران مسماة باسم مخصوص تشتمل على ثلاث آيات فاكثر . وكونها تشتمل على ثلاث آيات مأخوذ من استقراء سور القرآن مع حديث عمر فيما رواه أبو داود عن الزبير قال جاء الحارث بن خزيمة (هو المسمى في بعض الروايات خزيمة وأبا خزيمة) بالآيتين من آخر سورة براءة فقال اشهد اني سمعتهما من رسول الله فقال عمر وأنا اشهد لقد سمعتهما منه . ثم قال لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة الخ فدل على ان عمر ما قال ذلك الا عن علم أن ذلك اقل مقدار سورة. وتسمية القطعة المعينة من عدة آيات القرآن سورةً من مصطلحات القرآن وشاعت تلك التسمية عند العرب حتى المشركين منهم فالتحدي للعرب بقوله تعالى « فأتوا بعشر سور مثله » « فاتوا بسورة من مثله » . لا يكون الا تحديا باسم معلوم المسمّى والمقدار عندهم وقت التحدي فان آيات التحدي نزلت بعد السور الاول وقد جاء في القرآن تسمية سورة النور باسم سورة في قوله تعالى « سورة أنزلناها » أي هذه سورة .

وجمع سورة سور بتحريك الواو كغرف ونقل في شرح القاموس عن الكُراع(١) انها تجمع على سور بسكون الواو. وتسوير القرآن من السنة من زمن النبيء صلى الله عليه وسلم . فقد كان القرآن يومئذ مقسما الى مائة وأربع عشرة سورة باسمائها . ولم يخالف في دلك الا عبد الله بن مسعود فانه لم يثبت المعوذتين في سور القرآن . وكان يقول انما هما تعوذ أمر الله رسوله بان يقوله وليس هو من القرآن كما في صحيح البخاري . واثبت القنوت الذي يقال في صلاة الصبح على أنه سورة من القرآن سماها سورة الخلع والخنع . وجعل سورة الفيل . وسورة قريش سورة واحدة وكل ذلك استناد لما فهمه من نزول

(١) هو علي بن حسن الهنائي بضم الهاء نسبة الى هناءة بوزن ثمامة اسم جد قبيلة من قبائل الازد . والكراع بضم الكاف وتخفيف الراء لقب لعلي هذا كان يلقب كراع النمل .

القر آن ، ولم يحفظ عن الصحابة حين جمعوا القر آن انهم ترددوا ولا اختلفوا في عدد سوره ، وأنها مائة واربع عشرة سورة، روى أصحاب السنن ، وأحمد بن حنبل عن ابن عباس : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا نزلت الآية يقول ضعوها في السورة التي يذكر فيها كذا فترتيب الآيات في السور هو بتوقيف من النبيء صلى الله عليه وسلم ، وكذلك عزا ابن عطية الى مكي بن ابي طالب وجزم به السيوطي في الاتقان ، وبذلك يكون مجموع السورة من الآيات ايضا توقيفيا ، ولذلك تجد في الصحيح ان النبيء صلى الله عليه وسلم قرأ في الصلاة سورة كذا وسورة كذا من طوال وقصار ومن ذلك حديث صلاة الكسوف ،

وفائدة التسوير ما قاله صاحب الكشاف في تفسير قوله تعالى « فاتوا بسورة من مثله » ان الجنس اذا انطوت تحته انواع كان احسن وانبل من ان يكون بيانا (١) واحدا وان القارىء اذا ختم سورة او بابا من الكتاب ثم اخذ في آخر كان انشط له واهزّ لعطفه كالمسافر اذا علم انه قَطَع ميلا او طوى فرسخا»

واما ترتيب السور بعضها إثر بعض فقال ابو بكر الباقلاني يحتمل انالنبيء صلى الله عليه وسلم هو الذي أمر بترتيبها كذلك ، ويحتمل أن يكون ذلك من اجتهاد الصحابة ، وقال الداني كان جبريل يوقف رسول الله على موضع الآية وعلى موضع السورة، وفي المستدرك عن زيد بن ثابت أنه قال «كنا عند رسول الله نؤلف القر آن من الرقاع » قال البيهقي تأويله انهم كانوا يؤلفون آيات السور ونقل ابن عطية عن البافلاني الجزم بان ترتيب السور بعضها إثر بعض هو من وضع زيد ابن ثابت بمشاركة عثمان ، قال ابن عطية وظاهر الاثر ان السبع الطوال والحواميم والمفصل كانت مرتبة في زمن النبيء صلى الله عليه وسلم ، وكان من السور ما لم يرتب فذلك هو الذي رتب وقت كتابة المصحف ،

فالمصاحف الاولى التي كتبها الصحابة لانفسهم في حياة النبيء صلى الله عليه وسلم كانت مختلفة في ترتيب وضع السور وممن كان له مصحف عبدالله بن مسعود

( ) بيانا بموحدتين ثانيتهما مشددة ونون قال السيد هو الشيء وكأن الكلمة نماية .

وأبيّ بن كعب وروي أن اول من جمع القر آن في مصحف سالم مولى ابي حذيفة.

قال في الاتقان ان من الصحابة من رتب مصحفه على ترتيب النزول أي بحسب ما بلغ اليه علمه وكذلك كان مصحف علي رضي الله عنه وكان أوله اقرأ باسم . ثم المدثر ، ثم المزمل. ثم التكوير وهكذا إلى آخر المكي ثم المدني .ومنهم من رتب على حسب الطول والقصر وكذلك كان مصحف أبيّ وابن مسعود فكانا ابتدءا بالبقرة ثم النساء ثم آل عمران ، وعلى هذه الطريقة أمر عثمان رضي الله عنه بترتيب المصحف المدعو بالامام اخرج الترمذي بسنده وصححه وحسنه عن ابن عباس قال قلت لعثمان بن عفان ما حملكم ان عمدتم الى الانفال وهي من المثاني والى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموهما في السبع الطوال فقال عثمان «كان رسول الله مما يأتي عليه الزمان وهو تنزل عليه السور ذوات العدد فكان اذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وكانت الانفال من أوائل ما أنزلت بالمدينة وكانت براءة من آخر القر آن وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت انها منها فقبض رسول الله ولم يبين لنا أنها منها فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم فوضعتها في السبع الطوال » ورواه أبو داود أيضا ، وفي باب تأليف القر آن من البخاري عن عبد الله ابن مسعود انه ذكر النظائر التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأهن في في كل ركعة فسئل علقمة عنها فقال عشرون سورة من اول المفصل على تأليف ابن مسعود آخرها من الحواميم حم الدخان وعم يتساءلون ، على ان الجمهور جزموا بان كثيرا من السور كان مرتبا في زمن النبيء صلى الله عليه وسلم ، ثم اعلم ان ظاهر حديث عائشة رضي الله عنها في صحيح البخاري في باب تأليف القر آن انها لا ترى القراءة على ترتيب المصحف أمرا لازما فقد سألها رجل من العراق ان تريه مصحفها ليؤلف عليه مصحفه فقالت «وما يضرك أيّةَ آية قرأتَ قبلُ انما نزل اولُ ما نزل منه سورة فيها ذكر الجنة والنار حتى اذا ثاب الناس الى الاسلام نزل الحلال والحرام » وفي صحيح مسلم عن حذيفة ان النبيء صلى الله عليه وسلم

صلى بالبقرة ثم بالنساء ثم بآل عمران في ركعة قال عياض في الاكمال هو دليل لكون ترتيب السور وقع باجتهاد الصحابة حين كتبوا المصحف وهو قول مالك رحمه الله وجمهور العلماء اهـ. وأحسب أن الترتيب روعي فيه أمور منها الطول القصر وهو الاصل والاكثر مع مناسبات أخرى توجب مخالفة رعي الطول والقصر مخالفةً مّا مثل تناسب السور في الفواتح مع التقارب في الطول كما في جعل آل عمران عقب البقرة دون سورة النساء ، ومثل تناسب السورتين في الخاتمة وفاتحة التي تليها ، ومثل مراعاة تأخر النزول في السور التي علم الصحابة الذين رتبوا المصحف تواريخ نزولها فقد رتبت السور ذوات حم في المصحف على ترتيب نزولها مع أن بعض ما تأخر منها عن بعض هي اطول من بعض ما تقدمت عليها والحاصل أن الاصل تقديم الطولى على التي دونها إلا اذا عرضت اعتبارات تقتضي مخالفة هذا الاصل كما ذكرناه.

وعلى الاحتمالين يجوز ان يقرأ بعض السور قبل البعض المثبت في المصحف قبله قال ابن بَطّال (١) لا نعلم أحدا قال بوجوب القراءة على ترتيب السور في المصحف بل يجوز ان تقرأ الكهف قبل البقرة ، وأما ما جاء عن السلف في النهي عن قرآءة القرآن منكسا فالمراد منه ان يقرأ من آخر السورة إلى أولها اهـ .

وأما اسماء السور فقد دل حديث ابن عباس المتقدم أن النبيء صلى الله عليه وسلم كان يقول اذا نزلت الآية ضعوها في السورة التي يذكر فيها كذا فسورة البقرة مثلا كانت تلقب بالسورة التي تذكر فيها البقرة . قلت وأصل ذلك من باب التوصيف ، ثم شاع فحذفوا الموصول وعوضوه بالاضافة فقالوا سورة ذكر البقرة. ثم حذفوا المضاف وأقاموا المضاف إليه مقامه فقالوا سورة البقرة وسورة الفتح مثلا، او انهم لم يقدروا مضافا وأضافوا السورة لما يذكر فيها لادنى ملابسة ، وقد ثبت في صحيح البخاري أن عائشة رضي الله عنها قالت لما نزلت الآيات من آخر البقرة الحديث. وفي أول سجود القرآن من صحيح البخاري

---

(١) هو علي بن خلف بن بطال القرطبي ثم البلنسي المالكي المتوفى سنة ٤٤٤ له شرح على صحيح البخاري .

عن ابن مسعود قال قرأ رسول الله النجم، وفي بعض أبوابه عن ابن عباس أن رسول الله سجد بالنجم .

وقد روي حديث عن أنس مرفوعا لا تقولوا سورة البقرة ، ولا سورة آل عمران ، ولا سورة النساء، وكذلك القرآن كله ، ولكن قولوا السورة التي يذكر فيها آل عمران وكذا القرآن كله، قال احمد بن حنبل هو حديث منكر ، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات . ويذكر عن ابن عمر انه كان يقول مثل ذلك ولا يرفعه الى النبيء صلى الله عليه وسلم ذكره البيهقي في شعب الايمان . وكان الحجاج بن يوسف يمنع من يقول سورة كذا ويقول قل السورة التي يذكر فيها كذا ولم يشتهر عن السلف هذا المنع ، ولهذا ترجم البخاري رحمه الله في كتاب فضائل القرآن بقوله باب من لم ير بأسا ان يقول سورة البقرة وسورة كذا وسورة كذا ، واخرج فيه احاديث تدل على انهم قالوا سورة البقرة ، سورة الفتح ، سورة النساء ، سورة الفرقان ، سورة براءة ، وبعضها من لفظ النبيء صلى الله عليه وسلم . وعليه يجوز ان يقول القائل سورة البقرة او التي يذكر فيها البقرة ، وان يقول سورة والنجم وسورة النجم وقرئت النجم وقرئت والنجم .

والظاهر ان الصحابة سموا بما حفظوه عن النبيء صلى الله عليه وسلم او اخذوا لها اشهر الاسماء التي كان الناس يعرِّفونها بها ولو كانت التسمية غير مأثورة فقد سمى ابن مسعود القنوت سورة الخلع والخنع كما مر فتعين ان تكون التسمية من وضعه .

واسماء السور اما ان تكون باوصافها مثل الفاتحة وسورة الحمد ، واما ان تكون بالاضافة لشيء اختصت بذكره نحو سور لقمان ويوسف والبقرة ، واما بالاضافة لما كان ذكره فيها اوفَى نحو سورة هود وسورة ابراهيم، واما بالاضافة لكلمات تقع في السورة نحو سورة براءة وسورة حم عسق وسورة حم السجدة كذا سماها بعض السلف وسُورة فاطر وسموا مجموع السور المفتتحة بكلمة حم « آل حم ».

واحسب ان الصحابةلم يثبتوا في المصحف اسماء السور بل اكتفوا باثبات البسملة

في مبدإ كل سورة علامة على الفصل بين السورتين . وانما فعلوا ذلك كراهة ان يكتبوا في اثناء القرآن ما ليس بآية قرآنية فاختاروا البسملة لانها تجمع معاني حسنة مع كونها آية من القرآن .

واما ترتيب الآيات التي تتكون منها السور فان التنجيم في النزول من المعلوم كما تقدم آنفا وذلك في آياته وسوره فربما نزلت السورة جميعا دفعة واحدة كما نزلت سورة الفاتحة وسورة المراسلات من السور القصيرة وربما نزلت نزولا متتابعا اذا كانت طويلة كسورة الانعام وفي صحيح البخاري عن البراء بن عازب قال آخر سورة نزلت كاملة براءة، وربما نزلت السورة مفرقة ونزلت السورتان مفرقتين في اوقات متداخلة . روى الترمذي عن ابن عباس عن عثمان بن عفان قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يأتي عليه الزمان وهو تنزل عليه السور ذوات العدد (اي في اوقات متقارنة فكان اذا نزل عليه الشيء دعا بعض من يكتب الوحي فيقول ضعوا هؤلاء الآيات في السورة كذا كما تقدم في ترتيب الآيات) ولذلك فمن السور ما بعضه مكي ، وبعضه مدني. وكذلك تنهية كل سورة كان بتوقيف من النبيء صلى الله عليه وسلم فكانت نهايات السور معلومة كما يشير إليه حديث من قرأ الآيات الخواتم من سورة آل عمران . وقول زيد بن ثابت « فقدت سورة آخر براءة » . فتوفي رسول الله والقرآن مسور سورا معينة كما دل عليه حديث اختلاف عمر بن الخطاب مع حكيم بن حزام في آيات من سورة الفرقان في حياة النبيء صلى الله عليه وسلم كما تقدم في المقدمة الخامسة . وقال عبد الله بن مسعود في سور : بني اسرائيل ، والكهف ، ومريم ، وطه ، والانبياء « هن من العِتَاق الاول وهن من تلادي » وقد جمع من الصحابة القرآن كله في حياة رسول الله : زيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل ، وابو زيد ، وأبي بن كعب ، وابو الدرداء ، وعبد الله بن عمر ، وعبادة بن الصامت ، وابو ايوب ، وسعد بن عبيد ، ومُجَمِّع بن جارية ، وابو موسى الاشعري . وحفظ كثير من الصحابة اكثر القرآن على تفاوت بينهم .

وفي حديث غزوة حنين لما انكشف المسلمون قال النبيء صلى الله عليه

وسلم للعباس اصرخ يا معشر الانصار يأ صحاب السَمُرة يأ صحاب سورة البقرة فلعل الانصار كانوا قد عكفوا على حفظ ما نزل من سورة البقرة لانها أول السور النازلة بالمدينة . وفي أحكام القرآن لابن العربي عن ابن وهب عن مالك كان شعارهم يوم حنين يأصحاب سورة البقرة .

وقد ذكر النحويون في الوقف على تاء التأنيث هاء أن رجلا نادى يا أهل سورة البَقَرَتْ بإثبات التاء في الوقف وهي لغة فاجابه مجيب ما أحفظ منها ولا آيَتْ محاكاة للغته .

المقدمة التاسعة

في أن المعاني التي تصلح جمل القرآن للحمل عليها ينبغي أن تعتبر مرادة

إن العرب أمة جبلت على ذكاء القرائح وفطنة الافهام فعلى دعامة فطنتهم وذكائهم اقيمت أساليب كلامهم وبخاصة كلام بلغائهم . ولذلك كان الايجاز عمود بلاغتهم لاعتماد المتكلمين على افهام السامعين كما قيل « لمحة دالة » ولاجل ذلك كثر في كلامهم المجاز والاستعارة والتمثيل والكناية والتعريض والاشتراك والتسامح في الاستعمال كالمبالغة والاستطراد ومستتبعات التراكيب والامثال .

وملاك ذلك كله ان تامات وفرة المعاني واداء ما في نفس المتكلم باوضح عبارة وأخصرها ليسهل ائتلافها بالاذهان واعتصارها .

وقد جاء القرآن على اسلوب ابدع مما كانوا يعهدون واعجب فاعجز بلغاء المعاندين عن معارضته ولم يسعهم الا الاذعان لفصاحته وبلاغة دلالته سواء في ذلك من آمن منهم مثل لبيد بن ربيعة وكعب بن زهير والنابغة الجعدي . ومن استمر على كفره عنادا مثل الوليد بن المغيرة . فالقرآن من جانب اعجازه يكون اكثر معاني من المعتاد الذي يودعه البلغاء في كلامهم من المعاني . وهو لكونه كتاب تشريع وتاديب وتعليم لامة، كان حقيقا بان يودع فيه من المعاني والمقاصد اكثر ما تحتمله الالفاظ في اقل ما يمكن من المقدار بحسب ما تسمح به اللغة الوارد هو بها التي هي اسمح اللغات بهذه الاعتبارات . ليحصل تمام المقصود من الارشاد الذي جاء لاجله في جميع نواحي الهدي . فمعتاد البلغاء ابداع معنى وترك غيره والقرآن ينبغي ان يودع من المعاني ما له حظ في البلاغة سواء كانت متساوية ام متفاوتة في البلاغة اذا كان المعنى الاعلى مقصودا وكان ما هو ادنى منه مرادا معه لا مرادا دونه . وسواء كانت دلالة التركيب عليها متساوية في الاحتمال والظهور ام كانت متفاوتة بعضها

اظهر من بعض ، ولو أن تبلغ حدَّ التاويل وهو حمل اللفظ على المعنى المحتمل المرجوح اما اذا تساوى المعنيان فالامر اظهر مثل قوله تعالى « وما قتلوه يقينا » اي ما تيقنوا قتله ولكن توهمــوه او ما اتقن النصارى خبر قتل المسيح ولكن فهمــوه فهمـا مخطأ . وقوله « فانساه الشيطان ذكر ربه » فيها معنيان في لفظ ذكر ، ومعنيـان في لفظ ربه وقوله « قال معاذ الله انه ربي احسن مثواي » كذلك وقد تكثـر المعاني بانزال الآية على قـراءتين او اكثر كقوله تعـالى « الا عن موعدة وعدها إياه » بالمثناة التحتية وقـرىء وعدها إياه بالبـاء الموحـدة فنشأ احتمـال فيمن هو الواعد ولما كان القرآن نازلا من المحيط علمــه بكل شيء كان ما تسمح تراكيبه باحتماله من المعاني المـالوفة للعرب في امثال تلك التراكيب مظنـونا بانه مراد لمُنزله ما لم يمنع من ذلك مانع صريح او غالب من دلالة شرعيـة او لغوية او توقيفية .

ويدلنا لهذا ما وقع الينا من تفسيرات مروية عن النبيء صلى الله عليه وسلم لآيات فنرى منها ما نوقن بانه ليس هو المعنى الاسبق من التركيب ولكنا بالتامـل نعلم انه ما اراد بتفسيره الا ايقاظ الاذهان الى اخذ اقصى المعاني من الفاظ القرآن.
مثال ذلك ما رواه ابو سعيد بن المعلّى قال دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم وانا في الصلاة فلم أجبه فلما فرغت اقبلت اليه فقال : ما منعـك ان تجيبني فقلت : يا رسول الله كنت اصلي فقال : الم يقل الله تعالى استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم» فلا شك ان المعنى المسوقـة فيه الآية هو الاستجابة بمعنى الامتثال كقوله « الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما اصابهم القرح » وان المراد من الدعوة الهداية كقوله «يدعون الى الخير» وقد تعلق فعل دعاكم بقوله لما يحييكم اي لما فيه صلاحكم غير ان لفظ الاستجابة لما كان صالحا للحمل على المعنى الحقيقي ايضا وهو إجـابة النداء حمل النبيء الآية على ذلك في المقـام الصالح له بقطع النظر عن المتعلّق وهو « لما يحييكم » وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرْلاً كما بدأنا اول خلق نعيده » مع ان سياق قوله تعالى « كما بدانا اول خلق نعيده » انما هو تشبيه الخلق الثاني بالخلق الاول لدفع استبعاد البعث كقوله «افعيينا

بالخلق الاول ، بل هم في لبس من خلق جديد » وقوله « وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو اهون عليه» فذلك مورد التشبيه. غير ان التشبيه لما كان صالحا للحمل على تمام المشابهة اعلمنا النبيء صلى الله عليه وسلم ان ذلك مراد منه بان يكون التشبيه بالخلق الاول في التجرد من الثياب ونحو ذلك .

وكذلك قوله تعالى « ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » فقد قال النبيء صلى الله عليه وسلم خيّرني ربي وسأزيد على السبعين فحمل لفظ العدد على معناه الصريح دون المعنى الكنائي عن الكثرة اذ كان المعنى الاصلي محتملا وان كان احتماله مرجوحا بقرينة السياق فالحمل عليه تاويل دعت اليه شدة رغبة النبيء صلى الله عليه وسلم في حصول المغفرة لهم . ومن هذا القبيل قوله صلى الله عليه وسلم لام كلثوم بنت عقبة بن ابي معيط حين جاءت مسلمة مهاجرة الى المدينة وابت ان ترجع الى المشركين قرأ النبيء قوله تعالى يخرج الحي من الميت.

وكذلك ما ورد عن اصحاب النبيء صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم من الايمة مثل ما روي ان عَمْرَو بنَ العاصي رضي الله عنه اصبح جنبا في غزوة في يوم بارد فتيمم وقال : الله تعالى يقول «ولا تقتلوا انفسكم ان الله كان بكم رحيما» مع ان مورد الآية اصله في النهي عن ان يقتل الناس بعضهم بعضا . وكذلك استنباط عمر ابتداء التاريخ بيوم الهجرة من قوله تعالى« لمسجد اسس على التقوى من اول يوم احق ان تقوم فيه» فان المعنى الاصلي انه اسس من اول ايام تاسيسه واللفظ صالح لان يحمل على انه اسس من اول يوم من الايام اي احق الايام بان يكون اول ايام الاسلام . وقد استدل فقهاؤنا على مشروعية الجعالة ومشروعية الكفالة في الاسلام بقوله تعالى في قصة يوسف ولمن جاء به حمل بعير وانا به زعيم كما تقدم في المقدمة الثالثة مع انه حكاية قصة مضت في امة خالت ليست في سياق تقرير ولا انكار ولا هي من شريعة سماوية الا ان القرآن ذكرها ولم يعقبها بانكار. ومن هذا القبيل استدلال الشافعي على حجية الاجماع وتحريم خرقه بقوله تعالى «ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا » مع ان سياق الآية في احوال المشركين فالمراد من الآية

مشاقة خاصة واتباع غير سبيل خاص ولكـن الشافعي جعل حجية الاجماع من كمال الآيـة .

ثم ان معـاني التركيب المحتمـل معنيين فصاعـدا قد يكون بينهـا العموم والخصوص فهذا النوع لا تردد في حمل التركيب على جميع ما يحتمله ما لم يكن عن بعض تلك المحامل صارف لفظي او معنوي مثل حمل الجهاد في قوله تعالى «ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه» في سورة العنكبوت على معنيي مجاهدة النفس في اقامة شرائع الاسلام، ومقـاتلة الاعداء في الذب عن حوز الاسلام . وقـد يكون بينها التغاير بحيث يكون تعيين التركيب للبعض منـافيا لتعيينـه للاخر بحسب ارادة المتكلم عرفـا ولكن صلوحية التركيب لها على البدلية مع عدمما يعين ارادة احدها تحمل السامع على الاخذ بالجميع ايفاء بما عسى ان يكون مراد المتكلم فالحمل على الجميع نظير ما قاله اهـل الاصول في حمل المشترك على معانيه احتياطـا . وقد يكون ثاني المعنيين متولدا من المعنى الاول وهذا لا شبهة في الحمـل عليه لانه من مستتبعات التراكيب مثل الكناية والتعريض والتهكم مع معـانيها الصريحة . وعلى هذا القـانون يكون طريق الجمـع بين المعاني التي يذكرها المفسرون او ترجيح بعضها على بعض . ونحن في تفسيرنا هـذا اذا ذكرنا معنيين فصاعدا فذلك على هذا القـانون واذا تركنا معنى مما حمل بعض المفسرين عليه في آيات من القرآن فليس تركنا اياه دالا على ابطاله ولكن قد يكون ذلك لترجح غيره وقـد يكون اكتفاء بذكره في تفاسير اخرى تجنبا للاطالة فان التفاسير اليوم مـوجودة بين يدي اهـل العلم لا يعـوزهم استقراؤها ولا تمييز محاملهـا متى جروا على هذا القانون .

المقدمة العــاشرة

في إعجاز القرآن

لم ار غرضا تناضلت له سهام الافهام، ولا غــاية تسابقت اليها جيـاد الهمم فرجعتْ دونها حسرى، واقتنعت بما بلغتْه من صبابة نزرا. مثل الخوض في وجوه اعجاز القرآن فانه لم يزل شغل اهل البلاغة الشاغل. ومورِدها للمعلول والناهل، ومُغْلَى سِبائها للنديم والواغل، ولقد سبق ان ألف علم البلاغة مشتملا على نماذج من وجوه اعجازه، والتفرقة بين حقيقته ومجازه، الا انه بـاحث عن كل خصائص الكلام العربي البليغ ليكون معيارا للنقد او آلة للصُنع، ثم ليظهر من جرآء ذلك كيف تفوق القرآن على كل كلام بليغ بما توفر فيه من الخصائص التي لا تجتمع في كلام آخر للبلغاء حتى عجز السابقون واللاحقون منهم عن الاتيان بمثله قـال أبو يعقوب السكاكي في كتاب المفتاح «واعلم اني مهدت لك في هـذا العلم قواعد متى بنيتَ عليها اعجب كل شاهد بناؤها، واعترف لك بكمال الحذق في البـلاغة ابنـاؤها ـ الى ان قـال ـ ثم اذا كنت ممن ملك الـذوق وتصفحت كلام رب العزة اطلعتْك على ما يوردك موارد الهِزة، وكشفت عن وجه اعجازه القناع».

فاردت في هذه المقدمة ان الم بكم المـلامة ليست كخطرة طيف، ولا هي كاقامة المنتجع في المربع حتى يظله الصيف، وانما هي لمحة ترون منها كيف كان القرآن معجزا وتتبصرون منها نواحي اعجازه وما انـا بمستقص دلائل الاعجاز في آحاد الآيات والسور، فذلك له مصنفاته وكل صغير وكبير مستطر، ثم ترون منها بلاغة القرآن ولطائف ادبه التي لم يتحدّ بها العـربَ تحـدي اعجاز وانما هي فتح لفنون رائعة من ادب لغتهم حتى تروا كيف كان هـذا القرآن فتح بصائرَ، وفتْح عقول، وفتْح ممالك، وفتح ادب غض ارتقى به الادب العربي مرتقى لم يبلغه ادب امة من قبـل. وكنت ارى الباحثين ممن تقـدمني يخلطون هذين

الغرضين خلطا وربما اهملوا معظم الفن الثاني وربما الموا به الماما وخلطوه بقسم الاعجاز وهو لما كان امرا مبتكرا لايصح في حكم العقول ان يقع به التحدي. وان هذا الفن الثاني هو الذي يحق ان يكون البحث فيه من مقدمات علم التفسير لان فن الاعجاز اعلق بعلم اصول الدين .

وان علاقة هذه المقدمة بالتفسير هي ان مفسر القرآن لا يعد تفسيره لمعاني القرآن بالغا حد الكمال في غرضه ما لم يكن مشتملا على بيان دقائق من وجوه البلاغة في آيه المفسَّرة بمقدار ما تعنو اليه الهمة من تطويل واختصار فالمفسر بحاجة الى بيان ما في آي القرآن من طرق الاستعمال العربي وخصائص بلاغته وما فاقت به آيُ القرآن في ذلك حسبما اشرنا اليه في المقدمة الثانية لئلا يكون المفسر اذا اعرض عن ذلك بمنزلة المترجم لا بمنزلة المفسر .

فمن اعجب ما نراه خُلُوُّ معظم التفاسير عن الاهتمام بالوصول الى هذا الغرض الاسمى الا عيون التفاسير فمن مقل مثل معاني القرآن لابي اسحاق الزجاج والمحرر الوجيز للشيخ عبد الحق بن عطية الاندلسي، ومن مكثر مثل الكشاف، ولا يعذرُ في الخلو عن ذلك الا التفاسير التي نحت ناحية خاصةمن معاني القرآن مثل تفاسير احكام القرآن على ان بعض اهل الهمم العلية من اصحاب هذه التفاسير لم يهمل هذا العلق النفيس كما يصف بعض العلماء كتاب احكام القرآن لاسماعيل ابن اسحاق بن حماد المالكي . وكما نراه في مواضع من احكام القرآن لابي بكر بن العربي .

ثم ان العناية بما نحن بصدده من بيان وجوه اعجاز القرآن انما نبعت من مختَزَن اصل كبير من اصول الاسلام وهو كون القرآن هو المعجزة الكبرى للنبيء صلى الله عليه وسلم ، وكونُه المعجزة الباقية ، وهو المعجزة التي تحدى بها الرسول معانديه تحديا صريحا قال تعالى «وقالوا لولا انزل عليه آيات من ربه قل انما الآيات عند الله وانما انا نذير مبين او لم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم» ولقد تصدى للاستدلال على هذا ابوبكر الباقلاني في كتاب له سماه او سُمي اعجاز القرآن واطال وخلاصة القول فيه ان نبوة نبينا عليه الصلاة

والسلام بنيت على معجزة القرآن وان كان قد أيد بعد ذلك بمعجزات كثيرة الا ان تلك المعجزات قامت في اوقات واحوال ومع ناس خاصة ونُقل بعضها متواترا وبعضها نقل نقلا خاصا. فاما القرآن فهو معجزة عامة ولزوم الحجة به باق من اول ورودها الى يوم القيامة وان كان يُعلم وجه اعجازه من عجز اهل العصر الاول عن الاتيان بمثله فيغني ذلك عن نظر مُجدّد فكذلك عجْز اهل كل عصر من العصور التالية عن الاتيان بمثله قد يغني عن النظر في حال عجز اهل العصر الاول . ودليل ذلك متواتر من نص القرآن في عدة آيات تتحدى العربَ بان ياتوا بسورة مثله او بعَشْر سُور مثله مما هو معلوم. ناهيك ان القرآن نادى بانه معجز لهم، نحو قوله تعالى « وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار » الآية فانه سَهّل وسَجّل: سهل عليهم ان ياتوا بمثل سورة من سوره وسجل عليهم انهم لا يفعلون ذلك ابدا، فكان كما سجل. فالتحدي متواتر وعجز المتحدينَ ايضا متواتر بشهادة التاريخ اذ طالت مدتهم في الكفر ولم يقيموا الدليل على كذبه وما استطاعوا الاتيان بسورة مثله ثم عدلوا الى المقاومة بالقوة .

واذ قد كان تفصيل وجوه الاعجاز لا يحصره المتأمل كان علينا ان نضبط معاقدها التي هي ملاكها فنرى ملاك وجوه الاعجاز راجعا الى ثلاث جهات .

الجهة الاولى بلوغه الغاية القصوى مما يمكن ان يبلغه الكلام العربي البليغ من حصول كيفيات في نظمه مفيدة معاني دقيقة ونكتا من اغراض الخاصة من بلغاء العرب مما لا يفيده اصل وضع اللغة بحيث يكثر فيه ذلك كثرة لايدانيها شيء من كلام البلغاء من شعرائهم وخطبائهم .

الجهة الثانية ما ابدعه القرآن من افانين التصرف في نظم الكلام مما لم يكن معهودا في اساليب العرب ولكنه غير خارج عما تسمح به اللغة .

الجهة الثالثة ما أودع فيه من المعاني الحكمية والاشارات الى الحقائق العقلية والعلمية مما لم تبلغ اليه عقول البشر في عصر نزول القرآن وفي عصور بعده متفاوتة .

وقد عد كثير من العلماء من وجوه اعجاز القرءان ما يعد جهة رابعة هي ما انطوى عليه من الاخبار عن المغيبات مما يدل على انه منزل من علام الغيوب

فاعجاز القرءان من الجهتين الاولى والثانية متوجه الى العرب اذ هو معجز لفصحائهم وخطبائهم وشعرائهم مباشرة ومعجز لعامتهم بواسطة ادراكهم ان عجز مقارعيه عن معارضته مع توفر الدواعي عليه هو برهان ساطع على انه تجاوز طاقة جميعهم ثم هو بذلك دليل على صدق المنزل عليه لدى بقية البشر الذين بلغ اليهم صدى عجز العرب بلوغا لا يستطاع انكاره لمعاصريه بتواتر الاخبار ولمن جاء بعدهم بشواهد التاريخ . فاعجازه للعرب الحاضرين دليل تفصيلي ، واعجازه لغيرهم دليل اجمالي .

ثم قد يشارك خاصة العرب في ادراك اعجازه كلٌّ من تعلّم لغتهم ومارس بليغ كلامهم و آدابهم من ايمة البلاغة العربية في مختلف العصور وهذا معنى قول السكاكي في المفتاح مخاطبا للناظر في كتابه : « متوسلا بذلك (أي بمعرفة الخصائص البلاغية التي هو بصدد الكلام عليها) الى ان تتانق في وجه الاعجاز في التنزيل منتقلا مما اجْمَلَه عَجْز المتحَدَّيْنَ به عندك الى التفصيل » .

والقرءان معجز من الجهة الثالثة للبشر قاطبة اعجازا مستمرا على ممر العصور وهذا من جملة ما شمله قول ايمة الدين ان القرآن هو المعجزة المستمرة على تعاقب السنين لانه قد يدرك اعجازه العقلاء من غير الامة العربية بواسطة ترجمة معانيه التشريعية والحكمية والعلمية والاخلاقية وهو دليل تفصيلي لاهل تلك المعاني واجمالي لمن تبلغه شهادتهم بذلك .

وهو من الجهة الرابعة ـ عند الذين اعتبروها زائدة على الجهات الثلاث ـ معجز لاهل عصر نزوله اعجازا تفصيليا ومعجز لمن يجيء بعدهم ممن يبلغه ذلك بسبب تواتر نقل القرءان وتعين صرف الآيات المشتملة على هذا الاخبار الى ما اريد منها .

هذا ملاك الإعجاز بحسب ما انتهى اليه استقراؤنا اجمالا ولنأخذ في شيء من تفصيل ذلك وتمثيله .

فاما الجهـة الاولى فمرجعهـا الى ما يسمى بالطرف الاعلى من البلاغـة والفصاحة وهو المصطلح على تسميته حدّ الاعجاز فلقد كان منتهى التنافس عند العرب بمقدار التفوق في البلاغـة والفصاحة وقد وصف ايمـة البلاغة والادب هذين الامرين بما دَوّن له علما المعاني والبيان وتصدوا في خـلال ذلك للموازنة بين ما ورد في القرءان من ضروب البلاغة ، وبين ابلغ ما حفظ عن العرب من ذلك مما عد في اقصى درجاتها وقد تصدى امثال ابي بكر الباقلاني وابي هلال العسكري وعبد القاهر والسكاكي وابن الاثير الى الموازنـة بين ما ورد في القرءان وبين ما ورد في بليـغ كلام العرب من بعض فنـون البلاغة بما فيه مقنع للمتأمـل ومَثَل للمتمثل ، وليس من حظ الواصف اعجـاز القرءان وصفا اجماليا كصنعنا ههنا ان يصف هذه الجهة وصفا مفصلا لكثرة افانينها فحسبنا ان نحـيل في تحصيل كلياتها وقواعدها على الكتب المجعولة لذلك مثل دلائل الاعجاز واسرار البلاغـة والقسم الثالث فما بعده من المفتاح ونحو ذلك وأن نحيل في تفاصيلها الواصفة لاعجاز آي القرءان على التفاسير المؤلفة في ذلك وعمدتُها كتاب الكشاف للعـلامة الزمخشري وما سنستبطه ونبتكره في تفسيرنا هذا ان شاء اللهغير اني ذاكر هنا اصولا لنواحي اعجازه من هذه الجهة وبخاصة ما لم يذكره الائمة او اجملوا في ذكره .

وحسبنا هنا الدليل الاجمالي وهو ان الله تعالى تحدى بلغاءهم ان ياتوا بسورة من مثله فلم يتعرض واحد الى معارضته اعترافا بالحق ورَبْئا بانفسهم عن التعريض بالنفس الى الافتضاح مع انهم اهل القـدرة في افانين الكلام نظما ونثـرا وترغيبا وزجرا قد خُصوا من بين الامم بقوة الذهن وشدة الحافظة وفصاحة اللسان وتبيان المعاني فلا يستصعب عليهم سابق من المعاني ولا يجمح بهم عسير من المقامات .

قال عياض في الشفاء « فلم يـزل يقرعهم النبيء صلى الله عليه وسلم اشـد التقريع ويوبخهم غاية التوبيخ ويسفه احلامهم ويحط اعلامهم وهم في كل هـذا ناكصون عن معارضته محجمون عن مماثلته يخادعون انفسهم بالتكذيب والاغراء بالافتـراء وقولهم إنْ هذا الا سحرٌ يـؤثر . وسحرٌ مستمر . وافك افتـراه . واساطيرُ الاولين . وقد قال تعـالى « فان لم تفعلـوا ولن تفعلوا » فما فعلوا ولا

قدروا ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمة كُشف عُوَاره (١) لجميعهم . ولما سمع الوليد بن المغيرة قوله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان الآية قال «والله ان له لحلاوة . وان عليه لطلاوة . وان أسفلَه لمُغدِق . وان اعلاه لمُثمِر وما هو بكلام بشر» وذكر ابو عبيدة ان اعرابيا سمع رجلا يقرأ فاصدع بما تؤمر فسجد وقال سجدت لفصاحته . وكان موضع التأثير في هذه الجملة هو كلمة اصدَعْ في ابانتها عن الدعوة والجهر بها والشجاعة فيها وكلمة بما تؤمر في ايجازها وجمعها . وسمع آخرُ رجلا يقرأ فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا فقال اشهد ان مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام . وكونُ النبيء صلى الله عليه وسلم تحدى به وأنَّ العربَ عجزوا عن معارضته مما علم بالضرورة اه »

وقد كان الايجاز مع الايضاح غاية ما تتبارى اليه فصحاؤهم فجاء القرءان بغرائب من ذلك فانك تجد في كثير من تراكيبه حذفا ولكنك لا تعثر على حذف يخلو الكلام من دليل عليه من لفظ او سياق زيادة على جمعه المعاني الكثيرة في الكلام القليل كقوله تعالى ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فاولئك هم الفائزون . قال بعض بطارقة الروم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه قد جمع الله في هذه الآية ما انزل على عيسى من احوال الدنيا والآخرة . ومن ذلك قوله تعالى واوحينا الى ام موسى اَنْ أرْضعيه الآية جمع بين امرين ونهيين وبشارتين ومن ذلك قوله ولكم في القصاص حياة مقابلا اوجز كلام عرف عندهم وهو القتل انفى للقتل . ومن ذلك قوله تعالى وقيل يا ارض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي ولقد بسط السكاكي في المفتاح آخر قسم البيان نموذجا مما اشتملت عليه هذه الآية من البلاغة والفصاحة وتصدى ابو بكر الباقلاني في كتابه المسمى اعجاز القرءان الى بيان ما في سورة النمل من الخصائص . ومن بديع الايجاز في القرءان واكثره ما يسمى بالتضمين وهو يرجع الى ايجاز الحذف. والتضمين ان يضمن الفعل او الوصف معنى فعل او وصف آخر ويشار الى المعنى المضمن بذكر ما هو من متعلقاته من حرف او معمول فيحصل في الجملة معنيان .

( ) العوار مثلث العين وتخفيف الواو .

ومن هذا الباب ما اشتمل عليه من الجمل الجارية مجرى الامثال وهذا باب من ابواب البلاغة لا يستطيعه كل احد منهم وهو الذي لاجله عدت قصيدة زهير في المعلقات فجاء في القرءان ما يفوق ذلك كقوله تعالى « قل كل يعمل على شاكلته» وقوله « طاعة معروفة » وقوله « ادفع بالتي هي احسن »

ومن افانين الكلام الالتفات وهو نقل الكلام من احد طرق التكلم او الخطاب او الغيبة الى طريق آخر منها وهو بمجرده معدود من الفصاحة وسماه ابن جني شجاعة العربية لان ذلك التعبير يجدد نشاط السامع فاذا انظم اليه اعتبار لطيف يناسب الانتقال الى ما انتُقل اليه صار من افانين البلاغة وكان معدوداً عند بلغاء العرب من النفائس وقد جاء منه في القرءان ما لا يحصى كثرة مع دقة المناسبة في الانتقال .

وكان للتشبيه والاستعارة عند القوم المكان القصي والقدر العلي في باب البلاغة وبه فاق امرؤ القيس ونبهت سمعته وقد جاء في القرءان من التشبيه والاستعارة ما اعجز العرب كقوله واشتعل الرأس شيبا وقوله واخفض لهما جناح الذل وقوله وآية لهم الليل نسلخ منه النهار وقوله تعالى ابلعي ماءك وقوله صبغة الله الى غير ذلك من وجوه البديع .

ومن محاسن التشبيه عندهم كمال الشبه ووسيلة ذلك الاحتراس واحسنه ما وقع في القرءان فيها انهار من ماء غير آسن وانهار من لبن لم يتغير طعمه وانهار من خمر لذة للشاربين (احتراس عن كراهة الطعام) وأنهار من عسل مصفّى (احتراس عن ان تتخلله اقذاء من بقايا نحله)

ومن الامثال قوله تعالى ايود احدكم ان تكون له جنة من نخيل واعناب تجري من تحتها الانهار الآية ففيه انمام جهات كمال تحسين التشبيه لاظهار ان الحسرة على تلفها اشد وكذا قوله تعالى مثل نوره كمشكاة الى قوله يكاد زيتها يضيء فقد ذكر من الصفات والاحوال ما فيه مزيد وضوح المقصود من شدة الضياء وما فيه تحسين المشبه وتزيينه بتحسين شبهه واين من الآيتين قول كعب :

شُجَّتْ بذي شَبَمٍ من ماءِ محنيةٍ صافٍ بأبطحَ اضحى وهو مشمول
تنفي الرياحُ القذى عنه وأفرطَه من صوب ساريةٍ بيضٍ يعاليل

ومرجع هذا الصنف من الاعجاز الى ما يسمى في عرف علماء البلاغة بالنكت البلاغية فان بلغاءهم كان تنافسهم في وفرة ايداع الكلام من هذه النكت وبذلك تفاضل بلغاؤهم فلما سمعوا القرءان انثالت على كل من سمعه من بلغائهم من النكت التي تفطن لها ما لم يجد من قدرته قِبَلا بمثله . واحسب ان كل بليغ منهم قدفكر في الاستعانة بزملائه من اهل اللسان فعلم ان لا مبلغ بهم الى التظاهر على الاتيان بمثل القرءان فيما عهده كل واحد من ذوق زميله هذا كله بحسب ما بلغت اليه قريحة كل واحد ممن سمع القرءان منهم من التفطن الى نكت القرءان وخصائصه .

ووراء ذلك نكت لم يتفطن اليها كل احد واحسب انهم تآمروا وتدارسوا بينهم في نواديهم امر تحدى الرسول اياهم بمعارضة القرءان وتواصفوا ما اشتملت عليه بعض آياته العالقة بحوافظهم واسماعهم من النكت والخصائص واوقف بعضهم بعضا على ما لاح له من تلك الخصائص وفكروا وقدروا وتدبروا فعلموا انهم عاجزون عن الاتيان بمثلها ان انفردوا او اجتمعوا ولذلك سجل القرءان عليهم عجزهم في الحالتين فقال تارة فاتوا بسورة من مثله وقال لهم مرة لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا فحالة اجتماعهم وتظاهرهم لم تكن مغفولا عنها بينهم ضرورة انهم متحدَّوْنَ بها .

وهذه الناحية من هذه الجهة من الاعجاز هي اقوى نواحي اعجاز القرءان وهي التي يتحقق بها اعجاز اقصر سورة منه .

وفي هذه الجهة ناحية اخرى وهي ناحية فصاحة اللفظ وانسجام النظم وذلك بسلامة الكلام في اجزائه ومجموعه مما يجر الثقل الى لسان الناطق به ولغة العرب لغة فصيحة واهلها مشهورون بفصاحة الالسن .

وكان مما يعرض لشعرائهم وخطبائهم الفاظ ولهجات لها بعض الثقيل على اللسان فأما ما يعرض للالفاظ فهو ما يسمى في علم الفصاحة بتنافر حروف الكلمة او تنافر حروف الكلمات عند اجتماعها مثل مُسْتَشْزِرات والكَنَهْبَل في معلقة

امرئى القيس وسَفنجة. والخَفيْدد في معلقة طرفة . وقول الشاعر « وليس قرْب قبر حرب ٍ قبرُ »

وقد سلم القرءان من هذا كله مع تفننه في مختلف الاغراض ومــا يقتضيه من تكاثر الالفاظ وبعُض العلماء اورد قوله تعالى الم اعهد اليكم وقوله وعلى امم ممن معك وتصَدى للجواب ، والصوابُ ان ذلك غير وارد كما قاله المحققون لعدم بلوغه حد الثقل ولان حسن جلالة اللفظ على المعنى بحيث لا يخلفـه فيها غيره مقدم على مراعاة خفة لفظه .

فقد اتفق ايمة الادب على ان وقوع اللفظ المتنافر في اثناء الكلام الفصيح لا يزيل عنه وصف الفصاحة فان العرب لم يعيبوا معلقــة امرئى القيس ولا معلقة طرفـة قال ابو العبــاس المبــرد :« وقد يضطر الشاعر المُفْلق والخطيب المِصْقَع والكاتب البليغ فيقع في كلام احدهم المعنى المستغلق واللفظ المستكره فاذ ا انعطفت عليه جنبتا الكلام على عوارة وسترتا من شينه » .

واما ما يعرض للهجات العرب فذلك شيء تفاوتت في مضمارة جياد السنتهم وكان المجلي فيها لسان قريش ومن حولها من القبائل المذكورة في المقدمة السادسة ولذلك جاء القرءان بأحسن اللهجات واخفها وتجنب المكروه من اللهجات وهذا من اسباب تيسير تلقى الاسماع له ورسوخه فيها قال تعالى ولقد يَسـرْنا القرءان للذكر فهل من مدكر .

ومما يعد في هذه الناحية صراحةُ كلماته باستعمال اقرب الكلمات في لغــة العرب دلالةً على المعاني المقصودة ، او أشملها لمعان عديدة مقصودة بحيث لا يوجد في كلمات القرءان كلمَةٌ تقصر دلالتها عن جميع المقصود منها في حالة تركيبها ولا تجدها مستعملة الا في حقائقها او مجازات او استعارات او نحوها مما تُنْصب عليه القرائن في الكلام فان اقتصر الحال تصرفــا في معنى اللفظ كان التصرف بطريق التضمين وهو كثير في القرءان مثل قوله تعالى ولقد اَتـَوا على القرية التي امطرت مطر السَوْء فجــاء فعل اَتـَوامضمناً معنى مَرُوا فعُدي بحرف على لان الاتيــان تعدى الى اسم القرية والمقصودُ منه الاعتبار بمثال اهلها فانه يقــال اتى ارضَ بني

فلان ومَرَّ على حي كذا وهذه الوجوه كلها لا تخالف اساليب الكلام البليغ بل هي معدودة من دقائقه ونفائسه التي تقل نظائرها في كلام بلغائهم لعجز فطنة الاذهان البشرية عن الوفاء بجميعها . واما الجهة الثانية وهي ما ابدعه القرءان من افانين التصرف في اساليب الكلام البليغ وهذه جهة مغفولة من علم البلاغة فاعلم ان ادب العرب نوعان شعر ونثر . والنثر خَطابة واسجاع كهان واصحاب هذه الانواع وان تنافسوا في ابتكار المعاني وتفاوتوا في تراكيب ادائها في الشعر فهم بالنسبة الى الاسلوب قد التزموا في اسلوبي الشعر والخطابة طريقة واحدة تشابهت فنونها فكادوا لا يَعْدون ما الفوه من ذلك حتى انك لتجد الشاعر يحذو حذو الشاعر في فواتح القصائد وفي كثير من تراكيبها فكم من قصائد افتتحت بقولهم بانت سعاد للنابغة وكعب بن زهير وكم من شعر افتتح يا خليلي اربعا واستخبرا وكم من شعر افتتح يا ايها الراكب المزجي مطيته وقال امرؤ القيس في معلقته :

وقوفا بها صحبي عليَّ مَطِيَّهم بقولون لا تَهْلِك اسًى وتحمل

فقال طرفة في معلقته بيتا مماثلا له سوى ان كلمة القافية منه « وتجلّد »

وكذلك القول في خطبهم تكاد تكون لهجة واحدة واسلوبا واحدا فيما بلغنا من خطب سحبان وقس بن ساعدة ، وكذلك اسجاع الكهان وهي قد اختصت بقصر الفقرات وغرابة الكلمات ،

انما كان الشعر الغالب على كلامهم وكانت الخطابة بحالة ندور لندرة مقاماتها قال عُمر « كان الشعر علم القوم ولم يكن لهم علم اصح منه فانحصر تسابق جياد البلاغة في ميدان الكلام المنظوم فلما جاء القرءان ولم يكن شعراً ولا سمعَ كُهان وكان من اسلوب النثر اقرب الى الخطابة ابتكر للقول اساليب كثيرة بعضها تنوع بتنوع المقاصد ، ومقاصدُها بتنوع اسلوب الانشاء فيها افانينَ كثيرة فيجد فيه المطلع على لسان العرب بغيته ورغبته ولهذا قال الوليد بن المغيرة لما استمع الى قراءة النبيء صلى الله عليه وسلم « والله ما هو بكاهن ما هو بزمزمته ولا سجعه . وقد عرفْنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومبوسطه ومقبوضه ما هو بشاعر . »

وكذلك وصفه أنيس بن جنادة الغفاري الشاعر أخو أبي ذر حين انطلق الى

مكة ليسمع من النبيء صلى الله عليه وسلم ويأتي بخبره الى اخيه فقال « لقد سمعتُ قول الكهنة فما هو بقولهم ولقد وضعته على اقراء الشعر (١) فلم يلتئم وما يلتئم على لسان احد بعدي انه شعر » ثم اسلم . وورد مثل هذه الصفة عن عتبة بن ربيعة . والنضر بن الحرث . الا ان المشركين لما لم يجدوا بدا من الحاق القرءان بصنف من اصناف كلامهم الحقوه باشبه الكلام به فقالوا انه شعر تقريبا بما عهده القوم من الكلام الجدير بالاعتبار من حيث ما فيه من دقائق المعاني و احكام الانتظام والنفوذ الى العقول فانه مع بلوغه اقصى حد في فصاحة العربية ومع طول اغراضه وتفنن معانيه وكونه نثرا لا شعرا ترى اسلوبه يجري على الالسنة سلسا سهلا لا تفاوت في فصاحة تراكيبه .

وترى حفظه اسرع من حفظ الشعر . وقد اختار العرب الشعر لتخليد اغراضهم و آدابهم لان ما يقتضيه من الوزن يلجىء الى التدرب على الفاظ متوازنة فيكسبها ذاك التوازن تلاؤما فتكون سلسلة على الالسن فلذلك انحصر تسابق جياد البلاغة في الكلام المنظوم وفحول الشعراء مع ذلك متفاوتون في سلاسة الكلام مع تسامحهم في امور كثيرة اعتبرها الناس لهم وهي المسماة بالضرورات.

بحيث لو كان لواحد من البشر ان يتكلف فصاحة لما يقوله من كلام ويعاود تنقيحه وتغيير نظمه بابدال الكلمات او بالتقديم لما حقه التأخير او التأخير لما حقه التقديم او حذف او زيادة قَضَى زمنا مديدا في تأليف ما يُقدَّر بسورة من متوسط سور القرءان ولما سلم مع ذلك من جمل يتعثر فيها اللسان . ولم يدع مع تلك الفصاحة داع الى ارتكاب ضرورة او تقصير في بعض ما تقتضيه البلاغة فبني نظمه على فواصل وقرائن متقاربة فلم تفته سلاسة الشعر ولم يرزح تحت قيود الميزان فجاء القرءان كلاما منثورا ولكنه فاق في فصاحته وسلاسته على الالسنة وتوافق كلماته وتراكيبه في السلامة من اقل تنافر وتعثر على الالسنة . فكان كونه من النثر داخلا في اعجازه وقد اشتمل القرءان على انواع اساليب الكلام العربي وابتكر اساليب لم يكونوا يعرفونها وان لذلك التنوع حكمتين داخلتين

---

(١) الاقراء الطرق

في الاعجاز : اولاهما ظهور انه من عند الله اد قد تعارف الادباء في كل عصر ان يظهر نبوغ نوابغهم على اساليب مختلفة كلّ يجيد اسلوبا او اسلوبين . الثانية ان يكون في ذلك زيادة التحدي للمتحدَّيْن به بحيث لايستطيع احد ان يقول ان هذا الاسلوب لم تسبق لي معالجته ولو جاءنا باسلوب آخر لعارضته .

من اعظم الاساليب التي خالف بها القرءان اساليب العرب انه جاء في نظمه باسلوب جامع بين مقصديه وهما مقصد الموعظة ومقصد التشريع فكان نظمه يمنح بظاهره السامعين ما يحتاجون ان يعلموه وهو في هـذا النوع يشبه خطبهم ، وكان في مطاوي معانيه ما يستخرج منه العالم الخبير احكاما كثيرة في التشريع والآداب وغيرها وقد قـال في الكلام على بعضه « وما يعلم تأويلـه الا الله والراسخون في العلم » هذا من حيث ما لمعانيه من العموم والايماء الى العلل والمقاصد وغيرها .

ومن اساليبه ما نسميه بالتفنن وهو بداعة تنقلاته من فَـنٍ الى فن بطرائق الاعتراض والتنظير والتذييل والاتيان بالمترادفات عند التكرير تجنبا لثقل تكرير الكلم وكذلك الاكثار من اسلوب الالتفات المعـدود من اعظم اساليب التفنن عند بلغاء العربية فكان في القرءان كثيرا ثم الرجوع الى المقصود فيكون السامعون في نشاط متجدد بسماعه واقبالهم عليه ومن ابدع امثلـة ذلك قوله « مَثَلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمـات لا يبصرون صم بكم عمي فهم لا يرجعون او كصيب من السماء فيه ظلمات ورعـد وبرق يجعلون اصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف ابصارهم الخ كلما اضاء لهم مشَوا فيه واذا اظلم عليهم قامـوا ولو شـاء الله لـذهب بسمعهم وابصارهم بحيث كان اكثر اساليب القرءان من الاساليب البديعـة العزيزة في شعر العـرب وفي نثر بلغائهم من الخطباء واصحاب بدائه الاجوبة .

ومن اساليبه العدول عن تكرير الكلمة او الصيغة فيما عدا مقامات التكرير للتهويل ونحوه ولذلك جاء قوله « إن تتوبـا الى الله فقد صغت قلوبكما » بجمع قلوب مع أن الخطاب لامراتين تجنبا لتعدد صيغة المثنى ، وكذلك قوله « وقالوا ما

في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا » فروعي معنى من الموصولة مرة فأتي بضمير جماعة المؤنث وهو خالصة وروعي لفظ مـا الموصولة فأتي بمحرَّم مذكرا مفردا .

ومنها اتساع أدب اللغة في القرءان لم يكن أدب العـرب السائر فيهم غير الشعر فهو الذي يحفظ وينقل ويسير في الآفاق ، وله أسلوب خاص من انتقـاء الالفاظ وإبداع المعاني . وكان غيره من الكلام عسير العلـوق بالحوافظ ، وكان الشعر خاصا بأعراض وابواب معروفة أشهرها واكثرها النسيب . الحماسة . الرثاء الهجاء . الفخر وابـواب أخَر لهم فيها شعر قليـل وهي . المُلَح . المديح ـ ولهم من غير الشعر الخطب . والامثال والمحاورات فأما الخطب فكانت تنسى بانتهـاء المقامـات المقولة فيها فلا يحفظ من الفاظها شيء ، وانما يبقى في السامعين التـأثر بمقاصدها زمانا قليلا للعمل به فتأثر المخاطبيـن بها جزئي ووقتي . واما الامثـال فهي الفاظ قصيرة يقصد منها الاتعاظ بمواردها ، واما المحاورات فمنها عادية لا يهتمون بما تتضمنه اد ليست من الاهمية بحيث تنقـل وتسير ، ومنها محـاورات نَوَاد وهي المحاورات الواقعة في المجامع العامة والمنتديات وهي التي أشار اليها لبيد بقوله :

وكثيـرة غـربـاؤهـــا مجهولة	ترجى نواملها ويخشى ذامها
غلب تشـذر بالدخـــول كأنها	جن البدي رواسيا أقدامها
أنكرتُ باكاها وبؤت بحقها	عندي ولم يفخَر عليَّ كرامها

وتلك مثل مجامعهم عند الملوك وفي مقامات المفاخرات وهي نـادرة الوقوع قليلة السيران وحيدة الغرض إذ لا تعدو المفاخر والمبالغـات فلا يحفظ منها الا ما فيه نكتة او مُلحة او فقرات مسجوعـة مثل خطـاب امـرىء القيس مع شيوخ بني أسد .

فجاء القرءان باسلوب في الادب غض جديد صالح لكل العقـول متفنن الى افانين أغراض الحياة كلها معط لكل فن ما يليق به من المعاني والالفاظ واللهجة

فتضمن المحـاورة والخطـابة والجدل والامثـال (أي الكلم الجوامع) والقصص والتوصيف والرواية .

وكان لفصاحة الفاظه وتناسبها في تراكيبه وترتيبه على ابتكار اسلوب الفواصل العجيبة المتماثلة في الاسماع وان لم تكن متماثلة الحروف في الاسجاع كان لذلك سريع العلوق بالحوافظ خفيف الانتقال والسير في القبائل مع كون مادته ولحمته هي الحقيقة دون المبالغات الكاذبة والمفاخرات المزعومة فكان بذلك له صولة الحق وروعةلسامعيه وذلك تأثير روحاني وليس بلفظي ولامعنوي .

وصار لمجيئه نثرا ، أدبا جديدا غضا ومتناولاً لكل الطبقات .

وكان لبلاغته وتناسقه نافذالوصول الى القلوب حتى وصفوه بالسحر وبالشعر ام يقولون شاعر نتربص به ريب المنون .

مبتكرات القرآن

هذا وللقرآن مبتكرات تميز به نظمه عن بقية كلام العرب .

فمنها انـه جاء على اسلوب يخـالف الشعر **لا** محالة ويخالف الخطابة بعض المخالفة بل جاء بطريقة كتاب يقصد حفظه وتلاوته وذلك من وجوه اعجازه اذ كان نظمه على طريقة مبتكرة ليس فيها اتباع لطرائقها القديمة في الكلام .

ومنا انه جاء بالجمل الدالة على معان مفيدة محررة شأن الجمل العلمية والقواعد التشريعية فلم يات بعمومات شانها التخصيص غير مخصوصة ولا بمطلقات تستحق التقييد غير مقيدة كما كان يفعله العرب لقلة اكترائهم بالاحـوال القليلة والافـراد النـادرة مثاله قوله تعالى « لا يستوي القـاعدون من المؤمنين غير اولي الضـرر والمجاهدون »وقوله «ومن اضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله» فبين ان الهوى قد يكون محمودا اذا كان هوى المرء عن هدى. وقوله «ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا .

ومنها انه جـاء على اسلوب التقسيم والتسوير وهي سنة جديدة في الكلام العربي ادخل بها عليه طريقة التبويب والتصنيف .

ومنها الاسلوب القصصي في حكاية احوال النعيم والعذاب في الاخرة وفي تمثيل الاحوال وقد كان لذلك تأثير عظيم على نفوس العرب اذ كان فن القصص مفقودا من ادب العربية الا نادرا كان في بعض الشعر كابيات النابغة في الحية التي قتلت الرجل وعاهدت اخاه وغدر بها . فلما جاء القرءان بالاوصاف بهت به العرب كما في سورة الاعراف من وصف اهل الجنة واهل النار واهل الاعراف ونادى اصحاب الجنة اصحاب النار الخ وفي سورة الحديد فضرب بينهم بسور الآيات وكذلك التمثيل فقد كان في ادب العرب الامثال وهي حكاية احوال مرموز لها بتلك الجمل البليغة التي قيلت فيها او قيلت لها المسماة بالامثال فكانت تلك الجمل مشيرة الى تلك الاحوال الا انها لما تداولتها الالسن في الاستعمال وطال عليها الامد نسيت الاحوال التي وردت فيها ولم يبق للاذهان عند النطق بها الا الشعور بمغازيها التي تقال لاجلها .

اما القرءان فقد اوضح الامثال وابدع تركيبها كقوله تعالى « ومثل الذين كفروا اعمالهم كرماد اشتدت به الرياح في يوم عاصف » . وقوله « ومن يشرك بالله فكانما خر من السماء فتخطفه الطير او تهوي به الريح في مكان سحيق » وقوله « والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن الى قوله فما له من نور . وقوله « والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه .

ومما يتبع هذا ان القرءان يتصرف في حكاية اقوال المحكي عنهم فيصوغها على ما يقتضيه اسلوب اعجازه لا على الصيغة التي صدرت فيها فهو اذا حكى اقوالا غير عربية صاغ مدلولها في صيغة تبلغ حد الاعجاز بالعربية واذا حكى اقوالا عربية تصرف فيها تصرفا يناسب اسلوب المعجز مثل ما يحكيه عن العرب فانه لا يلتزم حكاية الفاظهم بل يحكي حاصل كلامهم وللعرب في حكاية الاقوال اتساع مداره على الاحاطة بالمعنى دون التزام الالفاظ فالاعجاز الثابت للاقوال المحكية في القرءان هو اعجاز للقرءان لا للاقوال المحكية .

ومن هذا القبيل حكاية الاسماء الواقعة في القصص فان القرءان يغيرها الى

ما يناسب حس مواقعها في الكلام من الفصاحة مثل تغيير اسم شاول الى طالوت وتغيير اسم تارح ابي ابراهيم الى آزر .

لم يلتزم القرءان اسلوبا واحدا واختلفت سوره وتفننت فيكاد تكون لكل سورة لهجة خاصة فان بعضها بني على فواصل وبعضها ليس كذلك.وكذلك فواتحها منها ما افتتح بالاحتفال كالحمد ، وبايها الذين آمنوا ، والم ذلك الكتاب وهي قريب مما تعبر عنه في صناعة الانشاء بالمقدمات ومنها ما افتتح بالهجوم على الغرض من اول الامر نحو الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله اضل اعمالهم ، وبراءة من الله ورسوله ،

من ابدع انواع البلاغة عند العرب الايجاز وهو متنافسهم وقد جاء القرءان بابدعه اذ كان مع ما فيه من من الايجاز المبين في عام المعاني فيه ايجاز عظيم آخر وهو صلوحية معظم آياته لان تؤخذ منها معان متعددة كلها تصبح لها العبارة باحتمالات لا ينافيها اللفظ بعض تلك الاحتمالات مما بمكن اجتماعه وبعضها وان كان فرض واحد منه يمنع من فرض آخر الا ان تحريك الاذهان اليه مما يكفي في حصول المقصد من التذكير به للامتثال او الانتهاء وقد اشرنا الى هذه في المقدمة التاسعة ولولا ايجاز القرءان لكان اداء ما يتضمنه من المعاني في اضعاف مقدار القرءان.

وقد سلك القرءان مسلك الاطناب لاغراض من البلاغة ومن اهم مقامات الاطناب فيه مقام توصيف الاحوال التي يراد بتفصيل وصفها ادخال الروع في قلب السامع وهذه طريقة عربية في مثل هذا كقول ابن زيابة نُبئت عَمرا غارزا راسه في سة يوعد اخواله فمن آيات القرءان في مثله قوله تعالى كلا اذا بلغت التراقي وقيل من راق وظن انه الفراق والتَفَّت الساق بالساق وقوله فلولا اذا بلغت الحلقوم وانتم حينئذ تنظرون ، وقوله مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد اليهم طرفهم .

واعلم ان مما يندرج تحت جهة الاسلوب ما سماه ائمة نقد الادب بالجزالة وما سموه بالرقة وبينوا لكل منهما مقاماته وهما راجعتان الى معاني الكلام ولا تخلو

سورة من القرءان من تكرر هذين الاسلوبين وكل منهما بالغ غـايته في موقعه فبينما تسمعه يقول قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمـة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم ، ويقول يريد الله ان يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا ، اذ تسمعه يقول فان اعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، قال عياض في الشفا ان عتبة ابن ربيعة لما سمع هذه الآية امسك بيده على فم النبيء صلى الله عليه وسلم وقـال له ناشدتك الله والرحم الا ما كففت .

واما الجهة الثالثة وهي ما اودع فيه من المعاني الحكمية والاشارات العلمية فاعلموا ان العرب لم يكن لهم علم سوى الشعر وما تضمنه من الاخبـار قال عمر بن الخطاب كان الشعر علم القوم ولم يكن لهم علم اصح منه ، واعلموا ان العلم نوعان علم اصطلاحي وعلم حقيقي فاما الاصطلاحي فهو مـا تواضع النـاس في عصر من الاعصار على ان صاحبه يعد في صف العلماء وهـذا قد يتغير بتغير العصور ويختلف باختلاف الامم والاقطار وهذا النوع لا تخلو عنه امـة .

وامـا العلم الحقيقي فهو معرفـة ما بمعرفته كمال الانسان وما به يبلغ الى ذروة المعارف وادراك الحقائق النافعة عاجلا وآجلا وكلا العلمين كمال انساني ووسيلة لسيـادة اصحابه على أهـل زمـانهم وبين العلمين عموم وخصوص من وجه وهذه الجهة قد خـلا عنها كلام فصحاء العرب لان اغـراض شعرهم كانت لا تعـدو وصف المشاهدات والمتخيلات والافتراضات المكذوبة ولا تحوم حـول تقرير الحقائق والاخلاق التي هي اغراض القرءان ولم يقل الاصدقا كما اشار اليه فخر الدين الرازي.

ولقد اشتمل القرءان على النوعين فاما النوع الاول فتناوله قريب لا يحتاج الى كد فكر ولا يقتضي نظرا فان مبلغ العلم عندهم يومئذ علوم اهل الكتاب ومعرفة الشرائع والاحكام وقصص الانبياء والامم واخبار العالم وقد اشار الى هذا القرءان بقوله وهذا كتاب انزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمـون ان تقولوا انما انزل

الكتاب على طائفتين من قبلنا وان كنا عن دراستهم لغافلين او تقولوا لو انا انزل علينا لكنا اهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة . وقال تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا ونحو هذا من محاجة اهل الكتاب . ولعل هذا هو الذي عناه عياض بقوله في الشفاء « ما أنبأ به من اخبار القرون السالفة والامم البائدة والشرائع الدائرة مما كان لا يعلم القصة منه الا الفذ من اخبار اهل الكتاب الذي قضى عمره في تعليم ذلك فيورده النبي صلى الله عليه وسلم على وجهه فيعترف العالم بذلك بصحته وحذقه كخبر موسى مع الخضر ويوسف واخوته واصحاب الكهف وذي القرنين ولقمان » الخ كلامه وإن كان هو قد ساقه في غير مساقنا بل جاء به دليلا على الاعجاز من حيث علمه به صلى الله عليه وسلم مع ثبوت الامية ومن حيث محاجته اياهم بذلك فاما اذا اردنا عد هذا الوجه في نسق وجوه الاعجاز فذلك فيما نرى من جهة ان العرب لم يكن ادبهم مشتملا على التاريخ الا باشارات نادرة كقولهم درع عادية ورمح يزنية وقوله احلام عاد واجسام مطهرة وقوله . ليأكل راس لقمان بن عاد ولكنهم لا يا بهون بذكر قصص الامم فجاء القرءان بالكثير من ذلك تفصيلا كقوله واذكر اخا عاد اذ انذر قومه بالاحقاف وكقوله فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ولهذا يقل في القرءان التعرض الى تفاصيل اخبار العرب لان ذلك امر مقرر عندهم معلوم لديهم وانما ذكر قليل منه على وجه الاجمال على معنى العبرة والموعظة بخبر عاد وثمود وقوم تُبع كما اشرنا اليه في المقدمة السابعة في قصص القرءان .

واما النوع الثاني من اعجازه العلمي فهو ينقسم الى قسمين قسم يكفي لادراكه فهمه وسمعه . وقسم يحتاج ادراك وجه اعجازه الى تقرير قواعد العلوم وهو ينبلج للناس شيئا فشيئا انبلاج اضواء الفجر بحسبها مبالغ الفهوم وتطورات العلوم وكلا القسمين دليل على انه من عند الله لانه جاء به امي في موضع لم يعالج اهله دقائق العلوم والجائي به ثاو بينهم لم يفارقهم . وقد اشار القرءان الى هذه الجهة من الاعجاز بقوله تعالى في سورة القصص قل فاتوا بكتاب من

عند الله هو اهدى منهما اتبعه ان كنتم صادقين فان لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون اهواءهم ثم انه ما كان قصاراه مشاركة اهل العلوم في علومهم الحاضرة حتى ارتقى الى ما لم يالفوه وتجاوز ما درسوه والفوه .

قال الابي في امالي التفسير عن شيخه ابن عرفة عند قوله تعالى تولج الليل في النهار في سورة آل عمران « كان بعضهم يقول ان القرءان يشتمل على الفاظ يفهمها العوام والفاظ يفهمها الخواص وعلى ما يفهمه الفريقان ومنه هذه الآية فان الايلاج يشمل الايام التي لا يدركها الا الخواص والفصول التي يدركها سائر العوام اه اقول وكذلك قوله تعالى ان السماوات والارض كانتا رتقا ففتقناهما .

فمن طرق اعجازه العلمية انه دعا للنظر والاستدلال قال في الشفاء « ومنها جمعه لعلوم ومعارف لم تعهد للعرب ولا يحيط بها احد من علماء الامم ولا يشتمل عليها كتاب من كتبهم فجمع فيه من بيان علم الشرائع والتنبيه على طرق الحجة العقلية والرد على فرق الامم ببراهين قوية وادلة كقوله لو كان فيهم آلهة الا الله لفسدتا وقوله او ليس الذي خلق السماوات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم»

ولقد فتح الاعين الى فضائل العلوم بان شبه العلم بالنور وبالحياة لقوله لتنذر من كان حيا وقوله يخرجهم من الظلمات الى النور وقال وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون وقال هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

وهذا النوع من الاعجاز هو الذي خالف به القرءان اساليب الشعر واغراضه مخالفة واضحة . هذا وان الشاطبي قال في الموافقات ان القرءان لا تحمل معانيه ولا يتأول الاعلى ما هو متعارف عند العرب ولعل هذا الكلام صدر منه في التفصي من مشكلات في مطاعن الملحدين اقتصادا في البحث وابقاء على نفس الوقت والا فكيف ينكر اعجاز القرءان لاهل كل العصور وكيف يقصر ادراك اعجازه بعد عصر العرب على الاستدلال بعجز اهل زمانه اذ عجزوا عن معارضته واذ نحن نسلم لهم التفوق في البلاغة والفصاحة فهذا اعجاز اقناعي لا يفيد اهل كل عصر ادراك طائفة منهم هي قدوتهم لاعجاز القرءان وقد بينت نقض كلام الشاطبي في اواخر المقدمة الرابعة ولقد بدت لي حجة لتعلق هذه الجهة الثالثة

بالاعجاز ودوامه وعمومه وهي قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح « ما من الانبياء نبيء الا أُوتي ـ او اعطي ـ من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وانما كان الذي اوتيت وحيا اوحاه الله الي واني ارجو ان اكون اكثرهم تابعا يوم القيامة » ففيه نكتتان غفل عنهما شراح الحديث: الاولى ان قوله ما مِثله آمن عليه البشر اقتضى ان كل نبيء جاء بمعجزة هي اعجاز في امر كان قومه اعجب به واعجزَ عنه فيؤمنون على مثل تلك المعجزة ومعنى ءامَن عليه اي لاجله وعلى شرطه كما تقول على هذا يكون عملنا او اجتماعنا .. الثانية ان قوله وانما كان الذي اوتيت وحيا اقتضى ان ليست معجزته من قبيل الافعال كما كانت معجزات الرسل السابقين افعالا لا اقوالا كقلب العصا وابراء الاكمه بل كانت معجزته ما في القرءان من دلالة على عجز البشر عن الاتيان بمثله من جهتي اللفظ والمعاني وبذلك يؤمن به البشر كلهم . ويفصح عن ذلك تعقيبه بقوله فارجو ان اكون اكثرهم تابعا اذ قد عطف الجملة بالفاء المؤذنة بالترتّب فالمناسبة بين كونه ُاوتي وحيا وبين كونه يرجو ان يكون اكثرهم تابعا لا يظهر معناها الا اذا كانت المعجزة صالحة لجميع الازمان حتى يكون الذين يهتدون لدينه لاجل معجزته أمما كثيرين على اختلاف قرائحهم فيكون هو اكثرَ الانبياء تابعا. ولعل الرجاء متوجه الى كونه اكثر من جميعهم تابعا اي اكثر اتباعا من اَتباع جميع الانبياء كلهم ولم ار من عرّج على بيان وجه التفريع في هذا اللفظ النبوي البليغ .

وهذه الجهة من الاعجاز انما تثبت للقرءان بمجموعه اي مجموع هذا الكتاب اذ ليست كل آية من ءاياته ولا كل سورة من سوره بمشتملة على هذا النوع من الاعجاز ولذلك فهو اعجاز حاصل من القرءان وغير حاصل به التحدي الا اشارة نحو قوله ولو كان من عند غير الله لو جدوا فيه اختلافا كثيرا .

واعجازه من هذه الجهة للعرب ظاهر اذ لاقبل لهم بتلك العلوم كما قال الله تعالى «ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا» واعجاز لعامة الناس ان تجيء تلك العلوم من رجل نشأ اميا في قوم اميين . واعجازٌ لاهل الكتاب خاصة اذ كان ينبئهم بعلوم دينهم مع كونه اميا ولاقبل لهم بان يدعوا انهم علموه لانه كان بمرأى

من قومه في مكة بعيدا عن اهل الكتاب الذين كان مستقرهم بخيبر وتيما ، وبلاد فلسطين ولانه جاء بنسخ دين اليهودية والنصرانية والانحاء على اليهود والنصارى في تحريفهم فلو كان قد تعلم منهم لاعلنوا ذلك وسجلوا عليه انه عق حق التعليم .

واما الجهة الرابعة وهي الاخبار بالمغيبات فقد اقتفينا اثر من سلفنا ممن عد ذلك من وجوه الاعجاز اعتدادا منا بانه من دلائل كون القرءان منزلا من عند الله وان كان ذلك ليس له مزيد تعلق بنظم القرءان ودلالة فصاحته وبلاغته على المعاني العليا . ولا هو كثير في القرءان وسيأتي التنبيه على جزئيات هذا النوع في تضاعيف هذا التفسير إن شاء الله وقد جاء كثير من آيات القرءان بذلك منها قوله آلم غلبت الروم الآية روى الترمذي في تفسيرها عن ابن عباس قال كان المشركون يحبون ان يظهر اهل فارس على الروم لانهم واياهم اهل اوثان وكان المسلمون يحبون ان يظهر الروم لانهم اهل كتاب فذكره ابو بكر للرسول الله فنزل قوله تعالى « آلم غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين » فخرج ابو بكر يصيح بها في نواحي مكة فقال له ناس من قريش افلا نراهنك على ذالك قال بلى وذالك قبل تحريم الرهان فلما كانت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس واسلم عند ذلك كثير من قريش .

وقوله «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا» وقوله «لتركبوها وزينة ويخلق ما لاتعلمون» فما حدث بعد ذالك من المراكب منبأ به في هذه الآية. وقوله «انا فتحنا لك فتحا مبينا» نزلت قبل فتح مكة بعامين .

وقوله «لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون» واعلن ذلك الاعجاز بالتحدي به في قوله تعالى في شأن القرءان وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا سورة من مثله ـ الى قوله ـ ولن تفعلوا فسجل انهم لا يفعلون ذلك ابدا وكذلك كان كما بيناه آنفا في الجهة الثالثة. وكانت بعد فاقررناه في هذه المقدمة قد

صرت قديرا على الحكم فيما اختلف فيه ائمة علم الكلام من ان اعجاز القرءان للعرب هل كان بما بلغه من منتهى الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وما احتوى عليه من النكت والخصوصيات التي لا تقف بها عدة، ويزيدها النظر مع طول الزمان جدة. فلا تخطر ببال ناظر من العصور نكتة او خصوصية الاوجد آيات القرءان تتحملها بحيث لا يمكن ابداع ذلك في كلام الا لعلام الغيوب وهو مذهب المحققين، ام كان بصرف الله تعالى مشركي العرب عن الاتيان بمثله ولولا ان الله سلبهم القدرة على ذلك لامكن ان يأتوا بمثله لانه مما يدخل تحت مقدور البشر ونسب هذا الى ابي الحسن الاشعري وهو منقول في شرح التفتزاني على المفتاح (١) عن النظام وطائفة من المعتزلة .ويسمى مذهب اهل الصرفة .

والاول هو الوجه الذي اعتمده ابوبكر الباقلاني في كتابه اعجاز القرءان(٢) وابطل ما عداه بما لاحاجة الى التطويل به وعلى اعتباره دوّن ائمة العربية علم البلاغة وقصدوا من ذلك تقريب اعجاز القرءان على التفصيل دون الاجمال. فجاءوا بما يناسب الكامل من دلائل الكمال .

(١) في مبحث تعريف الاعجاز في آخر مبحث البيان

(٢) انظر صفحة ١٦ من طبعة مطبعة الاسلام بمصر سنة ١٣١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة فاتحة الكتاب

ثبت في السنة الصحيحة من اسمائها فاتحة الكتاب، وتسمى ام القرءان او ام الكتاب .

فاما تسميتها فاتحة الكتاب فهي تسمية واردة في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في احاديث كثيرة . وفاتحة الشيء اوله وهو مشتق من الفتح وهو ازالة حاجز المكان المقصود ولُوجُه ولحقته هاء التانيث فكانت صيغة اسم الفاعل تقتضي ان موصوفها الشيء الذي يزيل الحاجز وليس مستعملا في حقيقته بل اطلق الوصف على اول الشيء تشبيها له بالفاتح للباب اذ هو اول داخل منه واول ما يلاقي ما وراء الباب. وكانت هاء التأنيث تقتضي ان هذا الاول اعتبر مؤنثا فتعين لمراعاة هذين الامرين ان اطلاق وصف فاتحة على اول الشيء اطلاق فيه ضرب من التاويل والمجاز . واجتلبت هاء التأنيث امّا اريد جعل هذا الوصف كاللقب فالتاء للنقل من الوصفية الى الاسمية مثل تاء العاقبة والعافية وقوله تعالى وما من غائبة في السماء والارض الا في كتاب مبين، ولولا هذان الاعتباران لم يكن وجه للحاق هاء التأنيث بفاتحة لعدم اختصاص هذا الوصف بالموصوف المؤول باعتبار موصوف مؤنث مثل السورة هنا، فانا وجدناهم يُجرون هذا الوصف على ما هو مذكر في المعنى وكذلك الخاتمة كقول الحريري في المقامة الاولى « أدّتْني خاتمة المطاف وهَدَتْني فاتحة الالطاف » فلذلك تعين ان التاء ليست للتأنيث بل للنقل من الوصفية الى الاسمية. وقد صار هذا المركب وهو فاتحة الكتاب علما بالغلبة على هذه السورة ووجه ذلك انها جعلت اول السور في ترتيب القرءان بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ان تجعل هي اول القرءان . وقيل لانها اول ما انزل من

القرءان وهو خلاف الراجح . واضافة سورة الى فاتحة الكتاب اضافة متوسع فيها لان السورة اعم من الفاتحة فالاظهر ان تكون من اضافة الموصوف الى الصفة توسعا وقيل من اضافة العام الى الخاص على ضرب من التوسع سوغه ارادة شهرته بذلك . واما اضافة فاتحة الى الكتاب فاضافة حقيقية باعتبار ان المراد من الكتاب بقية الكتاب عدا الفاتحة كما تقول ديباجة التقليد وخطبة التاليف باعتبار بقيته .

وتسميتها ام القرءان او ام الكتاب وردت في السنة وفي كلام السلف فالام اما بمعنى الاصل والمنشا تشبيها بالوالدة والامّ ايضا اعلى الشيء ومنه ام الراس قالوا في وجه تسمية الفاتحة ام القرءان ثلاثة وجوه: احدها انها مبدؤه ومفتتحه فكانها اصله ومنشؤه يعني ان افتتاحه الذي هو وجود اول اجزاء القرءان قد ظهر فيها فجعلت كالام للولد في انها منشؤه. الثاني انها تشتمل على انواع مقاصد القرءان وهي ثلاثة انواع : الثناء على الله الجامعَ لوصفه جميع المحامد وتنزيهه عن النقائص ، واثبات تفرده بالالاهية. واثبات البعث. والاوامر والنواهي. والوعد والوعيد. فانه لما توقفت الاوامر والنواهي على معرفة الآمر وانه الله الواجب وجوده خالق الخلق. لزم تحقيق معنى الصفات ولما توقف تمام الامتثال على الرجاء للثواب والخوف من العقاب لزم تحقق الوعد والوعيد والفاتحة مشتملة على هاته الانواع فان قوله الحمد لله الى قوله يوم الدين حمد وثناء ـ وقوله اياك نعبد الى قوله المستقيم من نوع الاوامر والنواهي ، وقوله صراط الذين الى آخرها من نوع الوعد والوعيد قيل وذكر المغضوب عليهم والضالين يشير ايضا الى القصص. الثالث انها تشتمل معانيها على جملة معاني القرءان من الحكم النظرية والاحكام العملية فان معاني القرءان اما علوم تقصد معرفتها. واما احكام يقصد منها العمل بها. فالعلوم كالتوحيد والصفات والنبوات والمواعظ والامثال والحكم والقصص ، والاحكام العملية اما عمل الجوارح وهو العبادات والمعاملات بين الناس . واما عمل النفس المسمى عمل القلب وهو تهذيب الاخلاق وآداب الشريعة وكلها تدل عليها معاني الفاتحة بدلالة المقابلة والتضمن والالتزام: فالحمد لله يشمل سائر صفات الكمال التي لاجلها حصر استحقاق الحمد له تعالى لما تدل عليه «الحمد لله» من اختصاص جنس الحمد به تعالى واستحقاقه لذلك كما سياتي. و «رب العالمين» يشمل سائر صفات الافعال وصفات التكوين عند من اثبتها. و «الرحمان

الرحيم » يشمل بعثة الرسل بالشرائع الراجعة للرحمة بالمكلفين، و«ملك يوم الدين» يشمل احوال القيامة كلها. و«اهدنا الصراط المستقيم» يشمل الاحوال الانسانية كلها من عبادات ومعاملات وءاداب، و« صراط الذين انعمت عليهم » يشير الى احوال الامم الماضية الفاضلة ، و« غير المغضوب عليهم ولا الضالين » يشمل سائر الامم الضالة . فيحصل لقاريء الفاتحة علم اجمالي بما يحتوى عليه القرءان يبعث نفسه الى تطلب التفصيل على حسب التمكن والقابلية ولاجل هذا المعنى جعلت قراءة الفاتحة ركنا في كل ركعة من الصلوات فاطلق عليها اسم الام بمعنى اعلى الشيء وهو علو معنوي لانها السورة التي جمعت مقاليد اغراضه.

وهذه السورة مكية بما يقرب من الاجماع، وقال كثير انها اول سورة نزلت والصحيح انه نزل قبلها اقرا باسم ربك وسورة المدثر ثم الفاتحة، وقيل نزل قبلها ايضا ن والقلم وسورة المزمل، وقال بعضهم هي اول سورة نزلت كاملة اي غير منجمة بخلاف سورة القلم ، وقد حقق بعض العلماء انها نزلت عند فرض الصلاة فقرا المسلمون بها في الصلاة عند فرضها وقد عدت في رواية عن جابر بن زيد السورة الخامسة في ترتيب نزول السور وقد علمت ان من العلماء من قال انها اول سورة انزلت . واغراضها قد علمت من بيان وجه تسميتها ام القرءان. وانما وضعت سورة الفاتحة في اول القرءان لانها بمنزلة المقدمة والديباجة كما ستعلمه عند تفسير قوله تعالى الحمد لله واذ قد كان العلماء اختلفوا في ان البسملة اي قولنا بسم الله الرحمان الرحيم(١) آية من اول سورة الفاتحة ، او هي آية من اول كل سورة غير براءة، او ليست بآية من اوائل السور، فقد تعين ان نتكلم عليها من حيث الاحتجاج بها نظرا الى للقولين الاولين وان كانا غير مذهبنا وغير مختارنا ، ولا خلاف بين المسلمين في ان لفظ بسم الله الرحمان الرحيم هو لفظ قرآني لانه جزء آية من قوله تعالى في سورة النمل « انه من سليمان وانه بسم الله الرحمان

(١) البسملة لفظ نحتوه من حروف جملة بسم الله الرحمان الرحيم والنحت هو اخذ حروف من جملة لقصد الاختصار وجعل تلك الحروف كلمة دالة على الجملة الماخوذ منها انظر باب النحت في المزهر .

الرحيم ». كما انهم لم يختلفوا في ان الافتتاح بالتسمية في الامور المهمة ذوات البال اي الشان جاءالترغيب فيه عن النبيء صلى الله عليه وسلم. ولم يختلفوا في ان البسملة رسمها الصحابة في المصاحف في اوائل السور ما عدا سورة براءة. وانما اختلفوا في ان البسملة هل هي آية من سورة الفاتحة ومن اوائل السور غير براءة بمعنى ان الاختلاف بينهم ليس في كون لفظها من الفاظ القرءان ولكنه في تكرر قرآنيتها. فذهب مالك والاوزاعي وفقهاء المدينة والشام والبصرة وقيل باستثناء عبد الله بن عمر وابن شهاب من فقهاء المدينة الى انها ليست بآية من القرءان الا في سورة النمل فانها منها جزء آية . وذهب الشافعي في احد قوليه واحمد واسحاق وابو ثور وفقهاء مكة والكوفة الى انها ءاية من سورة الفاتحة خاصة. وذهب عبد الله بن المبارك والشافعي في احد قوليه وهو الاصح عنه الى انها ءاية من اول كل سورة غير براءة. ولم ينقل عن ابي حنيفة فيها شيء واخذ منه صاحب الكشاف وهو من اهل مذهبه انها ليست من السور عنده فعده في الذين قالوا بعدم وقوعها في اول السور وهو الصحيح عنه لانه قال بعدم الجهر بها مع الفاتحة في الصلاة الجهرية وكره قراءتها في اوائل السور الموصولة بالفاتحة في الركعتين الاولين اه .

اما حجة مذهب مالك ومن وافقه فللعلماء فيها مسلكان احدهما من طريق النظر، والثاني من طريق الاثر. فاما طريق النظر فللمالكية فيه مقالة فائقة لابي بكر الباقلاني (١) وتابعه ابو بكر بن العربي في كتاب احكام القرءان وعبد الوهاب في كتاب الاشراف: قال الباقلاني «لو كانت التسمية من القرءان لكان طريق اثبات ذلك اما التواتر او الآحاد والاول باطل لانه لو ثبت بالتواتر كونها من القرءان لحصل العلم الضروري بذلك ولامتنع وقوع الخلاف فيه بين الامة ، والثاني ايضا باطل لان خبر الواحد لا يفيد الا الظن فلو جعلناه طريقا الى اثبات القرءان لخرج القرءان عن كونه حجة يقينية ولصار ذلك ظنيا

(١) قال ابن العربي في عارضة الاحوذي لم يتكلم ابو بكر الباقلاني من الفقه الا في هذه المسالة خاصة لانها متعلقة بالاصول .

ولو جاز ذلك لجاز ادعاء الروافض ان القرءان دخله الزيادة والنقصان والتغيير والتحريف اهـ . » وهو كلام وجيه والاقيسة الاستثنائية التي طـواها في كلامه واضحة لمن له ممارسة للمنطق وشرطياتها لا تحتاج الى الاستدلال لانها بديهية من الشريعة فلا حاجة الى بسطها . وزاد ابن العربي فقـال « ويكفيك انها ليست من القرءان الاختـلاف فيها والقـرءان لا يختلف فيه اهـ » وزاد عبـد الوهاب فقـال « ان رسول الله بين القرءان بيانا واحـدا متساويا ولم تكن عادته في بيانه مختلفة بالظهور والخفاء حتى يختص به الواحـد والاثنان ولذلك قطعنا بمنع ان يكون شيء من القرءان لم ينقل الينا وابطلنا قول الرافضة ان القرءان حمل جمل وانه عند الامام المعصوم المنتظر فلو كانت البسملة من الحمد لبينها رسول الله بيانا شافيا اهـ »

واما الاستدلال من طريق الاثر فجملة الادلة خمسة الاول ما روى مالك في الموطا عن العـلاء بن عبد الرحمـان عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «قال الله تعالى قسمت الصلاة نصفين بيني وبين عبدي فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سال يقول العبد الحمد لله رب العالمين فاقـول حمدني عبدي الخ» والمراد بالصلاة القراءة في الصلاة ووجه الدليل منه انه لم يذكر بسم الله الرحمان الرحيم . الثاني حديث ابي ابن كعب في الموطا والصحيحين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له الا اعلّمك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الانجيل مثلها قبل ان تخرج من المسجد قال بلى فلما قارب الخروج قال له كيف تقرا اذا افتتحت الصلاة قال ابيٌّ فقرات الحمد لله رب العالمين حتى اتيت على ءاخرها » فهذا دليل على انه لم يقرا منها البسملة . الثالث حديث انس في صحيح مسلم وسنن ابي داوود وسنن النسائي انه قال صليت خلف رسول الله وابي بكر وعمر فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين لا يذكرون بسم الله الرحمـان الرحيم لا في اول قراءة ولا في ءاخرها . الرابع حـديث عائشة في صحيح مسلم قالت كان رسول الله يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمـد لله رب العالمين . الخامس ما في سنن الترمذي وسنن النسائي عن عبد الله بن مغفل

قال صليت مع النبي وابي بكر وعمر وعثمان فلم اسمع احداً منهم يقول بسم الله الرحمان الرحيم اذا انت صليت فقل الحمد لله رب العالمين . ومن الدليل لمذهب مالك ومن وافقه عمل اهل المدينة فان المسجد النبوي من وقت نزول الوحي الى زمن مالك صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون واهل العلم ولم يسمع احد قرأ بسم الله الرحمان الرحيم في الصلاة الجهرية وهل يقول عالم ان بعض السورة جهر ، وبعضها سر ، فقد حصر التواتر بان النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء لم يجهروا بها .

وحجة الشافعي ومن وافقه اثبات الصحابة البسملة في المصاحف على ان البسملة ثبتت في المصحف في اوائل السور مع المبالغة في تجريد القرءان عما ليس منه وقد قال القاضي البيضاوي من ايمة الشافعية انه احتجاج قاصر ونقل عنه انه كتب حاشية على هاته العبارة من تفسيره فقال هذان دليلان يدلان على انها من القرءان لا انها من الفاتحة الا ان ينضم الى الدليل الاول ان تقول في كل محل اثبتت فيه ـ وينضم الى الدليل الثاني ان تقول عما ليس من القرءان في المحل ـ والقيد ان في حيز المنع ا هـ . يعني ان القيدين اللذين تعينت زيادتهما في هذين الدليلين ليتم الاستدلال بهما على كون البسملة من الفاتحة هما قيدان ممنوعان من جانب المخالف اذ لا نسلم الاجماع على ان البسملة من القرءان في كل محل اثبتت فيه ولا نسلم الوفاق على تجريد القرءان عما ليس من القرءان في المحل الذي ذكر فيه .

والباء في بسم الله الرحمان الرحيم متعلقة بمحذوف تقديره أقْرأُ لانها شرعت لابتداء الامور فالتزم حذف متعلقها ايجازا اعتمادا على القرينة ودليل المتعلق هو العمل المشروع فيه ولذلك كان المقدر متعلقا خاصا هو لفظ يدل على ما جعلت التسمية مبدا له دون المتعلق العام كالابتداء فضلا عن الكون او الاستقرار لان القرينة الدالة على المتعلق هي الفعل المشروع فيه المبدأ بالبسملة فتعين ان يكون المقدر اللفظ الدال على ذلك الفعل وقد حكي في القرءان قول السحرة بعزة فرعون عند شروعهم في القاء آلات سحرهم . وفي الكشاف ان العرب في

الجاهلية كانوا يقولون في ابتداء اعمالهم باسم اللات باسم العزى .

ولان مقصد المبتدىء بالبسملة ان تكون اجزاء فعله مقارنة لبركة اسم الله تعالى فلذلك ناسب ان يقدر متعلق الجار لفظا دالا على الفعل المشروع فيه ولو قدر المتعلق معنى الابتداء لتوهم ان الذي يتيمن له بالاسم العلي هو مبدا الفعل لا غير وان كان التيمن في المبدا يعد تيمنا في الجميع بحسب العرف لكن التقدير الآخر اليق بالادب واقطع لتوهم التقصير في التيمن .

والباء باء الملابسة وهي المصاحبة كما هي في قوله تعالى « تنبت بالدهن » وقولهم بالرفاء والبنين وهذا المعنى هو اكثر معاني الباء واشهرها .

وقد تكلموا على تطويل الباء في البسملة في المصاحف بكلام كله غير مقنع والذي يظهر لي ان الصحابة لما كتبوا المصحف طولوها في سورة النمل للاشارة الى انها مبدا كتاب سليمان فهي المحكي فلما جعلوها علامة على فواتح السور نقلوها برسمها . وتطويل الباء فيها صالح لاتخاذه قدوة في ابتداء الغرض الجديد من الكلام بحرف غليظ او ملون .

« والاسم » كلمة يضعها اهل اللغة او يضعها شخص لتدل على ذات او حقيقة فيكون ذكر تلك الكلمة وسيلة لتصور ما وضعت تلك الكلمة له عند المخاطبات والمحاورات .

فاسم الله معناه اللفظ الذي يدل في اللغة على رب العالمين مثل لفظ الجلالة وغيره من الاسماء الحسنى والصفات العلى .

وانما اقحم لفظ اسم بين الباء ولفظ الجلالة في البسملة مضافا الى لفظ الجلالة ولم يقل بالله لان المقصود ان يكون الفعل المشروع فيه شانا من شؤون اهل التوحيد فهو منسوب الى الاله الذي لا تشريك له طالبا من هذا الانتساب التعرض لاعانة الله على ذلك الشان ونجاحه وقبوله عند الله فلما كان المقصود هذا الانتساب كان المناسب ان يكون الشروع في ذلك العمل متصلا بدليل الذات لا بالذات نفسها فلذلك يقحم لفظ اسم في كل ما فيه طلب اعانة مثل اقرا باسم ربك او ما فيه قصد قبول كقوله فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ان كنتم بآياته مؤمنين

فلا يحسن للشارع في مثل ذلك ان يقـول بالله وبهذا يظهر الفرق بين قوله تعالى فسبح باسم ربك العظيم وقوله وسبحه ليلا طويلا فالاول امر بان يقول سبحان الله لان فيه التسبيح باسمه تعالى والثاني امر بتنزيه ذات الله عن النقائص فعدى الامر بالتسبيح الى ضمير الجلالة مباشرة.

و (الله) اسم الذات الواجب وجوده، المستحق لجميع المحامد واصل هذا الاسم الاله بالتعريف وهو تعريف اله الذي هو اسم جنس للمعبود مشتق من أَلَه بالتحريك بمعنى عَبَد فالاله فِعال بكسر الفاء بمعنى مفعول مثل كتاب اطلقه العرب على كل معبود من اصنامهم لانهم يرونها حقيقة بالعبادة ولذلك جمعوه على آلهة بوزن افعلة وتخفيف الهمزة الثانية مدة . ولما كان واجب الوجود سبحانه هو الاله حقا عند الموحدين منهم في خلال عصور الشرك، او قبل ظهور الشرك هو عند المشركين اعظم الارباب اطلقوا عليه اسم هذا الجنس معرفا بال العهدية الذهنية فقالوا الاله (الجنس) فصار هذا الاسم بالتعريف مستعملا له سبحانه وتعالى حتى صار بكثرة الاستعمال لا يفهم منه الا هو فصار علما بالغلبة عليه عليه تعالى مثل النجم على الثريا وعليه فلفظ الاله بالتعريف قد يطلق عندهم على غيره تعالى من بقية معبوداتهم لان اصل العلم بالغلبة لا يمنع اطلاقه على غير المغلب عليه وعليه فتكون استفادة ارادة المتلكم من المعرف عند اطلاقه هل اراد تعريف الجنس او تعريف العلمية بالغلبة منوطة بالقرائن وصلوحية السياق فلما غلب اطلاق الاله على رب الارباب عندهم وموجد كل شيء بطريقة التغليب انتقوا له من اسم الجنس علَما زيادة في الدلالة على انه الاولى باطلاق هذا الاسم عليه بعد ان دلوا على تلك الاولوية بالعلمية الغلبية ليصير الاسم خاصا به غير جائز الاطلاق على غيره على سنة الاعلام الشخصية وحذفوا الهمزة من الاله لكثرة استعمال هذا اللفظ عند الدلالة عليه تعالى . و(الرحمان الرحيم) وصفان مشتقان من رحم دالان على المبالغة في صفة الرحمة اي تمكنها وتعلقها بكثير من المرحومين وانما الخلاف في طريقة استفادة المبالغة منهما وهل هما مترادفان في الوصف بصفة الرحمة او بينهما فارق . والذي يستخلص من

كلام المحققين ان الرحمان صفة مشبهة مثل غضبان وان الرحيم صيغة مبالغة فالرحمان يدل على ان الرحمة صفة ذاتية لله تعالى فتقتضي انها تتعلق بالمخلوقات دون مراعاة جزاء عن عمل.

والرحيم تدل على كثرة تعلق الصفة باصناف المرحومين في الدنيا باطراد ، وفي الاخرة على حسب الاستعداد .

واسم الرحمة موضوع في اللغة العربية لرقة الخاطر وانعطافه نحو الحيّ بحيث تحمل من اتصف بها على الرفق بالمرحوم والاحسان اليه ودفع الضر عنه واعانته على المشاق فهي من الكيفيات النفسانية لانها انفعال ولتلك الكيفية اندفاع يحمل صاحبها على افعال وجودية بقدر استطاعته وعلى قدر قوة انفعاله فوصف الله تعالى بصفات الرحمة في اللغات ناشيء على مقدار عقائد اهلها فيما يجوز على الله ويستحيل وكان اكثر الامم مجسمة ثم يجيء ذلك في لسان الشرائع تعبيرا عن المعاني العالية باقصى ما تسمح به اللغات مع اعتقاد تنزيه الله عن اعراض المخلوقات بالدليل العام على التنزيه وهو قوله ليس كمثله شيء فاهل الايمان اذا سمعوا او اطلقوا وصفي الرحمان الرحيم لا يفهمون منه حصول ذلك الانفعال الملحوظ في حقيقة الرحمة في متعارف اللغة العربية لسطوع ادلة تنزيه الله تعالى عن الاعراض بل انما يراد بهذا الوصف في جانب الله تعالى اثبات الغرض الاسمى من حقيقة الرحمة وهو صدور آثار الرحمة من الرفق واللطف والاحسان والاعانة لان ما عدا ذلك من القيود الملحوظة في مسمى الرحمة في متعارف الناس لا اهمية له لولا انه لا يمكن بدونه حصول آثاره الا ترى ان المرء قد يرحم احدا ولا يملك له نفعا لعجز او نحوه وقد اشار الى ما قلناه ابو حامد الغزالي في المقصد الاسنى بقوله « الذي يريد قضاء حاجة المحتاج ولا يقضيها فان كان قادرا على قضائها لم يسم رحيما اذ لو تمت الارادة لوفى بها وان كان عجزا فقد يسمى رحيما باعتبار ما اعتوره من الرحمة والرقة ولكنه ناقص . »

وعلى رعي هذه القاعدة فقد شاع ورود اشكال في وجه ارداف وصفه الرحمان بوصفه بالرحيم مع ان شان اهل البلاغة اذا اجروا وصفين من معنى واحد على

موصوف في مقام الكمال ان يرتقوا من الاعم الى الاخص ومن القوي الىالاقوى كقولهم شجاع باسل وجواد فياض وعالم نحرير وخطيب مصقع وشاعر مفلق وقد رايت للمفسرين في توجيه الارتقاء من الرحمان الى الرحيم اجوبة كثيرة مرجعها الى اعتبار الرحمان اخص من الرحيم فتعقيب الاول بالثاني تعميم بعد خاص ولذلك كان وصف الرحمان مختصا به تعالى وكان اول اطلاقه مما خصه به القرءان على التحقيق بحيث لم يكن التوصيف به معروفا عند العرب كما سياتي . ومدلول الرحيم كون الرحمة كثيرة التعلق اذ هو من امثلة المبالغة ولذلك كان يطلق على غير الله تعالى كما في قوله تعالى في حق رسوله « بالمؤمنين رؤوف رحيم » فليس ذكر احدى الصفتين بمغن عن الاخرى وتقديم الرحمان على الرحيم ان الصيغة الدالة على الاتصاف الذاتي اولى بالتقديم في التوصيف من الصفة الدالة على كثرة متعلقاتها .

وقد ذكر جمهور الايمة ان وصف الرحمان لم يطلق في كلام العرب قبل الاسلام، وان القرءان هو الذي جاء به صفة لله تعالى فلذلك اختص به تعالى حتى قيل انه اسم له وليس بصفة واستدلوا على ذلك بقوله تعالى « واذا قيل لهم اسجدوا للرحمان قالوا وما الرحمان » وقال « وهم يكفرون بالرحمان »

قوله تعالى (الحمد لله) الشان في الخطاب بامر مهم لم يسبق للمخاطب به خطاب من نوعه ان يستانس له قبل القاء المقصود وان يهيا لتلقيه وان يشوق الى سماع ذلك، وتراض نفسه على الاهتمام بالعمل به. ومظهر ذلك الارتياض هو التفرغ للتلقي بالتخلي عن كل ما شانه ان يكون عائقا عن الانتفاع بالهدي . من عناد ومكابرة او امتلاء العقل بالمعارف الضالة فان النفس لا تكاد تنتفع بالعظات والنذر . ولا تشرق فيها الحكمة وصحة النظر . ما بقي يخالجها العناد والبهتان. وتخامر رشدها نزغات الشيطان. فلما جعل الله هذه السورة اولى سور الكتاب المجيد بتوقيف النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدم آنفا نبه الله تعالى قراء كتابه وفاتحي مصحفه الى اصول هذه التزكية النفسية بما لقنهم من ان يبتدؤوا بالمناجاة التي تضمنتها سورة الفاتحة من قوله اياك نعبد الى آخر السورة فانها تضمنت

اصولا عظيمة اولها التخلية عن التعطيل والشرك بما تضمنه اياك نعبد . الثاني التخلي عن خواطر الاستغناء عنه بالتبريء من الحول والقوة تجاه عظمته بما تضمنه واياك نستعين . الثالث الرغبة في التحلي بالرشد والاهتداء بما تضمنه اهدنا الصراط المستقيم . الرابع الرغبة في التحلي بالاسوة الحسنة بما تضمنه صراط الذين انعمت عليهم . الخامس التهمم بالسلامة من الضلال الصريح بما تضمنه غير المغضوب عليهم . السادس التهمم بسلامة تفكيرهم من الاختلاط بشبهات الباطل المموه بصورة الحق وهو المسمى بالضلال لانه خطأ الطريق المقصود بما بما تضمنه ولا الضالين . وانت اذا افتقدت اصول نجاح المرشد في ارشاده والمسترشد في تلقيه على كثرتها وتفاربعها وجدتها عاكفة حول هذه الاركان الستة . فكن في استقصائها لبيبا . وعسى ان ازيدك من تفصيلها قريبا . وان الذي لقّنَ اهل القرءان ما فيه جماع طرائق الرشد بوجه لا يحيط به غيرُ علام الغيوب ، لم يُهمل ارشادهم الى التحلي بزينة الفضائل وهي ان يقدروا النعمة حق قدرها بشكر المنعم بها فاراهم كيف يتوجون مناجاتهم بحمد واهب العقل ومانح التوفيق، ولذلك كان افتتاحُ كل كلام مهم بالتحميد . سنةَ الكتاب المجيد .

فسورة الفاتحة بما تقرر مُنزَّلة من القرءان مَنزلةَ الديباجة للكتاب، او المقدمة للخطبة وهذا الاسلوب له شان عظيم في صناعة الادب العربي وهو اعون للفهم وادعى للوعي .

وقد رسم اسلوب الفاتحة للمنشئين ثلاث قواعد للمقدمة . القاعدة الاولى ايجاز المقدمة لئلاتمل نفوس السامعين بطول انتظار المقصود وهو ظاهر في الفاتحة وليكون سنة للخطباء فلا يطيلوا المقدمة كيلا ينسبوا الى العي ومن هذا يظهر وجه وضعها قبل السور الطوال مع انها سورة قصيرة . الثانية ان تشير الى الغرض المقصود وهو ما يسمى براعة الاستهلال لان ذلك يهيء السامعين لسماع تفصيل ما يسرد عليهم فيتاهبوا لتلقيه وفيه سنة للخطباء ليحيطوا باغراض كلامهم وقد تقدم بيان اشتمال الفاتحة على هذا عند الكلام على وجه تسميتها ام القرءان. الثالثة ان تكون المقدمة من جوامع الكلم وقد بين ذلك علماء البيان عند ذكرهم

المواضع التي ينبغي للمتكلم ان يتانق فيها. الرابع ان تفتتح بحمد الله .

ان القرءان انزل هدى للناس وتبيانا للاحكام التي بها اصلاح الناس في عاجلهم وآجلهم ومعاشهم ومعادهم ولما لم يكن لنفوس الامة اعتياد بذلك لزم ان يهيأ المخاطبون بها الى تلقيها ويُعرفْ تهيؤهم باظهارهم استعداد النفوس بالتخلي عن كل ما من شانه ان يعوق عن الانتفاع بهاته التعاليم النافعة وذلك بان يجردوا نفوسهم عن العناد والمكابرة ، وعن خلط معارفهم بالاغلاط الفاقرة . فلا مناص لها قبل استقبال تلك الحكمة والنظر من الاتسام بميسم الفضيلة والتحلية عن السفاسف الرذيلة . فالفاتحة تضمنت مناجاة للخالق جامعة التنزه عن التعطيل والالحاد والدهرية بما تضمنه قوله « ملك يوم الدين » وعن الاشراك بما تضمنه « اياك نعبد واياك نستعين » وعن المكابرة والعناد بما تضمنه « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم » فان طلب الهداية اعتراف بالاحتياج الى العلم ووصف الصراط بالمستقيم اعتراف بان من العلم ما هوحق ومنه ما هو مشوب بشبه وغلط ومن اعترف بهذين الامرين فقد اعد نفسه لاتباع احسنهما . وعن الضلالات التي تعتري العلوم الصحيحة والشرائع الحقة فتذهب بفائدتها وتنزل صاحبها الى دركة اقل مما وقف عنده الجاهل البسيط وذلك بما تضمنه قوله « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » كما اجملناه قريبا ولاجل هذا سميت هاته السورة ام القرءان كما تقدم . ولما لقن المؤمنون هاته المناجاة البديعة التي لا يهتدي الى الاحاطة بها في كلامه غير علام الغيوب سبحانه قدم الحمد عليها ليضعه المناجون كذلك في مناجاتهم جريا على طريقة بلغاء العرب عند مخاطبة العظماء ان يفتتحوا خطابهم اياهم وطلبتهم بالثناء والذكر الجميل . قال امية ابن ابي الصلت :

أأذكر حاجتي ام قد كفاني ... حياؤك ان شيمتك الحياء

اذا اثنى عليك المرء يوما ... كفاه عن تعرضه الثناء

فكان افتتاح الكلام بالتحميد سنة الكتاب المجيد لكل بليغ مجيد . فلم يزل البلغاء من يومئذ يلقبون كل كلام نفيس لم يشتمل في طالعه على الحمد بالابتر اخذا من حديث كل امر ذي بال لا يبتدأ فيه بالحمد لله فهو ابتر .

والحمد هو الثناء على الوصف الجميل الاختياري سواء اكان من الافعال كالكرم واغاثة الملهوف وتسمى الفواضل ام كان من الغرائز كالشجاعة وسعة الخلق وتسمى الفضائل . فالحمد ذكر باللسان ولا يعترضك اشكال كون الله تعالى حامدا لنفسه مع التنزه عن اللسان ومع كونه حامدا نفسه في الازل فلا يكون بالقول لان ذلك مدفوع بان المراد باللسان الكلام عبر به لانه الآلة لذلك في المتعارف فالحمد بالكلام النفسي يقدر ثناء لانه سيكون مدلول كلام لفظي او انشاءه او نحوها عندما يبلغ للملائكة او البشر بعد ايجادهم . على ان المفهومات اللغوية وضعت للمتعارف بين المتواضعين على اللغة واطلاقها على الصفات الالهية ومتعلقاتها انما هو بالتقريب بغاية المستطاع كما قدمناه في الرحمان .

فان قلت لماذا وقع الاهتمام بالحمد مع ان ذكر اسم الله تعالى اهم فكان الشان تقديم اسم الله تعالى فيقال لله الحمد قلت قدم الحمد لانه حمد على نعمة تنزيل القرءان الذي فيه صلاح الدارين فتلك المنة من اكبر ما يحمد الله عليه من جلائل صفات الكمال لا سيما وقد اشتمل القرءان على كمال المعنى واللفظ والغاية فكان خطوره عند ابتداء سماع انزاله او ابتداء تلاوته مذكرا بما لمنزله تعالى من الصفات الجميلة وذلك يذكر بوجوب حمده ، وان لا يغفل عنه فكان المقام مقام الحمد لا محالة فلذلك قدم ثم ان ذلك الاهتمام تأتى به اعتبار الاهتمام بتقديمه ايضا على ذكر الله تعالى اعتدادا باهمية الحمد العارضة في المقام وان كان ذكر الله اهم في نفسه لان الاهمية العارضة تقدم على الاهمية الاصلية لانها امر يقتضيه المقام والحال ، والآخر يقتضيه الواقع والبلاغة هي المطابقة لمقتضى الحال والمقام . ولان ما كان الاهتمام به لعارض هو المحتاج للتنبيه على عارضه اذ قد يخفى بخلاف الامر المعروف المقرر فلا فائدة في التنبيه عليه بل ولا يفيده التنبيه على غيره .

ثم ان جملة الحمد لله جملة خبرية اصالة لانها تستعمل اخبارا تقول لمن الحمد ؟ الحمد لله . واستعملت في انشاء المتكلم بها ثناءً على الله كما يراد من الخبر انشاء

التحسر والتحزن في نحو قوله تعالى اني وضعتها انثـى وقول الشاعر . هواي مع الركب اليمانين مصعد البيت . وهو استعمال كنائي . فجملة الحمد لله هنا خبر مستعمل في انشاء المتكلم الحمد لله فيكون المقصد الاصلي هو الانشاء . والعدول الى الاخبار لما يتاتى بواسطة الاخبار من الدلالة على تعريـف الجنس وانحصاره بلام الاختصاص والدلالة على الثبات والاستقرار وكلها دقائق من علق البلاغـة النفيس ، ووجه التلازم بين الاخبار عن حمد الناس لله الـذي هو المفاد الاصلي لجملة الحمد لله وبين انشاء المخبر بها حمد الله كما هو مقصوده ان المخبر عن حمد الناس له تعالى لا جرم انه منشيء ثناء عليه بـذلك وكون المعنى الالتـزامي في الكناية هو المقصود دون المعنى المطابقي اظهر منه في اعتبار الخبرية المحضة لما عهد في الكناية من انها لفظ اريد به لازم معناه مع جواز ارادة الاصل معه وقال جماعة من ايمة اللغة أن جملة الحمد لله انشاء لا اشعار له بالخبرية يعنـون انهـا من الصيغ التي نقلتها العرب من الاخبار الى انشاء الثناء كما نقلت صيغ العقـود وافعال المدح والذم اي نقلا مع عدم اماتة المعنى الخبري في الاستعمال فانـك قـد تقول الحمد لله جوابا لمن قال لمن الحمد او احمد ولكن تَعَهُّد المعنى الاصلي ضعيف محتاج الى القرينة .

والحق الذي لا محيـد عنه ان الحمد لله خبر مراد منه الانشاء فالقصد هو الانشائية لا محالة وعدل الى الخبرية ليمكن تحميل جملة الحمد من الخصوصيات ما يناسب جلالة المحمود بهـا من الدلالـة على الدوام والثبات والاستغراق والاختصاص والاهتمام وشيء من ذلك يمكن حصوله بصيغة انشاء نحو حمدا لله او احمد الله حمدا .

(رب العالمين) وصف لاسم الجلالة فانه بعد ان اسند الحمد لاسم ذاتـه تعالى تنبيها على الاستحقاق الذاتي عقب بالوصف الرّب ليكـون الحمد متعلقـا بذلك الوصف لان وصف المتعلّق متعلّقٌ ايضا ، وليؤذن باستحقاقه الوصفي ايضـا للحمد كما استحقه بذاته وذلك لان في تعليـق الحكم على وصف ايذانا بالعِلّيّة وهذا الايذان مستفاد لامن الكلام بمعونة المقام فانه لما كان في ذكر الوصف غنيـة عن ذكر الموصوف لا سيما اذا كان الوصف منزلا منزلة الاسم كاوصافه تعـالى

وكان في ذكر لفظ الموصوف ايضا غنية في التنبيه على استحقـاق الحمد المقصود من الجملة ، عَلِمْنا ان المتكلم ما جمع بينهما الا وهو يشير الى ان كِلَا مدلولَي الموصوف والصفة جدير بتعليق الحمد به فذلك مستفاد من كيفية تركيب اللفظ والعدول عن مقتضى الظاهر .

والرب السيد المالك وجمعه ارباب قال تعالى آربابٌ متفرقون وهو جمع على خلاف القياس لان قياس امثاله أفْعُل بضم العين لكنهم عاملوه معاملة معتـل العين لانه شابهه بالتضعيف والاشهر في اطلاق الرب ان يراد به المالك والسيد، وهو هنا مالكُ اهم الشؤن وهو الخَلْق والتدبير وما به قِوام البقاء .

« والعالمين » جمع عالم مِمّا أُلحق بجمع المذكر السالم والعالم الجنس من اجناس الموجودات وقد بنته العرب على وزن فَـاعَل بفتـح العيـن وهذا البنـاء مختص بالدلالة على الآلة غالبا كخاتَم وقالَب وطابَع فجعلوا العوالم لكونها كآلة للعلم بالصانع او لكونها كآلة للعلم بالحقائق بمنزلة الآلة ولقد ابـدع العـرب في اللطيفة اذ بنوا اسم جنس الحوادث على وزن فاعل لهذه النكتة .

والعالم اسم لذوي العلم او لـكل جنس يعلَم به الخالق يقال عـالم المَلَك عالم النبات وليس اسما لمجموع ما سواه تعالى بحيث لا يكون لـه اجـزاء فيمتنعَ جمعه وقيل يطلق على مجموع تلك الاجناس ايضا والحق انه لا يطلق لفظ العـالم مفردا الا اذا اضيف الى الجنس يقـال عالم الانس عالم الحيـوان عـالم النبـات فتعريفه باللام هنا لقصد الاستغراق جمعـه لقصد التنصيص على تعدد الاجنـاس وان ذلك هو مصب الاستغراق . فالمعنى ان الله مالك جميـع الاجنـاس ومن تلـك الاجناس جنس الاصنام الا ترى قوله تعـالى، فرعون ومـا رب العـالمين قال رب السماوات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين.

(الرحمان الرحيم) اجراء هذين الوصفين العليين على اسم الجلالة بعد وصفه بانه رب العالمين لمناسبة بليغة لانه بعد ان وصف بمـا هو مقتضٍ استحقـاقَه الحمد من كونه رب العالمين اي مالك شؤونهم كلها من الخلق والتدبيـر ناسب ان يتبع ذلك بوصفه بالرحمان اي الذي الرحمة وصف ذاتي له تصدر عنه آثاره

بعموم واطراد على ما تقدم في الكلام على البسملة فلما كان ربا للعالمين وكان المربوبون ضعفاء كان احتياجهم للرحمة واضحا فالربوبية نعمة والنعمة قد تحصل بضرب من الشدة والاذى فاتبع ذلك بوصفه بالرحمان تنبيها على ان تلك النعم الجليلة وصلت الينا بطريق الرفق واليسر ونفي الحرج ولان من طرق ابلاغ المربوب الى كماله ما قد يظنه المربوب غير رحمة لما يبد وفي بادىء رايه من عدم ملاءمة ومن اشمئزاز وهو ضروب التكاليف والزواجر فنبه بالوصف بالرحمان على ان تلك رحمات عند التامل الصادق فان التكاليف غايتها حصول الملائم عاجلا وآجلا والزواجر والحدود ونحوها غايتها اقلاع المرتكب عن العود الى مثل تلك المفاسد المضرة واتعاظ غيره به عن الوقوع في امثالها كما قال تعالى ولكم في القصاص حياة فمعظم تدبيره تعالى بنا هو رحمات ظاهرة كالتمكين من الارض وتيسير منافعها ومنه ما رحمته باعتبار مآله مثل التكاليف الراجعة الى منافعنا كالطهارة وبث مكارم الاخلاق ومنها ما منفعته للجمهور فتتبعها رحمات الجميع لان في رحمة الجمهور رحمة بالبقيةفي انتظام الاحوال كالزكاة والزواجر من العقوبات .

واما اتباع الرحمان بالرحيم فقد مضى القول فيه مستوفى عند الكلام على البسملة ونزيد هنا ما هو بهذا المقام اعلق وهو ان التحميد اولى بالنص على مظهر الصفتين لقصد ان يستوعب الحمد عليهما فكان مقام الحمد اجدربذكرهما من مقام التسمية لان التسمية لمجرد التيمن والحمد لاجل النعمة ووصف الرحيم مؤذن بكثرة تعلق الصفة بالمرحومين .

(ملك يوم الدين) وصف رابع لاسم الجلالة ومعناه صاحب الحكم في يوم الجزاء وهو يوم القيامة وما يتبعه من داري ثواب وعقاب . وعندي ان اتباع الاوصاف الثلاثة المتقدمة فانه لما وصف الله تعالى بانه رب العالمين الرحمان الرحيم فكان ذلك مفيدا لما قدمناه من التنبيه على الاستقلال بالتصرف بالمربوبين في سائر اكوانهم ثم التنبيه بان جميع تصرفه تعالى في جميع تلك الاكوان والاطوار هو تصرف رحمة عند المعتبر وكان من جملة التصرفات تصرفات الامر والنهي المعبر

عنها بالتشريع الراجعة الى حفظ مصالح الناس عامة او خاصة وكان معظم تلك التشريعات مشتملا على اخراج المكلف عن داعية هـواه الذي يلائمه اتباعه. وفي نزعه عنه ارغام له ومشقة خيف ان تكون تلك الاوصاف المتقدمة في طالعة كتاب الشريعة مخففا عن المكلفين عبء العصيان لما امروا به ومشيرا لاطماعهم في العفو عن استخفافهم بذلك وان يمتلكهم الطمع فيعتمدوا على ما علموا من الربوبية والرحمة المؤكدة فلا يخشوا غائلة الاعراض عن التكاليف. لذلك كان من مقتضى الكلام وهو مقام افتتاح كتاب الشريعة وقصد اشتمال سورة الفاتحة على المقاصد المشتمل عليها الكتاب المجيد تعقيب ما تقدم بذكر انه صاحب الحكم في يوم الجزاء يوم تجزى كل نفس بما كسبت وذلك اكمال للرحمة لان الجزاء على الفعل سبب في الامتثال والاجتناب. فالشريعة جاءت رحمة لنا لحفظ مصالح العالم واحيط ذلك بالوعد والوعيد وجعل مصداق ذلك الجزاء يوم القيامة. ولان كثيرا من الضالين اذا جاءتهم العظات وصموا عنها يغرهم حسن حالهم في الدنيا فيخالون ان الله راض عنهم. وانما يمهلهم الله في الدنيا استدراجا لهم كما قال تعالى سنستدرجهم من حيث لايعلمون وأُملي لهم وبعكس ذلك قد يكون حال بعض المؤمنين المطيعين. فاعلم الله تعالى في طالعة كتابه بان عقابه وثوابه انما يظهر ان يوم الدين ولذلك اختير هنا وصف المَلِك الموذن باقامة العدل وعدم الهوادة فيه.

وقوله تعالى ملك قرأه الجمهور بغير الف بين الميم واللام وقرأه عاصم والكسائي مالك فالاول صفة مشبهة والثاني اسم فاعل وكلاهما مشتق من ملك فأصل مادة ملك في اللغة ترجع تصاريفها الى معنى الشد والضبط ويقولون مَلَكَ بمعنى حَكم وبمعنى استطاع وبمعنى غلب. فالملك بفتح الميم وكسر اللام هو اكبر حاكم في قوم او قطر حيث يتصرف في عموم احوالهم والمالك هو من اتصف بملك شيء فقراءة ملك بدون الف تفيد معنى تشبيه عموم حكم الله وقدرته في يوم القيامة بتصرف الملك المعروف للمخاطبين والله تعالى هو الملك على الحقيقة ولذلك ورد في الحديث انه تعالى يقول يوم القيامة « انا الملك اين ملوك الارض » واضافة ملك الى يوم الدين حقيقية. واما اضافة مالك الى يوم الدين فاضافة على معنى في والمعنى هو مالك في يوم الجزاء وحذف مفعول مالك لقصد العموم

اي مالك الامر كله في يوم الجزاء ثم اضيف الى ظرفه . ويوم الدين يوم القيامة ومبدا ما لايزال من الدار الآخرة فالدين هنا بمعنى الجزاء يقال دانه يدينه دينا اذا جازاه. واضافة يوم الى الدين تشعر بان الجزاء واقع في ذلك اليوم فانه مظهر الوقت الذي اخرا الجزاء بالثواب والعذاب اليه، واما ما يعجل من الجزاء في الدنيا كالمغفرة لصاحب الحج المبرور وكاقامة الحد على مستوجبه فذلك بشاير او زواجر وكذلك ما يصيب الامم من العذاب في الدنيا على طغيانهم او أذاهم للرسل فذلك كله امارات قد تحصل وقد تتخلف ولا يعلم موثراتها وءاثارها ومقتضياتها وما قد يدفعها او يوخرها الا الله لخفاء الاسباب وما يمانعها من الموانع فاما جزاء يوم الدين فمنضبط ومطرد فقد اخذ الله قوم فرعون بالسنين ونقص من الثمرات واخذ قريشا بسنين كسني يوسف وانزل لبني اسراءيل المن والسلوى وقال في شان قريش وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم وكل ذلك لم يدفع عنهم الجزاء في الاخرة .

وقد اتبع اسم الجلالة باربعة اوصاف ورتبت ترتيبا لوحظ فيه تمام المناسبة اذ ابتدىء منها بالوصف الظاهر تعلقه بسائر المخلوقات وهو وصف الربوبية المتضمن الايجاد والامداد، ثم ثني بالوصف الذي به استقامة حال المخلوقات وهو وصف الرحمان الرحيم كما تقدم، ثم اتبع بوصف ملك يوم الدين المنبىء بصفة العدل في الجزاء اذ به يظهر كمال تلك النعم الماضية لانه به وبابلاغه ينزجر المفسد عن افساد نظام المخلوقات وبه وبالعلم به يزداد الصالح من صلاحه . ولما كان حمد الموصوف بهذا الوصف مؤذنا بان للوصف مدخلا في البعث على الحمد وانما يظهر ذلك بالنسبة الى المؤمنين ناسب الاتيان به في آخر الاوصاف بالنسبة الى الحمد وبالنسبة الى كون متعلقه مكملا تعلقات بقية تلك الصفات المذكورة قبله فان وصفه بملك يوم الدين تكملة لاجراء الاوصاف السابقة لانه بعد ان وصف بانه رب العالمين ثم وصف بالرحمان الرحيم ثم وصف بانه ملك يوم الدين وهو ابلغ وصف في باب صفات الملوك فانهم كانوا اذا ارادوا المبالغة في قوة السلطان قالوا ملك الملوك (شاهان شاه) وملك الزمان وملك الدنيا (شاه جهان) فكان وصف ملك يوم الدين فائقا ذلك كله لان يوم الدين هو مبدا العالم الابدي وفيه تجتمع جميع الامم من وقت ابتداء خلق العالم للحساب على

جميع الاعمال التي اتوابها في مدة العالم الدنيوي، فمالك يوم الدين هو مالك جميع العوالم ماضيها ومستقبلها قال تعالى « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » وقريب منه قراءة مالك يوم الدين، مع ما في ذكر لفظ الدين دون نحو يوم القيامة او يوم الحشر من الاشارة الى اقامة قسطاس العدل فان جزاء المحسن على احسانه والمسيء باساءته امر محمود عند اهل العقول يعترف به حتى المجزي بالسوء ان كان منصفامن نفسه لما فيه من العدل .

ثم ان اجراء هذه الاوصاف لله يشير الى تعليل استحقاقه الحمد واختصاصه به مما دلت عليه لام الاختصاص مع تعريف الجنس كما تقدم لان اقتران ما يدل على وصف غير مسوق للتميز يشعر ذلك الاقتران بقصد تعليل ذلك الحكم. فالحكم هو مضمون جملة الحمد وهو المعلل واما انشاء الحامدين فقو مستفاد من لازم الحكم وليس هو المعلل بالصفات .

(اياك نعبد) لما سطر للمؤمنين ما به يحمدون الله اكمل محامده أرُوا هنا كيف يشرعون في المناجاة شكرا لله تعالى وتمجيد له فجملة اياك نعبد استئناف انتقلوا به من غرض الى غرض والمنتقل اليه هو المقصود الاصلي فان مفاتحة العظماء بالتمجيد قبل الخطاب سنة عربية كقولهم أبَيْتَ اللعن .

واعلم ان العدول عن طريقة الغيبة التي ابتدىء بها الكلام من قوله الحمد لله الى هنا والتنقل الى طريقة الخطاب في قوله اياك نعبد. من افانين كلام العرب وهو الملقب بالالتفات عند علماء البلاغة وهو الانتقال من طريق التكلم او الخطاب او الغيبة الى طريق غيره من هذه الثلاثة في مقام واحد وتسميته بالالتفات تسمية ادبية تشبيها لانتقال الكلام من تعبير الى آخر بانتقال النظر من ذات الى اخرى.وهومن آثار تفنن الذهن ان ينتقل من الاسلوب الظاهر الى غيره مع اتساق المعنى . وايضا فنقل الكلام من اسلوب الى اسلوب تجديد لنشاط السامع فسماه السكاكي قِرى الارواح . والعبادة غاية التذلل والخضوع وفعلها عبد يعبد كنصر ويقال عبد اي ذلل ومنه طريق معبد اي مطروق للسابلة حتى تذللت ارضه كما قال طرفة « فوق مَور معبد » (١)

---

(١) بعض بيت من معلقته وهو :

تباري عتاقا ناجيات واتبعت ... وظيفا وظيفا فوق مور معبد

ثم خصصها العرف اللغوي بالخضــوع والتذلل بالفعل او القــول لذات معتقدة الوهيتها ومؤمَن بها فهي اخص من مطلق الخضوع والتذلل والفرق بينهـا وبين مطلق التذلل عند كل قوم بحسب اصطلاحهم فرب فعل يعـد عبـادة عند قوم وهو لا يعد عند آخرين.

والعبادة في الشرع اخص فتعرَّف بانها فعلٌ او قولٌ ما يرضي الـرب من خضـوع وامتثــال واجتناب مثل الصــلاة والصيـام وتسبيح الله وتحميده وقال الفخر في تفسير سورة الذاريات « هي تعظيم امر الله والشفقة على الخلق وهذا المعنى هو الذي اتفقت عليه الشرائع وان اختلفت في الموضع والهيأة والقلة والكثرة اهـ » فهي بهذا التفسير تشمل الامتثال لاحكام الشريعة كلها الا ان الفقهاء اصطلحوا على تخصيص اسم العبادة بنوع من الافعـال التكليفية وهو ما لا حق فيه للناس ابتداء.

واعلم ان من اهم المباحث البحث عن سر العبادة وتاثيرها وسر مشروعيتها وذلك ان الله تعالى خلق هذا العالم ليكون مظهراً لكمال صفاته تعالى وهي الوجود والعلم والقدرة ، وجعل قبول الانسان للكمالات التي بمقياسها يعلم نسبة مبلـغ علمه وقدرته من علم الله تعالى وقدرته، واودع فيه الروح والعقل اللذين بهما يزداد التدرج في الكمال ليكون غير قانع بما بلغه من المراتب في اوج العمران والمعرفة. وارشده وهداه الى ما يستعين به على مرامه ليحصل بالارتقاء العاجل رقي آجل لا يضمحل، وجعل استعداده لقبول الخيرات كلها عاجلها وآجلها متوقفـا على التلقين من الرسل الموحى اليهم باصول الفضائل. ولما توقف ذلك على مراقبة النفس في نَفراتها وشردانها وكانت تلك المراقبة تحتـاج الى تذكـر المجازي بالخير وضده ، شرعت العبــادة لتذكّر بذلـك المُجازي لان عدم حضور ذاته واحتجابه بسبحـات الجــلال يسرب نسيانــه الى النفوس . كما ان الله جعل نظــام الانسان في هذا العالم متصل الارتباط بين افراده فامرهم بلزوم آداب المعـاشرة والمعاملة لئلا تفسد الارض . ولمراقبة الدوام على ذلك ايضا شرعت العبادة لتذكّر به على ان في ذلك التـذكــر دوام الفكــر في الخالق وشؤونه وفي ذلك تخلق

بالكمالات تدريجا . فظهر ان العبادة هي طريق الكمال الذاتي والاجتماعي مبدءا ونهاية وبه يتضح معنى الحصر في قوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون الآيل الى معنى ما خلقت الجن والانس الا لينتظم امرهم وذلك لوقوفهم عندما تحدد لهم من الاوامر والنواهي وهو العبادة، فالعبادة على الجملة لاتخرج عن كونها محققة للمقصد من الخلق وعلة لحصوله عادة ولما كان سر الخلق والغاية منه خفية الادراك عرفنا الله تعالى اياها بمظهرها وما يحققها جمعا لعظيم المعاني في جملة واحدة وهي جملة الا ليعبدون .

وتقديم المفعول في «اياك نعبد» لارادة الاختصاص وهو الحصر اي لا نعبد غيرك وقد اتفق ايمة البلاغة على ان تقديم المفعول على عامله يفيد اختصاص الفعل به غالبا والا افاد مجرد الاهتمام ولم يشذ عن ذلك الا بعض النحاة والحصر حقيقي فان المؤمن يخص العبادة بالله تعالى . وضمير نعبد عائد الى جماعة المؤمنين الذين منهم تالي هذه الآية لانها انزلت ليحمد المؤمنون ربهم بهاته المحامد العظيمة، وفي العدول عن ضمير المتكلم الواحد الى ضمير المتكلم المشارك تلقين لاعتزاز المسلمين بجماعتهم ففيه اغاضة المشركين بان المسلمين صاروا في عزة ومنعة وايضا فذكر تعدد العابدين أعرق في الدلالة على عظمة المعبود بوفرة المخلصين له وكثرة عبيده .

(واياك نستعين) جملة معطوفة على جملة اياك نعبد وانما لم تُفْصَل للاشارة الى حضور الفعلين جميعا في ارادة المتكلمين بهذا التخصيص اي نخصك بالاستعانة ايضا مع تخصيصك بالعبادة . والاستعانة طلب العون والعون والاعانة تسهيل فعل شيء يشق، بإعداد طريق تحصيله كاعارة آلة، او مشاركة فعل البدن كالحمل والقود ، او بقول كالارشاد والتعليم ، او بمال كدفع المغرم . والمقصود هنا الاستعانة على الافعال المهمة كلها التي اعلاها تلقي الدين وكل ما يعسر على المرء تذليله من توجيهات النفوس الى الخير ومايستتبع ذلك من تحصيل الفضائل.

فالمؤمن يسعى لتحصيل الخير والكمال باعماله ويستعين الله على تيسيره عليه وبعث الهمة في نفسه وكف الموانع القاهرة، وقرينة هذا المقصود رسمه في فاتحة الكتاب ووقوع التخصيص بالاعانة عقب التخصيص بالعبادة ، فلذلك حذف

متعلق نستعين الذي حقه ان يذكر مجرورا بعلى وقد افاد هذا الحذف ايهام عموم الاستعانة المقصورة على الطلب من الله تادبا معه تعالى . فالحصر المستفاد من تقديم المعمول في قوله واياك نستعين حصر ادعائي لعدم الاعتداد بالاستعانات غير المهمة، ولكون هذا الحصر نوعا آخر جعل الفعل الدال عليه مستقلا بمعموله تنبيها على اختلاف مفاد الفعلين ولولا ذلك لقيل اياك نعبد ونستعين فلذلك اعيد ذكر مفعول نستعين مع امكان الاستغناء عنه بتقدمه في قوله اياك نعبد. ويفيد هذا القصر تعريضا بالمشركين وبراءة من صنيعهم فقد كانوا يستعينون بآلهتهم ومن ذلك الاستقسام بالازلام الموضوعة عند الاصنام . ووجه الاتيان بضمير المتكلم المشارك في نستعين تقدم نظيره في اياك نعبد . ووجه تقديم الجملة المتضمنة العبادة على الجملة المتضمنة الاستعانة ان العبادة عمل مراعى فيه استحقاق الله العبادة فحظ الله فيه اوفر واما الاستعانة فهي معاملة مع الله لقصد تيسير امور المستعين ففيها حظ العبد متبادر وايضا فالعبادة من جملة ما تُطلب الاعانة عليه فهي مقدَّمة في العقل فناسب ان تُقدم في الذكر .

(اهدنا الصراط المستقيم) تهيأ لاصحاب هذه المناجاة ان يسعوا لتحصيل حظوظهم الشريفة من طلب الهداية فانهم لما حمدوا الله ووصفوه بصفات الجلال ثم اتبعوا ذلك بقولهم اياك نعبد واياك نستعين الذي ظاهره خبر وفيه تعريض بالطلب لان الحمد لاحظ فيه للحامد بخلاف قولهم اياك نعبد واياك نستعين ففيه ثناء على الله تعالى بانه المخصوص بالعبادة والاستعانة وفيه حظ العبد بانه عابد ومستعين وانه قاصر ذلك على الله تعالى فكان ذلك واسطة بين الثناء وبين الطلب انتقلوا به من ثناء الى واسطة حتى اذا ظنوا بربهم الاقبال عليهم ورجوا ذلك من فضله افضَوا الى سؤلهم فلذلك قالوا اهدنا الصراط المستقيم. وهذا الوجه هو المناسب لكون الفاتحة ديباجة القرءان الذي جاء ليهدي الطالبين للهُدى والرحمة فقوله اهدنا الصراط المستقيم هو حظ للطالب خاصة وشروع في طلب ما ينفعه عاجلا وآجلا . والهداية حقيقتها الدلالة على الطريق ممن هو عارف بالطرق وفي حديث الهجرة « ان ابا بكر استاجر رجلا من بني الدئل هاديا خِرّيتا » والفعل هدى واختلف فيه هل هو متعد للمفعول الثاني وهو المهدي اليه بالحرف وهو اللام او الى كقوله الحمد لله الذي هدانا لهذا وقوله فاهدوهم الى صراط الجحيم ،

او يتعــدى اليه بنفسه. والهداية هنا مستعــارة للارشاد الى العمل الذي يرضي الله تعــالى وينجي من غضبه، وقد غلبت في اصطلاح الشرع على هذا المعنى وعرفوها بانها الدلالة بتلطف الى ما فيه خير المدلول . وسؤال الهداية هنا طلب الثبات على ما حصل منها لكل واحد ممن يدعو بهذا الدعاء والازدياد عليه بمقدار ما تسمح به قابلية نفس التالي لهذه المناجاة .

والصراط الطريق وهو بالصاد وبالسين وقد قريء بهما في المشهور فالجمهور قروأه بالصاد وقرأه ابن كثير في رواية قُنْبُل بالسين. وقرأه حمــزة باشمام الصاد زايا وكذلك نطقت به بالسين جمهور العرب الا اهل الحجاز نطقوا به بالصاد مبدلة عن السين لقصد التخفيف في الانتقال من السين الى الراء ثم الى الطاء . والمستقيم المستوي يقــال قومته فاستقام ومعنى المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا تثنّي ولا تفــاريع لان احسن الطريق هو الطريق الذي يذهب مستقيما وهو الجــادة لانه باستقامته يكون اقرب الى مكان الوصول ولا يضل فيه سالكه ولا يتحــير لانه اذا كانت في الطــريق تعاريج وهي بنيــات الطريق تحير سالكه في أيها يسلك حتى يجد من يهديه وقد لا يجده . والمراد بالصراط المستقيم الدين الحق والمــراد هنا دين الاسلام فانه قد امتاز بهاته الصفات من بقية الاديان قال تعالى «وما جعل عليكم في الدين من حرج -وقال- يريد الله ليبين لكم -وقال- ان الدين عند الله الاسلام » اي هو الموصل للغاية ولا يكون المطلوب في اول سورة من كتاب الاسلام وهي نازلة بعد ظهور الاســلام ، الا الاهتداءَ للدين القــويم الاوضح وليس غير الاسلام . وقيــل الصراط المستقيم اريــد به دين الاســلام او بعض الاديان المتقدمــة قبل نسخها ، ولا يناسب مقامَ سؤال الهداية اليها بعد ظهــور الاسلام وان كانت في اوقاتها شُرُطاً مستقيمة كما دل عليه قوله تعالى في حكاية قصة ابليس «لاقعدن لهم صراطك المستقيم» فدل على ان الصراط المستقيم مفروض للبشر في جميع العصور والامم .

(صراط الذين انعمت عليهم) بــدل من الصراط المستقيم بــدلا مطابقا وانما سُلك طريق البدل دون ان يُجعل صراط الذين انعمت هو المفعــول ثم يوصف بالمستقيم على الاصل في كون الصفة تابعة للموصوف لغرضين: الاول ان

المقصود من الطلب ابتداء هو كون المَهديِّ اليه وسيلةً للنجاة وسيلة واضحة سمحة سهلة واما كونه سبيل الذين انعم الله عليهم فزيادة في فضله. الغرض الثاني ما في طريقة الابدال من الاجمال ثم التفصيل ومن تقرير النسبة بسبب تكرر الاسناد بمنزلة التوكيد المعنوي، ومن التقرير للصراط وتحقيق مفهومه عند السامع لانه يكون قد عبر عنه بعبارتين فحصل مفهومه مرتين في الذهن فهو شبيه بالتوكيد اللفظي، ولو قدم صراط الذين انعمت عليهم واردف بقوله المستقيم لفقد الامران اذ تكون الصفة مغنية عن اعادته . ثم في اعادة لفظ الصراط بنفسه ما يؤذن باهميته عند المتكلم فهو يريد تمكنه في ذهن السامع بذلك اللفظ فان اعادة الاسم في البدل او البيان ليبنى عليه ما يراد تعلقه بالاسم الاول أسلوب بهيج من الكلام البليغ وجزالة لاشعار اعادة اللفظ بان مدلوله بمحل العناية وانه حبيب الى النفس ومثله تكرير الفعل كقوله تعالى «واذا مروا باللغو مروا كراما ـ وقوله ربنا هؤلاء الذين اغوينا اغويناهم كما غوينا» فان اعادة فعل مروا وفعل اغويناهم وتعليق المتعلق بالفعل المعاد دون الفعل الاول تجدُ له من الروعة والبهجة ما لا تجده لتعليقه بالفعل الاول دون اعادة وليس الاعادة في مثله لمجرد التأكيد لانه قد زيد عليه ما تعلق به قال ابن جني في شرح مشكل الحماسة عند قول الاحوص :

فاذا تزولُ تزول عن مُتَخَمِّطٍ ... تُخشَى بوادِرُه على الاقرانِ

« محالٌ ان تقول اذا قمتَ قمتَ واذا اقعُدُ أقعُد لانه ليس في الثاني غير ما في الاول وانما جاز ان يقول فاذا تزول تزول لما اتصل بالفعل الثاني من حرف الجر المفادة منه الفائدة ومثله قول الله تعالى هؤلاء الذين اغوينا اغويناهم كما غوينا. وقد كان ابو علي امتنع في هذه الآية مما اخذناه اهـ » ولا ادري ما هو توجيه امتناع ابي علي فلعله امتنع من اعتبار اغويناهم بدلا من اغوينا وجعله استئنافا وان كان المآل واحدًا .

ثم أن في اختيار وصف الصراط المستقيم بانه صراط الذين انعمت عليهم دون بقية اوصافه الكمالية ما في ذلك من تمهيد بساط الاجابة فان الكريم اذا ذكَّرته عند السؤال بما اعطاه غيرك كان انشط لكرمه فيقول السائلون اهدنا

الصراط المستقيم الصراط الذي هديت اليه عبيد نعمك وهم الصالحون من سالف الامم ، مع ما في ذلك من التعريض بطلب ان يكونوا لاحقين في مرتبة الهدى باولئك المنعم عليهم وتهمما بالاقتداء بهم في الاخذ بالاسباب التي ارتقوا بها ، وتوطئة لما سياتي بعد من التبرىء من احوال المغضوب عليهم والضالين ، فتضمن ذلك تفاؤلا وتعوذا . وانعمت عليهم اي اعطيتهم النعمة وهي مشتقة من النعيم بمعنى راحة العيش وملائم الانسان والترفه لان بناء الفِعلة بالكسر للهيئات. ومتعلق النعمة اللذات الحسية ثم استعملت في اللذات المعنوية العائدة بالنفع ولو لم يحسها صاحبها كما يجد من يَبْلُغه ان احدا احسن اليه من من اللذة في ذلك .

فالمراد من النعمة في الآية هي النعمة التي لم يشبها ما يكدرها ولا تكون عاقبتها سوأى من خيرات الدنيا الخالصة من العواقب السيئة في الدارين ومن خيرات الآخرة وهي الاهم فيشمل النعم الدنيوية كَسْبِيَّها ومَوْهوبِيُّها ويشمل النعم الاخروية قال تعالى يايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا. والنعمة بهذا المعنى يرجع معظمها الى الهداية وهي المقصود هنا لان الهداية الى الكسبي من الدّنيوي والى الاخروي كلّه ظاهرة، ولان الموهوبي من الدنوي وان كان حاصلا بلا كسب الا ان الهداية تتعلق بحسن استعماله فيما وهب لاجله، فالمراد من المنعم عليهم الذين افيضت عليهم النعم الكاملة، ولا يخفى تمام المناسبة بين المنعم عليهم وبين المهديين حينئذ فيكون في ابدال صراط الذين من الصراط المستقيم معنى بديع وهو ان الهداية نعمة وان المنعم عليهم بالنعمة الكاملة قد هدوا الى الصراط المستقيم فالاتيان بالموصول والصلة لاظهار ان النعمة حصلت حيث كانت الصلة فعلا ماضيا وللتعريض بالثناء والذكر الجميل لمن سبقونا بالايمان وباتباع فضائل الاديان .

فان قلت كيف يلتئم كون المسؤول طريق المنعم عليهم فيما مضى وكونه هو دين الاسلام وهو قد جاء بعدهم ؟ قلت انما أمر أن يدعوا الله الى تحصيل دين قويم يكون في استقامته كصراط المنعم عليهم فأجيبوا بدين الاسلام وقد جمع استقامة الاديان الماضية وزاد عليها، فالمقصود الهداية الى صراط كامل ، ويكون هذا الدعاء محمولا في كل زمان على ما يناسب طرق الهداية التي سبقت زمانه والتي لم

يبلغ الى نهايتها . او المراد بهم الانبياء والرسل كما ياتي عند قوله تعالى « واوصى بها ابراهيم بنيه ويعقـوب يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تمـوتن الا وانتم مسلمون » فهـذا الدين الكامل امر الله به انبياءه ولم يـامر به اممهم تدريجـا للتشريع العام ولذلك حرّم الله الخمر على الانبياء ولم يحرمها على اممهم وحرمها على المسلمين . واذ قد كانت هـذه نعمة خـاصة فهي لا تفرض فيها مسالة هـل الكافر منعم عليه او لا وهي مسالة ستتعرض لها عند الآيات المناسبة لتفرعهـا عليها ان شاء الله.

(غير المغضوب عليهم ولا الضالين) جر غير عند جميع القراء على الصفة للذين وهو وصف مقيد لمعنى الصلة فالقصد منه اخراج طوائف من الذين انعم الله عليهم ولم يحتفظـوا بالنعمة . ففائدة الوصف بغير المغضوب عليهم التعوذ من سوء العواقب التي عرضت لبعض المنعم عليهم بالهداية الى الدين الحق ممن كان قبلنا من الامم فما احتفظوا بـه فان الدين الحق اوتيه امم من قبلنـا ولذلك حكى الله عن ابليس «قال فبما اغويتني لا قعدن لهم صراطك المستقيم» والتبرؤ من ان يكونوا مثلهم في بطر النعمة وسوء الامتثال وفساد التاويل وتغلب الشهوات الدنيوية على اقامة الدين حتى حق عليهم غضب الله تعالى . وكذا التبرؤ من حـال الذين هدوا الى صراط مستقيم فما صرفوا عنايتهم للحفاظ على السير فيه باستقامة فاصبحوا من الضالين بعد الهداية اذ اسـاءوا صفـة العمل بالنعمة فانقلبت هدايتهم ضلالا . واسند اليهم وصف المغضوب المشتق من فعل مبني الى المجهول لحصول العلم بالفاعل من قوله انعمت عليهم فيُعلم انهم مغضوب عليهم غضبا من الله تعالى ففي الكلام ايجاز حذف . وفيه ايماء الى انهم اشتهروا بذلك حتى لايتوجه العلم الا الى تسلط الغضب عليهم لا الى معرفة الغاضب . والغضب هنا غضب الله تعالى وهو عكس الرضى وفسر الغضب فينا بانه كيفية تعرض للنفس تتبعها حركة الروح الى الخارج ونورانها فتطلب الانتقام فهو سبب لطلب الانتقام وطلب الانتقام سبب لحصول الانتقام ولذلك فسر جميع المفسرين غضب الله بارادة الانتقام من المغضوب عليه. والذي يظهر لي ان ارادة الانتقام ليست من لوازم الغضب الملازمة لماهيته ولكنها قد تكون من آثاره وان الغضب هو كيفية للنفس تعرض من حصول ما لا يلائمهـا

فتترتب عليها كراهيتها المغضوب منه وكراهية فاعله وتلازمها امور اشهرها الاعراض عن المغضوب عليه ومنع الاحسان اليه وقد يفضي ذلك الى ارادة الانتقام منه فلذلك يختلف الحد الذي يحصل عنده الغضب باختلاف احتمال النفوس للمنافرات وباختلاف العادات واباية الضيم وضيق الراي واكبار الجريمة. فيكون غضب الله كناية عن ابعاد المغضوب عليه عن العناية والاحسان الناشيء على العناية والمراد من المغضوب عليهم والضالين جنسا فرق الكفر فالمغضوب عليهم جنس للفرق التي تعمدت ذلك واستخفت بالديانة عن عمد او عن تاويل بعيد جدا . والضالون جنس للفرق التي اخطات الدين عن عمد او عن سوء فهم وكلا الفريقين مذموم معاقب لانا مامورون باتباع سبيل الحق وبذل الجهد الى اصابته فعد اليهود من جملة الفريق الاول وعد النصارى من جملة الفريق الثاني كما ورد به الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في جامع الترمذي وحسنه وما ورد في الاثر من تفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى فهو من قبيل التمثيل بأشهر الفرق التي حق عليها هذا ان الوصفان ، فقد كان العرب يعرفون اليهود في خيبر والنضير وبعض سكان المدينة وفي عرب اليمن، وكانوا يعرفون نصارى العرب مثل تغلب وكلب وبعض قضاعة، وكل اولئك بدلوا وغيروا وتنكبوا عن الصراط المستقيم الذي ارشدهم الله اليه وتفرقوا في بنيات الطرق. واعلم ان الغضب عند حكماء الاخلاق مبدأ من مجموع الاخلاق الثلاثة الاصلية التي يعبر عن جميعها بالعدالة وهي الحكمة والعفة والشجاعة، فالغضب مبدأ الشجاعة الا ان الغضب يعبر به عن مبدأ نفساني لاخلاق كثيرة متطرفة ومعتدلة فيلقبون بالقوة الغضبية ما في الانسان من صفات السَّبُعِية وهي حب الغلبة ومن فوائدها دفع ما يضره ولها حد اعتدال وحد انحراف فاعتدالها الشجاعة وكبر الهمة وثبات النفس في المخاوف، وانحرافها اما بالزيادة فينشا التهور وشدة الغضب من شيء قليل والكبر والعجب والشراسة والحقد والحسد والقساوة ، او بالنقصان فالجبن وخور النفس وصغر الهمة . فاذا اطلق الغضب لغة انصرف الى بعض انحراف القوة الغضبية وثورانها بدون اعتدال ولذلك جاء في الحديث ان رجلا قال يا رسول الله أوصني قال لا تغضب فكرَّرَ مرارا فقال لا تغضب رواه الترمذي . وقيل لاحد الاكاسرة لم دام ملككم فقال « لانا نعاقب على قدر الذنب لا على قدر الغضب». فالغضب منه

مذموم كالظلم والعدوان ومنه محمود وهو الغضب للحق ولحماية المصالح الدينية وفي الحديث «ان رسول الله كان لا يغضب لنفسه فاذا انتهكت حرمات الله غضب لله».

وقوله ولا الضالين معطوف على المغضوب عليهم كما هو متبادر فكانت لا غير محتاج لزيادتها في المعطوف اذ لا يتوهم عطفه على غير ما قبله فلا مزيدة لتاكيد النفي المستفاد من غير على طريقة العرب في المعطوف على ما في حيز النفي نحو «أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير» وذلك لزيادة العناية بنفي ذلك الفعل حتى يكون النفي نصا لا يحتمل تاويلا. ولما كانت غير في معنى النفي أجريت طريقة المعطوف على المنفي في المعطوف عليها. وليست زيادة لا هنا كزيادتها في نحو ما منعك الا تسجد اذ امرتك كما توهمه بعض المفسرين لان تلك زيادة في لفظها ومعناها اذ المعنى على الاثبات والتي هنا زيادة في لفظها فقط والمعنى على النفي. والضلال المشي في غير الطريق المراد عن خطا سواء علم بذلك فهو يتطلب الطريق ام لم يعلم ومنه ضالة الابل وهو مقابل الهدى واطلاقه على الخطا في الدين والعلم استعارة كما هنا والضلال في لسان الشرع مقابل الاهتداء والاهتداء هو الايمان الكامل. والضلال ما دون ذلك وله عرض عريض ادناه ترك السنن واقصاه الكفر. وقد فسرنا الهداية فيما تقدم انها الدلالة بلطف فالضلال عدم ذلك ويطلق على أقصى انواعه الختم والطبع والاكنة.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

سورة النبإ

تسمى سورة النبإ لوقوع لفظ النبإ في اولها، وتسمى سورة عم يتساءلون تسمية بأول جملة فيها ، نزلت بمكة قيل هي السادسة والسبعون من السور في ترتيب النزول . نزلت بعد سورة سال سائل وقبل النازعات . وفيها ذكر انكار المشركين للبعث والحشر واضطرابهم في صفة التكذيب به وتهديدهم بما سيلاقونه في ذلك اليوم من العذاب لاجل انكارهم اياه واقامة الحجة عليهم في اثبات البعث وذكر بعض احوال الحشر ، وما يلاقيه المؤمنون من النعم والكرامة وانذار المشركين بعذاب ياتيهم في الدنيا قبل عذاب الآخرة . وافتتاح السورة بالاستفهام ثم الجواب بعظمة المستفهم عنه اجمالا يتبعه تفصيله في السورة ، من الفواتح البديعة لما فيها من عزة الابتداء ومن التشويق الى الاستماع فكانت براعة استهلال .

(عم يتساءلون) عم مركبة من كلمتين اولاهما عن التي هي حرف جر والثانية ما التي هي اسم استفهام معناه اي شيء اي عن اي شيء يتساءلون. وترتيب الكلام يتساءلون عن ما فقدم حرف الجر مع المجرور لان الاستفهام من شانه ان يقع في صدر الجملة . وقد جرى الاستعمال الفصيح في كلام العرب على ان ما الاستفهامية اذا دخل عليها حرف الجر يحذفون الفها في النطق . وجرى رسم كتابة المصحف على ان ميمها الباقية بعد حذف الالف تكتب متصلة بحرف الجر بمنزلة جعل حرف الجر مع ميم ما كالكلمة الواحدة مثل قوله تعالى « فيم انت من ذكراها - وقوله - لِمَ أذِنتَ لهم » كما جرى نطق العرب بادغام النون الساكنة في الميم اذا وقعت الميم بعد النون الساكنة فلما سقطت النون في النطق بسبب الادغام استحسنوا حذف نون عن في الرسم لانه اسعد بالرسم فحذفوها وكتبوها حرفين بمنزلة اقتران ما الاستفهامية بباء الجر او لام الجر نحو قوله تعالى « فبم تبشرون -

لم اذنت لهم » ولما كتبت هكذا في المصحف اتّبع هذا الصنيع في رسمها وهي ينطق بها عم وجوبا . والضمير في قوله يتساءلون مراد منه الكفار من اهل مكة وهم وان لم يسبق ذكرهم لان هذا اول كلام فهم معلومون من المقام بالقرينة لان القرءان يكثر فيه ذكر احوالهم ونظير هذا الضمير في قوله تعالى حتى توارتْ بالحجاب اي الشمس . ومعنى يتساءلون يسال بعضهم بعضا لان صيغة التفاعل تدل على صدور الفعل من جانب الى جانب وصدوره ايضا من الجانب الذي يصل اليه الى الجانب الذي صدر منه حتى يكون كلا الجانبين صادرا منه الى غيره ، وصادرا من ذلك الغير اليه ، قلت فالمعنى انهم لانكارهم هذا الخبر جعلوا يَسأل بعضهم بعضا عن رأيه في ذلك وهذا التساؤل سؤال بعض المشركين بعضا عن امر البعث وما رايه في هذا الخبر من التكذيب ، فهو سؤال استبعاد وتعجيب مقصود بذلك السؤال التهكم بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالقرءان في الاخبار بوقوع البعث بعد الموت فاطلاق لفظ التساؤل على فعل المشركين اطلاق حقيقي لان ذلك اسمه واما قصدهم من السؤال الصادر من بعضهم الى بعض فليس بالحقيقة بل ارادوا به التهكم . والاستفهام الواقع بما الاستفهامية في قوله عم ليس مرادا به الاستفهام الحقيقي لان الله يعلم الشيء الذي يتساءلون عنه بل هو استفهام مستعمل في معنى تنبيه السامعين الى اهمية الشيء المتساءل عنه ولذلك يجيب عنه السائل بنفسه كما في قوله عن النبا العظيم ونظيره قوله تعالى « هل انبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل افاك اثيم » .

(عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون) اقول هذا جواب عن قوله عم يتساءلون وهو جواب صادر من الذي قال عم يتساءلون وصدور الجواب منه يدل على ان الاستفهام ليس على حقيقته والا فكيف يستفهم ويجيب هو عن استفهامه والجار والمجرور في قوله عن النبا متعلق بفعل محذوف يدل عليه تساءلون والتقدير يتساءلون عن النبا العظيم والنّبَأ الخبر عن امر عظيم مهم والعظيمُ وصف له بمعنى المهم بين الانباء وانما كان عظيما لما يقتضيه من الوعد والوعيد ولما يؤذن به من عظيم قدرة الله تعالى . وجملة الذي هم فيه مختلفون صفة ثانية للنبا وضمير الجمع مراد به الكفار والاختلاف عدم الوفاق في امر مَا واختلافهم في النبا العظيم هو

اختـلافهم في شانه اي في شان تلقي إخبـار القرءان عن البعث فمنهم من يتلقاه بالجزم بالتكذيب مثل الذين حكى الله عنهم بقوله « وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجـل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفي خلـق جديد افترى على الله كذبا ام به جِنّة » ومنهم من يتلقاه بالشك كالذين حكى الله عنهم بقوله « قلتم ما ندري ما الساعة ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين » . فتعليق ضمير النباء بقوله مختلفون هو على حذف مضاف يدل عليه المقام اي في وصفـه قلت وجملة هم فيه مختلفون اسمية والجملـة الاسمية تدل على الثبات فهي تدل على ان هـذا الاختلاف متمكن من نفوسهم وثابت لهم بخلاف لو قال الذي اختلفوا فيه .

(كَلَّا سيعلمون ثمّ كَلَّا سيعلمون) اقول كلا حرف رد وابطال وانكار لشيء يتضمنه الكلام الواقع قبلها قلت وجرى الاستعمال على انه يتبعـه كلام يضاد الكلام الذي قبلهُ وهو هنا لابطال ما تضمنته جملة هم فيه مختلفون من اقوالهم المقتضية نفي البعث بعد الموت او التردد فيه اي ابطال نفي البعث وذلك اثبات للبعث والسين في قوله سيعلمون للاستقبال ومعنـاه انهم سيعلمون البعث بعد موتهم اذ يـرون مقاعدهم من النار فيعلمـون انهم مبعوثـون فصائرون اليها قلت وهذا الابطـال يتضمن وعيـدا لان علمهم بذلك يحصل عندما يشاهدون مقاعدهم من العـذاب كقوله تعالى « كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون كلا لو تعلمون علم اليقين لترَوُنّ الجحيم » وثم لعطف الجملة على الجملة فهي للترتيب الرّتبي للدلالة على ان مدلول الجملة الثانية مقصود مهتم به فكأنّ المتكلم يقول قلتَ لكم كذا ثم أرتقي فاقول كذا فاذا كان القول الثاني عين القول الاول علم السامع ان الارتقاء يدل على ان المقول الثاني اوقـع في النفس من المقول الاول . والجملة الثانية تاكيد لفظي للجملة الاولى للدلالة على ان التهديد الذي افادته الجماة الاولى لا مبالغة فيه وانه واقع لا محالة .

(ألم نجعل الارضَ مِهاداً) هذا ابتـداء الاستدلال على الكفار على انّ البعث ثابت لابطال حكمهم على البعث بالاستحالة فاستدل عليهم بالاستحالة باثبات امكانه لانهم ما انكروه الا لاعتقادهم استحالة اعادة خلق الجسم بعد فنائه فاستدل عليهم بان البعث ما هو الا خلق ثـان نظير الخلق الاول وقد جـاء الاستدلال

بدلائل من خلق العالم وخلق الانسان وخلق احواله واحوال العالم . وهذا الكلام استفهام تقريري كما هو الغالب في الاستفهام الداخل على الكلام المنفي والمقصود من هذا التقرير تذكير المشركين بما لا يسعهم غير الاقرار به فانهم يعترفون بان الله هو خالق الارض فاما كانوا مقرين بذلك لزمهم ان يعترفوا بامكان البعث اذ ما البعث الا خلق ثان فلا وجه لاستحالته بعد ان شاهدوا الخلق الاول كما قال تعالى « افعيينا بالخلق الاول بل هم في لبس من خلق جديد » .

والمهاد الفراش الممهد اي الموطأ المجعول ملائما للاضطجاع والكلام على حذف كاف التشبيه فهو تشبيه بليغ اي الم نجعل الأرض كالمهاد . ووجه الشبه هو تيسير السير فيها والجلوسِ والنومِ عليها وفي هذا التشبيه تعريض بالامتنان على المشركين الذين لم يقدّروا نعمة الله حق قدرها فان الارض لو خلقها الله محدودبة الاجزاء مسننة لكان حتميا دليلا على القدرة ولكن لم يكن في خلقها راحة لسكانها فاشتملت هذه الجملة على غرضين الاستدلال على عظيم قدرة الله واتقان صنعه ليرجعوا عن انكار البعث ذلك الانكارُ الذي حملهم عليه اعتقاد صعوبة اعادة خلق الاجسام بعد بِلاها وفي ذلك الاعتقاد اسناد العجز الى الله . والغرض الثاني الامتنان عليهم بنعمة التمكن من الانتفاع بالارض بدون الم ليحملهم تذكر ذلك على الشكر والنظر فيما يدعوهم الله اليه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم .

(والجبال اوتادا) الاوتاد جمع وَتِد بفتح الواو وكسر التاء وهو عُود غليظ مسنم الاسفل يدق في الارض فتشد به جهة من جهات الخيمة وللخيمة اوتاد كثيرة والمعنى تشبيه الجبال بالاوتاد على طريقة التشبيه البليغ ووجه الشبه شكلها العجيب.

(وخلقناكم أزواجا) وخلقناكم معطوف على الم نجعل والمعطوفُ عليه وان كان فعلا مضارعا فدخول حرف لم عليه يصيره في معنى الماضي لان لم تقلب زمن الفعل المضارع الى الماضي ولذلك حسن عطف الماضي عليه فالتقدير والم نخلقكم ازواجا وانما عدل عن المضارع لان صيغته تؤذن بالتجدد ولما كان التقرير مقتضيا النظر والتامل في المصنوعات لانه نظر للاعتبار بدلائل الوجود اختير المضارع مع ذكر المصنوعات المحتاجة لدقة التامل واختير الماضي للمصنوعات الواضحة دلالتها على قدرة الصانع وهي الاشياء المتصلة بنفوس المخاطبين المحمولين

على الاقرار . وازواجا حال من الضمير المنصوب في قوله خلقناكم والازواج جمع زوج وهو الذي يصير به الواحد اثنين والمراد به هنا ذكورا واناثا لان الذكر والانثى يقترنان فيصير احدهما زوجا للاخر وهذا استدلال بدقة خلق الانسان، وتذكيرٌ بعظيم قدرة الله وحكمته ، وامتنانٌ على الناس بانه خلقهم وبانه خلق لكل من الصنفين ما يصلح ان يكون له زوجا ليتم التانس بالزوج وتحصل فائدة النسل، وفيه تعريض بكفران المشركين نعمة ربهم .

(وجعلنا نومَكم سُباتا) هذا استدلال بخلق حال عجيب من احوال الانسان وهو حال النوم واختير الاستدلال به من بين سائر الاحوال لان خلق النوم وما يتبعه من البعث .

والسبات بضم السين مصدر معناه الراحة والانقطاع عن العمل وهو مشتق من السبت بفتح السين وسكون الموحدة وهو القطع لان الراحة انقطاع عن العمل. فالله جعل النومَ مُلجئا الانسانَ لقطع اعماله رغما عليه لتحصل بذلك راحة للمجموع العصبي الذي ركنه في الدماغ فيستجد العصب قوته التي انهكها العمل فهو شبيه بالموت ويعقبه ما يشبه الاحياء بعد الموت وتلك الحالة احسن تقريب يقرب به البعث بحيث لو تعلقت رغبة احد بالسهر لَغَلَبَهُ النوم بالاخارة . وفي هذه العبرة منة ايضا على الناس بان خلق الله لهم حالا فيها نعمة عليهم . ويطلق السبات على الموت وقد فسر به هنا اي وجعلنا نومكم موتا موقتا كقوله الله يتوفى الانفس حين موتها على احد تفسيرين وفيه اعتبار بحال النوم ثم اليقظة بعده تقريبا للبعث بعد الموت والتفسيران متقاربان .

(وجعلنا الليلَ لِباساً) هذا استدلال باحوال العالم على عظيم قدرة الله تعالى والابتداء بحالة الليل دعا اليه مناسبة الانتقال اليه من ذكر حالة النوم ولذلك كان هذا الكلام بمنزلة الاتمام للذي قبله وهو قوله وجعلنا نومكم سباتا لان حالة الليل حالة مهيئة للنوم ومُعينة عليه لان الليل هو الظلمة العارضة في الافق من ابتعاد نور الشمس عن جزء من الكرة الارضية وبتلك الظلمة تحتجب الاشياء عن الابصار فيتعسر العَمل ، ويذهب النشاط ، وتتهيا الاعصاب للخمول ثم تميل الى النوم ، فيحصل النوم لها بعد هذه المقدمات العجيبة .

فاللباس هنا مستعمل في الساتر على طريقة التشبيه البليغ ايضا اي جعلنا الليل كاللباس في ستره الاشياء عن الابصار واللباس هنا اسم بمعنى الملبوس ويجوز ان يجعل مصدرا بمعنى الملابسة اي يلابس الاشياء فيه بعضها بعضا والمآل واحد .

(وجعلنا النهار معاشا) لما ذكر نعمة الليل قابلها بنعمة النهار فكما كان الليل سكونا وراحة كان النهار صالحا للعمل لان معه الضوء وهو ملائم للابصار فيستطيع الناس النظر الى الطريق والاشياء المرادة لهم ويعرف بعضهم بعضا فهو مهيء لمعاش الناس .

والمعاش يستعمل بمعنى المصدر اي العيش اي الحياة ويستعمل بمعنى الاسم اي الشيء الذي يعاش به والاحسن تفسيره هنا بالمعنى الثاني لمناسبة اللباس في وصف الليل فيكون المعنى جعل النهار زمان المعاش لان فيه تحصيل المرء معاشه .

واذا فسرنا السبات في قوله تعالى وجعلنا نومكم سباتا بمعنى الموت كما تقدم وكان قوله وجعلنا الليل لباسا كالتكملة له حسن تفسير المعاش بمعنى العيش اي وجعلنا النهار حياة لكم بعد ممات الليل فكما احييناكم بالنهار بعد ان امتناكم بالليل كذلك نحييكم بالبعث بعد موتكم .

(وبَنَيْنا فوقكم سَبْعا شِدادا) هذا اعتبار بخلق العوالم العلوية واحوالها . والسبع هي السماوات وقد اشتهر عندهم انها سبع سماوات اما بما اخبرهم به القرءان فيما نزل منه قبل هذه السورة كقوله الله الذي خلق سبع سماوات واما بما هو شائع على السنة اهل الكتاب وما توارثه العرب من الاخبار الدينية من عهد ابراهيم عليه السلام .

والبناء مستعار لخلق الاشياء المتعالية لشبه ذلك الخلق بالبناء في الايجاد مع الرفع كما تبنى قبابهم ولما شابهت اجواء السماء القُبَّة في نظر العين اطلق على تكوينها اسم البناء على طريقة الاستعارة المكنية والاظهر ان المراد بالسبع هنا الكواكب السبع المشهورة عندهم يومئذ وهي زحل والمشتري والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر فان العبرة بها اظهر لانهم يعهدونها دون غيرها من الكواكب

السيارة التي لم يبلغ اليها علم العرب يومئذ والله يعلمها لقوله ويخلق مالا تعلمون ولكنه يخاطب الناس بما يفهمون رحمــة بهم . وشِداد جمع شديدة وشديد والشدة القوة وهي هنا قوة الذوات وصلابتها بحيث لا يتغيرن بالازمان .

(وجعلْنا سِراجا وهَّاجاً) السراج حقيقته المصباح واستعير هنا للشمس بقرينة قرنه بالسبع الشداد كقوله تعالى « وجعل الشمس سراجا » وقوله « وجعــل فيها سراجــا وقمرا منيرا ». والوهاج صفة يقال وَهَجَتْ النــار اذا اشتــد حرها واضطرمت ووصل الى بعيد وهَجا ووهْجا بفتح الهاء وبسكونها ولما كانت النار اذا اشتد حرها واضطرمت قوي نورها شاع اطلاق الوهــاج على شديد الضياء كما في هذه الآية اذ المراد الامتنان بنور الشمس لا الامتنــان بشدة حرهــا لان ذلك غير مرغوب للناس ولا سيما العرب الذين الفوا حر بلادهم وهو مع ذلك موافق لما دلت عليه النظارات بالمراصد الفلكية من ان الشمس مشتعلة ذات السنة نارية .

(وانزلنا من المُعْصِرات ماءً ثَجّاجاً لِنُخْرِج به حَبًّا ونَباتا وجنات أَلفافاً) استدلال باحوال تنشا منها حياة بعد موت وذلك بانزال المطر على الارض فتُنبت الارض نباتا حيا وفي هذا عبرة للحياة بعد الموت او مشارفته كما قال تعالى واحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج وفيه منة على المعرضين عن النظر في اسباب شكر نعمة الله تعالى . ومن ابتدائية اي انزلنا الماء مبتدئا من المعصرات والمعصرات الاسحبة المطرات واحدتها معصِرة بكسر الصاد اسم فاعل من اعصرت السحابة اذا حان لها ان تَعْصِر اي تُغِيث فالهمزة للتهيئة .والثجاج المنصب الكثير يقال ثج المــاء اذا انصب بكثرة ووصفه بالثجاج هنا لتمام المنة . والحَب ما هو قوت للبشر غــالبا من القمح والشعير والذرة . والنباتُ ما هو مرعى للدواب غالبا . والجنــات البساتين واحــدها جنــة وهي المكان المغروس شجرا . والفافا صفة لجنات وهو جمعُ جمعِ فاصل الوصف لفَّاء وجمع لفاء لُفٌّ بضم اللام مثل حمراء وحمر ثم جمع لف على الفاف والجنة اللفاء التي التف شجرها بعضه ببعض وذلك من محاسن الجنــات لانها تكون اكثر ظلا وابهج منظرا فوصف الجنات بذلك تحسين لها لِاتمام المنة .

(ان يــوم الفَصْل كان ميقاتا) اقول بعد ان قامت الادلة على امكان البعث وعدم استبعاده نقل الكلام الى استنتاج انه واقع فجملة ان يوم الفصل الى آخرها

مستانفة استئناف التصريح بالنتيجة بعد ذكر الدليل ووقع تاكيد هذا الخبر بان لرد انكار المخاطبين وهم المشركون لانهم يزعمون انه غير واقع وانما قال كان ميقاتا ولم يقل ان يوم الفصل ميقات لان كان تدل على ان ذلك امر مقرر له من الازل اي ان الله جعل له حدا موقتا فليس تكذيبكم به مما يغير وقته ويعجله لكم ولو كان مما يعجّل لعُجل لكم ولكن الله مستدرجكم بذلك كقوله تعالى « ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي اليهم اجلهم ». ويوم الفصل هو يوم القيامة وهو يوم البعث واختير التعبير عنه هنا بيوم الفصل لاثبات امرين بعث الناس وجزائهم استدلالا عليهم وتهديدا لهم كما قال بعد هذا « انهم كانوا لا يرجون حسابا » والفصل هو التمييز بين المختلطات والمتشابهات والملبّسات فالقضاء بين الناس فصل لانه يميز الحق من الباطل قال تعالى يوم القيامة يفصل بينكم. واظهار الحقائق على ما هي عليه فصل ومنه « واتيناه الحكمة وفصل الخطاب » والصدق فصل « انه لقول فصل وما هو بالهزل » وفي يوم القيامة يكون الفصل بجميع معانيه فلذلك سمي يوم الفصل .

والميقات مشتق من الوقت والوقت الزمان المقدر المحدد لعمل ما فالميقات اسم جاء على وزن اسم الآلة وليس باسم آلة بل هو مرادف للوقت والمعنى ان يوم القيامة وقت معين محدد لا يتقدم ولا يتاخر . ثم المعهود في الاستعمال ان الميقات والوقت يطلقان على الزمان المحدد به شيء من الاشياء فعلى هذا يكون الكلام كناية عن كونه واقعا لانه لما كان ميقاتا للحشر والحساب فهو محقق الوقوع اذ التوقيت لايكون الا بزمان محقق الحصول والمعنى المناسب لسياق الكلام ان الاخبار عن قوله ميقاتا ابطال لاقوالهم لا تاتينا الساعة وقولهم متى هذا الوعد تهكما منهم باستبطائه واستدلالا منهم بتاخر وقوعه على عدم وقوعه وفي معناه قوله تعالى « يسالونك عن الساعة ايان مرساها فيم انت من ذكراها الى ربك منتهاها » ثم المقصود من كونه ميقاتا انه واقع لا محالة ولو تاخر وقوعه او ابطأ وفي الاعراض عن ذكر الامر الموقت بيوم الفصل تعريض بتهديد المشركين بانه لا يدري متى يحين يوم الفصل كما قال تعالى لا تاتيكم الا بغتة وليس المراد الاعلام بان يوم الفصل هو وقت انتهاء العالم لقلة جدواه .

(يوم يُنْفَخُ في الصُّور فتأتون أفواجاً) يوم بدل من يوم الفصل وهو مضاف الى جملة ينفخ وبني ينفخ الى المجهول لعدم تعلق الغرض بمعرفة النافخ وانما الغرض معرفة هذا الحادث العظيم وهو دعاء الناس للحضور الى الفصل والنافخ ملك موكل بذلك اسمه اسرافيل . والصور البوق الذي ينادى به الجيش ونحوهم من الجموع المنتشرة . والنفخ في الصور صيغة من صيغ امر التكوين باعادة الاجساد وانبثاث ارواحها السالفة فيها ولا يعلم كيفيته الا الله تعالى ولكن التعبير بالنفخ في الصُّور تقريب له او تمثيل . والخطاب في قوله فتاتون للمشركين والاتيان وان كان عاما للناس كلهم إلا ان المقصود هنا المشركون لان الكلام مسوق مساق التحذير والتهديد . والافواج جمع فوج بفتح الفاء وهو الجماعة فاهل كل عصر او كل مصر او كل ملة بحسب ما اراد الله ياتون جماعات متمايزة وانتصب افواجا على الحال من ضمير تاتون واجتلاب فاء التعقيب في قوله فتاتون للاشارة الى عدم البطء بين الدعاء الى الاتيان وبين حصوله ولذلك حذف ما بين النفخ والاتيان وتقديره فتحيون للتنبيه على انه لعدم التريث فيه يكون بمنزلة الامر الذي لم يقع مع الايجاز في اللفظ اذ من المعلوم انهم لا ياتون افواجا الا وقد حَيُوا .

(وفُتِحَتْ السماءُ فكانت أبوابا) جملة وفتحت اما معطوفة على جملة ينفخ وعبر بالماضي في موضع المضارع لتحقيق وقوعه لانه امر عجيب كقوله ويوم ينفخ في الصور يصعق من في السماوات ومن في الارض واما جملة حالية من مرفوع ينفخ اي والحال قد فتحت السماء اي من قبل ذلك . قرا الجمهور وفتحت بتشديد التاء على المبالغة في الفتح اي بكثرته او بسعته وقرأ الكوفيون بتخفيف التاء على اصل الفعل وفي كلا الحالين عبرة لان السماوات كانت كُرَات ملتئمةً فاذا حان فناء العالم فسد التئامها وانشقت قال تعالى « اذا السماء انشقت» الى قوله يايها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه » فالتفتح والفتح سواء في تصوير اختلال نظامها لان الفتح مخالف لنظامها وهو الالتئام وقوله فكانت ابوابا اي فكانت كالابواب فالكلام على التشبيه البليغ كقوله « بَدَتْ قمراً » ووجه الشبه هو اتساع الفتوح التي فيها اي كانت ثُغَرها واسعة حتى كان

السماوات صارت ابوابا وهذا يناسب معنى قراءة التشديد ويؤكده ويقيد معنى قراءة التخفيف ويبينه . وكانت هنا بمعنى صارت كقوله تعالى فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان وقرينة ذلك انه جعل مفرعا على فتحت .

(وَسُيِّرَتْ الجبالُ فكانت سراباً) القول في بناء سُيرت للمجهول كالقول في بناء فتحت وانما يسيرها ملك الجبال والجملة معطوفة على جملة سيرت على الوجهين المتقدمين فيها . والتسيير حقيقته التمشية اي جَعْل الشيء سائرا اي ماشيا واطلق هنا مجازا على النقل من مكان الى آخر اي ازيلت الجبال من مواضعها وزلزلتْ فانتقلت والفاء للتعقيب اي فعَقِب ذلك التسييرَ انّها كانت سرابا اي كانت كالسراب وهو ما يتخيله الناظر كالبحيرة من الماء وليس هو بماء ويكون ذلك في البلاد الحارة كبلاد العرب ويلوح في بلاد الجريد من القطر التونسي وهو عارض هوائي ووجه الشبه انحلال اجزائها ودقتها مثل قوله تعالى « وبُسّت الجبال بسا فكانت هباء منبثا » وانما يكون ذلك للجبال بما يتكاثر من الزلازل كما اشار اليه قوله تعالى « اذا زلزلت الارض زلزالها » الى قوله « يومئذ يصدر الناس اشتاتا ليروا اعمالهم » وكان هنا بمعنى صار كالتي في الآية قبلها .

(إن جهنّمَ كانتْ مِرْصادا للطاغين مآبا لابثين فيها أحقابا) هذه جملة مستانفة ثانية بعد جملة ان يوم الفصل كان ميقاتا وانما لم تعطف هذه على تلك لاختلاف الغرضين لان الجملة الاولى نتيجة الادلة التي ذكرت قبلها وهذه ليست كتلك ولكنها ابتداءُ انتقال الى الوعيد بعد المحاجة في اثبات البعث . ومناسبة الانتقال أن انكار المشركين البعث من جملة الاسباب التي جرّأتهم على الكفر برسالة محمد صلى الله عليه وسلم فاريد اثبات البعث والجزاء تهديدا لهم ووعيدا ولانهم لما كذّبوا فقد استحقوا بذلك عذاب جهنم ودخلوا في زمرة الصائرين اليها فتوعدهم الله بانها مرصدة لهم ومهياة لانهم تلبسوا بما يُوجب المصير اليها وكان ذلك عقب الاحتجاج عليهم بما يثبت امكان البعث ثم بالاخبار عن تحقق وقوعه . وجَهنم اسم لدار العذاب الذي يعاقب الله به في الآخرة والعذاب فيها بالنار وهذا الاسم علم اعجمي لان اصله معرب من العبرانية فلذلك يمنع من الصرف كقوله تعالى

وجيء يومئذ بجهنم . وقال كانت مرصادا للطاغين دون ان يقول ان جهنم مرصاد وذلك كقوله ان يوم الفصل كان ميقاتا لتدل كان على ان جهنم قد قُدرت لهم ولامثالهم الطاغين من الازل تنبيها على علم الله وحكمته بانه آعد لهم عذاب جهنم من قبل وجودهم لعلمه بما يقتضيه فعل كل فاعل وما يستحقه من الجزاء .

والمرصاد المكان الذي يَرْصَد فيه ويترقب المترقب جاء على زنة اسم الآلة وما هو باسم آلة فهو نظير الميقات واذا كان المكان مَرْصَدا ومرتَقَبا وكان مُعدًّا لحبس المرصود فيه فلذلك اعقب بقوله للطاغين مآبا والمآب المكان الذي يؤوب اليه احد اي يرجع . فلما كانت اعمالهم مُوقِعة لهم في عذاب جهنم نُزلت جهنم منزلة مقر لهم يرجعون اليه كما يرجع المرء الى منزله . وقوله للطاغين اما متعلق بمرصادا ويقدر لِمآبا متعلّق يدل عليه المذكور . واما متّلعق بمآبا وهو يدل على ان المرصاد ايضا للطاغين .

والمرادبالطاغين المتكبرون أي المتكبرون عن توحيد الله بان اشركوا معه غيره وتكبروا على رسوله فانفوا من اتباعه والطغيان التكبر الشديد والتعريف في الطاغين تعريف الجنس المفيد للعموم فدخل في عمومه المشركون المخاطبون واللابث المُقيم والاحقاب جمع حُقُب بضم الحاء وبضم القاف وهو اسم لمدة طويلة من الدهر ثمانون سنة او نحوها والمراد المدد البالغة نهاية الطول وهو كناية عن التابيد لانه ورد التصريح به في آيات كثيرة .

(لا يذُوقون فيها بَرْدا ولا شَرابا الا حميماً وغَساقا جزاءً وفاقاً) اصل الذوق انه ادراك طعم الماكول او المشروب ويستعمل الذوق في كلام العرب بمعنى مطلق الاحساس على طريقة المجاز المرسل وهو مجاز مشهور في كلامهم وقد استعمل هنا في معنييه المجازي والحقيقي فلذلك عدي الى البرد والى الشراب .

فالبرد ضد الحر اي لا يجدون بردا ينفس عليهم ما هم فيه من الم النار ولا يذوقون شرابا يطفئون به عطش الحرارة والاستثناء منقطع لان الحميم والغساق ليسا من جنس البرد والشراب فالحميم الماء الشديد الحرارة والغساق بتخفيف السين في قراءة الجمهور وبتشديدها في قراءة حمزة والكساءي وحفص هو الصديد

الذي يسيل من الاجراح وحرق النار اي لكن يذوقون فيها حميما وغساقا ولذلك زيادة في العذاب .

وجزاءً مصدر منصوب هو مفعول مطلق جاء بدلا من فعله اي جوزوا جزاء وموقع الجملة المقدرة التي جاء المفعول المطلق عوضا عنها هو الاستئناف البياني لان السامع حين يسمع شدة هذا الوعيد يجيش في خاطره سؤال عن سبب مبلغ هذا العذاب من الشدة فاجيب بانه جزاء موافق لجُرمهم . والجزاء مصدر جَزَاه اذا كافأه على عمل من خير او شر والوفاق مصدر وافق اي مائل وشابه وصف الجزاء بالمصدر للمبالغة في وصفه بالموافق مثل رجل عَدل والمراد انه موافق لاعمالهم وكفرهم والموافقة هنا المماثلة في مطلق الشدة والقوة في الجنس فكما كان كفرهم قويا في جنسه كذلك كان العذاب فهو عقاب عادل جاء على قدر الذنب .

(إنهم كانوا لا يَرْجُون حِسابا وكَذَّبوا بآياتنا كِذّاباً) هاتان الجملتان واقعتان موقع التعليل للوعيد المبتَدإ بقوله ان جهنم كانت مرصادا الى قوله جزاء وفاقا اي انما عين لهم ذلك العقاب لانهم كانوا لا يرجون حسابا وكذلك الشان اذا ذكرت اِنّ لغير رد انكار مُنكِر ان تكون بمعنى الفاء وتفيد التعليل وههنا لا ينكر احد انهم ينكرون الحساب وتكذيبهم بالقرءان فلم تكن انّ لرد الانكار . ومعنى لا يرجون لا يتوقعون الحساب لانهم لا يؤمنون بالبعث والرجاء ظن بحصول شيء محبوب وانما عبر به هنا لانه لما كان الايمان بالبعث من خصال الايمان صار الايمان به مقتضيا رجاء الخير منه وعدم الايمان به يقتضي انتفاء ذلك الرجاء فاريد نفيه عن المشركين على وجه يشعر بان المؤمنين به يرجون نعيمه . والحساب اسم لعَدّ الاشياء واطلق على عدّ الاشياء التي فيها حقوق مشتركة مالية لتمييز مستحقيها سمي ذلك حسابا لان غالبها نقْد او أنْعام فتصفيةما بين المتخالطين فيها تكون بالعد والحساب فشاع اسم الحساب في تمييز الحقوق واظهارها والمراد به هنا اظهار الجزاء على الاعمال عند الله تعالى يوم الحشر . والمراد بقوله تعالى بآياتنا آيات القرءان والكذاب بكسر الكاف وتشديد الذال مصدر كذب واختير هنا

من بين المصادر المرادفة له لحسن المماثلة لفواصل حِسابا . كِتابا . عَذابا.
ولهـذا المصدر نظائر مثـل القِصَّار مصدر قَصَّر والقِضَّاء مصدر قضى . وهو
مفعول مطلق مؤكد لعامله وهو كذبوا بآياتنا .

(وكلَّ شيءٍ احْصَيناه كتابا فـذوقوا فلن نزيدكم إلاَّ عذابا) معطوف على
على جملة انهم كانوا لا يرجون حسابا اي هذه بعض اعمالهم واحصينا كل اعمالهم
فهي تفيد مفاد وما عدا ذلك او وغير ذلك ، وكل شيء مفعول احصيناه على طريقة
الاشتغال والتقـدير واحصينا كل شيء احصيناه ، والاحصاء الضبط واصل الاحصاء
حساب الاشياء لتحقق عدم ضياع شيء منها قال تعالى واحصى كل شيء عـددا فلما
كان من لوازمه الضبط استعمل الاحصاء بمعنى الضبط ، وقوله كتابا مصدر بمعنى
الكتابة وقد اريد بالكتابة هنا شدة الضبط بحيث لا ينسى منه شيء بعد طول الزمان
فهو كناية فيجوز ان يكون مرادا منه لازم معناه دون ملزومـه ويجوز ان يكون
مـرادا منه اللازم والملزوم معا ؛ وقـد ورد في آيات كثيرة ما يقتضي ان اعمـال
العباد يكتبها ملائكة موكلون بها ، وانتصب كتابا على انه مفعول مطلـق لاحصيناه.
مبين له ، وصيغة كل شيء من صيغ العموم فظاهرها يعم كل موجود ولكن المراد
هنا اشياء خاصة يـدل المقام على ارادتها وهي الاعمال فهذا من العـام المراد به
الخصوص بقرينة سياق الكلام الذي قبله وبعـده ، وجملة فذوقوا مفرعـة على
الكلام السابق وهو انهم كانوا لا يرجون حسابا الى آخره فتعين ان ما يلاقونه
من العذاب هو نتيجة اعمالهم المحصاة عند الله ،

وقد تغير اسلوب الخبر من الغيبة في قوله لا يذوقون فيها بردا وما بعده الى
الخطاب في قوله فذوقـوا على طريقة الالتفات تقوية للتهـديد ليعلم المشركون
انهم المقصود به لان ضمير الخطاب ادل على المراد به من ضمير الغيبة فجعلوا
كانهم حاضرون في يوم الحساب فخوطبوا بقوله فذوقوا وزادهم تهديدا بانهم لا
يزادون على ذلك الا عذابا اي انواعا اخرى من العذاب تجتمع مع الحرمان
من التنفيس بالبرد ومع شرب الحميم والغساق ، ولن لنفي الفعل المستقبل اي لا
نزيدكم ايام العذاب في جهنم الا عذابا آخر وانما جاء التعبير عن زيادة العـذاب
بطريقة النفي والإستثناء لان ابتداء الكلام بنفي الزيادة يوهمهم سماعه اطمئنانا من

زيادة عذاب آخر فاذا اعقب بالاستثناء بقوله الا عذابا عاد ذلك الاطمئنان حسرةً وعلما بانهم يزادون منه.

(إنّ للمتقين مفازا واعنابا و ـواعبَ اترابا وكأسا دِهاقاً) انتقال الى ذكر جزاء المتقين بمناسبة المقابلة لذكر جزاء الطاغين فهو استئناف ابتدائي . والمتقون هم المتصفون بالتقوى وهي امتثال المامورات الدينية واجتناب المنهيات . والمفاز مكان الفــوز والفــوز حصول المطلــوب الملائم للنفس والمراد بالمفــاز دار الثواب لان المتقين ينــالون فيها كل ما يبتغــون . وقوله حدائق بدل اشتمال من مفــازا والحدائق جمع حديقة وهي الجنــة من النخيل والشجرِ ذوات الساق . والاعنابُ جمع عنب والعنب يطلق على شجرة الكرم ويطلق على ثمرتها والمراد هنا الاول لمناسبته للحدائق وقد تكون الجنة نخيلا محضا.وقد تكون نخيلا واعنابا كما قال تعالى من نخيل وأعنـاب . والكواعب جمع كاعب وهي المراة التي في اول شبابها في سن خمس عشرة ونحوها لانها تَـكعَّب ثدُيها واستدار .

والاتراب اللاتي هن في سن واحدة . والكاس اناء الخمر المتخذ من زجاج ولم اقف على ان لمسماه شكلا معينا فلعله قد يكون قدحا اي لا ُعروة له ويكون كـُوبا اي ذا عروة وهو متسع الفم ويكون كوزا وهو ما ضاق مصب الخمر منـه وهذا هو مقتضى اطلاق كتب اللغة والتفسير . والكاس مؤنثة .

والدهاق اسم مصدر ادهق واستعمل وصفا بمعنى المفعول كالخَلق بمعنى المخلوق اي ُمدهقة اي مفعمة خمرا .

(لا يسمعون فيها لَغْوًا ولا كِـذّابا) جملة لايسمعون صفة ثانية لكاسا ويكون الضمير المجرور بفي عائدا على الكاس وتعدية في الى ذات الكــاس على تقدير التعدية الى ما هو من لوازمها الظاهر وهو شربها وفي للظرفية المجازية او للسببية والمعنى لا يسمعون في حال شربها او بسبب شربها لغوا ولا كذابــا ووجه اجراء هذا الوصف الاحتراس من توهم ان خمر الجنة يعتري شاربها مــا يعتري شارب خمر الدنيا من اللغو فيكون مثل قوله تعالى في سورة الطور يتنازعون فيها كاسا لا لغو فيها ولا تاثيم واللغو الكلام الذي لا طائل فيه والكذاب تقدم تفسيره آنفـا في هذه السورة اى فهم ينالون لذتها ولا تاتي على كمالاتهم النفسة وكان العرب يعُدون

ترك اللغو ونحوه في شرب الخمر من الكمال . ويجوز ان يكون الضمير عائدا الى الجنة فان اهل الجنة لا لغو بينهم ولا يكذب بعضهم بعضا لكمال نفوسهم المطهرة من النقائص .

(جزاءً من ربِّك عطاء حسابا ربُّ السماوات والارض وما بينهما الرحمانُ لا يملكون منه خطابا) تقدم تفسير الجزاء آنفا وجزاء منصوب هنا على الحال من مفازا ووصفه بانه من الله للدلالة على عظم شانه وخيره والعدول عن اسم الله العلم الى لفظ الرب المضاف الى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم للايماء الى ان هذا الجزاء فيه اكرام للنبيء لانه اسداء نعمة الى المتقين لاجل إيمانهم بالنبي وما جاء به . عطاء صفة لجزاء والعطاء اسم لما يعطي من المنافع والصلات عن غير عوض ولا يطلق الا على اعطاء ما لا يفيد المعطي وحسابا مصدر بمعنى المفعول اي محسوبا وهو صفة عطاء اي مقدرا بمثل اعمالهم فهو بمنزلة قوله في جزاء الكافرين جزاء وفاقا وليس هو من الحساب الذي بمعنى الضبط عن مجاوزة الحد كالذي في قوله تعالى يرزقون فيها بغير حساب ولكل آية مقامها . وقوله رب السموات والارض قراه نافع وابن كثير وابو عمرو بالرفع على انه نعت مقطوع وقراه عاصم وحمزة الكسائي وابن عامر بالجر صفة لربك . والرحمان قراه بالرفع الجمهور وقراه بالجر عاصم وابن عامر ويظهران . واختيار اسم الرحمان هنا من بين بقية الاسماء الحسنى للايماء الى سعة خير الجزاء الذي اعطاهموه رحمان بهم وتعريض بالمشركين اذ انكروا اطلاق هذا الوصف على الله قالوا وما الرحمان وفيه تعريض بانهم لما انكروا الوصف كانوا احرياء بان يحرموا متعلقه وذكر السماوات والارض وما بينهما للدلالة على العموم اي رب جميع الموجودات وخالقها .

والضمير في لا يملكون عائد الى السماوات والارض وما بينهما باعتبار ما تشتمل عليه هذه العوالم من الموجودات العقلاء من الملائكة والانس وما لا يعلمه الا الله ولما كان معاد الضمير عاما اي لا يملك احد المخلوقات منه خطابا . وجملة لا يملكون مستانفة لقصد الرد على المشركين الزاعمين ان آلهتهم شفعاء لهم عند الله تمنع عنهم تحقيق وعيده .

ويملكون هنا بمعنى يقدرون لان الملك يستعمل بمعنى القدرة كما في قوله تعالى قل لا املك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله .

والخطاب الكلام كما دل عليه قوله في نظيره لا يتكلمون فمعنى لا يملكون منه خطابا اي لا يستطيعون الكلام بين يدي الله اجلالا وخضعانا . ومنْ في قوله منه اتصالية اي لا يملكون خطابا يتصل بالله اي معه اي مخاطبتهم اياه ومثل هذا التركيب كثير في القرءان كقوله « الا قول ابراهيم لا ستغفرن لك وما املك لك من الله من شيء » فيؤول معنى التركيب الى لا يملكون خطابا له .

(يومَ يقومُ الرُّوحُ والملائكةُ صفّا لايتكلّمون إلاّ من أذن له الرحمانُ وقال صوابا) يومَ يقوم الروح ظرف متعلق بفعل لا يملكون اي لا يملكون ذلك يومَ القيامة ووصف يوم القيامة ببعض احواله تفخيما لشانه وتبيانا لشيء من عظمة الله تعالى التي اقتضاها على وجه الاجمال قوله لا يملكون منه خطابا .

والقيام الوقوف. والروح جبريل قال تعالى نزل به الروح الامين على قلبك. وصَفّا حال من الروح والملائكة باعتبار العطف الحاصل بالواو المقصود بها الاجتماع . والصف ترتيب اشياء متعددة باستواء مثل صف الناس في صلاة الجماعة وانما يكون ذلك في المجامع التي يطلب فيها التنظيم والتعظيم ولذلك جعلت الملائكة يوم الحساب صفوفا خضوعا لعظمة الله وجملة لا يتكلمون حال ثانية والضمير عائد الى الروح والملائكة وانما كانوا لايتكلمون لهول الموقف وعظمة امر الله تعالى والاستثناء بقوله الا من اذن له الرحمان استثناء من العمومين الدال عليهما قوله لا يملكون منه خطابا وقوله لا يتكلمون . وأذِنَ معناه اباح وانما ياذن الرحمان لمن اراد قبول كلامه وهو اعلم بمن يقول الكلام المأذون به. والمراد بالصواب الموافق لمراد الله تعالى . واختيار اسم الرحمان هنا دون ما عداه من الاسماء الحسنى للنكتة التي تقدمت آنفا في قوله رب السماوات والارض وما بينهما الرحمان تعريضا بان الذين انكروا انه الرحمان احرياء بان لا ياذن الرحمان بالشفاعة فيهم فما تنفعهم شفاعة الشافعين.

(ذلك يوم الحق فمن شاء اتخذ الى ربه مآبا) الاشارة الى اليوم في قوله يوم يقوم الروح وعدل عن الاضمار الى اسم الاشارة لقصد تعظيم اليوم

والتعريف في اليوم للدلالة على الكمال اي ذلك اليوم الكامل بين الايام وهو يوم لا اعظم منه في الايام لانه يجمع فيه المكلفون كلهم ويجزى فيه كل فاعل بما فعل ، فقوله ذلك مبتدا واليوم خبره والحق صفة لليوم اي الثابت الذي لا شك في وقوعه .

والفاء في قوله فمن شاء اتخذ الى ربه مآبا فاء فصيحة لانها تفصح عن شرط مقدر ينشا من الكلام السابق قبلها والتقدير فاذا علمتم عِظمه وانه واقع لا محالة فمن شاء منكم فليتخذ مآبا الى ربه . ومفعول شاء محذوف دل عليه جواب الشرط وتقديره فمن شاء اتخاذ مآب اتخذ الخ .

والاتخاذ الاقتناء لانه يؤول الى جعل المرء نفسه آخذ اشيئا . والمآب يطلق على المكان الذي يؤوب اليه المرء اي يرجع اليه وهو المقر والمسكن وعلى هذا التفسير فالمعنى فمن شاء جعل مكانا يستقر فيه ينتهي الى ربه اي في جوار ربه فيكون المراد مآبا حسنا وهو المناسب لقوله الى ربه .

ويطلق المآب مصدراميميا من آب فهو الرجوع كقوله تعالى « واليه مآب » وعليه فالمعنى فمن شاء جعل رجوعا الى ربه اي اختار كيف يكون رجوعه الى ربه كقوله تعالى « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر - وقوله - انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا ».

(انا انذرناكم عذابا قريبا) الانذار الاخبار عما يسوء ويخوف في المستقبل والخطاب للكفار بقرينة المقام والعذاب يصدق بعذاب الآخرة وقد تقدم الانذار به في قوله ان جهنم كانت مرصادا الآية فالتعبير عن الانذار بالماضي جارٍ على مقتضى الواقع لان الانذار به مضى وقوله انا انذرناكم عذابا قريبا خبر مستعمل في معنى الاعذار لهم والتبرىء من العهدة مع زيادة فائدة وصف العذاب بانه قريب الوقوع وقربه باعتبار تحققه فالقرب مستعمل في التحقق كقوله «انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا» اي يرونه بعيدالوقوع اي محالا ونراه قريبا اي محققا .

ويصدق العذاب بعذاب الدنيا وهو عذاب القتل والاستيصال في يوم بدر ويوم فتح مكة كالذي في قوله « قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم » ويكون الخبر مستعملا في اصل فائدته وهي افادة المخاطبين الحكم وفيه تهديد ووصف العذاب بالقريب زيادة في التهديد والقرب فيه على اصل معناه وعلى كل فالجملة معترضة بين الظرف وهو يومَ ينظر ومتعلقه وهو مآبا .

(يوم ينظر المرءُ ما قدمتْ يداه ويقولُ الكافرُ يا ليتني كنتُ تراباً) يوم ينظر ظرف لا محالة والا ظهر انه ظرف لمآبا اي مآبا في يوم نظر المرء ما قدمت يداه وذلك ايماء الى ان المراد مآبا صالحا لان المرء ينظر ما قدمت يداه في الدنيا فان عمل صالحا وجد مآبه على وفق عمله . ويجوز ان يجعل يومَ ينظر بدلا من يومَ يقوم الروح. والنظر المشاهدة والمرء اصله الرجل لانه مذكر المراة ثم شاع استعماله بمعنى الانسان والمراد به هنا جنس الانسان والتعريف للاستغراق كقوله « ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا ». واليدان مجاز مرسل للعمل لانهما سبب الاعمال ومعنى قدمت يداه اسلفت من الاعمال والمعنى يوم يشاهد كل انسان جزاءَ اعماله . ويا ليتني كنت ترابا كناية عن العدم فالتراب كناية عن تفاهة الشيء ومنه سمي عدم المال متربة اي يا ليتني لم اوجد كما قال يا ليتني مت قبل هذا وقولهم يا ليت امي لم تلدني . والمعنى ان الكافر يتمنى يومئذ انه لم يكن مخلوقا معتبرا ولا عاقلا اي يتمنى انه معدوم وذلك ندامة منه على ما قدمت يداه . وقد جاءت هذه الآية الخاتمة للسورة جامعة للمقصود من السورة ومشعرة بانتهائها فاستكملت براعة المقطع .

اسلوب هذه السورة

جاء نظم هذه السورة على كثرة افنانه نظما محكما ملتئم الانتقال من غرض الى غرض فافتتحت بطريق السؤال والجواب لما فيها من ايقاظ البصاير الى وعي الغرض . المطلوب وجعل السؤال عن حالة اضطراب السئول عن حالهم وهم يسال بعضهم بعضا فكان سؤالا عن تساؤل وهو اسلوب بديع من مراعاة النظير، ثم اعقب ذلك بالزجر والردع والتهديد على ما تضمنه الاخبار من حيرتهم . ثم اعقب بتجهيل رايهم اذ احالوا ما هو اهون مما هم يشاهدونه من الخلق الاول للمخلوقات العظيمة من الارض والسماوات والانسان وعجايب احواله . وأدمج في ذلك الامتنان عليهم بالنعم الجمة . ثم تخلص الى المقصود وهو اثبات البعث المعبر عنه في صدر السورة بالنبا العظيم وما وراءه من نعمة ونعيم فكان ذلك من رد العجز على الصدر .

سورة النازعات

سميت في جميع المصاحف واكثر التفاسير سورة النازعات بالاضافة وبدون واو ، ووقعت في كثير من التفاسير تسميتها سورة والنازعات بذكر لفظ سورة واثبات واو القسم على حكاية اللفظ الاول الواقع فيها . وهي مكية نزلت بعد سورة النبا وقبل سورة اذا السماء انفطرت قيل هي السابعة والسبعون .
والغرض منها مقارب للغرض من سورة النبا الا ان تهديدها ووعيدها اشد كأن التي قبلها كانت مقدمة لها ، وانها تعرضت لطغيان قريش باوسع مما في سورة النبا وذكرت اعتبارا بتكذيب فرعون بآيات الله تكبرا وكيده لموسى ، موعظة لسادة قريش وكبرائهم مثل ابي جهل وامية بن خلف .

(والنَّازِعاتِ غَرْقاً) الواو للقسم والقسم في القرءان يكون بعظيم مخلوقات الله من حيث هي ءاثار صفة القدرة ودالة عليها ويكون بشريف المخلوقات لانها متعلق تشريف الله اياها للدلالة على ان شرف المخلوقات انما يكون برضى الله تعالى عنها او بتعظيم الله تعالى شانها او بدلالتها على عظم امر الله تعالى .

وقد وقع القسم هنا باوصاف لموصوفات مقدرة وذُكر بعضها عقب بعض بالواو تارة وبالفاء اخرى : فاما اللاتي ذكرت مع الواو فيحتمل انها اوصاف متعددة لموصوفات متحدة والثانية والثالثة للعطف ويحتمل ان موصوفاتها انواع متعددة فتكون الواوان الثانية والثالثة للعطف . فتحتملان عطف اشياء مقسم بها وتحتملان عطف صفات لشيء واحد مقسم به والاحتمال الاول هو الاظهر لانه المناسب للاستعمال وللجري على نظائره في القرءان نحو والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها الآيات . واما المعطوفات بالفاء فهي صفات لنوع واحد لا محالة لان المعطوف بالفاء ناشيء عن المعطوف عليه .

واعلم ان في المراد بموصوفات الاوصاف المتعاطفة بالواو اقوال للمفسرين والاظهر عندي التفصيل الآتي.

فالنازعـات صفة لطائفة من الملائكة وهو الموكلـون بنزع الارواح من الاجساد وانما اجري الوصف بصيغة التانيث باعتبار الجماعات كقوله تعـالى قالت الاعراب آمنا. والنزع اخراج الماء من البئر ونحوهـا بالدلو ونحوه، ويطلق على اخراج الروح من الجسد تشبيها للهيئة المعقـولة بالهيئة المحسوسة ومن ثم سمي اقتراب مفارقة الحياة الجسد نزعا فيقال فلان في حالة النزع . وغرقا منصوب على الصفة للمفعول المطلق وهو مصدر مجرد استعمل في موضع المزيد والتقدير نزعا غرقا اي مغرقا وهو النزع الذي يجذب الارواح من اقاصي الجسـد فهو نـوع من انواع النزع هو اقوى انواعه .

والمقصود من القسم بها تهديد المشركين بتوقع منـاياهم التي يفضون بعدها الى رؤية العذاب ولمناسبة ذلك للغرض المسوقة له السورة وهو الاعلام بالبعث .

(والناشطات نَشْطاً) الناشطات الكواكب السيارة والنشـاط السير السريع ووصف به سير الثور الوحشي والابل، والمناسبة لذكرها مع الملائكة ان الملائكة من اهـل العوالم العلويـة والكواكب من تلك العوالم او هي تلك العـوالم نفسها والمقصود بالقسم بها في هذه الحالة انها حالة تدل على نظام صنع الله تعالى وتؤذن بالفناء لان لكل سائر غاية لسيره ينقطع عندها سيره . ويجوز ان يكون الناشطات هي الابل المختارة للقتال فيكون اطلاق الناشطات عليها حقيقة . ونشطا مفعـول مطلق مؤكد للوصف وهو يرجح ان تكون الناشطات حقيقة لا استعارة .

(والسابحات سَبْحاً) السابحات الخـيل والمـراد خيل الغزو وفي القسم بها تعريض بتهديد المشركين بغزو مترقب يستاصل شافتهم . والسبح حقيقته العوم في البحر ويشبه به اسراع ركض الفرس قال امرؤ القيس :

مسح اذا ما السابحات على الـونى　　اثرن الغبـار بالكديد المركل

ومن عادة العرب الافتخار بخيلها فجـاء القسم بها في القرءان غير مـرة تنويها بشانها كقوله والعاديات ضبحا الآية .

(فالسابقات سَبْقاً) الفاء تعطف الصفات التي من شانها ان يتفرع بعضها على بعض كقوله تعالى «والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا » وقوله والعاديات

ضبحا فالموريات قدحا : الآيات فالموصوف بالسابقات هو عين الموصوف بالسابحات فوصف الخيل بانها تسير سيرا سريعا وتسبق غيرها من جنسها مثل ما في بيت امرىء القيس المتقدم آنفا

(فالمُدَبِّرات أمراً) التدبير التفكر في اسباب الافعال ليحصل ايقاعها بكيفية متقنة وناجحة . ويتعين ان تكون المدبرات هي السابحات اي هي الخيل . واسناد التدبير اليها مجاز عقلي وانما المدبر فرسانها يدبرون الغزو بها ويتحينون الفرص المناسبة او يدبرون الكر والفر ولما كانت الخيل آلات ذلك التدبير اسند اليها التدبير مجازا كقوله تعالى« ياتين من كل فج عميق: اي تاتي الرواحل وراكبوها وفي هذا المجاز ايماء لطيف الى حذق الخيل وسرعة فهمها مقاصد فرسانها حتى كانها هي المدبرة . وفي القسم بهذه الاشياء تعريض بتهديد المشركين بموت يصيبهم في غزوة ذات ابل وخيل مثل غزوة بدر . والامر اسم بمعنى الشان او الحادث .

(يومَ تَرجُفُ الراجفةُ تَتْبَعُها الرادفةُ قلوبٌ يومئذ واجفةٌ أبصارُها خاشعةٌ)

هذا جواب القسم المتقدم ومبدا جملة الجواب هو قوله قلوب يومئذ واجفة وقوله يوم ترجف الراجفة ظرف معمول لقوله واجفة ولقوله خاشعة لما فيهما من معنى الفعل والتقدير والنازعات الى آخره لَقلوبٌ واجفة ابصارها خاشعة يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة وقدم الظرف . على عامله اهتماما به لان من المقصود الاخبار بوقوع ذلك اليوم فلما اكد الخبر بالقسم شمله التاكيد ثم نبه بتقديمه على انه مهتم به ثم اكد في اثناء الكلام بقوله يومئذ الذي هو في معنى يوم ترجف الراجفة اكد واعيد ليحصل الارتباط لاجل بعد الظرف عن معموله بالتقديم والفصل . ففي الكلام ادماجٌ بين التهديد وتحقيقِ وقوع البعث . وجملة يوم ترجف الراجفة الى آخرها جواب القسم ولم يقرن بلام القسم لانهم اذا طال القسم جردوا جوابه من اللام كقوله والسماء ذات البروج الى قوله قتل اصحاب الاخدود ونظائر ذلك كثيرة في القرآن .

والراجفة وصف من الرجف وهو الاضطراب والاهتزاز قال تعالى « فلما اخذتهم الرجفة »رَجَف من باب نَصر وهو قاصر فالراجفة المهتزة المضطربة اي

الارض ، والرادفـة التابعـة في شيء ردِف من بـاب تـعب والرديف التابع قال تعالى «أنْ يُمِدّكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة مُرْدَفِين» .

وتانيث الراجفة والرادفة لتاويلهما بالواقعة او الحادثة التي فيها ارتجاف والمقصود يوم انقضاء العالم اذ تضطرب فيه الاشياء الساكنة كما قال الله تعالى « اذا رجت الارض رجا وبست الجبال بسا وقال اذا زلزلت الارض زلزالها » . وانما قصد من ذلك اليوم ما يعقبه من الحشر والجزاء فالمراد بالقلوب العموم اي جميع القلوب واجفة من هول الحشر . والواجفة الخائفة والوجيف شدة الاضطراب وجَف من باب ضرب والقلوب هنا حقيقة وكنى بوجيفها عن شدة الهول . والخشوع حقيقته الخضوع والتذلل وهو هنا مجاز في الانخفاض وقلة التحديق بسبب فظاعة ما تشاهده الابصار مما اعد للجزاء . واضافة الابصار الى ضمير القلوب لادنى ملابسة والمراد اصحاب القلوب .

يقولون أإنّا لمردُودُون في الحافرة اذا كنّا عظاماً نخِرَة) جملة يقولون مستانفة ابتدائية وهي ابتداء الغرض المقصود من السورة وهو الرد على المشركين المنكرين للبعث فلما ابتدئت السورة باثبات البعث اثباتا مؤكدا انتقل بالكلام الى حكاية قول منكريه اظهارا لسخافة عقولهم .

والضمير في يقولون مراد به المشركون للعلم بالذين كني عنهم بالضمير من المقام ومثله كثير في القرءان وفي كلام العرب . وحكي قولهم بصيغة الفعل المضارع في مقام التعبير بالماضي مع انهم قالوه فيما مضى لاستحضار حالة هؤلاء القائلين حين يقولون ذلك لان المضارع لدلالته على الحال يستلزم تصوير الحالة ليتوسل من ذلك الى التعجيب من حالهم كما في قوله تعالى « فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط » دون ان يقول جادلنا والا فان قولهم هذا قد قالوه من قبل كما دل عليه قوله قالوا تلك اذن كرة خاسرة .

والاستفهام في قولهم اينا لمردودون في الحافرة انكاري تعجبي لقصد التعجب من خبر البعث ومقصودهم منه تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم فيما اخبر به

من البعث وادخلت همزة الاستفهام على الخبر المؤكد بانّ لانهم يحكون المستفهم عنه من اقوال الرسول صلى الله عليه وسلم الواردة بتحقيق وقوع البعث .

ومعنى مردودون مُرْجَعون . والحافرة الطـريق التي يجيء منها الجـائي والمعنى انرجع في طريقنا الاولى يعنون انرجع في حالتنا الاولى وهم يريدون حالة الحياة التي كانت لهم قبل الموت اي كيف نرجع بعد الموت أحياءً مرة اخرى.

والنخرة صفة مشبهة لعظام اجرى بصيغة التانيث لان الموصوف جمع تكسير لغير العاقل فهو يعـامل معاملة المؤنث يقـال نَخِر العظم من باب طَمع اذا بـلي وفرغ وسطه وتجوف من طول الزمان فصار لو مرت فيه الريح لسمع لها نخير وهو الصوت . وقرأ نافع وابن عامر والكسائي اذا كنا عظاما بهمزة واحدة في اذا واذا ظرف اضيف الى الجملة اي انردفي الحافرة في وقت كوننا عظاما نخرة فجعلوا محل الانكار والتعجيب هذه الحالة اي رجوع الجسم الى الحياة بعد فناء هيكله الى ان يبلغ الفناء الى اصلب اجزائه وهي العظام امراً اعجب من رجوع الحيـاة اليه بحدثان موته فلما اخبرهم الرسول ببعثهم بحياة جديـدة بعد القرون المقتضية الفناء جعلوا ذلك محل الاستنكار وهم يزعمون ان ذلك استدلال على بطلان البعث كما قالوا فيما حكى القرءان عنهمّ «وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفي خلق جديد ».

وقرأهُ ابن كثير وحمزة وعاصم وابو عمرو ائذا كنا عظاما بهمزتين على صيغة الاستفهام فهو استفهـام انـكاري ثـان مؤكد للانـكار الاول وعلى هذه القرأة يكون المعنى الارتقاء من انـكار خبر البعث على اطلاقه الى انـكار ثـان باظهار شدة استبعاده في حالـة لا يخلو عنهـا احد وهي حالـة ان صاروا عظـاما نخـرة .

(قالوا تلك اذَنْ كَـرة خَاسِرَةٌ) اعيد فعل القول مـع أن الكلامين من مقول القائلين تنبيها على اختلاف الغرضين من القولين فـالقول الاول قصدهم منه الانـكار والابطال ، والقول الثاني قصدهم منه الاستهزاء.

والكرة واحدة الكَر والكر الرجوع . وخاسرة مستعـار للسيئة والضارة

لان الخسران خيبة التاجر المتوقع الربح بماله فيكون قد اضاع بعض ماله او كله . واسناد الخسران الى الكرة ايضا مجاز عقلي . واذن حرف جواب لقول الرسول انكم لمردودون الى الحياة فابتداوا بابطاله ثم اعقبوه بالاستهزاء اي اذا رجعنا الى الحياة كانت رجعتنا رجعة خاسرة اشعارا بانهم موقنون بعدم وقوعه لانهم لو كانوا يشكون فيه او يؤمنون لاخذوا حيطتهم توقيا من جزاء كفرهم فيه .

(فانما هي زَجْرَةٌ واحدةٌ فاذا هُمْ بالساهرة) الفاء للتفريع على معنىً حصل من تاكيد وقوع البعث من قوله والنازعات الى قوله تتبعها الرادفة وهو اسلوب حكاية انكار المشركين اياه بقوله تعالى يقولون اينا لمردودون الى قوله خاسرة فان ذلك حكي عنهم بطريق التعجيب منهم كما دل عليه الاستئناف حسبما تقدم فاجيب انكارهم واستهزاؤهم بما يدل على تقريب كيفية وقوع البعث فيقدر في المقام شيء يدل على هذا المعنى مثل إنكم لمردودون في الحافرة او ان البعث لواقع فما هو الا زجرة واحدة الخ .

وضمير هي ضمير القصة والشان واختير تانيثه ليصلح للعود على زجرة وهذا من احسن استعمال ضمير الشان كقول علي رضي الله عنه في اول خطبة له « ما هي الا الكوفة اقبضها وابسطها » وهو عائد الى زجرة فيؤول الى ما الزجرة الا زجرة واحدة . ويجوز ان يكون الضمير عائدا الى الراجفة المتقدمة اي ما الراجفة الا زجرة واحدة تحشرهم الى المحشر . والزجرة مرة من الزجر وهو الامر بغلظة وغضب ورفع صوت ومنه زجَر البعير اذا صاح عليه ليمشي او لينهض واستعيرت الزجرة للراجفة لاجل ما قارنها من امر التكوين بالحياة والسعي الى الحساب فكانت تلك الصيحة كصحية الآمر الغاضب كما استعير النعيق لدعاء الكفار الى الايمان في قوله تعالى « كمثل الذي ينعق بما لا يسمع » .

والوصف بواحدة تاكيد لما اقتضته المرة من القلة والسرعة .

والمعنى ان الله يامر الارواح فتحل في اجساد هيئت لها وتاتي الى موقف الحساب وهذا في معنى قوله في سورة النبا يوم ينفخ في الصور فتاتون افواجا .

وفاء فاذا هم لتحقيق معنى المفاجاة الذي افادته اذا لان اجتماع التفريع مع المفاجاة يدل على سرعة حصول ما بعدهما . واذا التي للمفاجاة تدل على تقارن ما بعدها مع ما في الجملة التي قبلها نحو قوله «فالقاها فاذا هي حية تسعى» والساهرة الارض المستوية التي لا شجر فيها ولا زرع وانما يتخذ مثلها للجموع والمغانم والمراد هنا مكان الحشر .

(هل أتاك حديثُ موسى إذْ ناداه ربه بالواد المقدّسِ طُوَى اَذهَبْ الى فوعونَ إنه طغى فقل هل لك الى أن تَزَّكى وأهْدِيَك إلى ربّك فتخْشَى)

اقول هذا انتقال استطرادي من غرض اثبات البعث الى الاعتبار بحال المكذبين للرسل بمناسبة ان هؤلاء كذبوا رسولهم في شان البعث فالجملة مستانفة استئنافا ابتدائيا .

وهل اتاك استفهام صوري يقصد العرب من امثاله تشويق السامع الى الخبر من غير قصد الى اختبار علم المخاطب الا ترى ان السائل لا ينتظر جواب المسؤول ان يقول لهلم ياتني بل يشرع في اعلامه ، فالاستفهام اذن كناية عن اهمية الخبر بحيث ان امثال هذا الخبر مما يتساءل الناس عنه ويتناقلونه ولذلك لا تستعمل العرب في مثله من حروف الاستفهام غير هل لانها في الاستفهام بمعنى قد والاستفهام معها حاصل بتقدير الهمزة فكان المستفهم يستفهم عن تحقيق وقوع الخبر ونظيره كثير في القرءان كقوله « وهل اتاك نبا الخصم اذ تسوروا المحراب » ومنه قولهم اليس قد عَلِمْت فياتون بحرف قد مع فعل النفي المستفهم عنه استفهام انكار فيفيد التحقيق ، والاتيان مجاز في سماع الخبر ونظيره الوصول والبلوغ، والحديث الخبر واذ ظرف لحديث لما في حديث من معنى الفعل اي هل اتاك خبر موسى في وقت نداء الله اياه . والواد المكان المنخفض بين الجبال . والمقدس المطهر والمراد التطهير المعنوي اي المبارك لما حل فيه من كلام الله موسى عليه السلام . وطُوَى قيل هو علم لذلك المكان ولعله اسم لنوع من الاودية يكون شديد العمق ومنه سمي وادٍ بظاهر مكة ذا طُوى بتثليث الطاء . وهذا الواد المقدس هو في جانب جبل الطور في برية.. سينا وهو جانبه الغربي الايمن كما في آيات اخرى . وجملة اذهب تفسيرية لمعنى القول ومدلول هذه الجملة الرسالة الى فرعون .

وجملة انه طغى تعليلية للامر بالذهاب اليــه . ولذلك افتتحت بـانّ التي هي للاهتمام وتفيد معه معنى التعليل . والطغيان التكبر العظيم وتقدم في قوله تعـالى للطاغين مآ با في سورة النبا .

وفرعـون لقب ملك مصر في الزمن القديم وهو اسم معرب يظن انــه من اللغة العبرانية لانه اخذ من التوراة فانهـا تطلقه على ملك مصــر في عهد ابراهيم وعهد يوسف وعهد موسي ولم يطلقه القرءانُ الا على الـذي في عهد موسى واطلق على الذي في عهد ابراهيم وعهد يوسـف اسم الملك ولا يعرف اطلاق فرعون في لغة القبط الهيروغليفية وفرعون الذي ارسل اليه موسى عليـه السلام هو مَنْفطا الثاني احد ملوك العائلة التاسعة عشرة من عائـلات ملوك مصر الذي حكم من سنة ١٣٠٠ ـ الى ـ سنة ١٢٦٦ قبل المسيح .

وهل لك الى ان تزكي عرض وترغيب وتلطف في الطلب . وهل لـك الى كذا تركيب جرى مجرى المثل فلا يغير عن هذا اللفـظ لانه بني على الايجـاز يقال هل لك الى كذا او هل لك في كذا فعدي بفي وبالى على تقدير هـل لك ميل الى انـ تتزكـى او هل لك رغبة في ان تتزكـى او اي تكـون زكيا لان تزكى مطاوع زكاه . والتزكية الزيـادة في الخير ثم اطلقت التزكية هنـا على الايمان الحق وطهارة النفس قال تعالى « قد افلح من زَ كاها وقد خاب من دساها ـ وقال ـ قد افلح من تزكى ـ وقال ـ تطهرهم وتزكيهم بها » فيقال زكاه فتزكى فهو تَفَعّل من زَكاَ يزكو ويقال يتزكى ويزَّكى وقراءة نافع وابن كثيـر بتشديد الزاي اصله تتزكى بتاءين فادغم احدى التاءين في الـزاي بعد قلبها زايـا لقرب مخرجهما ادغاما استحسانيا . وقـرا غيرهما تزكى بتخفيف الـزاي على حذف احدى التاءين تخفيفا .

والهدايـة الدلالة على الطريق الموصلة الى المقصود سواء وصل المهدي ام لم يصل الا ترى قوله تعالى« واما ثمود فهديناهم فاستحبـوا العمى على الهدى» وعدل عن تعريف الله تعالى باسمه او غيره من انــواع التعريف غير الاضافـة الطافا في الدعوة الى التوحيد واستنزالا لطائر نفور فرعون لانه لوقال له واهديك الى الله لنفر لانه كان يعبد آلهة باطلة فاذا قال له الى ربك وقد كان فـرعون يعلم

ان له ربا طمع في ان يهديه موسى الى شيء من معرفة آلهته فاصغى اليه حتى اذا سمع قوله وبرهانه داخل الايمان الحق نفسه .

والخشية الخوف والمراد هنا الخوف من الله ففي الكلام مفعول مقدر اي فتخشاه اي تخشى ربك اذا هديتك اليه . ولما شاع في الشرع اطلاق الخشية على خشية الله نُزل فعلها منزلة اللازم مثل فعل الايمان قال « ان في ذلك لعبرة لمن يخشى» وقد فرع الخشية على الهداية لينبه على انه يهديه هداية تفضي الى الخشية لوضوح هدايته واقترانها بالمواعظ والحجج فهي تاتي بخشيته الله لو كان قاصدا ان يهتدي .

(فأراه الآيةَ الكبرى فكَذب وعَصَى) تفريع فاراه على محذوف يقتضيه قوله اذهب الى فرعون انه طغى لان الطغيان مظنة الانكار والتردد في الانصياع الى دعوة موسى والتقدير فتردد في صدقه فاراه الآية الكبرى .

والآية العلامة وهي الحجة على الصدق اي المعجزة ووصفها بالكبرى لانها معجزة من اعظم معجزات الانبياء وهي انقلاب عصا موسى حية تلقف ثعابين السحرة . وقد اعقبت اراءته الآية الكبرى بانه كّذب للدلالة على عناده ومكابرته وانه لم يتمهل حتى ينظر في دلالة المعجزة . والتكذيبُ تكذيبه نبوة موسى والعصيان عصيانه امر الله باطلاق بني اسرائيل من استعبادهم .

(ثمّ أدبَر يسعى فحَشَرَ فنادى فقال أنا ربُّكم الاعلَى فأخَذه اللهُ نَكالَ الآخرةِ والاولى إنَّ في ذلك لعبرةً لِمَن يَخْشى) ثم هنا اما للترتيب الرتبي وهو الاظهر اذا كان ادباره غير متاخر عن تكذيبه وعصيانه فعطف الادبار بثم للدلالة على ان الكفر مع الادبار اظهر واشد ، واما للمهلة الحقيقة اذا كان فرعون قد تارك موسى مدة رجاء انكفافه عن الدعوة فلما راى تصميمه اراد ان يعلن بتكذيبه فادبر يسعى .

والادبار والسعي مستعملان في معناهما المجازي فالادبار حقيقته المشي الى الجهة التي هي من خلف الشخص وهو مستعار للاعراض عن الحق والهدى كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم لمُسيلمة«ولئن ادبَرتْ ليَعْقِرَنك اللهُ ». والسعي

حقيقته الاشتداد في المشي وهو هنا مستعار للحرص في الكيد لموسى والتاليب عليه كقوله تعالى « فاسعوا الى ذكر الله ـ وقوله ـ واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها» وهذا في معنى قوله تعالى « فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى » .

والحشر الجمع والمراد جمع السحرة لمناظرة موسى كقوله تعالى « وابعث في المدائن حاشرين ياتوك بكل سحار عليم» وجمع اهل المدينة لمشاهدة ذلك قال تعالى « وقيل للناس هل انتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة اذ كانوا هم الغالبين» فحذف مفعول حشر لعلمه من آيات اخرى ولان المقصود ما صدر من فرعون حين حشر وهو قوله فنادى والنداء اصله رفع الصوت بالدعوة للحضور وليس ذلك بمراد هنا وانما استُعمل النداء في الاعلان مجازا مرسلا كما سمي الاذان نداء وليس فيه نداء ولانه قد اغنى عنه قوله فحشر . واسناد الحشر والنداء اليه مجازي لان الذين يَحشرون وينادون باوامره هم اتباعه وانما اسند ذلك اليه لانه الآمر به . والفاءان في قوله فحشر فنادى للتعقيب، والفاء في قوله فقال انا ربكم للتعقيب ايضا وهو تعقيب مباشر ويسمى التفريع فان القول حصل مع النداء لان ذلك القول المخصوص هو عين هذا النداء اي نادى نداء يصدر منه هذا القول . والفاء في قوله فاخذه الله للتعقيب وهو بحسب ما يعقب به امثاله .

وقوله انا ربكم الاعلى كان الفراعنة يجعلون انفسهم آلهة للرعية بمساعدة الكهنة على ذلك ، والمقصود من كلامه ابطال دعوة موسى في قوله واهديك الى ربك فتخشى .

وجملة فاخذه الله هي المقصود من سوق القصة للمكذبين .

والاخذ حقيقته التناول باليد وقد استعير للتمكن والغلبة قال تعالى «فاخذناهم اخذ عزيز مقتدر » وقال « فاخذهم اخذة رابية » . والنكال اسم مصدر التنكيل كالسلام للتسليم وهو عقاب الجاني بعذاب من شانه ان يُنكِّل اي يرد ويرجع من يراه او يبلغه خبره عن ان ياتي مثل جنايته ثم اريد منه مطلق الشدة البالغة وهو منصوب على المفعولية المطلقة لبيان نوع الاخذ والغلبة لان الغلبة تكون على كيفيات . كثيرة واضافته الى الآخرة والاولى لبيان كون العذاب قويا في نوعه في الدنيا والآخرة فالاضافة على معنى في . والمعنى انه اخذه بعذاب شديد في الدنيا وهو

الغرق ورؤية الموت مع الحسرة على عجزه عن النجاة وفي الآخرة بعذاب النار العظيم .

وجملة ان في ذلك لعبرة لمن يخشى بيان لمضمون جملة هل اتاك حديث موسى لان المقصود من الاخبار بحديث موسى هو اعتبار المكذبين للرسل بذلك الخبر فالاشارة بقوله في ذلك للحديث .

والعبرة الحالة التي يُنتقل من معرفة عاقبتها الى معرفة عاقبةِ امثالها مشتقة من العَبْر وهو الانتقال من ضفة واد او بحر الى ضفته الاخرى .

ويخشى هنا مثله في قوله واهديك الى ربك فتخشى اي يخاف ان يحل به ما حل بمثله لان من لا يخشى لا يتفطن للموعظة كما قال تعالى « وكاين من آية في السماوات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون » فهذا يفيد التعريض بالمشركين لانهم قلما تفيدهم الموعظة. وهذه موعظة لقريش بتنظير سادتهم وعامتهم في التكذيب بحال فرعون وقومه كما قال تعالى «انا ارسلنا اليكم رسولا شاهدا عليكم كما ارسلنا الى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول فاخذناه اخذا وبيلا» وقد كان ابو جهل يوصف عند المسلمين بفرعون هذه الامة

(أأنتم أشد خلقاً أم السماءُ) استئناف ابتدائي وهو انتقال الى الاستدلال على المنكرين للبعث الماخوذ انكارُهم من قوله يقولون اينا لمردودون في الحافرة ومن تنظيرهم بفرعون في قول الله هل اتاك حديث موسى فقد وقع في الكلام انتقالان اولهما قوله يقولون ائنا لمردودون وثانيهما قوله هل اتاك الخ .

والاستفهام في قوله اانتم تقريري والمراد بضمير الخطاب المشركون والمقصود من الاستفهام إلجاؤهم الى الاقرار بان السماء اشد خلقا من الانسان فخلقها ادل على عظم قدرة خالقها من دلالة خلق الانسان وهم يعلمون ان الله هو خالق السماء فلا جرم ان الذي قدر على خلق السماء قادر على خلق الانسان مرة ثانية فَيَنتُجِ من ذلك ان اعادة خلق الانسان بعد فنائه مقدورة لله تعالى لانه خلق ما هو اعظم من ذلك بالمشاهدة .

(بناها رَفَعَ سَمْكَها فسوّاها وأغْطَش ليْلَها وأخرجَ ضُحاها) جملة بيانية لمضمون ما سبق من الاستفهام عن عظم خلق السماء فبين شيئا من عظمة خلق السماء بتكوينها ورفعها . والسماء هي مجموع العالم الاعلى المشتمل على الكواكب وسُموت حركتها ونظام سيرها .

والبناء صنع جسم مقعّر الباطن سميك المحيط ليتخذ واقيا لما يستكن في باطنه من انسان او غيره فقد يكون محيطه من حجارة مشـدودة بالجص او الطين وقد يكون من ادم كالقباب او من شعر منسوج كالخيام وتقـدم معنى بناء السماء عند قوله تعالى وبنينا فوقكم سبعا شدادا في سورة النبا . وجملة رفع سمكها بيانية لجملة بناها وسلك طريق الاجمال ثم التبيين لزيادة تصوير الهيئة . والسمك الامتداد في الارتفاع والفاء في فسواها للتفريع لان الرفع حاصل مع البناء فهو تعقيب مبـاشر كما تقدم في قوله فنادى فقال انا ربكم الاعلى .

والتسويـة التعديل وعدم التفاوت بين الاشياء واصلها ان تكون بين شيئين ثم اطلقت على اتقان الصنع وضبطه فلذلك قد يعـدى فعلها الى اسم شيء واحـد نظرا لمعنى الضبط والاتقان كقوله الذي خلـق فسوى ومنه قوله هنا فسواها . وجملة واغطش ليلها معطوفة على جملة بناها وليست معطوفة على جملة رفع سمكها لانها ليست من تمام البيان للبناء . واغطش ليلها معناه جعله غاطشا اي مظلما غطش الليل من باب ضَرَب والمقصود انه خلق الليل مظلما من اول خلقه .

والاخراج حقيقته ابراز ما كان محويا عن حاويه وهو هنا مجاز في الاظهار بعد الخفاء . والضحى ارتفـاع ضوء الشمس ومنه سمي الوقت المعروف بالضحى على تقدير مضاف فانما يظهر الليل والنهار على الارض لان النهـار هو انبساط اشعة الشمس على نصف الكرة الارضية والليل انحجاب تلك الاشعـة عن نصف الكرة الارضية فاضافتهما الى السماء من حيث ان مصدر الشعاع الـذي عُرف النهارَ والليلُ بانبساطه وانحجابه هو من السماوات السبع كما مضى في سورة النبا

(والارضَ بعد ذلك دَحاها) الدحو بالواو ويقال الدحْي بالياء هو البسط والمد وتسويـة الظاهر . ولفظ بعد يدل بظاهره على تاخر الزمـان وقد يطلق على التاخر في الرتبة كقوله تعالى « عُتُل بعد ذلك زنيم» والاولى حملها هنا على ظاهرها والمشار اليه بقوله ذلك ظـاهره انه جميع المذكور في قوله بناها رفع سمكها فسواها واغطش ليلها واخرج ضحاها . ويحتملُ انه مضمون قوله بنـاها رفـع سمكها فسواها دون مضمون واغطش ليلها واخرج ضحاها لان القصد الاول من السياق هو خلق السماء .

وعن مقاتل وقتادة والسدي ان خلق السماء مقدم على خلق الارض وهـذا هو الذي يتعين اعتماده من اقوال السلف في هذه الآية لان ادلـة علم الهيئة دلت على ان الارض منتزعة من الشمس والشمس من جملة السماء وما ورد من الآيـات ماظاهره خلاف ذلك فهو ماؤول

(أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعاً لكم ولانعامكم) جملـة اخرج منها ماءها بدل اشتمال من جملة دحاها لان الدحو يشتمل على اخراج الماء والمرعى لانه مقدمة له اذ المقصود من الدحو وهو البسط اعـداد الارض للسكنى والسكنى تستدعي طلب المعاش . والمـرعى ما ترعاه الـدواب من الحشيش وفي الكلام اكتفاء لان المراد ما يخرج من الارض من الشجر والزرع والمرعى وانما اكتفي بالمرعى لما يدل عليه من لطف الله باقل المخلوقات فيكون اللطف بالاشرف مدلولا بفحوى الخطاب اي بالاولى والقرينة على هذا الاكتفـاء قوله متاعـا لكم ولانعامكم فقدم ما يتعلق بالبشر ثم اعقبه بما يتعلق بالانعام .

والارساء الاثبات واعدام التحرك ومنه ارساء السفينة فان الجبال خلقت ذات صخور سائخة الى بـاطن الارض ولولا ذلك لزعزعت بارتفاعهـا وتهيّلت اتربتها وقد جعلت أحجامها متناسبة بان كونت متسعة القواعد ثم تتصاعد متضايقة ليكون ذلك اثبت لها وليتمكن الناس من الصعود اليها .

والمتاع اسم للتمتع والتمتع التنعم فهو اسم مصدر للتمتيع فيصح انتصابه على المفعولية المطلقة لفعل محذوف تقديره متعكم بذلك متاعا لكم ولانعامكم فيكون استئنافا بيانيا ويجوز ان يكون مفعولا له اي دحـاها واخرج من الارض ماءهـا ومرعاها وارسى الجبال لاجل ان تتمتعوا بذلك . والتمتع بالدحو والماء والمرعى واضح والتمتع بالجبال لان فيها لهم منعة من اعدائهم عند المخافة كما قال السموأل :

لنا جبل يحتله من نجيره ... منيع يرد الطرف وهو كليل

ولان فيها مراعي لانعامهم ليامنوا عليها في الجبال من غارات المغيرين .

(فإذا جَاءتْ الطآمّة الكُبْرى يوم يَتذكّر الانسانُ ما سعى وبرزت الجحيمُ لِمَن يرى فأمّا مَن طغى وآثر الحياة الدنيا فإنَّ الجحيمَ هي المَأوى وأمّا مَن خافَ

مقامَ ربّه ونهى النفسَ عن الهوى فإنّ الجَنةَ هي المَأوى) شــروع في يوم البعث للانذار به والمقصود من هذا الوصف الموعظة حثـا للمشركين على الحذر منه والفاء في قوله فاذا جاءت الطامة تفريع على الاستدلال الذي تضمنه قوله اانتم اشد خلقا ام السماء . واذا ظرف للزمان المستقبل متضمن معنى الشرط غالبا كما هنـا وهي من الاسماء الملازمة للاضافة الى جملة فعلية ولكونها ظرفا للمستقبل ولما فيها من معنى الشرط كانت صيغة الفعل الماضى اذا وقعت بعدهـا مفيدة معنى المستقبل ومعنى جاءت وقعت وحلت فالمجيء مجـاز مرسل والطامة اسم للداهيـة والمصيبة والحادثة العظيمة واصل هذا الاسم انه اسم فاعــل من طم المــاء اذا عــلا على الاشياء وغمرها والمراد بها هنا الراجفــة والزجرة اي حادثة القيامــة ووصفهـا بالكبرى لانها اعظم الحوادث لانها زمن اعظم الثواب واعظم العقاب .

واليوم في قوله يوم يتذكر لمعنى مطلق الزمان وانتصب يوم على انه ظرف يتعلق بجاءت اي اذ جاءت حادثة القيامة والحشر في زمن يتذكر فيه الانسان مـا سعى .والتذكر ضدالنسيان والسعي مجاز في العمل والاكتساب والتذكر هنا كناية عن التذكير اي يُذكّر فيتذكر اي يعرض على الانسان ما فعله واكتسبه .

وبُرّزت أظهرت بني الفعل للمجهول لعدم تعلـق الغرض بمعرفة الفاعل وانما لم يؤت بالفعل المجرد لقصد الدلالة على ان ظهورها للناس مقصود ارهابـا للذين اكتسبوا ما يوقع فيها . والجحيم النار العظيمة لان الجحم هو شدة الالتهاب وهي مؤنثة باعتبار انها نار وقدصار الجحيم علما بالغلبة على جهنم وهي دار الجزاء وللكفرة وللعصاة الذين لم يغفر لهم ومن يرى يعم كل مبصر اي اظهرت لكل من له بصر .

وجملة فأما من طغى جواب اذا والفاء في قوله فاما لربط الجواب لان جملـة الجواب الاسمية لا تصلح لمباشرة اداة الشرط . وأما حرف تفصيل وشرط بمعنى مهما يكن شيء . والطغيان الكِبْر والظلم وقد تقدم عند قوله اذْهَب الى فرعـون انه طغى والمراد الكبر عن الاعتراف لله بالعبودية فهو الشرك . ومن الموصولة في الموضعين مراد بها كل من اتصف بالصلة . والايثار الاختيار وتفضيل شيء على آخر في حال متعارضة ويعرف المفضل عليه هنا بالمقابلة لان ايثار الحياة الدنيا يعلم منه انه ايثارها على الحياة الآخـرة ومعنى ايثارها اختيـار حظوظها التي يحملهم

عليها دين الشرك مثل التكبر عن الاعتراف برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وعن نبذ عبادة الاصنام ومثل التمسك بالاحوال التي نشا عليها اهل الشرك وما يستتبعه من المعاصي ونبذوا حظوظ الآخرة التي يقتضيها التوحيد واتباع الرسول، فكل ذلك انما حملهم على ايثار الدنيا اذ أغلبهم يعلمون ان مـا يدعوهم اليه الرسول حـق ولكنهم يكرهون اتباعه لئلا تضيع سيادتهم لقومهم . وبهذا تعرف ان محل الذم هو ايثار الدنيا على الآخرة فيما يتعارضان فيه واما من اخذ حظه من الدنيـا مع حفظ ما ينفعه في الآخرة فذلك محمود وهو مقام كثير من عباد الله الصالحين قال تعالى «وابتغ فيما آتاك الله الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا» . وجملة فان الجحيم هي الماوى جواب شرط أما والالف واللام في الماوى حرف تعريف والضمير المؤنث ضمير فصل للتقويـة والتاكيـد اي ليحصل تاكيدان كانه قال فـان الجحيم مـأواه الجحيم ماواه .

والماوى مفعل من أوى ياوي ادا رجع الى المكان اي فان الجحيم هي المصير اي المصير المعهود والمراد الماوى المعهود عند من يعلم احوال من طغوا لانهم قد حذروا منه غير مرة، ومآل المعنى الى فان الجحيم هي ماواه ولذلك يقـول كثير من النحاة في مثله الالف واللام عوض عن المضاف اليه .

والمقام يطلق على المقر والمكان مطلقا وإن لم يكن فيه قيام ثم شاع في ذلك حتى اطلقوه على نفس ما يضاف هذا اللفظ اليه يقولون عليك بتعظيم مقام العالـم وتريد تعظيم العالم وهذا من انواع الكناية المتوسع فيها قال تعالى ذلك لمن خـاف مقامي اي لمـن خافني وقال ولمـن خاف مقام ربـه جنتان ونظيره قولهم جناب فلان وجانبه .

والتعريف في النفس هو مثل التعريف في الماوى كما تقدم آنفا .

والهوى اصله مصدر بمعنى المحبـة وهو هنا بمعنى اسم المفعول كالخلـق بمعنى المخلوق في قوله تعالى هذا خلق الله فاروني ماذا خلق الذيـن من دونه . والمراد ما تهواه النفوس وتميل اليه مما امر الله الناس ان يكفوا عنه سمي هو لانه لا مسوغ لـه عند النفوس الا كونه مهويـا لها وفيه شهوتها. والتعريف في النفس كالتعريف في الماوى في الوضعين واما التعريف في الهوى فهو تعريف الجنس .

يسألونكَ عن الساعة أيّانَ مُرساها فِيمَ أنتَ مِن ذِكْراهـا إلى ربّكَ منتهاها إنما أنتَ مُنذرُ من يخشاها كأنهم يوم يَرَوْنَها لم يلبثُوا إلا عَشِيَّةً أو ضُحاها)

هذا استئناف ابتدائي وهو انتقال الى الغرض الاصلي اعني تحقيق وقوع البعث وزمانه وهو يوم النشر المسمى بيوم القيامة وبالساعة وبيوم البعث . والمناسبة في هذا الانتقال ذكر وقت حلول البعث والجزاء بقوله فاذا جاءت الطامة الكبرى الآيات فهو من حسن التخلص .

والساعة المقدار من الوقت والزمان والتعريف فيها للعهد الذكري اي ساعة البعث والطامة .

والسؤال المحكي سؤال استهزاء لان المشركين لما انذرهم الرسول بالبعث ويومه توهموا لجهلهم ان الانذار بالشيء يقتضي التعجيل بوقوعه وحسبوا ان الله يحمَى غضبُه من تكذيبهم فيعجل ما ليس بعاجل ابتدارا لانتقامه ، فجعلوا يسالون الرسول متى الساعة يسالونه عن تعيين وقتها ولذلك كان ذكر سؤالهم هذا في سياق اثبات وُقوع البعث من حيث انهم جعلوا تاخر البعث امارة على انتفائه كما في قوله في سورة الاعراف «يسالونك كأنّك حفي عنها قل انما علمها عند اللهَ ـ الى قوله ـ ان انا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون » الدالّ على انه يخاطب الكافرين لا المؤمنين فالضمير المرفوع في قوله يسالونك راجع الى المشركين . وحكي الفعل بصيغة المضارع لما يدل عليه من استحضار حالة سؤالهم العجيبة .

وجملة ايان مرساها بيان ليسالونك اي يقولون مضمون هذا الكلام . وايان اسم استفهام عن الزمان مثل اين ولعلها اقوى في الاستفهام لما فيها من مد الصوت فهي انسب بالانكار والتكذيب والزجر مع الاستفهام . فالاستفهام مستعمل في التكذيب على حد قوله « ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين قل لكم ميعاد يوم لا تستاخرون عنه ساعة ولا تستقدمون » .

والمُرسى اسم مكان من أرسى السفينة اي سكّنها واوصلها الى الشاطيء ضد اجراها « باسم الله مُجراها ومُرساها » ويكون مجازا في الوصول الى المكان المقصود كما هنا .

وجملة فيم انت من ذكراها خطاب للرسول والمقصود التعريض بابلاغ

مضمون هذا الخبر الى المشركين كما تقدم في قوله يسالونك عن الساعة فكانه جواب لهم فلذلك فصلت الجملة ولم تعطف فهو في قوة قوله فيم هو من ذكراها .

والاستفهام في قوله فيم انت من ذكراها انكاري . وفي للظرفية المجازية التي هي بمعنى الملابسة، ومن اتصالية أي لستَ في شيء من ذكراها . وتقديم المجرور المسند على المسند اليه للدلالة على ان معنى الجار والمجرور هو مناط الانكار للاهتمام بتبرئة المخاطب من كل ذكر لوقت الساعة، والمعنى أيّةُ ملابسة بينك وبَيْنَ ذكرى الساعة ولو قيلما انت من ذكراها في شيء لكان مناط الانكار هو المخاطب والمعنيان متقاربان .

وجملة الى ربك منتهاها تعليل للانكار الذي اقتضته جملة فيم انت من ذكراها او بيان لوجه الانكار فلذلك فصلت الجملة عن التي قبلها لما بينهما من كمال الاتصال .

وتقديم المجرور في قوله الى ربك للقصر اي الى ربك لا الى غيره والمنتهى حقيقته محل الانتهاء من المشي وهو المكان المقصود للسائر قال تعالى «وان الى ربك المنتهى» وهو مستعمل هنا في معرفة الشيء المبحوث عن معرفة بتمثيل حصول العلم في الذهن، بوصول الشخص الى المكان المقصود لان المتعرف للشيء يشبه حالهُ حال السائر الطالب للمكان فاذا علمه اشبه حالهحالَ المنتهي الى الشيء .

وجملة انما انت منذر من يخشاها استئناف بيانـي لجواب سؤال نشا من جملتي فيم انت من ذكراها الى ربك منتهاها لان السامعين من المشركين يظنون لجهلهم ان النبيء من شانه العلم بوقت الساعة فهم بحيث يسالون كيف لا يعلم الرسولوقتها فكان هذا جوابَهم كقوله «ولا اعلم الغَيْبَ ».والقصر بإنما قصر موصوف على صفة اي تخصيصه بحال الانذار وهو قصراضافي اي ما انت موصوفا الا بانك منذر بها غيرُ عالمبوقتها.ومن يخشاها همالذينيؤمنونبالساعة بعدالانذار وتخصيص تعدية الانذار بالذي يخشى باعتبار ان من يخشى هو المقصود بالانذار لان انذار من يُعلم انه لا يؤمن ابدا بالبعت عبث، ولما كان من سيخشى ويؤمن

في المستقبل غيرَ معين للنبي صلى الله عليه وسلم وكان لا يعلم ذلك الا الله كان انذار الرسول متوجها الى جميع الناس فمنهم من آمن ومنهم كفر فيؤول المعنى الى انما انت منذر فينتذر من يخشاها. وعلى هذا القانون الذي بينتُه يفهم وجه توجه الخطاب بالايمان لمن علم الله انه لا يؤمن مثل ابي جهل، والخطاب بالتقوى لمن علم الله انه لا يتقي لان ما في علم الله لا يطلع عليه احد ولا يظهر أثره الا عند موت الشخص فتندفع حيرة المتحيرين في تحقيقْ هذا المعنى من توجه الخطاب الشرعي لمن علم الله انه لا يوفق .

وجملة كانهم يوم يرونها الى ءاخرها مستأنفة استئنافا بيانيا لانها بمنزلة جواب للسؤال المحكي بقوله يسالونك عن الساعة على طريقة الاسلوب الحكيم اي المهم عندكم ان تعلموا انها واقعة لا محالة وانْ طال المدى والامر الواقع اذا وقع استوى فيه حينئذ طول الترقب وقِصَره كقوله لبثنا يوما أوْ بعض يوم، والمراد من العشية والضحى مقدارهما من الزمان وقد عطف باو المفيدة للتخيير تخييرا في التشبيه كقوله تعلى « او كصيب من السماء »، وفي هذا العطف ارتقاء في تقليل المدة لان حصة الضحى اقل من حصة العشية، واضيف الضحى الى ضمير العشية لان العشية آخر النهار فهي واقعة بعده فلما ذكرت العشية صح ان يعرَّف الضحى بالاضافة اليها . وفي هذه الاضافة رعاية الفاصلة لان الفواصل جرت على الهاء المفتوحة ابتداء من قوله بناها الى آخر السورة .

ووجه الشبه هو حصول الشيء المايوس منه وعدم اجداء طول مدة تاخره لان المشركين كانوا يتعللون لنفي البعث بما مضى على اسلافهم من طول المدة « وقال الذين كفروا اذا كنا ترابا وآباؤنا ابنا لمخرجون » الآية .

وبانتهاء هاته السورة انتهت سور طوال المفصل التي تبتدىء بسورة الحجرات .

اسلوب هذه السورة

اسلوب نظم هذه السورة يتمثل في انها ابتدئت ابتداء بديعاجمع بين التشويق الى ما تضمنته حيث ابتـدئت بالقسم الموذن بشدة الاعتناء بالخبر ، وبين التنويه بـالامور المقسم بهـا ، بين الايمـاء الى مـا في معاني الامـور المقسم بها من تهديد للمخاطبين بالغرض المقصود من السورة .

ثم بذكر يوم البعث المقصود بصورة جواب للقسم واضافته الى جمل تتضمن من التهويل ما ترتعد له فرائص المكذبين به فيداخلهم الشك في وقوعه والنكد من توقع حلوله .

ثم بالانتقال الى حكاية اقوالهم الباطلة في صيغة المضارع الموذنة بتكرر اقوالهم وصيغة المصدر الدالة على تمكن ذلك منهم في اقدم عصورهم .

ثم بضرب المثل لهم مع رسولهم بحال فرعون مع مـوسى وكيف كانت عاقبة امره .

ثم انتقل الى ابطال احالتهم البعث بالحجـة عليهم بخلق المخلوقـات التي هي اعظم من اعادة خلق الناس بعد موتهم وادمج في ذلك من الامتـان عليهم بالمنن التي ادوا شكرها .

وفرع على ذلك ان يوم البعث هو يوم جزائهم على اعمالهم وجـزاء المؤمنين فكان في ذلك مُحسّن رد العجز على الصدر. ثم ختم الكلام باحالتهم على مشاهدتهم ذلك اليوم قطعا للمجادلة معهم فأذن بانتهاء الكلام .

سورة عبس

هي مكية بالاتفاق وهي أولى سور قصار المفصل في الصلاة .

ومن اغراضها ذكر الفرق بين حال المشركين في اعراضهم عن الخير وحال المؤمنين في اقبالهم عليهواعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشان الاشتغال باصلاح حال المؤمنين الراغبين في الهدى وبتميز احوال المشركين في قبول ليتوسّم في كلا المقامين وصرف اشتغاله بما يرشده اليه ذلك التوسم ثم انتقل من ذلك الى تقطيع اعراض المشركين عن النظر في ادلة التوحيد واثبات البعث ثم تهديدهم باهوال يوم البعث . وافتتاح السورة بعبس وتولى افتتاح جزل لما فيه من الاجمال ثم التفصيل وفيه تشويق الى ما يرد بعده من القصة ففيه براعة الاستهلال .

(عَبَسَ وتولىّ أنْ جاءه الاعمى وما يدريك لعلّه يزكى أو يذكرُ فتنفعه الذكرى) روى الترمذي بسند حسن عن هشام بن عروة عن عائشة قالت انزل عبس وتولى في ابن ام مكتوم الاعمى اتى رسول الله ارشدني وعند رسول الله رجل من عظماء المشركين فجعل رسول الله يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول اترى بما أقول باسا فيقول لافقي هذا انزل اه وقريب منه عن مالك مرسلا . فضمير الغائب الذي في قوله عبس وتولى راجع الى النبيء صلى الله عليه وسلم وهو في مقام الخطاب فالاتيان بضمير الغائب خلاف مقتضى الظاهر واقول اقتضاه قصد الاجمال في الخبر استدعاء لسماعه ليقع بيانه بعد ذلك بالخطاب في قوله وما يدريك ، وما في ضمير الغيبة من اللطف بالنبيء عليه السلام في توجيه العتاب اليه ليكون شعوره بالعتاب تدريجا بعد سماع ما يدل عليه بصيغة الاخبار عن غائب ثم يعقبه علمه بانه المراد بذلك الخبر . والاعمى هو عبد الله بن ام مكتوم وهو عبد الله وقيل عمرو بن قيس بن زائدة القرشي ، وام مكتوم امه واسمها عاتكة وهو من المسلمين الاولين توفي في خلافة عمر وكان النبيء صلى الله عليه وسلم يحبه ولكنه عبس من الحاحه في السؤال في وقت اشتغال النبيء بدعوة احد صناديد قريش الى

الاسلام وقد راى منه لينا لسماع دعوته خشية فوات تلك الفرصة. وهـذا من اجتهاد النبيء صلى الله عليه وسلم في اعمال احد الدليلين المتعارضين من الدعوة الى الاسلام، دليل دعوة من ليس بمسلم رجاء دُخوله في الاسلام، ودليل دعوة مسلم للازدياد من معارف الاسلام. يقال عبس يعبس من باب ضرب اذا قطب وجهه من الامتعاض لشيء يراه او يسمعه ومصدره العبوس بضم العين. والتولي الرجوع مدبرا ويستعمل مجازا في الاعراض لما فيه من صرف الوجه عن الجهة التي كان متوجها اليها .

وأن جاءه الاعمى يتنازعه الفعلان عبس وتولى وهو متعلق بهما بتقدير لام التعليل المحذوفة مع ان وهو حذف مطرد اي لان جاءه الاعمى . قلت جعل عبوسه لاجل مجيء الاعمى لمّا كان المجيء مشتملا على ما اغضب النبيء من الالحاح في المسالة ولعل النبيء عليه الصلاة والاسلام قلق من قلة صبر ابن ام مكتوم لما يعلم من عادته في الاكثار من المسالة مع انه يستطيع تأخيرها . وعبر عن ابن ام مكتوم بالاعمى لزيادة الترقيق لزيادة الترقيق لقلب النبيء صلى الله عليه وسلم فان كونه اعمى يقتضي جبر خاطره .

والخبر مستعمل في غير معناه ولذلك كان العدول عن الخطاب الى الغيبة تلطفا ومعنى الكلام عبست ونوليت كذا قال المفسرون. وعندي بناءً عليه ان الله تعالى اراد ان يعلم نبيه الحكمة وان برفع درجة علمه الى اسمى ما تسمو اليه العقول فنبهه الى ان في معظم الاحوال جهاتِ صح ونفع لا ينبغي للمصلح العظيم الاغضاء عنها واتخاذ سبيل واحد في اختيار بعضها على بعض وفي نوط الاحكام بما يبدو من تلك الاحوال وفي هذين الحالين سِرّ خفي من اسرار هذه الحكمة فان ما يبدو فيهما هو قاض بالاهتمام باحدهما وهو حال دعوة المشرك الى الايمان عند ظهور اثر اللين والاصغاء عليه لان ذلك اعظم الغرض الذي بعث لاجله النبيء فالاشتغال به يبدو اهمَّ وارجح من الاشتغال بتعليم من آمن وتَقرّر ايمانه وكلا الامرين غرض ديني عظيم، غير ان وراء ذلك حالا آخر كامنا وهو حال المؤمن الطالب للخير المزداد من المعرفة بالدين وحال الكافر المصمم على كفره الذي علم الله انه لا يفيده التعليم شيئا وان التوسم في

الحالين قديكشف للداعي رجحان حال المؤمن المزدادمن العلم على حال الكافر المصر، فقد علم الله رسوله طريقا عظيمامن الاجتهاد في اعمال الادلةالشرعية ولم يقره على ظاهر الاجتهاد ويؤيد هذا التفسير ان الله سمى هذا الكلام تذكرة في قوله كلا انها تذكرة على احد التفسيرين في مرجع الضمير ولذلك عطف عليه جملة وما يدريك لعله يزكى الظاهرة في العتاب وهذا التركيب مستعمل في كلام العرب بهذه الصيغة لايغير عنها لجريانه مجرى المثل في التنبيه للغافل. وهو مركب من ما المستعملة في الاستفهام ويدريك مضارع ادراه اذا جعله داريا اي اعلمه ومثله قوله « وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون » . ـ وقوله ـ وما أدراك ما العقبة » وقد علق فعل الظن عن العمل في مفعولين مما حقه ان يعمل فيه لوقوع لعل بعده وهي من المعلقات لافعال الظن كما حققه ابو علي الفارسي كقوله تعالى « وان ادري لعله فتنة لكم» فلما انقطع فعل يدريك عن العمل فيما بعده صار ما بعده جملة مستانفة فصار فعل يدريك بمنزلة الفعل الذي لايتعدى الا الى مفعول واحد وهو المفعول الاول وهو كاف الخطاب ولم يعمل في ثان وثالث والمعنى واي شيء يُعْلمك عِلْما ثم قال لعله يزكى اي هو مرجو التزكى . والتزكي اثر التزكية وهو تفعل من زكا واصله يتزكي والتزكية طهارة النفس ونزاهتها عن مساوي الاخلاق ودواعي الشرور وتقدم الكلام عليها في سورة النازعات . والمراد بها هنا الزيادة من مكارم الاسلام اي هو مرجو لذلك بما تفيضه انت عليه من انوار هديك وما كان ينبغي اكتفاؤك بانه مؤمن فتنصرف عنه ولا تابه بسؤاله عن الدين لان ذلك يكسر خاطره زيادة على العمى اذ ليس الهدي الذي يزداده المؤمن كمالا ورفعة في درجات ايمانه باقل من الهدي الذي يقبل به الكافر الدخول في الايمان ولان اهتداء من آمن مرجو مستقرب واهتداء المتصلب في الشرك متمنى مستغرب وفي هذا تذكير من الله لنبيه بان الاهتداء انواع كثيرة ومراتب سامية وليس درجة واحدة وهي درجة الايمان فيصرف اهتمامه الى تحصيل الايمان دون ان يتعهد المؤمنين برفع درجاتهم فيه بالتثبيت والتفريع وذلك من معنى زيادة الايمان قال تعالى « ويزداد الذين آمنوا ايمانا » وتلك الدرجات هي مظاهر الصلاح وهي المقصود من الايمان وما كان الدخول في الايمان الا الوصول اليها بقدر سمو نفس المؤمن فَقَدْ تكون تزكية لنفس مؤمن انفع للدين من حصول الايمان

في نفس كافر وتلك سرائر لا يعلم مراتبها وفروقها الا الله تعالى ولكن موقع التوصية والموعظة في هذه الآية هي التنبيه الى الاكتراث ببعض تلك المراتب وحمل راعي هذه الامة ومربيها على ان تكون جميعها نصب عينيه وعلى ان يتعهدها في سائر احوالها وفي هذا اصل عظيم من اصول النظر السياسي لولي امر الامة. والحاصل ان الله تعالى اوحى الى نبيئه ان ذلك المشرك لا يرجى صلاحه وان هذا المؤمن يزداد صلاحا فئال المصير الى تعين مصلحة هدى هذا المؤمن بطريق الوحي والله اعلم. والتذكر خطور المعلوم في الذهن وهو ضد النسيان وهو تفعل من الذكر بضم الذال فادغمت تاء التفعل في الذال لقرب مخرجيهما على نحو ما قررناه في قوله تعالى لعله يزكى .

والذكرى اسم للتذكر والمعنى رجاء ان يسمع منك ما يذكره ما كان ناسيا ويرسخ في نفسه ما كان معرّضا للنسيان لقلة الاعتياد به من امور الدين، وبهذا الاعتبار كان التذكر قسيما للتزكي . وانما فرع النفع على التذكر ولم يفرع على التزكي لان دلالة التزكي على حصول النفع به بينة من معناه بخلاف التذكر، اوهو من قبيل الاكتفاء اي لعله يزكى فينفعه التزكي او يذكر فتنفعه الذكرى .

وقرا الجمهور فتنفعه بالرفع على العطف على يذّكر وقراه عاصم بالنصب على انه جواب للرجاء معاملة للرجاء معاملة التمني في نصب جوابه.

(أمَّا مَن استغنى فأنتَ له تصدّى وما عليك ألا يَزَّكَّى) تقدم الكلام على أما في سورة النازعات، وتفسير الكلام مهما يكن من استغنى فانت له تصدى والمقصود انك تحرص على التصدي له فجعل تصديه له ملازما لوجوده على طريق المبالغة . والاستغناء عد الشخص نفسه غنيا عن غيره في مال او عمل او علم فالسين والتاء فيه للحسبان واكثر ما يستعمل في الاعتزاز بالنفس والتكبر ونظيره قوله « واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى » الا ترى انه جعله مقابلا لاتقى في قوله في معادله « فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى » فالمراد بمن استغنى من استغنى عن هديك وترفع عن تلقيه وذلك هو المشرك المكابر الذي نزلت في شانه الآية كما تقدم آنفا وليس المراد هنا استغنى بالمال اذ لا يناسب المقام

والتصدي التعرض للمار في طريقه لحاجة عنده والتصدي هنا مجاز في شدة الاقبال لان التصدي يلزمه الاقبال على المتصدَّى له. وقرا نافع وابن كثير تصَّدى بتشديدالصاد على ان اصله تتصدى بتاءين تاء المضارعةوتاءالتفعل فقلبت التاء الثانية صادا لانها وقعت لصق الصاد وهو حرف الطباق تخف التاء بقلبها عنده مثيلا له ثم يقع الادغام بين المثلين الاصلي والمقلوب. وقراه البقية تصدى بتخفيف الصاد على حذف التاء الثانية تخفيفا لملاقاتها تاء المضارعة. وجملة وما عليك الا يزكى في موضع الحال من الضمير المستتر في تصدى وليست الواو فيها عاطفة اي فانت تحرص على دعوته الى الاسلام وتعرض عن ارشاد مسلم في حال انك ما عليك ان لا يتزكى هذا المستغني .

وجملة ما عليك في كذا او من كذا او ما عليك ان يكون كذا ونحوها جملة تقولها العرب في معرض الخبر بازالة التردد والاحتساب عن المخاطب من امر يتقي التبعة او الملام من اجله كقوله تعالى «ما عليك من حسابهم من شيء» وقول الشاعر وما علي اذا لم تفهم البقر . وهو نظير قوله « تلك شكاة ظاهر عنك عارها » وهي هنا مستعملة في الانكار كما ينبيء به جعلها مقترنة بواو الحال اي كيف تلغي الظن بانه لا يتزكى كما هو ظاهر حال كبره واعراضه فكان الاولى ان تطمع في تزكي مَن حاله مؤذنة بالياس من تزكيه وبذلك يكون الاعتناء بحال المؤمن الطالب للخير ارجح من الاعتناء بحال هذا المشرك المعاند وقد وقعت هنا فيمقابلة قوله وما يدريكلعله يزكى هذا هو الوجهفيتفسيرالآية. مسايرةلما اسسه المفسرون من ان الآية عتاب. ولي في ذالك تفسيراخر نذكرهفي التفسير الكامل.

(وأمَّا مَن جاءكَ يَسْعى وهو يَخْشى فأنتَ عنْه تَلَهّى) جملةمعطوفةعلى جملة اما من استغنى اقتضاها ذكر مقابلها قصدا لذكر الضدين اتماما للتفصيل والمراد بمن جاءك يسعى عبد الله بن ام مكتوم فمضمون هاته الجملة مؤكد لمضمون جملة عَبَسَ وتولّى ان جاءه الاعمى الآية .

والسعي الاستداد في المشي وهو هنا كناية عن الرغبة والحرص في الحضور عند من يمشي اليه فهو مقابل لحال المستغني المعرض .

وجملة وهو يخشى في موضع الحال وقدم المسند اليه على المسند الفعلي

للاهتمام بحاله . واختير الفعل المضارع للدلالة على تجدد الخشية عنده وملازمتها اياه والمراد بالخشية خوفه الله تعالى .

ومجموع حالتي الرغبة والخشية يقابل حالة الاستغناء الذي اثبت للكافر والتلهي مبالغة في اللهو وهو الاشتغال بغير الملتهى عنه.

(كَلا إنها تذكرةٌ فمن شاء ذَكَره في صُحُفٍ مُكَرَّمَة مَرْفوعةٍ مُطَهَّرةٍ) كلا حرف يعقب به الكلام اذا اريد ابطاله وتقدم في اول سورة النبا والمعنى لا يُعرَضْ عن ذلك المؤمن وضمير أنها قيل راجع الى القراءة التي تضمنتها قصة سبب النزول في قول النبيء للرجل المشرك اترى بما اقول باسا المقتضى انه قرا عليه القرءان والمعنى ان القراءة تذكرة للمؤمن قال تعالى وانه لتذكرة للمتقين . وقيل الضمير راجع الى الموعظة المتقدمة وفيه بعد. والتذكرة الموعظة لانها تذكر المرء بما ينبغي له ان يفعله. وجملة فمن شاء ذكره تفريع وتعليل للتذكرة والظاهر ان الذكر الثاني هو من الذكر باللسان وانما جيء بالضمير هنا غيرَ مؤنث في قوله ذكَرُه باعتبار ان القراءة هي القرءان وانما لم يؤنث الضمير لرعي الفواصل المتقاربة في قوله : ذكره . مطهرة . سفرة . الخ . وقوله في صحف صفة لتذكرة وما بينهما كالاعتراض والتقدير انها تذكرة في صحف اي مكتوبة هذه التذكرة في صحف فهي تذكرة باقية. والصحف جمع صحيفة وهي قطعة يكتب فيها الكتاب والظاهر انها اطلقت هنا على موجودات دالة على الفاظ القرءان في عالم الغيب وهي التي يطلق عليها اللوح المحفوظ ومنها يتلقى جبريل ما يامره الله بانزاله. والتكريم جعل الشيء كريما اي فاضلا نفيسا بصفات تفضيل نوعه والتكريم الصحف أن قدر الله ان يكون فيها دوال كلامه ووحيه فان تكريم الحاوي يتبع تكريم المحوي وبالعكس فالصحيفة قد تُقطع قطعتين يكون المحوي في احداهما قرءانا وفي الاخرى صحيفة القطيعة . ووصفها بمرفوعة مجازي لان الرفع شَرَفها فتشبه بالعلو وهم يشبهون النفاسة بالعلو فان تلك الصحف لما سجلت فيها دوال كلامه تعالى وكانت يَرغَب في قراءتها الصالحون من عباده ويتنافسون فيها شبهت بالشيء المرفوع الذي يبعد عن الاداسة ضنا به . ومطهرة مثل المكرمة وهو تطهير كامل في الذات وفي المعنى اي منزهة عن الخطا كما يقال فلان طاهر الاصل وطاهر النفس .

(بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ) هـذا وصف آخـر للصحف اي كائنة بايدي سفرة والباء للملابسة او للظرفيـة اي في متناولهم ومعنى ذلك انها واقعـة بايديهم يقرؤونها عندما يؤمرون بذلك وهذه صفة مـدح للصحف لان كونها بايدى الصالحين يؤذن بفضلها لان الفضلاء لا يقرؤون الا صحفا حاوية للخير وما به الصلاح كقوله تعالى « في كتاب مكنون لا يمسه الا المطهرون» . وقد استكمل بهذه الصفة جميع الاحوال التي تتشرف بها الصحف وهي تشرفها اصالـة بشرف ما يكتب فيها ثم بممارسة الملائكة لها .

والسفرة جمع سافر وهو الذي يسفر بين موجودين اي يُرسل ويتوسط في التبليغ واكثر ما كان يطلق على رسول للاصلاح ويسمى السفيـر والمراد بالسفرة الملائكة لانهم سفراء بين الله ومخلوقاته ومعنى كون الصحف بايديهم ان الله اقام ملائكة الحراسة صحف القرءان من ان تتناولها الايدي بدس الضلالات والتقول على الله لقوله تعالى« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون» فهذا من حفظه. والكرام المفضلون في نوعهم وهو جمع كريم بمعنى النفيس في نوعه ومنه قوله تعالى «كتاب كريم» والبررة جمع بار وهو المتصف بالبر بكسر الباء اي التقوى.

(قُتِل الانسانُ ما أكفره من أيِّ شيْء خلقه من نُطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثمّ أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره كلاّ لما يقْضِ ما أمره) هذا استئناف ابتدائي انتقال من سبب نزول السورة الى غرض آخر وهو غرض اثبات الوحدانية واثبات البعث ومناسبة الانتقال ان الاشتغال بتقرير ذلك والاستدلال عليه لبعض منكريه هو الذي سبب اعراض الرسول صلى عليه وسلم عن ابن ام مكتوم. وان ذلك المشرك ممن يشمله هذا التنديد .

وقتل دعاء بالقتل وهو الموت بفعل فاعل والعرب يستعملونه في معنى التعجب من امر منكر وفي معنى إظهار الغضب كما يستعملون ويله وتربت يمينه وتكلته امه فكذلك يقولون قتل كما قال تعالى « فقتل كيف قدر » ويقولون قاتله الله كقولـه تعالى « قاتلهم الله انى يوفكون » وليس المراد منه الدعاء بالقتـل ولا بالمـوت ولذلك يقولونه للشيء الذي لا يقبل الموت .

والتعريف في الانسان تعريف الجنس وليس تعريف العهد والمراد ان الفعل المتعجب منه هو من احوال جنس الانسان ومما يغلب عليه كقوله تعالى « وكان الانسان اكثر شيء جدلا ـ وقوله خلق الانسان من عجل ـ وقوله ان الانسان خلق هلوعا ـ وقوله ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى» ولما كان اثبات هذه الاحكام انما هو للجنس كان اثباته له على وجه الجملة فلم يكن مقتضيا اتصاف جميع افراد هذا الجنس بتلك الاحكام بل مقتضيا ان تلك الاحكام لا يعرو عنها ذلك الجنس وانها منبثة فيه وقد يخلو عنها بعض الافراد وقد يخلو عنها الفرد في بعض الاحوال وتثبت له في بعضها، فالكفر بالله قد نشافي الانسان وتفشى في جنسه في غير ما عصر وناضل الانسان عنه وتعصب له فلذلك كان هذا الجنس حقيقا بالتعجب من كفره بقوله ما اكفره ولا اعجب من كفر الانسان بربه ان يجعل له شركاء من اعجز الموجودات من حجارة وخشب، او ان ينفي وجود خالق له. ولك ان تجعل الانسان هنا مرادا به اناسا معينين وهم المشركون كقوله «ويقول الانسان ائذا ما مت لسوف اخرج حيا ـ وقوله ـ ايحسب الانسان ان لن نجمع عظامه » فيكون استغراقا عرفيا وهو نوع من العام المراد به الخصوص. ولا ترى اسلوبا اغلظ من اسلوب هذه الجملة ولا ادل على سخط ولا ابعد شوطا في المذمة ولا اجمعَ للملامة مع تقارب طرفيها. ولم يسمع مثلها قبل نزولها . وجملة من اي شيء خلقه هي بمنزلة البيان للتعجب من كفره المشعر بانه كفر عظيم لانه ظاهر البطلان اذ تبين بطلانه بدليل من نفس الكافر كما قال تعالى « وفي انفسكم افلا تبصرون » ولا اعظم من انكار المرء دليلا ملازما له كائنا في ذاته. والاستفهام مستعمل في التشويق الى ما سيخبر به لظهور ان المسؤول لا يسعه الا الجواب بما يريد المتكلم اعترافه به ولذلك صح ان يجيب المتكلم نفسه ولا ينتظر جواب المخاطب كما تقدم في قوله تعالى عم يتساءلون عن النبا العظيم. وجوابه جملة من نطفة خلقه. وقدم المجرور في جملة الجواب محاكاة للسؤال واهتماما بالتنبيه لمعرفة ما خلق منه الانسان لما في التنبه له من الاستدلال على عظيم علم الله تعالى وحكمته اد خلق ابدع مخلوق وهو الانسان من ابسط شيء وهو النطفة . وانما لم يحذف فعل خلقه في الجواب مع صحة الاستغناء عن ذكره بتقدم مماثله في السؤال لزيادة التنبيه على دقة ذلك الخلق العجيب، وبذكره

كان الكلام مساواة لا ايجازا وتظيره قوله فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق. والضمير المستتر في فعل خلقه في الموضعين ضمير اسم الجلالة ولم يتقدم له معاد وحذف معاده تنبيها على انه لا يسبق الى فهم السامع غيره مثل حتى توارت بالحجاب وفي ذلك نكتة التنبيه على ان المشركين يعلمون ان الخلق لا يسند الا الى الله تعالى كما قال تعالى « ولئـن سالتهم من خلقهم ليقولن الله فانى يوفكون » اي كيف يصرفون عن توحيده بالعبادة بعد اعترافهم بانه خالقهم دون الاصنام التي يعبدونها فكانت اعمالهم على خلاف علمهم .

والنطفة مـاء الذكـر من الانسان ومن الحيوان ومنـه تكوين الجنين فذكر النطفة متعين لانها مادة الخلق ولا التفات في ذكرها الى معنى التحقيـر او المهانة لان المقام للاستدلال على امر عظيم لا لاهانة المتكبرين .

وقدره من التقدير اي ايجاد الشيء على مقدار مضبوط كقوله «وخلق كل شيء فقدره تقديرا » والسبيل الطريق ويطلق مجازا على مسلـك الشيء كما سموا ممر المـاء سبيلا، وعلى عمل الانسان وسيرته كقوله وساء سبيلا. وهو هنا صالح لاعتبار المعنيين على طريقة استعمال اللفظ في مجازيه . والتيسير التسهيـل والمعنـى يسر للانسان السبيل بتيسير بروزه الى العيان ببروزه من امه في سبيل الولادة، وبتيسير الاعمال التي يحتاج اليها من نطق وبطش ومشي وغيرهما من شؤون الحياة ، وحمل السبيل على معنييه هو المناسب لقوله ثم اماته فاقبره فانه اعقبه بذكر الموت الذي ينقطع به تيسير السبيل وذكر الاقبار الذي هو ضد بروزه من رحم امه وانتصب السبيـل على المفعول به المقدم وتقديمه للرعاية على الفاصلة.

واقبره وضعه في القبر واسناد الاقبـار الى الله تعالى مجاز عقلي لانه اوجـد الاسباب الملجئة اليه واوجد في النفوس الحيلة الدالة عليه وقد قـال تعـالى في ذكر اول اقبار « فبعث الله غرابا يبحث في الارض ليريه كيف يواري سوأة اخيه ». والانشار النشر وهو الاخراج بعد الاخباء (بالموحدة) ومنه نشر الثوب. واذا في قوله اذا شاء ظرف مجرد عن معنى الشرط لان الله قـد شاء الانشار لكل ميت . المعنى انه ينشرهم في الوقت الذي يريده اي لا في الوقت الذي تريدون انتم لانهم كانوا يَعُدون عدم وقوع البعث بقرب الاخبار به امارة على انتفاء وقوعه ويقولون

متى هذا الوعد ان كنتم صادقين ، فكان قوله اذا شاء أنشره تعريضا بابطال اعتقادهم على وجه اللزوم والكناية ولذلك حسن تعقيبه بحرف الابطال وهو كلا وان كان صريح الكلام الذي قبله حقا وليس بباطل . وجملة لما يقض ما امره مستانفة استئنافا بيانيا لما افاده الابطال من الردع فكأنّ سائلا سأل عن وجه الردع فاجيب بانه لمّا يقض ما امره .

ولَما حرف نفي وهي تدل على نفي الفعل في الماضي واستمرار انتفائه الى زمن التكلم كقوله ولما يدخل الايمان في قلوبكم اي قد تاخر الانسان عن قضاء ما ما امره الله به وهذا استبطاء لايمانهم .

والقضاء الاتمام اي عمل الشيء تاما ، لم يقض الانسان ما امره الله به من التوحيد والنظر في ادلته التي منها كيفية خلقته ، واعتُبر في هذا الحكم حال غالب العرب يوم نزول الآية فقد كان غالبهم مشركين ولم يُعتبر في الحكم النزر من الناس .

(فلينظُـرِ الانسانُ إلى طعامِه إنا صَبَبْنا الماءَ صَبًّا ثم شققنا الارضَ شقًّا فانبتنا فيها حَبًّا وعِنَبا وقَضْبا وزيتونا ونَخْلا وحدائق غلْبا وفاكهة وأبًّا متاعا لكم ولانعامكم)

الفاء فصيحة والتقدير ان اراد الانسان ان يقضي ما امره ربه فلينظر الى طعامه الخ على نحو قوله « إنْ كل نفس لما عليها حافظ فلينظر الانسان مم خلق » اذ تقديره ان اراد الانسان التفصي من تبعة ما يكتبه عليه الحافظ فلينظر مم خلق . والانسان الحيوان الناطق يطلق على جنسه وعلى الواحد من جنسه واذا عرَّف باللام فالاكثر ان اللام لتعريف الجنس وتفيد العموم في بعض مواقع استعمالها كما هنا اي فلينظر كل واحد من الناس الى تكوين طعامه . وهذا انتقال بالانسان من النظر في حالة إيجاده المتصلة بذاته الى النظر في حالة امداده باسباب بقائه الحافة به في اكثر اوقاته وهو الامداد بالغذاء الذي به إخلاف ما يضمحل من قوّته بسبب حركة المزاج الطبيعية الخفية وبسبب حركة العمل البدنية المعروفة . وعلق فعل النظر بذات الطعام مع ان المراد النظر الى احوال ايجاده على وجه الايجاز لان النظر كائن الى احوال كثيرة كلها من احوال الطعام دل عليها انا صببنا الماء صبا فكان قوله فلينظر الى طعامه اوجز من ان يقال فلينظر الانسان الى تهيئة طعامه والى

انبات طعامه والى انتفاعه بطعامه وانتفاع الانعام التى فيها نفعه ايضا فتعليق الامر بالنظر بذات الطعام هو من قبيل تعليق الحكم في اللفظ باسم الذات على معنى ارادة احوالها مثل «حُرمت عليكم الميتة» اي اكلها .

وقوله انا صببنا قراه الجمهور بالمكسورة على ان الجملة بيان للمنظور اليه باعتبار الايجاز كما قدمناه ، وقراه عاصم وحمزة والكسائي بالمفتوحة على انه بدل اشتمال من طعامه . والصب القاء سائل من مكانه الى مكان آخر واصله صب الماء كنزول المطر وإفراغ الدلاء ومرور السيول وجري السواقي ، ويقال صَبّ البر في الوعاء وصب الدراهم في يد زيد . والصب والشق الى ضمير الجلالة لان الله مقدر ذلك وواضع اسبابه ونواميسه ومعلمه للناس .

وذكر قوله صبا بعد صببنا على انه مفعول مطلق لما في التنكير من الدلالة على التعظيم والتعظيم في كل شيء بما يناسبه فالمراد صبا عجيبا لاختلاف كيفياته كما في قوله ثم شققنا الارض شقا . والشق والابعاد بين جزاين وشق الارض يكون اما بحرارة الشمس واما بالمحاريث ونحوها وذلك لادخال حبوب البذر التي بها تنبت الاشجار والزروع ببقائها في رطوبة وحرارة حتى تفلق وتخرج العروق التي هي اصول النبات فالفاء في قوله فانبتنا للتفريع .

والمراد بالحب الحبوب التي تقتات كالقمح والشعير والارز . والعنب ثمر الكرَم . وانما ذكرت الثمرات غالبا دون اشجارها لانها ادخل في الاستدلال لانها اعجب ولان فيها مع الاستدلال منة ولانها هي الطعام ولا اشجارها . والقضب الفِصْفِصة الرطبة . والزيتون يطلق على ثمر الزيتونة ويطلق على الشجرة المثمرة له والمراد الثمرة لانه انسب بالحب والعنب . وذكر النخل دون التمر لان منافع شجر النخل كثيرة لا تنحصر في ثمرة فهم يقتاتون ثمره وجماره ويشربون ماء عود النخلة اذا شق عنه ويتخذون من خشبه بيوتهم واوانيهم ومن سعفه وليفه الحصر والحبال وغير ذلك فذكر اسم الشجرة لانه اجمع في الاستدلال والامتنان . والحدائق جمع حديقة وهي جنة النخل وتقدم في قوله تعالى حدائق واعنابا . والغُلْب صفة لحدائق وهو جمع غلباء بمعنى ضخمة اي ضخمة الاشجار كقوله وجنات الفافا وخصت الحدائق بالذكر بعد النخيل لانها مواضع تنزههم واخترافهم . والفاكهة الثمار

كلها سواء أتؤكل رطبة ام يابسة فتشمل التمر والزبيب وتشمل الرُّطب والعنب . وانما خص العنب والنخل اهتماما بهما فذكرهما مع الفاكهة من ذكر الخاص قبل العام . والابُّ الكلا الذي ترعاه الانعام .

وقوله «متاعا لكم» حال من المذكورات «ولانعامكم» عطف على لكم وهو لف ونشر مشوش فالسامع يرجع كلا الى ما يليق به لظهور المراد . والمتاع ما ينتفع به ويلائم صاحبه وقد تقدم نظيره في سورة النازعات .

(فإذا جاءت الصّاخّةُ يومَ يَفِرُّ المرءُ من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكلّ امرىءٍ منهم يومئذ شأنٌ يُغنيه وجوهٌ يومئذٍ مُسفرة ضاحكةٌ مستبشرة ووجوهٌ يومئذٍ عليها غَبَرة تَرهقُها قَتَرة أولئك هم الكَفَرة الفَجَرة) الفاء لتفريع النذارة مثل التي في قوله فاذا جاءت الطامة الكبرى كما تقدم فهي تفريع على الوعيد من قوله قتل الانسان ما اكفره وما يقتضيه الاستدلال على المشركين من ابطال اعتقادهم من قوله كلا لما يقض ما امره الآية . واذا ظرف تقدم الكلام عليه عند قوله تعالى فاذا جاءت الطامة في سورة والنازعات . والصاخة الحادثة التي تَصُخّ اسماع الناس وهي اصوات عظيمة تحدث من اضطراب العوالم في آخر ازمنة وجودها وذلك من اختلال نظام سيرها وهي ما عبر عنه بالطامة في سورة النازعات وبالنفخة في سورة الحاقة وبالواقعة في سورة الواقعة « اذا دكت الارض دكا وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا »

و«يومَ يفر المرء من اخيه وامه» الخ بدَل من اذا.والفرار الهروب . ومن اتصالية اي يفر من اتصاله باخيه لان الفرار تضمن معنى زوال الاتصال وهذا كما قال لستُ منك ولست مني والمعنى يوم يفر المرء من مكان كان فيه مع اخيه وامه وابيه الخ اذا وقع طلبه في ذلك المكان لاجراء العقاب عليه وراى مخايل العقاب فر وترك اخاه وذلك كناية عن هول المكان لان العرب ما كانوا يتركون اصحابهم واقاربهم ولو لحقهم الشر من جرائهم بل كانوا يثبتون حتى ينجوا جميعا او يهلكوا جميعا ويعدون ذلك الفرار سبة عظيمة . قال ابو البحتري :

لن يسلمَ ابنُ حرة زَميلَه حتى يموتَ او يَرى سبيله

وقال غيره

فلم ترَ مني نبْوةً قبل هذه — فراري وتركي صاحبَيّ ورائيا

فلا جرم انه ما فر المرء من اخيه الا لتجاوز الشرّ في ذلك اليوم الحدّ الذي اعتادوا الصبر على مثله . والاخ من ولدته امك او ولدته زوجُ ابيك من ابيك . والام للولد المراة التي حملت به وولدته . والاب للولد هو الرجل الذي زوجته حملت بذلك الولد منه . والصاحبة الزوجة قال الله تعالى ما اتخذ صاحبة ولا ولدا . وبنيه جمع ابن بصيغة جمع المذكر السالم وحذفت الهمزة من اوله تخفيفا لانه ثقل بحرف العلة والنون في آخره لاعرابه اعراب جمع المذكر السالم .

وقد رُتبت القرباء هنا على طريقة التدريج فان الاخ له قرابة عظيمة واشد منها قرابة الابوين واشد منها قرابة الزوج والبنين لما معها من المخالطة والمقصد من ذكر هؤلاء الاقارب دون الاكتفاء بذكر الاقرب منهم زيادة احضار حالة الهول في نفس السامع .

وجملة لكل امرىء منهم يومئذ شان يغنيه حالية او مستانفة استئنافا بيانيا لجواب سؤال ينشا عن فرار المرء من اخيه فيقال ما موجب فرار احد هؤلاء عن احدهم .

وضمير منهم عائد على المرء واخيه وامه وابيه وصاحبته وبنيه لان المرء غير معين فكل واحد من هؤلاء يفرض فراره عن الآخر فكل من الاخوين يفر من اخيه والابن يفر من امه ومن ابيه وهما يفران منه فهو فرارهما من ابنهما والصاحب يفر من صاحبته وهي تفر منه .

والشان الحال المهم . ومعنى يغنيه يكفيه اي عن التامل في شان غيره ولو كان اقرب الناس اليه .

وجملة وجوه يومئذ مسفرة هي جواب اذا وما بينهما اعتراض واعيد قوله يومئذ لزيادة الربط بين الشرط وجوابه لطول الفصل بينهما وبذلك الربط حصل الاستغناء عن ربطه بالفاء ، والتقدير يوم اذ جاءت الصاخة وجوه مسفرة . واليوم

المذكور هو يوم الحشر . والاسفار الاشراق يقال اسفرت الشمس اي اشرقت والمعنى انها مستنيرة وانما تكون استنارة الوجوه من فرط التنعم . واسناد الضحك الى الوجوه لان الافواه الضاحكة كائنة في الوجوه فجعل الوجهُ كأنّه ضاحك كله. والمستبشرة المسرورة مشتق من البشر وهو السرور . وهذه حال وجوه الآمنين المطمئنين بالا المكرمين عَرْضا وحضورا . والغَبَرة الغبار . ومعنى ترهقها تصيبها على عجل . والقترة لون هو غبرة الى سواد وهي لون يعتري وجه البائس الشقي، وهذه حال وجوه المدحورين المهانين اذا سيقوا في طرق مغبرة واوقفوا في المواضع المحقرة، وقد صَرح بان الوجوه المغبرة وجوه المشركين بقوله اولئك هم الكفرة الفجرة فجيء باسم الاشارة لتشهيرهم بما سيذكر من الوصفين وهما الكفر والفجور . وذكر الفجور بعد الكفر مع ان الكفر اعظم لما في الفجور من تشنيع حالهم ولان الشرك يفضي الى الفجور لانتفاء الوازع . ولم يصرح بان اصحاب الوجوه المسفرة هم المؤمنون لان ذلك ظاهر بالمقابلة وفي التصريح للمشركين زيادة في النكاية والوعيد لان المجرمين يغالطون انفسهم بالامل الكاذب في النجاة ويتعلقون باحتمال انهم غير المراد من الوعيد .

وهذا الختم للسورة ختم رهيب جامع لحالهم وفيه براعة المقطع .

اسلوب هذه السورة

لما نزلت هذه السورة على سبب اهتمام النبيء صلى الله عليه وسلم بالتفرغ ذات يوم الى دعوة عظيم من المشركين الى الاسلام واسماعه القرءان حين آنس منه لينا واقبالا على سماع القرءان . فرجا النبيء منه الاسلام . اذ فاجأه دخول احد المومنين سائلا ومسترشدا ومُلحّا في ذلك فامتعض النبيء من الحاحه واعرض عنه حتى انصرف المشرك فاراد الله اظهار كرامة ذلك المؤمن عنده جبرا لخاطره . وان الله لا يَعْبَأ بعظيم المشركين فلا يخوله من الدعوة اكثر مما يدعى به سائرهم .

ولما كان في ذلك ارشاد لرسوله ان الاولى ان يؤثر ارشاد المسلم المتعطش على محاولة اهتداء الكافر المتعاظم أبرز الخبر عن القصة في اسلوب الحديث عن غايب فافتتحت السورة بفعلين مستتر فيهما ضميران متحدان لم يسبق لهما مَعَاد ليحصل من ذلك اجمال يترقب تفصيله لكي تتشوف نفس النبيء عليه الصلاة والسلام الى تعرف الخبر وصاحبه وليستانس بما حواه تدريجا فلا يفاتح بالعتاب رفقا بجنابه

وصرفا لمهيع الكلام عن الملام الى المعاتبة لتشوف نفوس المومنين ، حين تفاتحهم السورة ، الى معرفة ما يَرد بعد هذا الافتتاح من العبر المستخلصة من تلك القضية.

وكان معنى ذينك الفعلين (عبس وتولىّ) مناسبا لغرض يشتمل على امتعاض واعراض وهو أهَمُّ ما نزلت السورة لاجله وكان في ذكرهما براعة استهلال .

وطُوي اسما المعرض عنه والمتصدى له تحت وصف اولهما بالاعمى . لما يستدعيه ذلك الوصف من الترقيق المستوجب اشارة بالمواساة والكرامة ووصف ثانيهما بمن استغنى لما تقتضيه الصلة من جدارته بعدم الاكتراث به تمهيدا للمقصود من العبرة بالفضايل واضدادها ثم وقع تفصيل ذلك الاجمال تفصيلا مُقسّما الى حالتين حالة المعبوس له ثم حالة المقبل عليه للتنويه بالاول ولتحقير الثاني .

وانتَقل في التفصيل من اسلوب الغيبة الى اسلوب الخطاب على طريقة افضاء الى صريح المقصود ليكون وقع الخطاب ارفق من وقع الغيبة فيشعر بانه عتاب لا ملام . مع الاشارة الى أن النبيء معذور بانه جال في مجال الاجتهاد فقدم درء المفسدة على جلب المصلحة في ظنه واذ قد كان الموضوع في طرفي القصة هو القرءان اذ عرض على احد الطرفين تخلص الكلام الى التنويه بشان القرءان وكونه منزلا من المنازل القدسية وأن ذلك يجعل المؤمنين اولى به للمناسبة بين ماهيته وبين نفوسهم . وقوبل ذلك بحال الكافرين بالله المنكرين الرجوع اليه والمعرضين عن دلائل الوحدانية . وفي خلال ذلك ادماج الامتنان على الناس بما في تلك الدلايل من النعم عليهم التي شكرها المؤمنون وكفرها المشركون .

وانتقل من ذلك الى مصير الفريقين يوم القيامة واذ قد كان لكلا الفريقين مثيل في هذه القصة كان ذلك موذنا بطي البساط وانتهاء السورة .

سورة التكوير

مكية ويذكر فيها وقت قيام الساعة. وعلامات حضورها. والبعث والحساب والجزاء.واثبات ان القرءان الذي انذرهم بذلك وكذبوه هوكتاب من عند الله وتبرئة النبي صلى الله عليه وسلم من بعض ما وصمه به المشركون من انه ينطق بكلام من الجن . وذكر ذلك الوقت والاطناب فيه اسلوب من اساليب تحقيقه في النفوس وتصديق من اخبر به وذلك من براعة الاستهلال .

(إذا الشمسُ كـوِّرتْ وإذا النجومُ انكدرتْ وإذا الجبالُ سُيِّرتْ وإذا العشارُ عُطلتْ وإذا الوحوشُ حُشِرت وإذا البحارُ سُجِرت وإذا النفوسُ زُوِّجت وإذا الموؤدةُ سُئلت بأيّ ذنبٍ قُتلت وإذا الصُحُف نُشِرت وإذا السماءُ كُشِطَتْ وإذا الجحيمُ سُعِّرت وإذا الجنّةُ ازلِفتْ عَلمتْ نفْسٌ ما أحْضَرَتْ) تقدم الكلام على اذا عند قوله فاذا جاءت الطامة الكبرى في سورة والنازعـات . وكورت تداخـل بعضها في بعض شبه فساد هيكلها بتكوير الثوب وهو لفـه ولذلك فسر كورت بمعنى غورت . وقيل معناه انطمس ضوءها مأخوذ من تكوير العمامة على الراس لانها تغطيه ومنه قوله تعالى يكور الليل على النهار . وحاصل المعنى ان الشمس يفسد نظامها الموجود فيختـل نظام العوالم التابعة لها وهي الكواكب والارض . وابتدا باختلال حال الشمس بفساد جرمها او انطفاء شعاعها فيبطـل معمولها . واختيار مادة التكوير هنا دون غيرها من نحو انكدرت او اظلمت للايمـاء الى معنى دقيق من المعجزات العلمية القرءانية وهي ان انطفاء شعـاع الشمس يخيلها للرائي في صورة كرة ظـاهرة لانحجاب اللهب الذي كان يصرف الابصار عن مشاهدة تكويرها الا ترى ان التكوير يظهر للعين في وقت الخسوف .

وانكدار النجوم تساقطها اي خروجها عن الافلاك التي سيرها الله فيها من اول خلقها وذلك التساقط يدل على فساد نظام الجاذبية وكل ذلك من فساد نظام

نظام الشمس المفضي الى اختلال الجاذبية ، وتسيير الجبال مفارقتها مواضعها وذلك بالزلزال العام الذي يعتري الارض تبعا لفساد النظام العام وقد تقدم في قوله وسيرت الجبال في سورة النبا ،

والعشار جمع عشراء بضم ففتح وهي الناقة التي بلغ ما في بطنها عشرة اشهر فاشرفت على الولادة لان الناقة تحمل سنة كاملة وهي اذا بلغت ذلك تكون اعز على اصحابها لانها قاربت النتاج فالرعاة يحرسونها ولا يعطلونها والتعطيل ابطال الانتفاع اي تركها مضاعة كما قال وبئر معطلة والمراد حقيقة العشار والتعطيل فيكون كناية عن هول ذلك اليوم حتى ان الناس يذهلون عن انفس المكاسب والعربي شديد الحرص على انتاج نعمه سواء كانت يومئذ عشارا او لم تكن ،

وحَشر الوحوش جمعها في مكان واحد وذلك ينشا عن حدوث حوادث مزعجة لها كالزلازل والصواعق فتفر الوحوش من مواطنها طالبة النجاة حتى تلتقي في جهة واحدة وكان معتادها ان لا تجتمع في جهة واحدة لاختلاف طباعها . وسكت القرءان عن حالها بعد ذلك الحشر لعدم تعلق الغرض ببيانه لحصول العبرة بالحالة العجيبة التي جمعتها في مكان واحد ،

والتسجير التخليط يقال سجره بالتخفيف ومنه قوله تعالى والبحر المسجور ويقال سجّره بالتشديد مضاعفا للدلالة على شدة الفعل، فالمراد بتسجير البحار خلطها خلطا قويا واتصال بعضها ببعض ، وقد فسر السجر بالملاء في قوله والبحر المسجور فلعل التسجير اشد ملا والمعنى فيضانها على الارض وهو معنى قوله تعالى واذا البحار سجرت ، وهنا انتهى التوقيت بالحوادث الواقعة قبل يوم القيامة وهي ست حوادث ،

وقوله واذا النفوس زوجت ابتداء الاشارة الى احوال القيامة وذكر ست خصال ايضا ووجه جمعها شدة تقارب زمانها لان آخر ايام الدنيا وهو يوم فناء هذا العالم يعقبه اول ايام الآخرة ولذلك جعل الحاصل عند هذه الازمنة كلها هو اول احوال القيامة وهو ما دل عليه قوله علمت نفس ما قدمت واخرت ،

والتزويج جعل الشيء زوجا اى قرْن ذات بذات فالنفوس جمع نفس وهو

الروح وتزويجها قرنها بابدان لها تحـل فيها لحضور الحشر والحساب وذلك هو القيامة. وهذا يناسب القول بانحشر الاجساد عن عدم لاعن تفريق .

وذكر المؤودة هنا تخلص لذكر الحساب.وتخصيصه بالذكر من بين ما يسال عنه يومئذ تذكير للمشركين بائم فظيع من آثامهم التي دفعهم الشرك الى اقتـرافها تعريضا بالتهديد فبَادَأَهم باشنع اعمـالهم في الشرك وهو وَأْدُ البنات . والوَأد هو دفن البنت وهي حية. اذا دَخلت في السنة السادسة من عمرها كان ابوها يحفر لها مثـل البئر ويدفعُها فيه على حين غفلة منها ومن امها ويهيـل عليها التـراب . وكانت الامهات ربما وَأْدن بناتهن حين الوضع فكانت الحامل منهن اذا قرب ابان وضعها حفرت حفـرة فاذا جاءها المخاض تمخضت على راس الحفرة ثم نظرت فان كان المـولود ذكرا ابقتـه وان كانت انثى رمت بها في الحفرة واهـالت عليها التراب ولم يكن يعرف الـواد في قريش .وكان كثير من المشركين في العـرب يفعلـون ذلك يزعمـون انهم يتخلصون بذلك من العار الذي قد تقتـرف المراة أسبابه، او من معرة احتياجها وفقرها اذا مات ابوها وهي صبية، وكانوا يتقصون بذلك من اسباب التقاعس عن حرب اعدائهم، ولم يكن الوأد معمولا به عند جميع قبائل العرب، واول القبائل سنت الوأد ربيعة وقد قال الله تعالى ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق . واي اسم استفهام يسال به عن تمييز مشارك لكثيرٍ من صنفه الذي يـدل عليه ما تضاف اليه ايّ كما هنا والمشترك فيه هو الذنب . وسؤال المـؤودة يومئذ تعريض بالتهديد للـوائد ليعلم انه سيؤاخذ على ذلك بالعقاب . وانما سئلت البنت المؤودة دون ابيها لان في جـوابها شهادة على ابيهـا . وانما وقع سؤالهـا عن الذنب الموجب قتلها دون السؤال عمن قتلها للزيادة في التهديد لان السؤال عن تعيين الذنب الموجب للقتـل مع انتفاء ذلك الذنب، فيه اشعار للقـاتل بان لا معذرة له في فعله اذ لا شبهة له فيما صنع بها فان الشبهة قـد تقتضي التخفيف في العقوبة . ونشر الصحف هو اظهار ما احصي من الاعمال دون ترك شيء منها . والصحف تحتمل الحقيقة فيكون المراد صحفا مناسبة لذلك العالَم الخالد وليست هذه الاوراق المعروفة عندنا وتحتمل المجاز عن الامر الذي تُعرف منه الاعمال.

والسماء يطلق على معان كثيرة والمراد منها هنا الحجاب الذي بين الناس وبين العوالم العليا على ما يشير قوله تعالى وفي السماء رزقكم وما توعدون ، والكشط الازالة والكشف. والمعنى اذا ازيل الحجاب الذي بين الناس وبين آيات عظمة الله تعالى ومشاهدتها كقوله « يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب » ولذلك اعقبه بقوله واذا الجحيم سعرت اي اذا جهنم أوقدت وهُيّئت لعذاب من حق عليهم العذابُ . والجحيم النار ذات الطبقات من حطب لو نحوه بعضها على بعض سميت بذلك جهنم على طريقة العلَم بالغلبة ولذلك قوبلت بالجنة في قوله واذا الجنة ازلفت . والجنة واحدة الجنات وتقدم في سورة النبا وصارت علما بالغلبة على دار الجزاء على الصالحات ودار النعيم . وازلفت قُربت ومعنى تقريب الجنة تهيئها لثواب المتقين . وجملة علمت نفس ما احضرت جواب اذا وهو متعلق معنى ظرفيتها والتقدير علمت نفس ما احضرت اذا الشمس كورت الى آخره . وقد أُطيلت جملة الظرف وكررت كلمة اذا اطنابا للتشويق الى الجواب ولتهويل الخبر. وجعل عِلم النفوس بجزاء اعمالها حاصلا عند مجموع الاحوال المذكورة لان بعض تلك الاحوال مقارن لذلك العلم وهي الاحوال الستة الاخيرة وبعضها قريب منه كما تقدم فنُزل القريب منزلة المقارن . ونفس نكرة في سياق الاثبات وهي لا تعم غالبا ولكن اريد العموم بقرينة انه لا يراد نفس معينة والمعنى علمت كل نفس كقوله تعالى يوم تَجد كل نفس ما عملت من خير محضرا فالاعمال التي يعملها الناس يحاسبون عليها يوم الحساب وتحضرها الملائكة في صحائف الحساب، فعبر عن تذكرها وتحقق منافعها ومضارها بعلمت لتنزيل ما قبل ذلك منزلة عدم العلم لشبهه بالجهل في عدم ترتب الآثار عليه، وعبر بالاحضار على طريقة المجاز العقلي لان النفوس هم سبب احضار الملائكة الاعمال والمعنى علمت نفس ما أُحضر لها فما صدق ما أحضرت الاعمال بقرينة السياق . واعلم ان تقديم المسند اليه في الجمل الثنتي عشرة المفتتحة باذا مع ان المسند فعل فلم يقل اذا كورت الشمس كما في قوله « فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » لقصد الاهتمام بالاشياء المتحدث عن احوالها المجعولة علامات

ليوم البعث ليزداد بذلك الاهتمام وباطالة الجمل الشرطية شوقُ السامعين الى جواب اذا حتى اذا وقع في سمعهم كان له مزية الرسوخ في اذهانهم .

(فلا أُقسم بالخُنَّسِ الجواري الكُنَّسِ والليل اذا عَسْعَسَ والصبح اذا تَنفس انه لقولُ رسول كريمٍ ذي قوة عند ذي العرش مَكين مُطاعٍ ثم أمينٍ)

الفاء لتفريع جملتي القسم وجوابه على الكلام السابق للاشارة الى ان ما تقدم بمنزلة التمهيد لما بعد الفاء لان القصود من هذا القسم تحقيق الكلام الذي قبله مع ما ينضم إلى ذلك من التنويه بشان قائله الذي نزل به . وهذا التفريع استعمال بديع ورد في القرءان كقوله «فلا اقسم بالشفق. فلا اقسم بما تبصرون وما لا تبصرون» وورد منه في كلام العرب كقول زهير .

فاقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنَوْه من قريش وجرهم

عقب ابيات كثيرة من معلقته لا يتفرع عن معانيها ما بعد القسم ولكنه اراد ان ذلك كله للاقبال على ما بعد القسم . ولا زائدة للتوكيد لان المقصود من قوله لا اقسم القسمُ لا نفيُ القسم .

والخنس الجواري الكنس الكواكب مثل قوله فلا اقسم بمواقع النجوم وتخصيصها هنا بالقسم لان احوالها دالة على وجود الخالق الصانع وعلى عظيم قدرته فمن تامل في احوالها لم يكن عنده وجود الملائكة التي لا تُرى باعجب من وجود هذه المخلوقات المرئية فلا وجه لانكار وجودهم ، ولم يكن عنده ثبوت الوحي بواسطتهم الى الاصفياء من البشر باعجب من اختراق الشعاع من تلك الكواكب الى عيون البشر ومن احتجاب شعاع الشمس في الليل وانبثاقه في الصباح ، وبذلك حصلت المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه . ووصفُها بهذه الصفات جار على طريقة التشبيه واللُّغز بالظباء وبقر الوحش فالكواكب تشبه الوحش في هذه الصفات فهي تخنس اي تختفي وترجع في النهار ثم تبدو للناظر سائرة بالليل كانها ترعى ثم تكنس اي ترجع الى الاختفاء قبل الفجر فيراها الناظر كانها تطلب محلا للاختفاء فشبه اختفاؤها بالنهار حيث لا تبدو للناظر بالخَنْس وهو تشبيه بديع ، وشُبه سيرها بالجري وهو تشبيه معروف ، وشبه اختفاؤها في الصباح بدخول الوحش كِناسه والكناس بيت الظبي وبقرِ الوحش

يتخذه بين الشجر فلا يراه الا المتامل وهو تشبيه بديع . والكلام يوهم انه يقسم بالوحش فمن ثم جاء الالغاز . والقسمُ بالكواكب باعتبار انها دالة على عظيم قدرة الله تعالى ودقيق صنعه وعلمه. ووصفها في حال القسم بانها جوار كنس لان تلك الحالة اوضح دلالة على علم وقدرة صانعها .

وعطفُ الليل على الكواكب للمناسبة ولانه من دلائل قدرة الله تعالى ولطفه بعباده . وكذلك عطف الصباح على الليل . واذا عسعس ظرف جُعل هو مناط القسم تنبيها على ما فيه من الدلالة على عظيم قدرة الله تعالى . وعسعس اقبل ظلامه وذلك في ابتداء الظلمة بعد الغروب . وجُعل القسم به في ذلك الزمان وتلك الحالة لانها الحالة التي يظهر بها ابتداء تكون زمنه فهي ادخل في العبرة . وكذلك تقييد الصبح المقسم به بحالة تنفسه وهي ظهور ضوئه اطلق على ذلك الظهور اسم التنفس مجازا لان ظهور الضوء بعد الظلام يشبه تنفس الانسان بعد انحباس نَفَسه . وقيل لان ظهور ضياء الفجر يقارنه في الغالب هبوب نسيم فشبهت تلك الهيئة بالتنفس على سبيل التمثيل .

وجملة انه لقول رسول كريم جواب القسم والضمير راجع الى القرءان المعروف من سياق الاخبار بوقوع البعث وعلاماته . والرسول المبعوث لتبليغ كلام فالمراد به جبريل لانه رسول من الله الى محمد صلى الله عليه وسلم ليبلغه قال « نزل به الروح الامين على قلبك ـ وقال علّمه شديد القوى » . واضافة القول الى الرسول لادنى ملابسة لان الرسول هو مبلغ القول والجاري على لسانه فقد قاله فهو قَوله وان كان قد لقنه من لدن الله تعالى . والمقصود الكناية عن صدق القول وقائله بواسطة كمال قائله وشرفه اذ وصف بانه رسول كريم ذو قوة عند الله مكين مطاع امين .

والقوة حالة في الشيء تتاتى بها الاعمال الصعبة قال تعالى « ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة » فحالة الكهولة قوة وهي متفاوتة . واشهر اطلاق القوة على القوة الظاهرة مثل قوة اليد والرجل والبدن والحَبْل قال تعالى « كالتي نقضت غزلها من بعد قوة » . وتطلق القوة على الوجاهة والقرب المعنوي وذلك هو المراد هنا اذ ليس لقوة الذات اثر في الثناء على الرسول بصدق مقالته واذا كان

الظرف وهو عند ذي العرش حالا من ذي قوة كما هو الاصل كان زيادة بيان لحمل القوة على القرب والوجاهة .

والمكين المقرب بجاهه بحيث يجاب لسؤله ويعمل برايه يقال مُكن بضم الكاف وهو مشتق من المكان اي له مكا ن اي مكان مميز كقوله تعالى « قال انك اليوم لدينا مكين امين قال اجعلني على خزائن الارض » . وعند ذي العرش يجوز ان يتعلق بمكين وقدم على متعلقه لرعاية الفاصلة . وذو العرش هو الله تعالى وثَم اسم اشارة الى المكان والمشار اليه هو ما دل عليه عند ذي العرش .

والامين فعيل بمعنى مفعول من الامانة يقال ءَامَنَه على كذا اذا ائتمنه، وجاء فعيل من الرباعي مثل ما جاء السميع من اسمع في قول عَمرو «امن ريحانة الداعي السميع» وما جاء الحكيم من أحكم. ولا شك ان صاحب هذه الصفات لا يقول قولا باطلا.

(وما صاحبُكم بمجنون) عطف على خبر انّ وهو لَقَول رسول كريم اي انه لقول رسول كريم وليس محمد بمتلق من الجن ولا رائيا جنيًّا وذلك رد لقولهم هو مجنون وقد قالت امراة ابي لهب حين فتر الوحي « قلاه شيطانه » قال تعالى « وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون » .

والصاحب حقيقته هو ذو الصحبة وهي الملازمة للمؤانسة والموافقة ومنه قيل للزوجة صاحبة . وقال امرؤ القيس . « بكى صاحبي لما راى الدرب دونه» . وقال تعالى «ياصاحبي السجن » . وقد يطلق على الملازم في الشر كالحرب ونحوها كقول الحجاج يخاطب الخوارج «الستم اصحابي بالاهواز » وقول الفضل اللهبي:

كلٌّ له نية في بغض صاحبه بنعمة الله نقليكم وتقلونا

والمعنى وليس الذي تنازعونه وتخالفونه وتصفونه بالجنون بمثل ما تصفونه.

بعد ان اثنى الله على الرسول صريحا او كناية بانه صادق عقبه بتكذيب بهتان المشركين اذ يصفونه بانه مجنون وقد حكاه القرءان عنهم في آيات كثيرة « وقالوا معلَّم مجنون » وليس المراد بقوله وماصاحبكم بمجنون بيان قدر النبي صلى الله عليه وسلم لان مثل هذا لا يذكر الا في سياق رد كلام السفهاء كما ان قوله في القرءان « وما هو بقول شيطان رجيم » ليس مقصودا به وصف القرءان اذ ليس ذلك مدحا بل الرد على الذين زعموه كذلك .

(ولقد رآه بالافق المبين) عطف على وما صاحبكم بمجنون اي ان ما يخبركم عنه الرسول هو جبريل فقد رآه رؤية بينة، واللام للقسم والمقصود تاكيد الخبر لكون المخاطبين منكرين ذلك . والمناسبة بين الجماتين ان المشركين كانوا اذا سمعوا الرسول يخبر بانه راى جبريل يقولون ان ذلك تخيل جنون قال تعالى« افتمارونه على ما يرى».وضميرا الغيبة يرجع احدهما لصاحب والآخر لرسول وسياق الكلام يبين الرائي والمرئي اي ولقد راى صاحبكم جبريل بالافق.

والافق الفضاء الظاهر للعين من القبة السماوية من حيث تطلع الشمس ويبدو ضوء الفجر . والمبين اسم فاعل من ابان بمعنى بان اي ظهر اي بالافق الواضح ووصفه بالظهور اما باعتبار ارتفاعه بحيث لا يحجبه حاجب من الجبال ونحوها واما باعتبار مفعوله اي المبين للمرئي بحيث لا يشتبه بشبح سحاب او نحوه والمقصود من المعنيين تصديق الرؤية. والمعنى ان رسول الله راى جبريل في جو السماء نازلا بالوحي وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى جبريل عند مجيئه بالوحي وهذه الرؤية المحكية في هذه الآية رؤية خاصة اراه الله جبريل في افق السماء ليعلم انه ياتي من عوالم عالية حيث تتصرف الاقدار العظيمة . قيل رآه من جهة أجياد، وهو جبل بمكة.

(وما هو على الغيب بضنين) الغيب ما غاب عن الاعين . وضنين قراه نافع وحمزة وعاصم وابن عامر بالضاد ومعناه البخيل مشتق من الضن بالضاد مفتوحة ومكسورة، وتعديته بعلى سنذكره. وقراه البقية بالظاء المشالة ومعناه المتهم مشتق من الظن بمعنى الاتهام وهو اطلاق شائع ومنه قولهم لا تقبل شهادة ظنين واصله من ظن السوء والمعنى على الاول ما محمدبيخيل بالغيب اي لايبلغه وعلى الثاني ما محمد بمتهم على الغيب، وتعدية الوصف الى نفس الغيب بتاويله ببعض احوال الغيب المناسبة للرسالة وهي حالة الاخبار عنه اي ما محمد فيما يخبركم عن الغيب اي الامور المغيبة بظنين فانهم كانوا ينكرون المغيبات كالبعث . وتعدية ظنين بالمشالة بواسطة حرف على ظاهر لان الظنة تعدى بعلى يقال هو ظنين على كذا اي لا يؤمن عليه واما تعدية ضنين بالضاد غير المشالة بحرف على فلا بد فيه من تقدير

محذوف لان الاصل ان الضن بمعنى البخل يتعدى الى ضنين المبخول بـه بالباء والى المبخول عليه بعلى تقول لا تبخل علي بمالك ، وقد عدي الى الغيب بعلى وهو المبخول به فالتقدير ، وما هو ببخيـل عليكم بالغيب فحذف مجرور على لدلالتها عليه وحذف حرف الجر وهو الباء لدلالة المجرور عليه اعني الغيب . ثم يتعين تاويل البخل بمعنى الكتمان على وجه المجـاز المرسل . وارجـاع الضمير الى محمد صلى الله عليه وسلم دون جبريل يدل عليه السياق لان الحديث الاقرب هو عن النبي صلى الله عليه وسلم .

(وما هو بقـول شيطانٍ رجيمٍ) هذا الضمير راجع الى القـرءان الذي الكلام عليه من قوله انه لقول رسول كريم ، وقد تخلص الكلام اليه بمناسبة ذكر الغيب في قوله وما هو على الغيب بضنين لان القرءان هو الكلام الذي به اخبر الرسول عن المغيبات مثل البعث والحشر والجنة والنار . ووجـه نفي ان يكون القرءان قول شيطان ان المشركين كان مما يختلقونه على القرءان ان يقولوا هو قول شاعر او قول كاهن وهم كانوا يزعمون ان الشاعر يتلقى الشعر من شيطان وان الكاهن يتلقى كلامه من جني او شيطان ويسمونه رَئِيًّا وقالت حمالة الحطب لرسول الله حين فتر الوحي اري شيطانك قد قلاك .

والرجيم فعيل بمعنى مفعول اي مرجوم بالحجارة وهو كناية عن الحقارة واللعنة،لان الشيء الحقير المتبرأ منه يطرد ويرمى بالحجارة اذا قـدم كقولهم هو مني بمزجر الكلب .

(فأين تذهبـون إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيمَ) الفـاء للتفريع على ما تقدم من اثبات صدق القرءان ولفظ اين تذهبـون كلام جرى مجرى المثـل يقال للمستمر في ضلال او خطا من الـراي اين تذهب او اين يُذهَب بك على تمثيل حال المخاطَب بحال ضال في طريق يسأله من يلاقيه عن مقصده ليرشده الى المكان المقصود والاستفهام فيه للانكار لانه يقـال لمن يعلم انه اخطا الطريق ، واحسب ان هذا التركيب من مبتكرات القرءان . والتفريع وقع موقع الاعتراض . وجملة ان هو الا ذكر للعالمين بمنزلة التاكيد لجملـة وما هو بقول شيطان رجيم لانها افادت معناها وزيادة فجملة القصر تقوم مقام جملتي

نفي واثبات اذ هي في قوة هو ذكر للعالمين ما هو غير ذكر فجملة النفي المقدرة تفيد معنى جملة النفي المذكورة وزيادة فلذلك لم تعطف جملة القصر على التي قبلها.

والذكر احضار ما يذهل عنه العقل من الامور النافعة واطلق الذكر على القرءان في مواضع كثيرة وكون القرءان ذكرا للعالمين ينافي دعواهم انه قول شيطان لان اقوال الشياطين لا تكون الا تضليلا وافسادا لان اقوال الشياطين وساوس واسحار وشعر ونحو ذلك وقد شاعت عند العرب نسبة الخواطر الضالة والكاذبة الى الشيطان .

فالقصر في قوله ان هو الا ذكر للعالمين قصر موصوف على صفة قصرا اضافيا اي ليس للقرءان صفة الاكونه ذِكرا دون كونه كلام شاعر او كاهن للرد على المشركين اذ يقولون هو كلام كاهن او كلام شاعر وكلاهما يستمد من الجن في اعتقاد اهل الجاهلية . وقوله لمن شاء منكم ان يستقيم بدل من العالمين بدلَ بعض باعادة حرف الجر لاختلاف معنى المتعلق باختلاف المجرورين لان كونه ذكرا للعالمين باعتبار مراد المذكِّر وكونه ذكر لمن شاء ان يستقيم باعتبار الحصول لان القرءان تذكير للناس كلهم فمنهم من يتذكر ومنهم من لا يتذكر . وجعْل القابلين للذكرى مريدين للاستقامة تعريض بان الذين لم يتذكروا قد تعمدوا البقاء على الضلال لانهم كانوا يقولون قلوبنا في اكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاثبات المشيئة لهم هنا رعي لكسبهم واختيارهم واقامة للحجة عليهم باعراضهم ومكابرتهم وذلك مناط التكليف والمؤاخذة .

والاستقامة مستعارة للصلاح لان الصالح يشبه بالقويم والفاسد يشبه بالمعوج .

(وما تشاؤون إلا انْ يشاء اللهُ ربّ العالمين) الواو للحال اي لمن شاء منكم ان يستقيم في حال ان مشيئتكم لا تحصل الا اذا يسر الله حصولها وقدر لكم اسبابها ورزقكم التوفيق فيؤول المعنى ان هو الا ذكر للعالمين لمن شاء الله له ان يستقيم ومفعول تشاؤون ويشاء الله محذوف تقديره الاستقامة وهذا الكلام يقتضي سلب المشيئة عنهم وذلك رعي للاستعداد العقلي الذي خلق الله لهم وهذه الآية اوضح واوجز ما يثبت نظرية الاشعري في الكسب . واجراء وصف الربوبية على اسم الجلالة بمنزلة التعليل للخبر لان ربوبيته للناس تقتضي ان تكون جميع احوالهم ناشئة عن مقدراته وعلمه وحكمته . وهذا الختام مؤذن بايكالهم الى عملهم وان معارضتهم واعراضهم لا تفل عزم الدعوة لمن يشاء الكمال وهو مؤذن بانتهاء الكلام.

اسلوب هذه السورة

افتتحت باذا المفيدة للتوقيت والشرط ، قبلَ ذكر الموقّت لقصد افادة تعليق جوابها على حصول شرطها تعليقَ المسبَّب على سببه ، وذلك مؤذن بتحقق وقوع مضمون الجواب عند حصول مضمون الشرط .

وطُوّل ذكر الامور الموقتِ بها وشروطِه لمزيد التشويق ، فانه كلما ازداد ترقُّب السامع ازداد شوقه الى معرفة الترقُّب حتى اذا سَمعه بعد ذلك الاشتياق تلقّته نفسه تلقيَ الراغب المتلهف فكان ذلك امْكَن للخبر في علم السامع واقرب الى يقينه به .

وكررت اذا مع كل جملةِ شرطٍ زيادةً في الاهتمام بذلك التوقيت والتعليق ، ورعيا لارتباط جمل الشرط كَيْلَا يؤديَ الى الغفلة عن بعضها .

وكانت الامور الموقّت بها مشْعِراً بعضُها بالتهويل وبعضُها بالوَعيد لادخال الروْعة في نفوس المُنذَرين عساهم ان يشمّرُوا للعمل في طلب الخلاص من الوعيد .

وذُكرت اثنتا عشرةَ جملةً للتوقيت والشرطِ : فستٌّ منها تتضمن أهوالا حاصلة في منتهى هذه الحياة ، وستٌّ يحصل مضمونها في مبدا الحياة الاخرى .

وعُقّب ذلك بتحقيق ان القرءان منزل من عند الله على رسوله بواسطة جبريل لا شبهة في ذلك ولا تلبيس ، وكان تحقيقُ ذلك باسلوبٍ بديع وهو اسلوبُ القسم بمظاهرَ عظيمةٍ من آثار تكوين الله تعالى وقدرته ، لكن بصيغة تُوهِم الاستغناء عن القسم لأن المقام صار في غنية عنه بعد ان تَحقق ما طرقهم الشكُّ فيه لاجْلِه بما سبق من الشرط والتوقيت والتكرير التي من شانها افادة التحقيق . وهذا قريب من قوله « هل في ذلك قسم لذي حِجْر » .

ثم افضى الى تزييف تكذيبهم الرسول بانه انما حَرَموا به انفسهم من الاستقامة ، وأنهم لو اقبلوا على ءايات الله لوفّقهم الله الى مافيه استقامتهم .

ثم خُتمت السورة بكلام مؤذن بانتهائها بمحسِّن براعة المقطع كما علمتَ .

سورة الانفطار

وهذه السورة يشابه غرضهاغرض سورة التكوير فقد ما ثلتها في الافتتاح بتوقيت يوم الحساب باشراط وعلامات من اختلال نظام العوالم وزادت بموعظة المشركين وايقاظ انظارهم للنظر في الاسباب التي صرفتهم عن التوحيد وبابطال تكذيب المشركين بالبعث والجزاء وبتفصيل كيفية حفظ الاعمال الصالحة والاعمال المقصد الاهم منها اثبات البعث والجزاء ولذلك ختمت بقوله وما ادراك ما يوم الدين الآيات . والقول في انيق فاتحة السورة وبراعة استهلاله كالقول في السورة التي قبلها .

(إذا السماءُ انفطرتْ واذا الكواكبُ انتثَرتْ واذا البحارُ فُجِّرتْ واذا القبورُ بُعْثِرَتْ عَلِمَتْ نفسٌ ما قدَّمت وأخَّرتْ) القول في هذا الظرف وفي المتعاطفات وفي تقديم المسند اليه على المسند الفعلي في جعل الشرط الاربع مثل القول في نظائرها من فواتح سورة التكوير . وانفطرت انشقت وهو كقوله فيما تقدم واذا السماء كشطت فالسماء وهي العوالم العليا مخلوقة على نظام متجانس فلذلك لا يبدو للناظر اليها اختلاف في قبتها قال تعالى « الذي خلق سبع سماوات طباقا ما ترى في خلق الرحمان من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » فاذا اراد الله خرق ذلك النظام واختلاله دخلت في خلالها مخلوقات غريبة عنها فتفككت طباقها فانفطرت وبدا انفطارها. والكواكب النجوم وانتشار الكواكب تفككها عن نظامها او تفرقها عن محالها فتلوح للناس متساقطة فشبه ذلك التساقط فيما يلوح للناس بانتثار اجزاء العقد او جواهره حين ينقطع سلكه وهذا دليل على اختلال توازن جاذبيتها فتخرج عن مدار افلاكها .

وتفجير البحار فيضانها اي فيضانها على اليابسة بحيث يغمره الماء فيهلك الحيوان كله فهو كقوله واذا البحار سجرت وانما يكون ذلك باختلال نظام ضغط الهواء على كرة الماء وهذا من اختلال العالم . والبعثرة انقلاب الشيء داخله وخارجه والمراد ببعثرة القبور خروج الاموات منها احياء سواء في ذلك من بلي

ومن كان حديثا وضعها في قبره وبعثرة كل بما يناسبه وذلك ابتداء احوال الآخـرة من الحشر والنشر .

وعبر بالعلم في قوله علمت نفس عن التذكر على طريق التنزيل كما تقدم في آية التكوير . وجملة علمت نفس جـواب اذا والقول في تكرير اذا وفي جعـل جوابها وهو علمت نفس مقترنا باحوال بعضها من آخر احوال الدنيا وبعضهامن اول احوال الآخرة كالقول في قوله اذا الشمس كورت الآية . وكذلـك القول في ارادة جميع النفوس من التَّنْكِير كالقول في نظيـره من سورة التكويـر اي علمت كل نفس . وتخصيص توقيت عرض الاعمال بخصوص هذه الحوادث لما فيها من الارهاب والتهديد ومعنى ما قدمت واخرت ما علمت في اول العمر وما علمت في آخره فما صدق ما الاعمال كما في آية التكوير والقرينة هنا ذكر التقديم والتاخير كقوله ينبا الانسان يومئذ بما قدم واخر وهو تعريض بالتهديد والوعيد .

(يأيُّها الانسانُ ما غَـرَّك بربّك الكريم الذي خلقك فسوَّاك فعدّلَك)

جملة مستانفة استئنافا ابتدائيا شروع في الموعظـة وهو المقصود من السورة ومـا قبله كالمقدمة له والتهئة لقبوله لما في السابـق من التهديد والوعيد فقد تهيات انفس السامعين لقبول الموعظة لان الموعظة تكون ادخل حينئذ في النفوس لما تشعر به من الانكسار والرقة فيزول طغيان المكابرة والمراد بالانسان الجنس فالنداء نداء للجنس كما قال يايها النـاس وليس المراد انسانـا معينا بقرينة قوله الآتـي كلا بل تكذبون بالدين والخطاب عام والمراد منه خصوص الانسان المغرور بالله كما دل عليه ما بعده . والاستفهام بمـا للانكار والتعجيب من حال الانســان المشرك . والغرور التلبيس والاطماع بما ليس بواقع وهو ايقاع في ضلال وغلط وفعله يعدى الى مفعول ثان بواسطة حرف الجر واكثر ما يعدى بالبـاء او بمن وهما متقاربان لان التعدية بالباء على تاويل للملابسة اي غرورا ملابسا له اي لشؤونه والتعدية بمن على تاويل منشا الشبهـة فمن ابتدائية ففي هذه الآية ذكر سبب الغرور والغار الذي ما صدقه ما الاستفهامية فهو كقوله تعالى وغركم بالله الغرور ولكـن بني الكلام في الآيتين على الايجاز اذ ادخل حـرف الجر على اسـم ذات والمراد شـان من شؤونها فتدير ما غرك بربك ما غرك بكفر ربـك . وعن النبـي صلى الله عليه وسلم انه قرا ما غرك بربك الكريم ثم قال غره جهله .

والاستفهام انكاري اي ما كان حقك ان يغرك شيء بكفره اذ لا موجب له والدلائل شاهدة على خلاف غرورك والمراد بالغرور بالله غرور الشرك فهو اعظم غرور كما قال ان الشرك لظلم عظيم وذلك بقرينة الاستدلال بالتكوين في قوله الذي خلقك فسواك الآية .

وعرف الله بطريق اضافة وصف الربوبية دون العلمية لما يشعر به المضاف من تاييد الانكار لان الرب حقيق بالشكر والاعتراف لا بالشرك والجحود اذ الرب المنشيء والمدبر والسيد ونعت الرب بالكريم زيادة في التسجيل بانكار الغرور به لان شان الكريم ان يوالي ويخلص اليه لا ان يوالى غيره ويصرف النصح والاخلاص الى غيره . والكريم الموصوف بالكرم والكرم الجود والفيض بالاحسان والمعنى كيف يغرك بالذي خلقك ودبر شانك والذي افاض عليك نعما جمة فكفرت به . واتبع الرب بنعت ثان مبين له كاشف عن معناه وهو قوله الذي خلقك فسواك فعدلك في اي صورة ما شاء ركبك فذلك بيان لما ينبيء عنه لفظ الرب اذ حاصل معنى الربوبية انها السيادة بالخلق واتقانه وحسنه وما لا يعلمه الا الله من دقائق الخلق .

والتسوية جعل الشيء سويا اي مقوما غير مختل التكوين ولا متفاوت فيما يفسده التفاوت فالتسوية اخص من الخلق ولذلك عطفت عليه كما هنا وكما في قوله الذي خلق فسوى فذكر الخلق ثم التسوية لاظهار مراتب النعمة والمنة وقد يستغنى بذكر التسوية عن الخلق كما في قوله ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات ومن اخص مظاهر التسوية جعل القوى والمنافع الذاتية متعادلة غير زائدة بعضها على بعض في الآثار اي في آثار قيامها بوظائفها قياما متقنا سويا بحيث اذا اختل بعض تلك الوظائف يطرق الخلل الى جميع الجسم فنشا انحراف المزاج فكانت التسوية مقتضية سلامة المزاج من الآلام والامراض فكانت كناية عن ذلك

واما التعديل فهو جعل الشيء معتدلا اي غير متفاوت الجوانب والاجزاء وذلك هو تناسب الاجزاء في وضعها وذلك التناسب به تيسير قيامها باعمالها مثل وضع اليدين في موضعيهما فلو كانت احداهما في الجنب والاخرى في الظهر مثلا لاختل عملها وعسر . وكذلك موضع العينين في النظر والرجلين في المشي والانف في ايصال الشم الى الدماغ والفم في ايصال الطعام والشراب الى المعدة

وكذلك مواضع الاعضاء الباطنة من المعدة والامعاء والكبد والطحال والرئتين والقلب والدماغ والنخاع . وقد خلق الله جثة الانسان على تعديل وتساو وجعلها نصفين لا تفاوت بينهما وجعل في كل نصف مثل ما في الآخر من الاوردة والاعصاب والشرايين ووضع الاعضاء الباطنية كذلك على السواء مثل الرئتين، او على التوسط مثل الدماغ والقلب والمعدة والامعاء، او على التقابل مثل الكبد والطحال . وقد فرع على الخلق التسوية، وعلى التسوية التعديل، لان مدلولات هذه الافعال مترتبة في الاعتبار فكان بعضها مفرعا على بعض في الاعتبار وان كان جميعها حاصلا في وقت واحد فالخلق حاصل بكيفية التسوية والتعديل فكانت الاوصاف الثلاثة شديدة التعاقب فلذلك عطف بالفاء الدالة على التعقيب دون الواو التي لا تدل عليه ودون ثم التي تفيد المهلة . وقرا عاصم وحمزة والكسائي فعدلك بتخفيف الدال اي عدل اجزاءك اي جعل بعضها عدلا لبعض اي معادلا كقوله تعالى ولا يقبل منها عدل .

(في أيِّ صورةٍ) يجوز ان يكون يتنازعه افعال خلقك فسواك فعدلك ويجوز ان يكون متعلقا بركبك . والظرفية مجازية فتكون بمعنى الملابسة فالظرفية مبالغة في تمكن الملابس من الملابس واي اصلها استفهامية فتستعمل كناية عن كمال المضاف اليه لان الشيء الكامل مما يسال عنه فلذلك يعدون الدلالة على معنى الكمال في عداد معاني اي ويجعلونها صفة والتقدير في صورة أيِّ صورة أيْ عظيمة .

(ما شاء ركَّبَكَ) جملة بيانٌ لجملة عدلك باعتبار كون جملة عدلك مفرعة على جملة سواك المفرعة على جملة خلقك فتؤول جملة ركبك الى انها بيان لجملة خلقك فسواك فعدلك جميعا . وما موصولة ماصْدَقها تركيب، وشاء صلتها والعائد محذوف لانه ضمير نصب والموصول مع صلته صفة لمحذوف دل عليه ركبك، وهو مفعول مطلق نابت عنه صفته والتقدير فركبك التركيب الذي شاءه واراده، وفي هذا تعريض بالامتنان حيث شاء الله للانسان صورة ينتظم بها امر حياته اتم انتظام ويتيسر بواسطتها ما يلائمه ولا يحرجه .

(كَلا) ردع وزجر وابطال فالردع والزجر عما تضمنه الانكار في قوله

ما غرك بربك الكريم فان الانكار يستدعي منكرا . وقد تبين كونه مذموما بما الحق به من الاستدلال على بطلانه بما ذكر من صفات الربوبية والكرم والخلق وما بعده . والابطال لنفي ان يكون للانسان المشرك عذر يدعي انه غره بربه .

(بَلْ تُكَذِّبُونَ بالدّين) بل للاضراب عما دل عليه الاستفهام في قوله ما غرك بربك اذ هو سؤال عن موجب الغرور وهو استفهام انكاري فلذلك صح للمتكلم ان ينتقل منه الى ما يدل على علمه بانه لا موجب للغرور ولذلك اضرب بحرف الاضراب عن مدلول الاستفهام فقال بل تكذبون بالدين اي بالجزاء وفي هذا الاضراب تاييد لما في حرف كلا من الابطال اي بل لم يغركم بربكم شيء ولكنكم تكذبون بيوم الدين اي علمتم دلائل بطلان الشرك ولكنكم اجترأتم على الله عمدا وتكذيبا لانكم كذبتم بالجزاء وغرتكم الحياة الدنيا فلم تراعوا رضى الله استعدادا ليوم الجزاء فاعرضتم عن التدبر . وهذا اشارة الى ان انكار البعث هو جماع الاجرام. ونظير هذه الآية قوله في سورة الانشقاق فمالهم لا يؤمنون واذا قرىء عليهم القرءان لا يسجدون بل الذين كفروا يكذبون .

والدين الجزاء ولذلك سمي يومُ القيامة يومَ الدين والجزاء يكون بعد البعث فالمراد تكذبون بالبعث والجزاء لانهم لما كذبوا بالجزاء فقد كذبوا بالبعث اذ ليس البعث الا لاجل الجزاء فمن كذب بالبعث فقد كذب بالجزاء قال تعالى الذين يكذبون بيوم الدين .

(وإنّ عليكم لحافظين كِراما كاتبين يَعْلَمُون ما تفعلون) جملة في موضع الحال اي انتم تكذِّبون بالدين في حال كون ذلك واقعا كقوله «انما توعدون لصادق وان الدين لواقع» فدل قوله وان عليكم لحافظين على تحقيق وقوع الجزاء بطريق الكناية لان اقامة الحفظة لاحصاء الاعمال يقتضي الجزاء عليها وهو الدين ولذلك اكدت الجملة بانّ وبلام الابتداء كالآية الاخرى لان المخاطبين ينكرون الجزاء . وعلى للاستعلاء المجازي وهو قوة الملابسة مثلها في اولئك على هدى من ربهم . والحافظون الملائكة الموكّلون باحصاء اعمال الناس، ووصفهم بالحفظ لان الحفظ هو عدم التفريط والاهمال، وجمعهم باعتبار جمع الضمير في عليكم وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ان لكل

احد ملكين يحفظان اعماله . وهذا تهديد للمشركين لانهم لما انكـروا البعث والجزاء حسبوا انهـم في امنة من عاقبـة غضب الله عليهم من جراء اشراكهم به حسبما اخبرهم به الرسول عليـه السلام وكانوا يحسبون ان الله لـو غضب عليهم لعذبهم في الدنيا فلذلك قالوا ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم . فانباهم الله في هذه الآية بان الله اقـام لهم ملائكة يحصون اعمالهم ولا يفوتهم جزاء اعمالهم . ووصف الحافظين بالكرام تعظيما لهم لدلالته على تعظيم العمل الذي اقيموا لاجله وهو الجـزاء لان شان العمل المعتنى به ان يكلف لحفظه الامناء الازكياء ووصفهم بالكرم وهو الكمال وبانهم كاتبون والكتابة الضبط للامور، وبانهم يعلمـون ما يفعل الناس والعلم هو الانكشاف للاشياء وانتفاء الغلط والخطا في تمييزها فوصفهـم بالعدالة والضبط والعلم وهذه الصفات يجب ان تراعى في الموكلين على مصالح الامة .

(إنَّ الابْرارَ لفي نعيمٍ وإنَّ الفُجَّارَ لفي جَحِيمٍ يَصْلَونَها يوم الدِّين ومـا هُمْ عنها بغآئبين) فصلت هذه الجملة عن التي قبلها لانها استئناف بَيَانِيّ جواباً عن سؤال يثيره ما تقدم من قوله «بل تكذبون بالدين» ومن قوله «وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون» لان النفوس تتشوف الى معرفـة الجزاء ما هو والى فائدة كتابة الافعال فبين ذلك كله بقوله ان الابرار لفي نعيم وان الفجـار لفي جحيم .

واكدت الجملة بانّ واللام لرد انكار المكذبين بيوم الدين . والابـرار جمع بر بفتح الموحدة وهو الملازم للتقوى مشتق من البر بكسر الباء وهو الصدق والوفاء لان المتقي صدق في معاملة ربه ووفى لربه بحق الربوبية وهو الطاعـة وضد البَـرِّ الفاجر وهو الكافر. والنعيم النعمـة المحسوسة التي يتنعم بها من الامور الملائمة للنفس قال تعالى ثم لتسالن يومئذ عن النعيم وقال لهم فيها نعيم مقيم . والظرفية مجاز في التمكن من الملابسة للنعيم تمكن المظروف من الظرف والجحيم النار الشديدة اللهب وغلب في لسان الشرع على جهنم وتقدم في النازعات وجملة يصلونها صفة لجحيم او حال من الفجار ومعنى يصلونها يُحسون بحرهـا يقال صلي النار اذا احس بحرها برغبة كما يفعله المتدفىء في البرْد وهذا هو المعروف

في كلامهم قال الحارث بن حلزة * أيَانٌ منك الصِّلاء * او بكراهة كما هنا فالاقتصار على هذا الفعل هنا في التعبير عن العذاب بالنار كناية من قبيل التهكم كقوله تعالى يمسهم العذاب . وقوله وما هم عنها بغائبين كناية عن خلودهم كقوله وما هم بخارجين منها . ويوم الدين يوم الجزاء والدين الجزاء .

(وما أدراكَ ما يَومُ الدِّين) هذا الكلام يشبه رد العجز على الصدر لان ابتداء السورة كان خبرا عن يوم الدين وختمت السورة بذلك .

وجملة ما ادراك ما يوم الدين مركبة من ما الاستفهامية في صدرها داخلة على فعل الدراية المعدى بالهمزة من باب أعلَم وأرى، وكاف الخطاب خطاب لغير معين يشمل كل من تمكن منه الدراية، وما الثانية استفهامية ايضا علقت فعل الدراية عن العمل،واخبر عنها باسم فدلت على ان المسؤول عنه هو حقيقة ذلك الاسم وكنهه ومعنى دراية الاستفهام دراية جوابه.والاستفهام الاول مستعمل في تهويل المستفهم عنه على طريقة الكناية لان شان الشيء العظيم ان يكثر السؤال عنه والمعنى لا تبلغ دراية احد جوابَ ما يوم الدين اي لا يدرك كنهه احد وقد تقدم في قوله وما يدريك لعله يزكى في سورة عبس . والاستفهام الثاني مستعمل في حقيقته والمعنى لا يستطيع احد ان يبلغ علم كنه يوم الدين .

(ثُمَّ ما أدراكَ ما يَومُ الدِّين يومَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لنَفْسٍ شَيْئاً والامْرُ يومئذ لِلّه) ثم للتراخي في الاخبار لا للتراخي في الزمان والجملة تاكيد للاولى وقرنت بحرف التراخي لايهام ارادة الارتقاء في التهويل فلا يوجد ما هو ارقى. ويوم لا تملك نفس بدل من يومُ الدين.قراءة الجمهور بالفتح على انه مبنى على الفتح لاضافته الى الفعل وبناؤه جائز اذا اضيف الى المضارع، وقراءة ابن كثير وابو عَمرو بالرفع على انه معرب بالتبعية ليوم الدين واعرابه جائز .

والمَلك التصرف ومعنى لا تملك نفس لنفس شيئا لا تتصرف نفس في شيء ينفع نفسا اخرى لان اللام دالة على الاختصاص وهو يستلزم النفع ودفع الضر لان دفع الضر نفع فيؤول قوله لا تملك نفس لنفس شيئا الى معنى لا تنفع نفس نفسا بشيء ولا تدفع نفس عن نفس ضرا من شيء اي لا تغني نفس عن نفس غَناءً مّا ، ولذلك يخلف احد هذين التركيبين الآخر كقوله تعالى وما املك لك

من الله من شيء . وهذا تاييس لهم من شفاعة اصنامهم لهم . والامر في قوله والامر يومئذ لله بمعنى الحكم وهو معنى قوله وما اغني عنكم من الله من شيء ان الحكم الا لله . وانما قيدكون الامر لله بذلك اليوم لانه قد تمحض يومئذ التصرف في كل شيء لاذن الله مباشرة على خلاف ما كان عليه ظاهر الحال في الحياة الدنيا. وفي هذه الخاتمة دلالة على انتهاء السورة واستيفاء غرضها .

اسلوب هذه السورة

كانت فاتحتها مشابهة الاسلوب لفاتحة السورة التي قبلها في الافتتاح بالقَسم الدال على الاهتمام وفي تطويل المقسم به للتشويق الى معرفة المقسم عليه .والغرض من تكرير ذلك في سور كثيرة ليتقرر تحقيق البعث والجزاء في نفوس مُنكريه وذلك مما يهيىء نفوسهم للايمان به او يلينها لما يرد بعده من امثالها

ثم بعد استيفاء ذلك المقام حقه صُرف الكلام الى الانكار عليهم اذ غرهم الشيطان بشكوكه وتلبيسه فزين لهم الاشراك بالله وانكار قدرته على البعث ثم الجزاء . وصيغ الانكار في قالب الاستفهام عن موجب الغرور ليراجعوا انفسهم ويتطرقهم الشك في صحة اعتقادهم لعلهم ان ينتقلوا من الشك الى النظر . وادمج في ذلك وصف الرب بالكريم تعريضا بانهم كفروا النعمة وتلك مذمة يخجلهم سماعها . وتهيا بذلك ظهور انهم احرياء بالجحيم على التكذيب ، والتهديد بان اعمالهم محصاة . وتخلص من ذلك الى تعيين جزاء الاعمال الصالحة ايجازا وجزاء الاعمال الفاجرة بطريق الاطناب، لان مقام التهويل يقتضي الاطناب فيه . ثم ءايسهم من ان يملك احد لاحد نفعا أو ضرا وان الامر يومئذ كله لله تعالى فانتهى الغرض .

سورة المطففين

اختلفوا فيها فقال الاكثر من المفسرين هي مكية وهذا هو الذي نختاره فان فيها التعريض بانكار البعث يوم القيامة . والاتفاق على أنها إما آخر ماانزل بمكة ، وإما انها أول ما نزل بالمدينة فيكون نزولها في سنة ثلاث عشرة من البعثة اي في السنة الاولى للهجرة بالاتفاق .

وقد جاء في هذه السورة فضح المشركين بانهم يستحلون التطفيف ، وبانهم يكذبون بالبعث . ثم ذكر سوء مصيرهم، وحسابهم على اعمالهم وخبث قلوبهم . وذكر في مقابل ذلك حسن عاقبة المؤمنين وكيف انتصف الله للمؤمنين من الكفار يوم القيامة وفضحهم على رؤوس الاشهاد .

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) الويل التبور والحزن والعذاب وهو اسم مصدر ، كلمة دعاء وانذار بسوء الحال قال تعالى « فويل لهم مما كتبت ايديهم» وهي هنا محتملة الدعاء والوعيد . والمطففون اصحاب التطفيف وهو من احوال الكيل والوزن بان ينقص الكيّال او الوازن من المقدار المعين عند التبائع ، واحسن تفسير له قوله تعالى عقبه « الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون » فالصفة للكشف عن معنى الموصوف . والاكتيال افتعال من الكيل وهو يستعمل في تسلم المكيل واخذه كما يستعمل كال في اعطاء المكيل على نحو ما يستعمل باع وابتاع ، ورهن وارتهن، وشرى واشترى ، قال تعالى « فأرسل معنا اخانا نكتل » اي ناخذ طعاما مكيلا وحق فعل الكيل ان يتعدى بنفسه وحق فعل الاكتيال ان يكون قاصرا فيعدى بمن مثل باع وابتاع ولانه في معنى اخذ وانما عدي في الآية بعلى لتضمين اكتال هنا معنى الاستيلاء او الاحتيال فحرف الاستعلاء مجاز تابع لمجاز تضمين فعل اكتال معنى استولى او احتال مما يدل على معنى الغلبة . ويستوفون يطلبون الوفاء اي الرجحان والزيادة يعني

يحتالون على ان ياخذوا المقدار الذي تراضوا عليه وافيا راجحا وفي ذلك احتيال على اخذ شيء من حق البائع بغير عوض .

وقوله واذا كالوهم او وزنوهم اي باعوا لهم على الكيل او الوزن اي باعوا لهم المكيل او الموزون، وقد قيل ان اصل فعل كال التعدية الى الذي يعطى المكيل بالـلام وليس ذلك بمتعين لان فعل كال فيه معنى اعطى فيعـدى الى مفعولين وهذا التوسع شائع في فعلي الكيل والوزن. والمعنى واذا اعطوا الناس مبيعا مكيلا اخسروا . والاخسار جعل الغير خاسرا والخسارة نقصان مال التاجـر عن ما كان عليه .

وهؤلاء المطففون هم المشركون كما دل عليه قـوله «الا يظن اولئك انهم مبعوثون ـ وقوله ويل يومئذ للمكذبين» الآية. والمقصود من هذا اظهـار فضائح اهل الشرك ومذامهم التي اوقعهـم فيها انكار البعث وهو انكار ناشيء عن شركهم بالله وجهلهم بصفاته وشؤونه فهذه الآية تذم الشرك بذم بعض تفريعاته مثل قوله « واذا المـؤودة سئلت باي ذنب قتات ـ وكقوله ـ انما النسيء زيادة في الكفر ـ وكقوله ـ قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين » ويستتبع ذلك ذم هذا الفعل في ذاته تحذيرا للمسلمين من الوقوع فيه وتبغيضا اياهم فيه بانه من شان اهل الشرك ولهذا كان الزجر والتهديد على هـذا التطفيف مهولا باعتبار انه اثر الشرك كما هو سان الفرءان في متل هذا المقام . وقد جمع هـذا الوصف الظلم . واللؤم . واختلاس حق النـاس وهي مذام عندهم وهم يتبرؤون منها متفرقة وياتونها مجتمعة وناهيك بذلك افنا وتمويها

(ألا يَظُنُّ أولئك أنّهمْ مَبْعوثون لِيَوم عظيم يَوْمَ يَقُومُ النّاسُ لِرَبّ العالمين) جملة مستانفة ابتديء بها غرض الانكار عليهم وافتتحت باستفهـام مستعمل في الانكار انكارا لانتفاء اعتقـادهم بالبعث. والظنّ مستعمل في معناه وهو الاعتقـاد الراجح كقوله « ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين ». وفي نوط الانكار بانتفاء الظن اشارة الى ان انتفاء العلم به اولى بالانكار . وتعريفهم بطريق اسم الاشارة دون ان يقال الا يظنون بالاضمار لقصد تمييزهم في الذكر تشهيرا بذمهم . واللام في قوله ليوم عظيم لام التعليل اي مبعوثون لاجـل ذلك اليوم. ووصفُه

بالعظيم باعتبار عظمة ما يقع فيه من اهوال الحساب. فعُلم ان المراد باليوم ما فيه من جزاءِ خيرٍ وجزاء شر،لان ذات اليوم لا تكون علة للبعث ولا تصلح للوصف بالعظمة. وفي هذا التعليل وهذا الوصف تنبيه للرد على المشركين اذ كانوا اذا ذكر البعث يستهزئون ويحسبون انه بعث لاعادة الحياة في الدنيا مرة ثانية ولذلك « قالوا تلك اذن كرة خاسرة »وقال احدهم «لأوتين مالا وولدا». ووصف اليوم بالعظيم لعظم ما يجري فيه. ويوم الثاني منصوب على الظرف متعلق بقوله مبعوثون والمقصود من الظرف ما يخصصه من بين الازمان وهو الجملة التي اضيف هو اليها لافادة ان البعث لاجل القيام للحساب عند الله تعالى فاللام الجارة لام التعليل والمعلل به هو حساب الله فالمعنى انهم مبعوثون يوم يقوم الناس لرب العالمين اي مبعوثون مع الناس لاجل ذلك اليوم العظيم اي لاجل ما يحصل فيه للناس. فحصل بهذا الاسلوب في التعبير فوائد : منها ان البعث لاجل اليوم، وان ذلك اليوم يوم عظيم وكلا الامرين راجع الى ما يقع في ذلك اليوم لا الى نفس اليوم، وان ذلك اليوم يقوم الناس فيه لربهم اي لجزائه. وذكر رب العالمين هنا لاستحضار عظمته وانه لا منجي للناس من الوقوف لتلقي جزائه لان معنى الربوبية يقتضي الملك والتصرف. والعالمين جمع عالم وهو النوع من المخلوقات واللام للاستغراق اي رب جميع المخلوقات، وقد تقدم في سورة الفاتحة.

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ وما أدراكَ ما سجِّين كتابٌ مرْقُومٌ)

جملة معترضة مقصود منها الردع والتهديد.وكلا حرف ردع على ما تضمنه الانكار عليهم من نفيهم البعث. وجملة ان كتاب الفجار لفي سجين ابتدائية لتفصيل الردع المستفاد من كلا وذلك كله مرتبط بقوله « الا يظن اولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم » لان ما بعد كلا هو من شؤون اليوم العظيم. وكتاب الفجار صحائف احصاء اعمالهم الفاسدة واكبرها الشرك. والفجار المشركون والشرك اعظم الفجور وقد تقدم في قوله اولئك هم الكفرة الفجرة في سورة عبس، وتقدم في سورة الانفطار مقابلة الفجار بالابرار والمراد بالفجار هنا هو المراد من المطففين فالمعنى ان كتابهم لفي سجين لانهم فجار وكتاب الفجار في سجين وهذا هو نكتة الاظهار في مقام الاضمار لقصد تعميم الوعيد لكل فاجر ولو لم يطفف. وسجين اسم من

اسماء جهنم اشتق من حالة اصحابها وهو من مادة السجن اي الحبس وهذا الاسم من مصطلحات القرءان . واسناد الظرفية في سجين الى الكتاب اسناد مجازي عقلي باعتبار كون الاعمال المكتوبة فيه سببا لوقوع اصحابها في سجين والكتاب ملابس لتلك الاعمال ملابسة الدال لمدلوله فالاسناد بني على ملابستين بسببين .

وجملة وما ادراك ما سجين معترضة والواو اعتراضية وقد تقدم نظيرها في آخر السورة الماضية .

وجملة كتاب مرقوم ابتدائية وكتاب خبر عن محذوف هو ضمير كتاب الفجار . وحذفه من قبيل حذف المسند اليه الجاري على الاستعمال المشهور عند العرب فيما اذا ذكروا حديثا عن شيء ثم ارادوا حديثا آخر عنه .

والمرقوم المكتوب ولما كان لفظ الكتاب يدل على انه مرقوم كان وصفه بمرقوم مفيد اللتاكيد فيدل على انه مرقوم رقما خاصا وهو انه ثابت لا يتطرق معه اليه شك ولا ايهام .

(وَيْلٌ يومئذ لِلْمُكَذِّبِينَ الذين يُكَذِّبون بيوم الدِّينِ وما يُكَذِّبُ به الا كلُّ معتدٍ أثيمٍ اذا تُتْلَى عَلَيْه آياتُنا قال أساطيرُ الاولينَ) جملة ويل يومئذ رجوع الى احوال اليوم العظيم وهي كالبيان لمضمون جملة ان كتاب الفجار لفي سجين كما سياتي . والويل تقدم وهو هنا وعيد وانذار وليس بدعاء . واليوم هو اليوم العظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين والجملة المقدرة بعد اذ تقديرها يوم اذ يقوم الناس لرب العالمين ، والتنوين في اذٍ عوض عن الجملة المحذوفة .

والمكذبون هم الفجار عبر عنهم بالمكذبين للدلالة على ان فجورهم اصله التكذيب وقد حصل من ذكر الويل والمكذبين ما هو كالبيان للسجين والفجار ولنسبة الظرفية الواقعة بينهما فلذلك فصلت جملة ويل يومئذ للمكذبين عن التي قبلها لانها كالبيان لها .. وذكر المكذبين اولا بوجه الاجمال وثانيا بوجه التفصيل بالصفة لقصد زيادة تقرير تكذيبهم وانه اشنع تكذيب . ويوم الدين يوم الجزاء كما تقدم في قوله يصلونها يوم الدين . والتكذيب بيوم الدين هو التكذيب بوقوعه .

والتعبير بيوم الدين اظهار في مقام الاضمار على خلاف مقتضى الظاهر لان الظاهر ان يقال الذين يكذبون به اي بيوم يقوم الناس لرب العالمين فعدل الى الاسم

الظاهر لما فيه من الايماء الى ان التكذيب به جهل بحكمة الله تعالى اذ ليس من الحكمة أهمال الخالق جزاء مخلوقاته عما فعلوه ولما فيه من الانذار والوعيد بان جزاءهم فيه يناسب تكذيبهم به ولذلك اعقبه بجملة وما يكذب به الا كل معتد أثيم وهي معطوفة على جملة الذين يكذبون بيوم الدين فهي صفة ثانية للمكذبين لانها بمعنى المعتدين الآثمين. لانهم يكذبون بيوم الدين وكان يوم الدين لا يكذب به الا المعتدون الآثمون كان هؤلاء المكذبون به من جملة المعتدين الآثمين.

والمعتدي الظالم لانه يعتدي حدود العدل والمراد به هنا المشرك لان الشرك ظلم عظيم فالمشرك يعتدي حدود الحق وهي الادلة والنظر . والاثيم مبالغة في الآثم وهو الذي يكرر ارتكاب الاثم .

وجملة اذا تتلى عليه آياتنا صفة لمعتد . والآيات سور القرءان لانها دلائل على صدق الرسول . والاساطير جمع اسطورة وهي القصة والحكاية .

والاولين هم الامم السابقون والمعنى اذا سمعوا القرءان قالوا هذا حكايات وقصص للاقدمين والمراد انهم ينفون ان يكون من عند الله بعلة انه نظير ما دونه الاقدمون من القصص .

(كَلَّا بَلْ رانَ على قلوبهم ما كانوا يَكْسِبونَ) كلا ردع للذين يقولون لآيات الله هي اساطير الاولين وابطال لقولهم تغليطا لهم اي ان ما قالوه بهتان يستحق قائله الردع . وبل لابطال كلامهم تاكيدا لما في كَلَّا من الابطال .

والرين الغشاوة . والقلوب العقول. وما كانوا يكسبون فاعل ران اي غطى على عقولهم ما سبق من عنادهم وتكذيبهم الرسول حتى اصبحوا لايدركون الفرق بين القرءان وما فيه من الهدى والمواعظ وبين اساطير الاولين وما فيها من الكذب واضاعة الزمان . والمعنى انهم لولا ما غشى على قلوبهم من تكرر التكذيب واعتيادة لعلموا ان القرءان ليس بأساطير الاولين وقرا الجمهور بل ران بادغام اللام في الراء لتقارب مخرجيهما . وقراة حفص بالوقف على لام بل لاظهارها . والتعبير بفعل الكون في قوله ما كانوا يكسبون دون ان يقال ما كسبوا ليدل على أن الذي ران علي قلوبهم هو شيء استقر كسبهم اياة من زمن قديم والتعبير بالمضارع في قوله يكسبون للدلالة على تكرر كسبه ومعاودته

فيحصل من اجتماع معنى الاستقرار والتكـرر ان كسبهم اياه متكاثـر وذلك يقتضي انه قد صار سجية ومَلَكة لهم بحيث يتعسر اقلاعهـم عنه واذا كان كذلك كان حائلا دون قلوبهم عن العلم بان آيات الله ليست باساطير الاولين .

(كَلا إنَّهمُ عن ربّهم يومئذٍ لَمحْجوبونَ ثمَّ إنَّهم لَصالوا الجحيمِ ،ثم يُقال هذا الذي كنتم به تكـذّبون) كلا هذه تاكيد للردع المستفاد من كلا التي قبلهـا وجملة انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون وعيد مناسب للردع . والمعنى انهم يوم القيامة مبعدون عن حضرة القدس ممنوعون من ولوجها وذلك الحجب يـؤذن باهانتهم بانحطـاط مكانهم وحرمانهم من اقبال نعيم الله عليهم، وينذرهم بانهم صائرون الى العذاب . وثم للترتيب الرتبي تدل على الارتقـاء في الغرض المسوق له الكلام فان عقاب الاحراق اشد من عقاب الاهانة .

وصالوا جمع صالٍ والصالي اسم فاعل من صَلِي كرضي اذا اصابه حر النـار وتقدم آخرَ السورة قبلها والمراد هنا اصابة حرها بالاحراق بقرينة ذكر الجحيم لان الجحيم هو كثرة النـار وانما يكون ذلك عند قصد الاحـراق لا عند قصد التدفي كما قال في الآية الاخرى « وتصلية جحيم » لان الجحيم اسم جهنم وتقدم في سورة النازعات .

وثم في قوله ثم يقال مثل التي في قوله ثم إنهم لصالوا الجحيم للترتيت الرتبي وذلك لان التوقيف على الضلال الذي اوقعهم في العـذاب تعذيب لنفوسهم وضمائرهم لان الناس يستفظعون ذلك .

والاشارة بقوله «هذا» الى الحالة الحاضرة لديهم اي هذا العذاب وهو عذاب الجحيم هو الذي كنتم تكذبون به اي الذي تكرر في الماضي تكذيبكم به فانهم كانوا ينكرون البعث وما فيه والجزاء . وقدم المجرور على متعلقه لرعاية الفاصلة.

(كَلاّ إنَّ كتَابَ الابْرارِ لَفي عِلّيِّينَ وما أدراكَ ما عِلّيون كتابٌ مَرْقومٌ يَشهَدُه المُقرّبُونَ) كلا تاكيد لاختها التي في قوله كلا ان كتاب الفجار لفي سجين بقرينة المقابلة وما بينهما يشبه الاعتراض .

وجملة ان كتاب الابـرار ابتدائية لتفصيل الردع المستفـاد من كلا لان ردع الكفار كما يحصل بذكر ما حـواه كتابهم من سوء عاقبتهم يحصل بذكر ما حـواه كتاب اضدادهم من حسن مصيرهم وذلك انكل لهم .

والابرار جمع بَر بفتح الباء وهو الصالح المتقي ضد الفاجر وتقدم في السورة التي قبلها.وعليين اسم مشتق من العلو جيء به على صيغة جمع عِلّيّ للاشارة الى انه محلة البيوت العالية لان البيوت العالية اصلح للسكنى من البيوت السافلة ، واجري مجرى جمع المذكر العاقل بالحرف والنون لتكون التسمية موذنة بالتشريف والظرفية في قوله لفي عليين ظرفية مجازية عقلية كما تقدم في قوله لفي سجين.وكذلك القول في وما ادراك ما عِلّيُون كتاب مرقوم نظير ما تقدم في قوله وما ادراك ما سِجّين كتاب مرقوم.وجملة يشهده المقربون صفة ثانية لكتاب مرقوم ومعنى يشهده انه يعلن به لدى المقربين فيطلعون على ما فيه لان شان المشتمل على علو المراتب ان يعلن به . والمقربون الملائكة وهم سكان العليين فهذه زيادة تشريف لكتاب الابرار .

(إنّ الابْرار لفي نَعيم على الارائك يَنْظُرُون تَعرِف في وجوهِهم نَظْرة النَّعيم يُسقَون من رَحيق مختوم . ختامهُ مِسْك وفي ذالك فلْيتنافس المتنافسون ، ومِزَاجهُ من تَسنيم عَيْناً يَشْرَبُ بها المُقَرّبون) جملة ان الابرار لفي نعيم بيان لمضمون جملة ان كتاب الابرار لفي عليين ولذلك فُصلت الجملة، وذكر الابرار بالاسم الظاهر دون الضمير لزيادة ايضاح أوصافهم ، وقد حصل من ذكر الابرار والنعيم ما هو بيان للعليين وللظرفية الواقعة بينه وبين الابرار في قوله ان كتاب الابرار لفي عليين ، والنعيم تقدم بيانه في السورة قبل هذه .

والظرفية مجازية للمبالغة في التلبس كقوله تعالى « ففي رحمة الله هم فيها خالدون » ، والمجرور في قوله على الارائك خبر ثان عن الابرار . والارائك جمع أرِيكَة كسفينة وهي اسم لمجموع من وسادة كبيرة كالمِنصَّة يمكن ان يجلس عليها المرء متكئا وتجعل لها حَجَلة (بتقديم الحاء وبالتحريك) وهي شبه الكِلة يستتر بها الجالس وللكلّة ازرار لتغلق وتفتح، وجملة ينظرون في موضع الحال من الابرار وهي حال قصد منها الاحتراس عما يوهمه على الارائك من كونهم محجوبين عن النظر فهم على الارائك مع مشاهدة محاسن النعيم وهذا من شؤون نعيم الجنة المخالف لما هو المالوف في الدنيا ، وحُذف مفعول ينظرون لان الفعل نُزّل منزلة اللازم والتقدير يَرَون ولا يحجبهم حاجب فان مشاهدة الاشياء

محبوبة للنفوس كما قال تعالى « واغرقنا ءال فرعون وانتم تنظرون ». وقيل معناه ينظرون الى ربهم فحذف المتعلق لانه دل عليه قوله في ضد حالتهم انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون .

وجملة تعرف في وجوههم نضرة النعيم خبر ثان عن الابرار او حال ثانية منه وكلاهما لا يحتاج الى العطف .

والخطاب في قوله تعرف لغير معين فالفعل معه بمنزلة المسند الى المجهول والمعنى يَعرف من يراهم .

والنضرة بالضاد البهجة والحسن. والنعيم تقدم. ونضرة النعيم هيئة وجه المتمتع باللذة اذ تبدو على محياه ملامح الفرح والرضى . وجملة يسقون مثل التي قبلها . واختير يُسقون للدلالة على انهم يخدمهم خدم فيحصل لهم ما يطلبون بدون مشقة . والرحيق الخمر الخالصة الصافية .

والمختوم الذي عليه الختم والختم شد طين معروف يجعل للختم على الرسايل وغيرها وهو اذا جف صَلُب فعسر قلعه ويعرف بطين الخواتيم ويجعلونه على محل السداد من القارورة او الدِّنّ او نحوهما لمنع افتتاحه حفظا لما في الوعاء من ان يدخله مالا يحمد تخلله اياه وكانوا يفعلون ذلك بِدنان الخمر لان ذلك يُصلح اختمارها ويزيد صفاءها . والمسك مادة دموية ذات عَرْف طيب تكون كالغُدة تنبت في اعناق صنف من الظباء في بلاد التيبت وتساقط اذا بلغت مَدى معلوما فيلتقطها رُوادها قال المتنبي :

فانْ تَفُقْ الانامَ وأنت منهم   فان المِسْكَ بعضُ دم الغزال

والمعنى ان الختام على ءانية خمورهم مجعول من المسك لا من الطين توفيرا للرفاهية وزيادة في نكهة تلك الخمر .

وجملة ختامه مسك نعت لرحيق او مستانفة استئنافا بيانيا وقعت معترضة بين الصفات . وجملة وفي ذلك فليتنافس المتنافسون معطوفة بالواو إِمّا على جملة ختامه مسك على تقديري النعت والاستئناف وإما معطوفة على المفرد وهو قوله مختوم . وقوله في ذلك يتعلق بفعل محذوف دل عليه قوله فليتنافس المتنافسون

والتقدير وفي ذلك يتنافسون فليتنافس المتنافسون في ذلك فالفاء فاء الفصيحة وليست عاطفة، وقرينة المحذوف وجود الفاء التي يقتضيه معناها. وحذف متعلق يتنافس لدلالة قوله في ذلك عليه فوقع في هذا الكلام ايجازات، وجملة ومزاجه من تسنيم معطوفة على المفرد وهو مختوم والمزاج ما يمزج به الرحيق اي يخلط والخمر تشرب صرفا وتشرب ممزوجة بالماء وهو الاكثر لان ذلك اطيب للشراب للتخفيف من سورتها وسرعة تغطيتها على العقل لان تمديد حصول السكر اطول التذاذا بدبيبه في العقل دون ان يغتته غتا .

والتسنيم اسم لماء في الجنة فهو من مبتكرات القرءان في اللغة مثل السجين ولغرابته عندهم احتيج الى تبيينه بقوله «عينا يشرب بها المقربون» فقوله عينا حال من تسنيم، وعدى يشرب بالباء للدلالة على اللصوق كناية عن شدة رغبتهم في الشرب منها مثل الباء في قوله تعالى وامسحوا برؤوسكم وقد كثرت تعدية فعل الشرب بالباء في كلام العرب اذا اريد مباشرة الفم لما فيه الماء ، وقيل الباء في يشرب بها تحوه بمعنى من وكأنه تسامح في المعنى .

(إنّ الذين أجرموا كانُوا مِنَ الذين آمنوا يَضْحَكُون وإذا مَرُّوا بهم يَتَغامَزُون واذا انقلَبُوا الى أهْلِهم انقلَبُوا فاكهين وإذا رأوهم قالوا إنّ هؤلاء لضالون ، وما أُرسِلُوا عليهم حافظين فاليومَ الذين آمنوا من الكفّار يضحَكون على الارائك يَنْظرُون هل ثُوّب الكفار ما كانوا يفعلون) هذا كلام ينادي به يوم القيامة من جانب القدس فهو مقول قول مقدر دل عليه السياق،ودل عليه قوله كانوا الدالّ على حالة قد انقضت،ودل عليه ايضا تفريع قوله فاليوم الذين آمنوا الخ لان كلمة اليوم لا تطلق الا على اليوم الحاضر وقت التكلم ومعلوم ان اليوم الذي فيه يضحك المؤمنون من الكافرين ويجلسون فيه على الارائك لم يحضر بعدُ،والتقدير ويقال ان الذين اجرموا الخ وحَذْف القول شائع عند القرينة. والمقصود من ذكره انه بعد ان ذكر حال المشركين على حِدَة وحال المسلمين على حدة، اعقب بما هو عاقبة احوال المشركين في معاملتهم للمسلمين في الدنيا ليعلموا جزاءه في الآخرة.والكلام مستعمل في التندبم والتشميت كما دل عليه آخره بقوله فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون.والمراد بالذين اجرموا المشركون من

اهل مكة . والاجرام فعل الجرم وهوالذنب. ومعنى يضحكون منهم يضحكون بسبب احوالهم فيعدى الضحك بمن الدالة على التعليل ، والتغامز تفاعل من الغمز وهو هنا تحريك احد الطرف لمن ينظر اليه لينبهه تنبيها خفيا لينظر الى شيء نظر استهزاء.

والفاكه الفاعل للفكاهة بفتح الفاء مصدر وفعله من باب فرح وهي الفاء المزاح كما قال « ان اصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون » ، والفُكاهة بضم الفاء الكلمة المعجبة والقصة المضحكة . وقرا حفص فكهين بدون الف على انه صفة مشبهة . والمعنى انهم يتحدثون في اهلهم بما عاملوا به المؤمنين من ضحك وتغامز فحُذف متعلق فاكهين بقرينة المقام وهو مقام التنديم. وقد جمعت الآية سوء معاملة المشركين للمؤمنين حال الاختلاط بهم وحال الانفراد عنهم .

وجملة وما ارسلوا عليهم حافظين في موضع الحال اي يحكمون بضلالهم وليسوا بموكلين بهم،والحافظ الموكل بشيء .

فمعنى ما ارسلوا ما بعثوا وما كلفوا اي لم يرسلهم مرسل وانما عبر بفعل الارسال لانه اريد تمثيل شدة حرص الكفار على تتبع احوال المؤمنين بحرص من قُيض وارسل لمراقبة شيء فهو يحرص على تقصي احواله .

وتقديم الجار على حافظين لمراعاة الفاصلة .

والفاء في قوله فاليوم الذين ءامنوا من الكفار يضحكون للتفريع على الجمل السابقة للدلالة على ان ما بعدها جزاء عما قبلها اي فجزاء ذلك ان الذين ءامنوا اليوم يضحكون من الكفار وذلك ضحك التعجب من سوء مصيرهم . وقدم الذين ءامنوا على المسند الفعلي وهو يضحكون دون أن يقال يضحك الذين ءامنوا لافادة الحصر اي الذين ءامنوا يضحكون دون المشركين اي قد انقلب الحال الذي مضى في الدنيا فصار الذين ءامنوا الضاحكين دون الكفار لانهم في نكد وتوقع عذاب اليم . وتقديم من الكفار على معموله للرعاية على الفاصلة لا غير .

وجملة على الارائك ينظرون حال من الذين ءامنو ومفعول ينظرون محذوف دل عليه السياق وتقديره ينظرون للكفار وما هم فيه من العذاب .

وجملة هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون هي من بقية القول المقدر عامله

وهي بمنزلة نتيجة للكلام الذي قبلها . والاستفهام في قوله هل ثـوب تقريري تعجيبي كقول الحجَّاج للعَديل بعد ان تقبض عليه من فراره لاجل انه هجاه « ايه يا عديل كيف رأيتَ اللهَ أمكنَن منك »،أي فقد ثـوب الكفار ما كانـوا يفعلون اي هل ترونهم جوزوا بفعلهم . ومعنى ثوب اعطي الثواب يقال ثوبه كما يقال اثابه والثواب اصله في اللغة الجزاء على العمل من خير او شر ثم غلب استعماله في جزاء الخير فاذا حملت الآية على الاستعمال المشهور كان اطلاق التثويب على جزاء الشر استعارة تهكمية مثل قوله فبشرهم بعذاب اليم وقول عمرو بن كلثوم :

قريناكم فعجلْنا قِراكم . قُبَيل الصبـح مـرداة طحونا

وما كانـوا يفعلون منصوب على نزع الخافض والتقدير بما كانوا يفعلون.

واشتمل قوله هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون على رد العجـز على الصدر لقوله في اول السورة ويل للمطففين وهم الكفار والويل هو حال عذابهم فكان بما اشتمل عليه من الخصوصيات ختما انيقا .

اسلوب هذه السورة

لما كان الغـرض المهم منها كشف اسواء المشركين التي يستحقـون بها التحقير والذم،افتتحت بالدعاء عليهم مراعاة لذلك بالويل فكان في ذلك ايذان بأن السورة مخزية لهم وهذا من براعة الاستهلال في افتتاح أغـراض الذم كما تفتتح اغراضه المدح بالفاظ الكرامة في نحو قول الخازن في طالعة هناء بمولود:

بشراك قد أنجز الاقبال ما وعدا وكوكب المجد في افق العلا صعِدا .

ثم أجريت عليهم صفة فيهم تؤذن بوسمهم بثلاث مذام يزعمون تنزيه انفسهم عن اسمائها ثم ياتون مسمياتها وهي ما في التطفيف من المذام كما تقدم .

ثم استؤنف الكلام فبين ان علة فسادهم هـو تكذيبهم بيوم الجـزاء . وانـذروا بـان اعمـالهم محصـاة وان سجل اعمـالهم له احقر المـواضع رمزا بذلـك لحقارة اهله فصـرح اثـره بوعيدهم بالعذاب ، وبان التكذيب بيوم الدين من خصال المعتدين الآثمين الذين يرمون القـرءان بانه اساطير الاولين الذين غشي عقولهم سوء اعمالهم وهم هولاء المشركون .

وتوعدوا بان الله حجبهم عن شرف اقبال الله عليهـم فهم صـايرون الى النـار . وزيد في تنكيلهم بان ذكر عقب ذلك حسن مصير الابرار الذين يعدّونهم اضدادهم. واستطرد في خلال ذلك وصف بعض نعيمهم على اعمالهم ليحصل التقابل بين جزاءي البرور والفجور .

ثم اعقب ذلك بذكر جزائهم على معـاملتهم المسلمين في الـدنيا وكيف انقلبت الحال في عالم الخلود مختوما ذلك بتهكم في كلمة جـامعة لغـرض السورة إيذانا بنهايتها .

سورة الانشقاق

تسمى سورة الانشقاق أخذا من فعل انشقت وهي مكية .

تضمنت هذه السورة مثل سورة التكوير وسورة الانفطار باسلوب آخر، احوالَ انقضاء نظام هذا العالم باذن الله، وطاعة المخلوقات لامر ربها وان تلك الاحوال مقدمات البعث، وذكر البعث والجزاء، وان المشركين يظنون ان لا يبعثوا فكانوا في حياتهم غير مهتمين الا بلذاتهم العاجلة . والقول في مناسبة فاتحتها لاغراضها كالقول في فاتحة اذا الشمس كورت وانذارهم بانهم مجازون على شركهم وآثاره من اعمالهم، واعلام الناس بانهم صائرون الى الله للجزاء على الاعمال خيرها وشرها.

(إذا السماءُ انشَقتْ وأَذِنَتْ لِربّها وحُقّت وإذا الارضُ مُدّت وألقَتْ ما فيها وتخلّتْ وأذِنت لربّها وحُقّت يَأيّها الانسانُ إنك كادحٌ إلى رَبّك كَدحاً فمُلَاقيه) تفسير قوله اذا السماء انشقت كتفسير قوله اذا السماء انفطرت وقوله اذا الشمس كورت فما قرر هنالك يقرر هنا. وانشقاق السماء هو انفطارها المتقدم بيانه في سوة الانفطار.

ومعنى (أذنت لربّها) استمعت اليه والاستماع استعارة لتأثرها بامر التكوين تأثرا سريعا كما يستمع الامر من يريد سرعة الامتثال ومنه قولهم سمعا وطاعة. وقد دل ذكر الاستماع ان ثمة امرا مضافا حذف للايجاز وقد صرح به في آية سورة الزلزال بقوله يومئذ تحدث اخبارها بان ربك اوحى لها والتقدير واذنت لامر ربها.

وجملة (وحقت) معترضة والتقدير وحقت بالاذن لربها فحقت مبني للنايب اي كانت محقوقة به اي كان حقا عليها ان تتأثر بامر الله بالانشقاق لانها مخلوقة لله وحق المخلوقات ان تنقاد لخالقها كل على ما يناسب حاله والواو اعتراضية.

ومعنى (مُدت) بسطت اي صارت مستوية بان ازيلت جبالها من شدة الزلازل كما فسره قوله تعالى ويسالونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا امتا . (وألقت) رمت واستعمل الالقاء في الاخراج بسرعة . وما فيها ما دفن فيها : من الاموات كقوله واذا القبور بعثرت ، ومن المعادن كقوله واخرجت الارض اثقالها .

. (وتخلت) مبالغة في الخلو وذلك ان التخلي تفعّل مشتق من الخلو ومـادة التفعل تدل على التكلف ، جعلت الارض في تاثرها بامر التكوين بان تخرج جميع ما فيها كانها تتكلف الخلو عما في جوفها بحيث لا تترك شيئا منه .

وجملة (ياايها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه) جواب اذا والخطاب لجميع الناس كما يدل عليه التفصيل في قوله فاما من اوتي كتابه بيمينه وفي قوله واما من اوتي كتابه وراء ظهره الآية، والمقصود ابتداءً المشركون منهم لانهم الذين كذبوا بالرجوع الى الله بعد الموت، فالخطاب بالنسبة اليهم زيادة ابلاغ وانذار وهو بالنسبة الى المؤمنين تذكير .

والكدْح بذل الجهد في عملٍ ما فلما عدي هنا بالى دل على انه بذل الجهد في السعي الى الله . والسعي مستعار لتقضي العمر جزءا فجزءا الى حلـول الموت جعل ذلك التقضي لما كان عاقبته الموت فملاقاة الجزاء من الله كانه سعي للوصول الى الموت ولقاء الله. وتفريع قوله فملاقيه وما بعده من التفصيل على قوله كادح هو الذي جعل جملة ياايها الانسان الخ جـواب اذا، فصار التقدير اذا السماء انشقت الى ءاخره لقيتَ ياايها الانسان ربك فمنكم من يحاسب حسابا يسيرا ومنكم من يصلى السعير وكان ما أُقحم في خلال ذلك بمنزلة الجملة المعترضة لقصد التنبيه والانذار فجاء نسجا من بليغ الكلام . وملاقـاة الرب الـوقوع تحت حكمه مباشرة بـزوال الحوائل التي اقتضاها الامهال في الحياة الدنيا .

(فأمَّا مَن أُوتِيَ كتابَه بيمينه فسوف يُحاسَب حساباً يَسيراً ويَنْقلِبُ الى اهله مسروراً ، وأمَّا مَن أُوتِيَ كتابَه وراءَ ظهره فسَوْفَ يدعو ثُبوراً ويُصلَى سَعيراً)

الفاء للتفريع على قوله فملاقيه لانه لما تم الابلاغ والانذار والتذكير انتقل الى ذكر ما يقع بعد ذلك من ثواب وعقاب زيادة في الانذار وبشارة للمذكّرين . ومن اوتي كتابه بيمينه هو الفائز يُعلم ذلك مما هو متعـارف ان اليد اليمنى تناول الامـور المهمـة لان العرف جرى بذلك عرفا نشأ عن استشعار تيسير الاعمـال بها حتى استقر في نفوس الناس أن اليد اليمنى ءالة لتيسير الاعمال والاكرام وتهيئة الخير له . والكتاب في الموضعين كتاب الاعمال فالكتاب الذي يؤتى باليمين كتـاب الحسنات لان الشيء المشرف المبارك يجعل الى اليمين بحسب العرف ، والباء

في يمينه للظرفية أي أعطي الكتاب في يمينه ، والحساب عَرض العمل على صاحبه لسماع جوابه وتقدم في سورة النبأ. والحساب اليسير كناية عن صلاح الاعمال المحاسب عليها أي أنها ليست محل مؤاخذة ، بل هي محل عفو وتجاوز ولاجل ذلك عقب بقوله « وينقلب الى اهله مسرورا » والانقلاب الرجوع ، ورجوع المحاسب مسرورا هو لحصول الثواب والجزاء بالنعيم .

والاهل العشيرة وقَرابة المرء ومواليه اي يرجع الى فريقهمسروراوالفريق هنا فريق من اهل الآخرة فهم اصحاب الدين الواحد اي المسلمون اي يرجع مسرورا الى المؤمنين الذين سبقوه الى الجنة ، او الفريق المجتمعون للحساب الذين نودي عليه من بينهم ويرجع اليهم حتى يكمل حساب جميعهم فيؤمر بهم الجنة قال تعالى «وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا» .

والذي يؤتى كتابه وراء ظهره هو الكافر، والكتاب كتاب اعماله السيئة ، ولذلك يؤتاه من وراء ظهره اظهارا لتحقير الكتاب وصاحبه وخزيا لصاحبه بحيث لا ينظر بوجهه الملائكة ولا يتوجه الى الجانب المقدس . وانتصب وراء على الظرفية وهو متعلق بأوتي اي اعطي كتابه في جهة ظهره وهو يؤتاه بيده اليُسرى كما جاء في ءاية سورة الحاقة .

ومعنى يدعو ثبورا يُنادي الثُّبور اي يقول يا ثُبوراه كما يقال يا ويلاه فالدعاء هنا بمعنى النداء، والثبور الهلاك وتلك كلمة يقولها من كان في حال شقاء وعذاب. ويُصَلّى اي يحرق يقال صلاّه تصلية كما قال تعالى وتَصْلِية جحيم كما يقال اصلاه قال فسوف نصْلِيه نارا بخلاف صَلِيَ المجرد فالاكثر انه لتلقي حر النار للنفع كالتدفىء كما تقدم في قوله تعالى يصلونها في سورة الانفطار. والسعير جهنم .

(إنه كان في أهلِه مَسْروراً انّه ظَنَّ أنْ لَنْ يَحورَ بلى انَّ ربَّه كانَ به بصيراً)

أي ان الذي اوتي كتابه وراء ظهره كان في اهله في الدنيا مسرورا . وجملة انه كان في اهله مسرورا مستانفة استئنافا ابتدائيا لقصد التعجيب والتشميت من البون بين حاله التي كان عليها في الدنيا وبين مصيره في الآخرة فانه كان في الدنيا بطِرا مزدهيا بترفه فصار في الآخرة شقيا معذبا يدعو بالثبور ، والمعنى انه كان مسرورا سرورا لا يخالطه خوف الله عندما يذكرهم الرسول به فليس الكلام لذم

السرور في الدنيا على الاطلاق ولكن للتعجيب من سرور اعقب حسرة كقوله تعالى اذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين .

وجملة انه ظن ان لن يحور مستأنفة استئنافا بيانيا لجواب سائل عن سبب ما لقيه من العذاب . ومعنى يحور يرجع اطلق على البعث لفظ الرجوع تشبيها للحضور الى حكم الله برجوع الغائب الى موطنه لان اصل نشاة الانسان من صنع الله وخلقه فكانّ الحي جاء الى الدنيا من عند الله فاذا مات وبعث فكانه اعيد اليه قال تعالى « ثم الينا مرجعكم - ثم الينا يرجعون - انه على رجعه لقادر » ولذلك سمي يوم القيامة يوم المعاد ويوم الرجعة ونحو ذلك .

وبلَى حرف مثل بل التي للابطال لكنه يختص بالوقوع بعد النفي لابطال النفي واثبات المنفي فالمعنى بل يحور اي يرجع الى حكم ربه مباشرة بعد ان كان له صورة استقلال بنفسه .

وجملة ان ربه كان به بصيرا تعليل لما افاده حرف بلى من اثبات انه يحور اي يرجع الى حكم الله لان الله ربه وهو به بصير لا يخفى عليه مكانه ولا عمله فهو يحشره ويحاسبه . والتعبير بالرب مضافا الى ضمير من اوتي كتابه وراء ظهره دون التعبير باسم الجلالة لما في ذكر وصف الربوبية من الاشعار بالقدرة على المربوبين . وتقديم المجرور في قوله به بصيرا للرعاية على الفاصلة .

(فلا أُقسِمُ بالشَّفَق والليلِ وما وَسَقَ والقمر اذا اتَّسَقَ لَتَركَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ) الكلام على قوله فلا اقسم مثل الكلام على نظيره في سورة التكوير وكذلك تقَدمَ القولُ هنالك في وجه القسم بهذه الاشياء التي هي مظاهر القدرة العظيمة .

والشفق الحمرة الباقية في الافق في مغرب الشمس بعد غروبها من بقايا شعاع الشمس،وقيل يطلق الشفق على البياض الذي يعقب تلك الحمرة ويبقى بعدها زمنا قليلا ولم يثبت ذلك في اللغة . والكلام كالحوصلة لما سبق تفصيله في قوله فسوف يدعو ثبورا ويصلى سعيرا الى بصيرا اي يقع كَيْتَ وكيت فلتركبن طبقا عن طبق من الاهوال يومئذ، اي فماذا احصي من احوالكم فلا يستطاع تعداده فلتقعُن في احوال بعد احوال فتنوين طبقا للتعظيم . ومعنى وسق جمع وضم اي

ما اشتمل عليه الليل من شؤونه من طلوع النجوم وغروبها واشتداد الظلمة او ضعفها كقوله « فلا اقسم بمواقع النجوم ـ وقوله ـ والليل إذا سجى ـ وقوله والليل اذا يغشى » ونحوها .

وخص من احوال الليل احوال القمر اهتماما بمظاهره فقال والقمرِ اذا اتسق واتسق مطاوع وسق فهو بمعنى اجتمع والمراد اجتماع ضوئه اي كماله بدرا والاجتماع يطلق على الاكتمال والقوة يقال اجتمع الرجل اي اكتملت قوته ويقال هو جَمِيع اي قوي غير هرم ويقال أمْرُنا جميع اي نحن متفقون وفي كلام عمر ابن الخطاب لعلي والعباس حين اختصما لديه فيما تركه النبيء صلى الله عليه وسلم من ارض فَدَك « ثم جئتماني وكلمتكما واحدة وامركما جميع » . وتقييد القسم بالقمر بحال اكتماله لان المقصود من القسم به تنويه شان دلالته على عظيم القدرة وتلك الحالة اوضح في الدلالة على قدرة صانعه . ومناسبة المقسم به للمقسم عليه ان المقسم عليه حوصلة لما سبق فاء التفريع من ذكر احوا الجزاء وهي احوال شدة وفرج فالقسم بالشفق وهو انبثاق النور بعد الظلمة فيه ايماء الى الفرج وهو ناظر الى قوله فسوف يحاسب حسابا يسيرا الآية ، والقسم بالليل وظلمته من حيث شاع تمثيل الكرب والشدة بالظلمة وهو ناظر الى قوله فسوف يدعو ثبورا الآيات. والقسم بالقمر في حال قوة نوره ايماء الى اقامة الحق يومئذ لان الحق يمثل بالنور، مع مراعاة النظير بينه وبين المقسم بهما الآخران وهو ناظر الى قوله ان ربه كان بصيرا

وجملة لتركبن طبقا عن طبق جواب القسم وتركبن بضم الباء في قراءة جمهور السبعة خطاب للانسان في قوله يايها الانسان لتأويله بجميع الناس كما تقدم انفا وان كان المقصود الاول موعظة المشركين منهم لما يقتضيه التفريع في فمالهم لا يؤمنون وجاء بصيغة الجمع لان المراد بالانسان فيه الجنس اي جميع الناس وقراه ابن كثير وحمزة والكسائي بفتح الباء على خطاب الواحد والمخاطب هو الانسان في قوله يايها الانسان انك كادح باعتبار كون لفظه مفردا وان كان المراد الناس .

والركوب هنا مجاز في الملابسة واصله تمثيل لحال ملابس الشيء بحال الراكب في الملازمة ولذلك يقال ركب امرا صعبا، وركب كل صعب وذلول، وركب امرا لا نجاة معه، ثم توسعوا فقالوا ركب امرا عظيما، وارتكب ضلالا مبينا.

وطبقا منصوب بالمفعولية لتركبن . وعن طبق صفة لطبقا اي طبقا مجاوزا لطبق آخر ويجوز ان يكون مفعول لتركبن محذوفا لقصد التهويل اي لتركبن مركبا شديدا، و ينتصب طبقا عن طبق على الحال . والمراد بالطبق الحال بذلك فسره النبي صلى الله عليه وسلم في رواية البخاري عن ابن عباس ، وذلك ان الطبق هو الشيء الموافق لغيره في قَدْره واطلق على الحال مجازا اي حالا تجاوز حالا فيؤول المعنى لتلابسن احوالا كثيرة من حال الى اخرى . وعَنْ بمعنى بَعْداي طبقا بعد طبق . وسياق الكلام يقتضي ان المراد به التهويل ثم التهديد فهو موعظة للمومنين وتهديد للمشركين والمراد بالحال حال الهول والشدة ويدل عليه ما قبله وما بعده من قوله فمالهم لا يؤمنون الى يوعون .

(فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمنون ، وإذا قُرِىء عليهم القرآن لا يَسْجُدون ، بل الذينَ كفروا يكذبون واللّهُ أَعْلَمُ بما يُوعُون) تفريع على التهديد الناشىء على كفرهم بالبعث واعراضهم على التذكر في شانه بما هم لا هون به من التمتع في الدنيا اي فما يصدهم عن الايمان بالبعث بعد ما سمعوا من القوارع . والاستفهام للتعجيب والانكار وهذا التركيب وامثاله يدل على انتفاء ما يمنع من الفعل فاللام فيه للاختصاص متعلقة بخبر محذوف اي ما يثبت لهم اي لا نعلم شيئا يمنعهم فلذلك كان جديرا بالسؤال عنه والتعجب منه لخفائه ويقع بعد هذا الاستفهام حال هي موجب التعجب والسؤال وتكون مفردا كقوله فمالهم عن التذكرة معرضين وتكون جملة كما هنا وقد ياتي استفهام بكيف في مكان الحال كقوله تعالى مالكم كيف تحكمون . وضمائر الغيبة مراد منها المشركون وان لم يتقدم ذكرهم لانهم المقصود من آيات الذم والوعيد في القرآن المكي .

ومعنى لا يسجدون لا يخضعون ولا يطيعون الرسول والمعنى انهم لا يصدقون بان القرآن حق ولا يتركون العناد كقوله والله يسجد ما في السماوات وما في الارض من دابة بقرينة قوله في مقابله بل الذين كفروا يكذبون . وبل للعطف بمنزلة لكن اي لا يسجدون ولكن يكذبون . والذين كفروا عوض عن الضمير لاظهار امرهم وهو مستعمل في الانذار والتهديد على طريقة التذييل بالاعتراض .

(فَبَشِّرْهُمْ بعذاب أليم إلا الذينَ آمَنُوا وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ لهم أَجْرٌ غيْرُ

مَمْنُون) الفاء لتفريع الانذار والتهديد على تكذيبهم بالبعث وبصدق القرآن، والتفريع يقتضي ان المفرع مناسب لما تفرع عليه . فتعين ان بشرهم استعارة للانذار والتهديد على سبيل التهكم لان حقيقة التبشير انه الاخبار باستقبال امر محبوب وضده الانذار .

والاستثناء منقطع لان الذين آمنوا ليسوا بكافرين الآن. والذين ءامنوا مبتدا وليس بمستثنى كانه قيل لكن الذين ءامنوا ليسوا كاولئك. وهذا ترغيب للبقية في الايمان بمعنى ان العذاب الذي انذروا به لا ينالهم الا اذا اصروا على كفرهم فان آمنوا انقلب ما انذروا به الى اجر ونعيم يعرف ذلك بالقياس كقوله تعالى قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف. وهذا جري على عادة القرآن في الجمع بين الترهيب والترغيب وعلى عادة الله تعالى في سَبْق رحمته غضبه .

والاجر ما يجازى به عن الفعل. ومعنى غير ممنون انه اجرا لا يخالطه شيء من النكد فهو اجر لا يُمَن عليهم لان المن يحصل معه خجل للممنون عليه قالى تعالى ولا تمنن تستكثر . ومن كلام الزمخشري «طَعْم الآلاء احلى من المن وهو أمَرُّ من الآلاء عند المن » الالاء الاول النِعَم والالاء الثاني شجر مر ورقهُ وقال النابغة :

علَيّ لعَمْرو نعمةٌ بعد نعمة لوالده ليست بذات عَقَارب

اي ليست مخلوطة باذى كلدغ العقارب.

سلوب هذه السورة

امـا افتتاحها فنظير افتتاح سورة الانفطار في التشويق الى الخبر ، والاهتمام، به سوى ان هذه السورة جيء فيها بالانشقاق والاخرى جيء فيها بالانفطار وسوى تفنن من شان الكلام البليغ مع ما فيه من بيان ان الانشقاق هنا في ذات السماء وليس كالذي في قوله ويوم تشقق السماء بالغمام في سورة الفرقان .

وسِوى ان معاني الجمل التى اضيفت اليها اذا في هذه السورة مخالفة لما في سورة الانفطار ، ونكتة ذلك ان غرض سورة الانفطار بيان الحساب واحصاء

الاعمال فناسب ان يوقت ذلك باحوال مهولة اذ أهم الغرض هو حساب المشركين وهو الذي اطيل الكلام عليه هناك .

واما اغراض سورة الانشقاق فتتوجه ابتداء الى الجزاء على الاعمال، والاهم منه جزاء المومنين فانه الذي ابتدىء بذكره فوقت زمان الجزاء بانشقاق السماء اي فتحها لتلقى اهل الجنة لان الجنة في السماء على قول ايمتنا ودل عليه قوله تعالى « لا تفتح لهم ابواب السماء ولا يدخلون الجنة »، واذا صح ان النار تحت الارض كما مال اليه بعض علماء الكلام كان مناسبا لقوله واذا الارض مدت اي لالقاء اهل جهنم فيها .

وجاء جواب اذا باسلوب بديع اذ افتتح بنداء الناس قبل اخبارهم بانهم حينئذ ساعون الى لقاء الله للحساب وذلك لمزيد الاهتمام بالجواب المُفصّل لجزاء الفريقين .

ثم اعيد قسم آخر في ابتداء خبر بانهم لاقون اهوالا يوم الجزاء تنجلي عما ذكر قبل القسم من نعيم وجحيم بحكم الرب العليم .

ثم فرع على ذلك التعجيبُ من استمرار المشركين على الكفر والتكذيب والاعراض عن التدبر في القرءان مع ان فيما اعرضوا عنه الفوز والنجاة. وختم ذلك بوعيدهم بطريقة تهكمية ومغيظة اذ قوبل وعيدهم بوعد المومنين الصالحين بالعطاء الخالص .

وختمت السورة بما يجمع غرضها من قوله فبشرهم بعذاب اليم. وباستعارة تهكمية، وبذكر مقابلة حالهم في الآخرة بحالة المؤمنين وفي ذلك محسن الطباق. فجاءت في خاتمتها براعة الانتهاء .

سورة البروج

سميت سورة البروج بوقوع كلمة البروج في اولها فعرفت بها .

وهذه السورة مكية ، وقد احتوت على ما يلاقيه اهل الايمان والصلاح من اذى يُلحِقه بهم اهل الكفر والعناد، تعريضا بالمشركين من اهل مكة الذين فتنوا المؤمنين رجالا ونساء، وتاسية للمؤمنين باشد ما لاقاه المؤمنون قبلهم من اعدائهم، وعِدَةً للمؤمنين بان العاقبة لهم وان الله ناصرهم كما نصر من قبلهم، فضرب لهم مثلا اصحاب الاخدود وفرعون وثمود وما لاقى منهم المؤمنون بالرسل وانهم يوشك ان يحل بهم ما حل باولئك من العذاب والاستيصال ، وذكر في اثناء ذلك فضل المؤمنين والتهديد للمشركين بان الله قادر عليهم وختمت بالتنويه بالقرءان ، ومناسبة فاتحتها لغرضها تاتي في بيان القَسَم .

(والسَّمَاءِ ذَاتِ البُرُوجِ واليومِ المَوْعودِ،وشاهدٍ ومشهودٍ قُتِلَ أصْحابُ الاخْدُود النَّارِ ذاتِ الوَقود إذْ هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ ، وهم على ما يَفْعَلون بالمؤمنين شُهُودٌ) افتتاح الكلام بالقسم لقصد تاكيد الخبر المقصود مع التشويق الى تلقيه

والمراد بالسماء افلاك الكواكب ومواقع مسيرها. والبروج منازل مفروضة علمها الكلدانيون الصائبة وعلموها العرب تقدر بها مطالع الشمس في اشهر السنة كلها وهي اثنا عشر برجا اي منزلةً تطلع الشمس في كل منزلة منها ثلاثين يوما وكسرا بين مبدا المنزلة ومنتهاها.ثم يكون طلوعها في مبدا المنزلة التي تليها عقب ذلك ثلاثين يوما وهكذا فتسمى كل منزلة برجا.وتلك المنازل تَتعرّف بنجوم ثوابت متجمعة على شكل معيَّن اطلقوا على كل شكل منها اسما على وجه التقريب والتشبيه فسموها: الحَمَل، والثور، والميزان، ونحو ذلك.واصل تسميتها وتقسيمها من وضع الكلدان وذلك من ابدع ما الهم الانسان الى ضبطه وتحقيقه ، وليست البروج بتقاسيم جسمانية ولكنها منازل مفروضة ، وقد قدروا لكل ثلاثة منها رُبعا من الحول وهو الفصل من الفصول الاربعة ، واولها البروج الربيعية وهي بُرج الحَمَل وبرج الثور وبرج الجَوْزاء او التَّوْأمَيْن ، ثم البروج

الصيفيـة وهي السَّرَطان والاسد والسُّنْبلة ، ثم البروج الخريفية وهي المـيزان والعقرب والقَـوْس ، ثم البروج الشتائية وهي الجَـدي والدَّلْـوُ والحوت . وتلك البروج التي تعارفها الناس واصطلحوا على تسميتهـا بالبروج ما هي الا مخلوقـات عظيمة وهي احوالها وما ينشا عنها من معـارف الناس كل ذلك من دلائل قـدرة خالقها وخالق احوالها وملهم الناس الى علوم الاستفـادة منها فلذلك اقسم خالقها بها فكانه اقسم بصفات جلاله وعلمه .

ووصف السماء حين القسم بها بانها ذاتُ البروج زيادة في التنبيه الى عظيم أثر قدرة الذي خلقها على تلك المقادير المضبوطة لنفع العباد علما منه تعـالى بما يُصلح الناس قال تعالى « وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمـات البر والبحر ـ وقال ـ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ذلك لتعلموا ان الله يعلم ما في السمـاوات والارض وان الله بكل شيء عليم ».

ومناسبة هـذا القسم للغرض المقسم عليه ان الاخـاديد خطوط محسوسة في في الارض متسعرة نارا لتعذيب المؤمنين وهي تذكير ببروج الكواكب المفروضة المتخيَّلة كالخطوط، وهي مضيئة بضوء الكواكب المضافة هي اليها، فهم يتعاظمون بتلك الاخاديد على المؤمنين برسول الله عيسى ويُرهبونهم بها ، ولا يتفكرون في خالق البروج السماوية وتخاطيطها فيعصون امره ويعتدون على الذين ءامنوا برسوله . واليوم الموعود هو يوم البعث ومناسبة القسم به ادماج التعريض بالوعيد بالانتقام منهم يوم الفصل .

والمـراد بالشاهد والمشهود جنسُ من يرى احـوال المحشر وجنس ما يُرى من الاحوال في المحشر . فالظاهر ان الشاهد الملائكة والرسل والانبيـاء وصالحوا الامم ، والمشهود احوال النعيم والعذاب، لان المعروف في المجامع ان الشاهد فيها هو من يطّلع على حال غيره . والمشهود هو الاشياء التي يطلع الناس عليها يقال شهدتُ الخيل اي نظرت احوال فرسانها ومسابقتها وهذا تكملة واتمام للقسم .

وجملة قتل اصحاب الاخدود انشاء دعـاء على الذين جعلـوا الاخدود. واستحضارهم بوصف اصحاب الاخدود ايمـاءٌ الى ان سبب الدعـاء عليهم هو

اتخاذهم الاخدود. وهذا الدعاء وما الحق به دليل على جواب القَسم ويقدر بما يدل على الانذار والغضب فان قول العرب قاتله الله ونحوَه انما يقال في مقام الغضب،وفيه انذار يدل عليه قوله «ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق » لان المقصود من سَوق هذه القصة انذار المشركين بان يصيبهم مثل ما اصاب امثالهم على يماثل اعمالهم فهذا من التعريض بالتهديدبعاقبة اعمال المماثل، وهو مثل التصريح به في قوله تعالى « فقد انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود اذ جاءتهم الرسل ». وفي الآية تثبيت لنفوس المؤمنين على ملاقاة الاذى في الدين . وجواب القسم محذوف دلت عليه جملة دعاء الغضب كما تقدم فيقدر نحو اهلك الله اصحاب الاخدود او انتقم الله من اصحاب الاخدود قاتلهم الله . واصحاب الاخدود جاعلوه فان صاحب الشيءهو مالكه والمخصّص به .

وليست جملة قتل اصحاب الاخدود جوابا للقسم على معنى تحقيق الخبر بانّ فريقا من المؤمنين ُقتلوا في الاخدود لان الاخبار بذلك لا يحتاج الى التاكيد اذ ليس محل انكار فان قصتهم مشهورة، ولانه لايقال للمحرَق مقتولا بل هو اخص،ولان اتساق الضمائر يقضي ان يكون اصحاب الاخدود واضعيه والمخترعين له لتعذيب المؤمنين . وقيل ان قتل اصحاب الاخدود هو الجواب وان القتل اريد به الاحراق وان اصحاب الاخدودهم الذين احرقوا فيه وان الجواب لم يقترن باللام لطُول القسم وكل ذالك تكلف والنار بالكسر بدل اشتمال من الاخدود.والتعريف في الاخدودتعريف الجنس الصادق بالمتعدد فانها كانت اخاديدَ كثيرةً فالمعنى اصحاب الاخاديد.والأُخدود بضم الهمزة حفير مستطيل في الارض كالخندق والجدول . واصحاب الاخدود هم اهل اليمن في ملك ذِي نُواس ملكِ صنعاء . وكان سبب ذلك ان اهل نَجْران وهم من مخاليف مُلك اليمن اتاهم رجل صالح من المبشرين بدين عيسى عليه السلام اسمه فَيْمَيُون من نَصارى الشام فأسر وبيع في ارض نَجران فكان يقيم دين عيسى وتبعه اهل نجران فلم يزالوا يَكثرون حتى بلغوا اثني عشر الفا فلما عظم امرهم ونَبذوا الشرك واليهودية سار اليهم ذو نواس ودعاهم الى اليهودية فابوا فجعل لهم اخاديد واوقدها نارا واحرق الذين تدينوا بالمسيحية .

والوَقود بفتح الواو ما توقد به النار اي الحطب ، ومعنى ذات الوقود انها قد أُعد لها من الحطب ما يلقَى فيها اذا اخَذت تخمد ليتجدد لهبها وذلك يؤذن بانها نار مستمرة اللهب كناية عن طول مدة تعذيب المؤمنين فيها لقصد الارهاب .

وجملة اذ هم عليها قعود لبيان وقت من اوقات احوال تلك النار ، وضمير «هم» لاصحاب الاخدود . والمقصود ان تلك الحالة هى سبب الدعاء عليهم كقول النابغة :

قُعوداً لدى ابياتهم يثمدونهم   رمى الله في تلك الاكُفِ الكوانع

فدعا عليهم بالشلل في ايديهم لاجل قعودهم لسؤال قوم غير قومهم . وقعود جمع قاعد مثل شهود وسجود وهو جمع يشبه بعض المصادر فالقعود ايضا مصدر وهو ملازمة المرء مكانه غير متنقل منه، فيجوز اعتبار قعود مصدرا اخبر له عن ضمير الجمع للمبالغة اي قاعدون قعود الحريص على العمل والمراد ان ذلك التعذيب حضره ولاة الامر من اصحاب الاخدود ليشاهدوا تعذيب المؤمنين بانفسهم ولا يكتفوا بالوزَعة والشُرَط اهتماما بذلك العقاب . وتعدية قُعود بحرف الاستعلاء للدلالة على الملازمة والتمكن كقول الاعشى « وبات على النار الندى والمُحَلّق». وليس المراد انهم قاعدون فوق جمر النار لان هذا اللفظ لا يستعمل في هذا المعنى .

وضمير «هم» التاني عائد ايضا الى اصحاب الاخدود، وضمير يفعلون لا يعود على ما عاد عليه هم بل غيره بقرينة انه لا جدوى للاخبار عن احد بانه شاهد على فعل نفسه فتعين انهم شهود على فعل غيرهم فجاء توزيع الضمائر في غاية الاحكام والايجاز فضمير يفعلون يعود الى غير مذكور في الكلام يدل عليه المقام وهم الوزعة وحَاشُوا النار فالفعل بمنزلة المبني للمجهول كانه قيل على ما يُفعَل . وانما اسند الى ضمير الفاعل لاستحضار الحالة الشنيعة وللاشارة الى ان للاَتباع والوزعة عملا في تعذيب المؤمنين من اظهار الغلظة عليهم وتحقيرهم وفي هذا وصف كبرائهم بالقسوة وا شلاء وزعتهم على الضعفاء .

(وما نَقَمُوا مِنْهم إلا أَنْ يُؤْمنوا بالله العزيز الحَميد له الذي مُلْك السّماوات والارْضِ والله على كل شَيْءٍ شَهيد) في موضع الحال المقصود منها التعجيب اي

هم يعذبونهم لا لجرم الا انهم آمنوا بالله اي الا ان كانوا مثلهم في ايمانهم بالله ولكنهم آمنوا برسالة عيسى واليهود يكفرون به كقوله تعالى يا اهل الكتاب هل تنقمون منا الا ان آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل من قبل وان اكثركم فاسقون.

وفي التعبير بالمضارع في قوله الا يؤمنوا بان ثناء على اولئك المؤمنين بالصبر على الاذى في الحق فهم آمنوا بالله واستمروا على الايمان مع مشاهدة التعذيب قال تعالى « احَسِبَ الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين »

ووصف اسم الجلالة بالاوصاف المذكورة من العزة والحمد وملك العوالم والعلم بكل شيء للدلالة على انه حقيق بان يؤمن به وان يكفر بما سواه مما لا يثبت له شيء من تلك الصفات وحقيق بان يراقبون رضاه فيما ياتونه من الاعمال . وفي تلك الصفات ما يومىء الى ان الذين يسطون على عباده الذين آمنوا بما دعاهم الله اليه لا يلفتون من انتقامه منهم ووقوعهم في قبضة عذابه . والشهيد العالم المطلع وفيه تعريض بالتهديد لمن آذى المؤمنين .

(إنّ الذينَ فَتَنُوا الـمُؤْمِنِينَ والـمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لم يَتُوبُوا فلَهُم عَذابُ الحريق)

استئناف بياني نشا على التعريض لتهديد مشركي قريش باول القصة كما تقدم وبقوله اخيرا والله على كل شيء شهيد فالاستئناف لجواب سؤال يجيش في نفوس السامعين عن عاقبة هؤلاء المهددين . ونعلم منه ان عذاب جهنم حق على اصحاب الاخدود ايضا لاناطة حكم التعذيب بالموصول للايماء الى ان الصلة علة من الحكم . والفَتْن التعذيب قال تعالى يوم هم على النار يفتنون والمراد به تعذيب المشركين من قريش ضعفاء المسلمين مثل عمار وبلال . والمراد بالذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات مشركوا اهل مكة بقرينة قوله ثم لم يتوبوا الذي هو كالاعتراض للترغيب في التوبة والاقلاع عن الشرك وبقرينة الفاء في قوله فلهم عذاب جهنم المؤذنة بان الموصول مشرب معنى الشرط فكانه قيل من يفتنوا المؤمنين والمؤمنات فلهم عذاب جهنم فكان الكلام وعيدا . وذكر المؤمنات لزيادة تفظيع الفتنة لان المتعارف ان النساء لا يقصدهن الناس بالتعذيب وكان المشركون عذبوا من النساء المؤمنات سُمَيَّةَ أمَّ عمار بن ياسر عذبت

طويلا ثم طعنها ابو جهل فماتت . وعطف ولهم عذاب الحريق على جملة فلهم عذاب جهنم تاكيد مع زيادة فائدة في الجملة المعطوفة وهي ان عذاب جهنم محرق لاستحضار معنى الاحراق وهذه طريقة في التاكيد حسنة لانها تجمع بين التاكيد المستفاد من التكرير ومن تجديد الفائدة الذي يشعر به العطف المقتضي المغايرة ويكتفى فيه بادنى مغايرة ومنه قول عويف القوافي :

اللُّؤْم اكرمُ من وَبْرٍ ووالِدِه   واللُّؤم اكرمُ من وَبْرٍ وما وَلَدا

فوقعت المغايرة بما ولدا وقد تقدم نظيره في العطف بثم في قوله تعالى كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون في سورة النبإ .

(إنَّ الذينءامنوا وعَملوا الصّالحات لَهُمْ جَنّاتٌ تَجْري مِنْ تحْتِها الأنْهارُ ذلِكَ الفَوْزُ الكَبِيرُ) استئناف بياني نشا عن قوله ثم لم يتوبوا فانه اقتضى ان الذين يفتنون المؤمنين ثم يتوبون لا يكون لهم عذاب جهنم وذلك يثير سؤال السامع عما يلاقونه في الآخرة فلذلك ذكر حكم الذين تابوا وهم الذين ءامنوا وعملوا الصالحات .

وصيغت الجملةُ بصيغة الخبر المجرد عن الاشراب بالشرط تحقيقا لحصول البشارة حتى لا تكون مجرد وعد .

واسم الاشارة لتعظيم الامر المشار اليه وهو لهم جنات . والفوز مصدر بمعنى المفعول اي ذلك اعظم ما يفوز به الفائز .

(ان بطش ربك لشديد) استئناف ابتدائي أنتقل به من الوعيد بعذاب الآخرة الى الوعيد بعذاب الدنيا لئلايحسبوا انهم ءامنون من العقاب لانهم انكروا البعث وقالوا نحن اكثر اموالا واولادا وما نحن بمعذبين فانذروا بعذاب في الدنيا وهو المعبر عنه بالبطش كقوله يوم نبطش البطشة الكبرى يعني بطشة يوم بدر كما فسره ابن مسعود فهذا انذار ببطشة يوم بدر، والبطش الباس والاخذ والعنف . واختيار طريق التعريف بالاضافة دون اسم الجلالة للاشعار بتعظيم المضاف ولما في لفظ الرب المضاف الى ضمير الرسول المخاطب من الايماء الى ان البطش هو جزاء المكذبين لمحمد صلى الله عليه وسلم وان ربه ينتصر له .

(إنَّهُ هُوَ يُبْدِىءُ وَيُعِيدُ وَهُوَ الغَفُورُ الوَدُودُ ذُو العَرْشِ المَجِيدُ فَعّالٌ لِمَا يُرِيدُ) جملة انه هو يبدىء ويعيد تعليل للانذار في الدنيا ومعيدها

ولشدة البطش ولذلك فُصلت . والابداء البدء بالشيء. والاعادة فعله ثاني مرة والمقصود من ذكر الوصفين انه موجد المخلوقات في الدنيا ومعيدها في الحشر. والغفور شديد المغفرة وهو الذي يَعفو عن المجرم والمبالغة لاجل كثرة المغفور لهم مع كثرة ذنوب كثير منهم وقد بين الله اسباب المغفرة في ءايات اخرى . والودود المحب وذكر هذين الوصفين للتذكير بان الله تعالى يجازي بالاكرام من يستحقه وانه ما يامر عباده الا بما فيه نفعهم وخيرهم وانه يحب لهم الخير .

وذو العرش صاحبه والعرش اعلى المخلوقات وهو الفَلَك المحيط بجميع الافلاك . والمجيد العظيم القدر والنفع وهو وصف لله ولذلك قراه الجمهور بالرفع على انه خبر عن ضمير هو الغفور ، وقراه حمزة والكساءي بالجر على انه صفة للعرش واذا كان العرش مجيدا كان صاحبه عظيما .

والفعّال مبالغة في الفاعل اي كلما اراد شيئا فعله لا يغلبه شيء ولا يمنعه.

(هل أتاك حديثُ الجُنُودِ فِرْعَوْنَ وثَمُودَ بَلِ الذينَ كَفَرُوا في تَكذِيب واللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيط) جملة هل اتاك بمنزلة الدليل لمضمون جملة ان بطش ربك لشديد فبعد ان سبق تعليلها بجملة انه هو يبدىء ويعيد اقيم عليها الدليل بما حصل من الاستئصال لامم عظيمة فانه بطش شديد . وافتتحت الجملة بالاستفهام للاهتمام بها وهو استفهام مستعمل في صريحه وكنايته فهو سؤال لمن لا يعلم حديث اولئك ليتعرف خبرهم وتقرير وتذكير لمن بلغه حديثهم ليستدل به ونظيره كثير في القرءان مثل«هل اتاك حديث الغاشية»وفيه انكار بالخصوص على الذين تغافلوا عن ذلك وتناسوه او لم يبحثوا عنه وجهلوه واعرضوا عن العبرة به .

والخطاب في اتاك لغير معين اي لكل من يصلح لفهمه والمقصود به المكذبون من المشركين لان النبيء يعلمه فلا يُسال عنه.

والحديث الخبر والقصة . والجنود جمع جُند وهو اسم جمع للعدد العظيم من امة وعسكر قال تعالى وما يعلم جنود ربك الا هو . وفرعون وثمود بدل من الجنود وحذف مضاف مع فرعون والتقدير جند فرعون ايجازا ومزاوجة

مع لفظ ثمود اي هل علمت خبر اهلاكهم بالغرق وبالصواعق وقد تقدم ذكر فرعون في سورة النازعات . وثمود قبيلة عظيمة من قبائل العرب العاربة البائدة جدهم ثمود بن عابر بن إرَم بن سَام فهو عربي واسمه عربي وانما منع من الصرف هنا وفي مواضع اخرى لتاويله بالقبيلة طلبا للتخفيف في اللفظ لطول الاسم وقد صرف في قوله تعالى وعاداً وثموداً في سورة الفرقان ، ارسل الله اليهم صالحا رسولا فعصوه فاهلكهم الله بالصواعق وكانت منازلهم بالحِجْر بين الحجاز والشام وتسمى اليوم مدائن صالح .

وبل للاضراب وهو اضراب عما افادة الاستفهام من الانكار على المشركين من اهل مكة الذين اعرضوا عن العبرة باحوال قوم فرعون وثمود اي بل هم يعلمون ذلك ومع ذلك فهم مستمرون على التكذيب بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وهو القرءان ولم يتعظوا بما حل بالمكذبين امثالهم وحذف متعلّق التكذيب للعلم به اي المكذبين بمحمد والقرءان . والظرفية المستفادة من في ظرفية مجازية بمعنى تمكن التكذيب منهم حتى كانه يحيط بهم .

وجملة والله من ورائهم محيط معطوفة على جملة الذين كفروا في تكذيب اي هم متمكنون من التكذيب والله عليم بتكذيبهم وهم غافلون عن علمه به . والكلام تمثيل شُبِّه حال علم الله بحالهم مع غفلتهم عن كونه عالما بهم بحال الذي اطلع على احوال غيره في حين حلوله وراءه . وعُبر عن قوة علمه بهم بالاحاطة على وجه الاستعارة لان تمكن الشيء من الشيء يشبه احاطته به كما تقدم في معنى الظرفية .

وقوله واللهُ من ورائهم محيط خبر مستعمل في التهديد .

(بَلْ هُوَ قُرْءانٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ) بل للاضراب على تكذيبهم المستفاد من قوله في تكذيب . وضمير هو عائد على المكذب به المستفاد من تكذيب اي بل ما كذبوا به قرءان مجيد اي عظيم القدر والنفع وهم قد وسموه بسمات الاقوال السخيفة اذ قالوا اساطير الاولين وقول كاهن وقول مجنون وافك مفترى وقد تضمن وصف القرءان بما ذكر تصديق النبيء الذي انزل عليه فبطل تكذيب المشركين كله . وفي لوح صفة ثانية لقرءان والظرفية ظرفية الدال وتعلقها بالمدلول مجاز ظاهر شائع اي مكتوب في لوح .

وقد علم من سوق هذا الوصف مساق المدح ان المراد لوح قدسي رسم فيه دوال القرءان بدلالة يعلمها الله ومن اطلعه عليه من ملائكته. وهذا اللوح مخلوق قدسي يتلقى ما اراد الله ان يوحي به الى النبيء من القرءان منجما . ومحفوظ قراه نافع بالرفع على انه صفة ثالثة لقرءان اي هو محفوظ مما نسبوا اليه من الباطل اي منزه عن ذلك ويجوز ان يكون محفوظ من الحفظ الذي هو كناية عن العزة والنفاسة مثل قوله انه لقرءان كريم في كتاب مكنون . وقراه الجمهور بالكسر على الصفة للوح والمعنيان للحفظ ءاتيان على هذا الوجه ايضا .

واللوح تمثيل لما حفظ الله به القرءان من التبديل والتغيير الذي في قوله وانا له لحافظون، باللوح الذي يكتب فيه ما تقصد المحافظة على نصوصه من كتاب او رسالة مثل الالواح التي كتبت فيها التوراة التي اعطيت لموسى المذكورة في قوله تعالى « والقى الالواح » وقد يكون الله خلق شيئا في العالم العلوي يدل على ما تدل عليه الفاظ القرءان على ما استقر عليه الوحي بعد نسخ ما نسخ لفظه وهو الذي يسميه الصوفية واهل القصص باللَّوْح المحفوظ اي المحفوظ في عالم الغيب لا تناله الايدي . وفي وصف القرءان بصفة الشرف وبانه محفوظ ايذان بانتهاء السورة لاستيفاء الغرض الذي نزلت لاجله وهو تنظير حال المؤمنين مع المشركين بحال اصحاب الاخدود ومؤمني المسيحية من اهل نجران وحال الامم العظيمة الخالية .

اسلوب هذه السورة

بَداعةُ الاسلوب التي عرفتَها في فاتحة سورة النازعات منطبقة على فاتحة سورة البروج من تاكيد وتشويق وتنويه بالمقسم به فانت بها خبير .

والمناسبة بين الامور المقسم بها وبين الخبر المقسم عليه روعي فيها تمثيل الحالة المقسم عليها بحالة من سبقهم بمثل اعمالهم فانهم اتخذوا اخاديد في الارض تستعر نارا في يوم جزاء وبمحضر كبرائهم ومباشرة وزعتهم، فكان القسم بما يماثل ذلك ببروج السماء المماثلة للاخاديد وباليوم الموعود المماثل ليوم انتقامهم، وبشاهد ومشهود المماثلين لمن حضر اخاديدهم، فحصل محسن الطباق بين احوال سماوية واحوال ارضية ومحسن مراعاة النظير بين يومين وجَمْعين .

وفي طي المقسم عليه وتعويضه بمَثَله اسلوب جديد من اساليب اعجاز

القرءان مع ما فيه من تهويل، ومن صرف نفس السامع الى نشر مطوي الجواب، مع الايجاز والتعاظم عن وعيد المعرَّض بهم في مبدا الغرض .

ثم انتقـل الى صريـح وعيد المعتدين على المؤمنين وذُكرت معهم المـؤمنات تفظيعا لاعتدائهم ، وعيدا بعذاب جهنم ، وذكر في مقـابله وعد المـؤمنين بنعيم الجنة . وفي ذلك من الطباق ثلاث مرات. ثم هو وعد يزيد المتوَعَّدين نكدا وغيظا

ثم عـرّض لهم بعـذاب في الدنيا وهو البطش المضاف الى رب الرسول عليه السلام ، الموصوف بصفتي الابداء والاعادة تخويفا، والموصوف بالمغفـرة والمـودة ترغيبا للمعرضين في التوبة عساهم يفوزون بانفسهم .

ولما قُضي حق ذلك كله ثني عنان الكلام الى تذكير المشركين بالامم الماضية الذين علِموا اخبارهم ولكن الله ذَكَّرهم بهم ليعلمهم ان سبب ما حـل بهم هو تكذيب رسل الله وانهم ساووهم في التكذيب فيوشك ان يوخذوا اخذا لا يفلتـون منه ، واذ قد كان هذا تذكير لهم أُعقب بالتنويه بشأن القرءان الذي فيه ذكرهم والذي هو مرمى تكذيبهم .

وفي هذا التنويه بالقرءان بعدما تقدم إيذان بانه غني عن تصديقهم به فانتهى الكلام بذلك انتهاء بارعا .

سورة الطارق

سميت سورة الطارق لوقوع اسم الطارق في اولها وهي مكية. والغرض منها تحقيق البعث والجزاء والاستدلال عليه بخلق الانسان وادمج فيها ذكر علم الله تعالى بافعال عباده ، وانه اقام ملايكة لاحصائها وليس احصاؤها عبثا. والتنويهُ بالقرآن وتهديد المكذبين لانه جاء باثبات البعث فكذبوا به لذلك .

وافتتاح السورة بالقسم يفيد التشويق الى معرفة المقسم عليه كما تقدم في سابقتها. وكون القسم بامور عظيمة دالة على تمام القدرة مشعر بان ما ياتي بعده نبا عظيم . ومناسبة المقسم به للمقسم عليه ان الحفظة على الناس من اهل العالم العلوي والسماء مقرهم وانها مقر الارواح التي تُرد الى الاجساد يوم البعث. وفي السماء الجنة دار الجزاء الاوفى. وان النجم الثاقب انبعاث النور في الظلمة وهو مثيل الاحياء بعد الموت . ففي المقسم به ايماء الى تمثيل بديع يفيد تقريب البعث الذي استبعدوه فكذبوا به .

والمقسم عليه هو إن كلُّ نفس لما عليها حافظ. وانما جُعل الحفظة تهيئة للجزاء الذي لحكمة اقامته قَدَّرَ اللهُ بعثَ الناس في حياة ثانية.

(والسَّماء والطارقِ وما أدراكَ ما الطَّارقُ النَّجْمُ الثاقب إنْ كلُّ نفس لَمَا عليها حَافِظٌ) قسم بمخلوقين عظيمين دالين على عظيم قدرة خالقهما وهما السماء والنجم الطارق . والطارقُ وصف من الطروق وهو المجيء في الليل والثاقب حقيقته الخارق لشي فالطارق مستعار للكوكب لانه يظهر في الليل فشبّه بطارق ينزل بالحي ليلا. والثاقب مستعار لمرسل الاشعة في اقطار السماوات الى الارض فشبه ذلك بثقب شيء اي خرقه لانه يبرز في سواد الليل كمثقب لامع يخترق شيئا اسود وهذا الوصف صالح لان توصف به جميع الكواكب فلذلك قيل المراد بقوله النجم الثاقب جنس النجوم مثل قوله ان الانسان لفي خسر اي جنس الانسان فالمعنى النجوم الثواقب، وقيل المراد به نجم معيَّن فيكون التعريف للغلبة،

وقد فسره ابن عباس بانه كوكب زُحَل لانه اعلى الكواكب واشدها اختراق ضياء في آفاق السماوات . وقيل اريد به صنف من النجوم وهو الشهب .

واحسب ان تشبيه بروز ضوء النجم في ظلمة الليل بثقب المثقب لعود او جزع او لؤلؤ تمثيل من مبتكرات القرءان. وقوله وما ادراك ما الطارق يفيد تفخيم الطارق وتنبيه السامع الى تطلب المراد منه وتقدم نظيره اخر سورة الانفطار وهذه الجملة معترضة بين القسم وجوابه وهو اطناب للاهتمام بالمقسم به وقد اشتمل قوله والطارق على اجمال يُترقب تبيينه ثم كرر ذلك الاجمال بقوله وما ادراك ما الطارق فهو يزيد السامع ترقبا لبيان هذا المبهم المفخم شانه فجاء البيان بقوله النجم الثاقب . فالنجم الثاقب خبر مبتدا تقديره هو اي الطارق النجم الثاقب والجملة جواب الاستفهام في قوله وما ادراك ما الطارق .

وقد بينت لك ، آنفا ان في القسم بالنجم الثاقب تمثيلا ضمنيا للحياة بعد الموت فقد شبه الحياة بالنور والموت بالظلمة . والحافظ الضابط للامر الذي لا يفرط في شيء منه ومنه الحفيظ ومحافظ المدينة والمراد به هنا ملَك يحفظ اعمال النفس كما يؤذن به جَعْل المسند اليه كل نفس فيؤذن بتوزيع الحفظة على النفوس .

وجملة ان كل نفس لما عليها حافظ جواب القسم وهو كناية عن الجواب بطريق الادماج كما يأتي قريبا . وقد قرأ نافع وابن كثير وابو عمرو والكسائي لمَا مخففة وهذا تركيب عربي لازَمَ هذه الطريقة وقد جزم نحاة البصرة باعتبار إنْ في مثله هي المخففة من الثقيلة المفيدة للتأكيد محذوفة الاسم وهو ضمير الشان ، ولمَا عندهم مركبة من اللام الفارقة بين انْ المخففة وانْ النافية وما زائدة والتقدير انه كل نفس لعليها حافظ . واما نحاة الكوفة فانْ عندهم في مثله نافية ولمَا مخففة الميم حرف بمعنى الا في لغة هذيل اثبت ذلك جماعة من ايمة اللغة وانكره جماعة ، والتقدير ما كل نفس الا عليها حافظ . وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة لمّا بالتشديد فهي حرف بمعنى إلا فيتعين ان تكون ان نافية ، والتقدير ان متساويان في المراد وفي افادة تاكيد جملة الجواب اما بحرف التوكيد واما بالقصر وهو تاكيد زائد على تاكيد الجملة بالقسم . والمعنى كل نفس ملازمها ملك يحفظ اعمالها بحيث لا يفوته شيء منها والمقصود من هذا لازم معناه وهو ان كل احد مجازى عما فعله فافاد

اثبـات احاطة العلم الالهي باعمال العباد والكناية عن لازمه وهو جزاؤهم عليها بما يناسبها وانما يكون الجزاء في عالم اخر بعد حياة ثانية فهو تنبيه للغافلين عن ذلك والمنكرين ثمهو نذارة لهم كقوله في سورة الانشقاق « وانّ عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون ».

(فَـليَنظُر الانسانُ مِمَّ خُلِقَ. خلِق من ماء دافِقٍ يَخرُجمِنبَيْن الصُّلب والتَّرائِبِ) الفاء للتفريع على لازم ما تضمنته جملة ان كل نفس لما عليها حافظ وهو اثبات عالم الجزاء اي اذا شك الانسان في ان كل نفس عليهـا حافظ واستبعد امر البعث بعد الموت فلينظر مِمَّ خلق ليعلم ان الخلق الاول ليس اسهـل من الخلـق الثاني. وهذه الفاء تفيد معنى فاء الفصحية وليست عينها .

والنظر هنا نظر الفكر فهو في معنى العلم كقـوله « فلينظر الانسان الى طعام » . ومِمَّلفظ مركبمنمن التيللابتداء وما الاستفهامية كتبت متصلة بميممن لحذف نون من في الخط تبعا لحذفها في اللفظ وحذفت الف مـا الاستفهامية كما تقدم في عميتساءلون. والاستفهام علّـق فعل النظر عن التعـدي الى مفعوليه ، والانسان مراد به بعض النـاس وهم من اعرضـوا عن ادلة البعث اي فلينظر المشرك مم خلق ابتداء. والاستفهام هنا ليس على حقيقته بل هو مستعمـل في التقرير واستحضار ذهن المخاطب .

وجملة خلق منماء دافق جواب الاستفهام لان الاستفهام لما كان للتقرير صح ان يجيب عنه سائله كقوله عم يتساءلون عن النبا العظيم.

والماء الدافق ماء الرجل الذي منه التنـاسل. والدّافق الدافع اي يدفـع نفسه بالبروز بقوة بحيث لايمسكه شيء، وهو المادة اللازمة لتكوين الحيـوان وان كان للانثى مادة بها اصل التكوين الا انها لخفائها واحتياج التكوين الى ماء الرجل لم يتعلق الاعتبار بها.

ووصف الماء الدافق بجملة يخرج من بـين الصلب والترائب اي ينفصل ويمر من بين هذين المكانين فالخروج بمعنى مغادرة منشئه فيصدق بكل انتقال من مقر الى مقر وليس المراد الخروج بمعنى البروز عن بدن الذكر الى رحم الانثى لان ذلك قد علم من وصف دافق فالمعنى ينفصل من بين الصلب والترائب. والصُّلب هو العمود العظمي ذو الفقـار الكائن بالظهر . والترائب عظام الصدر

واحدها تريبة وهي من اعلى عظام الصدر حول التديين. فالمني اصله مادة دموية تنفصل عن الدماغ وتنزل في عِرْقين خلف الاذنين يتصلان بالنخاع وهـو الصلب وحينئذ تكيف تلك المادة بكيفية اخرى وتنحدر من النخاع الى الـكـلْية ثم تمر الى عروق كثيرة تتصل بالانـثيين فهي في مرورها من الكلية تجتاز من داخـل ترائب الصدر في تلك العروق الدقيقة ثم تنجذب منها فتنزل الى الانثيين فتتكيف هنا لك بالمَنَوية. هذا معنى يخرج من بـين الصاب والترائب لان مبـدا تكيف المادة بالكيفية التي تُعِـدُّها لان تكون منيا يبدأُ من انحدارها من النخاع الى الكليتين ثم الى الانثيين . وهذا من علم القرءان الذي لم يكن للعرب شعور به من قبل . ومعنى كون الانسان خلق من هذا الماء الدافق انه يُبتَدَأُ خلقه منه فان هذا المـاء بمجرد نزوله من ذكر الرجل الى رحم الانثى يتصـل في الرحم ببُوَيْضَة دقيقة مما ينتشر في دم الحيض من المراة فتلك البويضة تختلط بذلك المـاء فيبدا تخلـق الانسان فلما كان ابتداء الخلق لا يحصل الا عند نزول ذلك المـاء في الرحم جُعل التخلق مبتدئا منه ولهذا قا الله تعالى «خلق من ماء دافق» ولم يقل خلق ماء دافق لان التخلق للبويضة ولا يطرأ عليها التخلق الا عند اختلاطها بذلك الماء .

(انّه على رَجْعِه لقَادِرٌ يومَ تُبْلَى السَّرائِرُ فما لـه من قُوةٍ ولا ناصرٍ)

جملة مستانفة تتنزل من جملة فلينظر الانسان مم خلـق منزلة النتيجة من الدليـل فالمعنى ان الذي خلق الانسان من ماء دافق قادر على اعـادة خلقه بكيفية اخرى، ووجه الدليل ان قدرة الله التي اوجد بها الانسان بعد ان كان معدوما لا يُعْجِزها أن تعيد خلقه بعد الفناء.

فالضمير الواقع اسما لانّ عائد الى الله تعالى وان لم يسبـق له معـاد في الكلام لكن قوله خُلق من ماء دافق يدل على خالق له وقـد عَلم المخاطَبون كلهم ان الخالق هو الله تعالى. وضمير رجعه للانسان والرجـع مصدر وهو الرجوع. ويوم تبلى السرائر هو يوم القيامة وبَلْو السرائر اختبارها اي حسابها. والسرائر جمع سريرة وهي مـا يخفيه الانسان والمراد الحساب على الاعمـال المكتومة فان الله قد اطلع عليها وجازى اربابها وقد علم ان الاعمال الظاهرة

اولى بالابتلاء فلم يذكر ذلك لانه معلوم بدلالة الفحوى. ولما كان بَلْو السرائر مؤذنا بالاطلاع على ما شأن الناس ان يستروه عن العيون من الجرائم ، علم ان بلو السرائر يقتضي العقاب والمؤاخذة على اعمال السوء واعظمها الكفر ففرع على جملة تبلى السرائر جملة فما له من قوة ولا ناصر والضمير المجرور باللام للانسان المراد به المشرك فان من سرائره كفره بالبعث فاذا ظهرت تلك السريرة ترتب عليها العقاب فما له من قوة فيدافع بنفسه عن نفسه وماله من ناصر ينتصر له فيدفع عنه من يريد عقوبته .

(والسماءِ ذاتِ الرَّجْع والارضِ ذاتِ الصَّدْعِ انَّه لقولٌ فصْلٌ ومـا هو بالهَزْل) لما أُكِّـد وقوع البعث بالقسم الواقع في اول السورة واقيم عليه الدليل ثانيا ، تَحقق ان ما كذبوه من اثبات البعث هو حق وانهم مبطلون في تكذيبه فاستؤنف قسم ثان على صدق القرءان وانه حق لان ذلك يتضمن القسم على وقوع البعث لانه اخبر به القرءان . والرجع المطر او السحاب الممطر. والصدع الشق. وصفت السماء حين القسم بها بما فيها من احد سببي الحياة والانشاء وهو المطر ووصفت الارض حين القسم بها بما فيها من السبب الآخر للانشاء وهو الشّق الذي يخرج منه الحب كقوله « انا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا فانبتنا فيها حبا الآية » لما في هذين الوصفين من ايماء الى دليل ءاخر من دلائل احياء الاجسام الميتة كقوله « او لم يروا ان الله يحيي الارض بعد موتها ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون . والضمير الواقع اسما لاِنّ راجع الى القرءان المفهوم من ظهور صدق ما جاء به القرءان .

والفصل وصف بالمصدر للمبالغة والمراد انه فاصل اي مميز وفارق بين الحق والباطل ومعنى ذلك ان ما اثبته فهو حق مثل البعث والتوحيد. وما نفاه فهو باطل مثل الشرك وكذب اهله وفساد دينهم . فوصف القرءان بانه فصل مؤذن بذلك كله على اوجز وجه واجمعه .

وأُتْبِع هذا الوصفُ بنفي ان يكون هزْلا والهزل اللعب والمزْح وهو خلاف الجد وخلاف الحق غالبا، وهذا الوصف تاكيد لمعنى كونه قولا فصلا تاكيدا للشيء

بنفي ضده كقوله تعالى «وأضلَّ فرعونُ قومَه وما هَدى » .

(إنهم يَكيدُونَ كَيْدا وأكيد كيدا . فَمَهِّلِ الكافرين أمْهِلْهُم رُوَيدا)

جملة مستأنفة استئنافا بيانيا ينبىء عن سؤال سائل يقول لما كان القرءان قولا فصلا وما هو بالهزل فما بالهم لا يصدقون به فيقع الجواب بإنهم يكيدون .

والكيد الاحتيال لاخفاء عمل يضر ، وهذا حال كثير من سادتهم أنهم يزعمون انهم لم يفقهوا صدق القرءان وحقَّه فيزعمون انه اساطير الاولين وانه قول ساحر وقولُ شاعر وانه لو جاء بالحق البيّن لآمنوا به والحقيقةُ ان الذي يمنعهم من التصديق هو المحافظة على سيادتهم ويضللون دهماءهم بتلك المعاذير الملفقة لئلا ينصرفوا عن طاعتهم . وكيدا مفعول مطلق وتنكيره للتعظيم فكان مبينا للنوع . وتشمل الآية كيدهم للرسول والمسلمين اضرارا يبيتونها لهم .

وجملة واكيد كيدا معطوفة على انهم يكيدون لانها مما يثيره السؤال السابق ايضا أن يقال اذا كان قولا فصلا فلماذا لا يعجّل لهم العذاب على تكذيبه . فمعنى واكيد وأُقدر لهم العذاب وأؤخره حتى يطمئنوا ويحسبوا انهم نَجَوْا منه كما قالوا « إنْ كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم » . وكيدا الثاني مفعول مطلق . واطلاق الكيد على استدراج الله اياهم من قبيل الاستعارة التمثيلية لان هيئة ذلك الاستدراج تشبه هيئة فعل الكائد .

والفاء في فمهل للتفريع على واكيد كيدا لما فيه من معنى التاخير والامهال . والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم اي فمهلهم واخرهم والمراد انتظار العذاب كقوله « فلا تستعجل لهم » وأمْهِلهم تاكيد لمَهِّل لانه بمعناه يقال مَهّل وأمهل وهو مشتق من المهلة وهي التاخير .

ورويدا مصدر جاء بصيغة التصغير وهو تصغير رَوْد بفتح الراء وسكون الواو ويقال رُؤد بضم الراء وهمزة ساكنة بمعنى المهلة وقد عومل معاملة اسم الفعل في قولهم رويدَك بمعنى أمهِل والمعنيان صحيحان هنا فعلى انه مصدر يكون تاكيدا ثالثا لمَهِّل ، وعلى انه اسم فعل يكون امرا للنبيء بان لا يتعجل العذاب فانه واقع بهم لا محالة وفي هذا الانذار والمتاركة ايذان بانتهاء السورة .

اسلـــوب هذه السورة

شابهت فاتحتها فاتحة سورة البروج فلتلاحظ فيها ما حوته فاتحـة سورة البروج من مناسبات وخصوصيات .

وقد يبدو التساؤل عن الفرق بين فاتحتيهما بان القسم في هـذه السورة كان اقصر من ذي سورة البروج، فوجهه مع انه تفنن ان القسم هناك روعي فيه تعدد ما اشتمل عليه المقسم عليه كما مر ءانفا. وبان القسم هنا بالسماء غير موصوفة خلاف ما في سورة البروج فسببه ان الذي اقتضى وصف السماء في سورة البروج منتف هنا .

وقد تضمنت فاتحتها رمزا الى تمثيل هيئة الاحياء بعد الموت باختراق نور الكواكب دياجي السماوات وهو تمثيل ينحل الى تفريق تشبيه الحياة بالنور والموت بالظلمة وهو من احسن التمثيل.وفي ذلك ادماج التذكير بعظمة الكواكب المذكر بعظمة قـدرة موجدها فاين اعادة الاجساد وبعثها من خلق هذه العوالم الجليلة .

فكان في ذلك الافتتاح براعة استهلال . ومقدمة استدلال . ثم لما تخلص من ذلك الاستهلال الى المقصود كان التخلص اليه بطريق الكناية عن اثبات البعث باثبات ان على العباد حفظة فان الحفظ يستدعي احصاء الاعمال والاحصاء يقتضي جزاء من ورائه وهذه كناية رمزية بديعة .

وحين حصلت مظنـة استقرار هـذا الخبر في قـرارة النفـوس فرع عليه استدعاؤهم للنظر في دقائق النشاة الاولى ليوقنوا بان النشاة الاخرة ليست باعجب من الاولى وادمج في ذلك وصف دقائق خلق لتحصل من ذلك فائدة معرفة سعة القدرة وتذكرة شكر النعمة .

وتخلص من ذلك الى التصريح بالقدرة على ارجاع الانسان يوم القيـامة وهو اليوم الذي يجري فيـه الحساب فلا يجد الكافـرون قـوة على النجاة منه ولا نصيرا لهم فيه .

ثم استونف التنوية بصدق القرءان لان التكذيب به هو الذي اوقعهم في ربقه انكار البعث فلم يقلعوا عن شركهم وافتتح ذالك بقسم روعيت فيه مناسبة المقسم به للمقسم عليه .

ثم انتقـل الى انهم لم يقتصروا على التكـذيب حتى تجاوزوه الى الكيـد بالمسلمين . و مر الرسول بالاعراض عن كيدهم وامهالهم الى حين قريب فـكان ذالك موذنا بالختام .

سورة الاعلى

اشتهرت في المصاحف باسم سورة الاعلى والسلف يسمونها سورة سبح اسم ربك الاعلى وهي مكية وفي حديث البراء بن عازب انه حفظها قبل مجيء النبي صلى الله عليه وسلم المدينة. فهي من اول السور نزولا قيل هي ثامنة السور نزولا وما اشتملت عليه من المعاني يشهد لذلك، ومعظم المقصود من هذه السورة،تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم على تلقي الوحي ووعده بتيسير اضطلاعه باداء الرسالة،وتحريضه على التبليغ وانه سينتفع بتبليغه كثير من الناس فيفلحون ويعرض عنه كثير فَيَشْقَوْن لايثارهم الحياة الدنيا، وان ذلك شان الامم مع رسلهم. وفي خلال ذلك تعريض باحوال المشركين وافتتاحها بامر الله نبيه بان يسبح الله مؤذن بان غرض السورة اثبات مكارم النبي صلى الله عليه وسلم عند ربه فهذا الافتتاح من براعة الاستهلال .

(سَبِّح اسمَ ربك الاعْلَى الذي خَلَقَ فَسَوَّى والذي قَدَّرَ فهدَى والذي أخْرَجَ المَرْعَى فجعله غُثَاءً أحْوَى) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والافتتاح بهذا الامر يؤذن بخير بشارة وهي قوله بعد سنقرئك الآية كما يقول البشير حين يصل منزل المبشر صل على النبيء، والتسبيح قول يدل على التنزيه عن النقائص قال وان من شيء الا يسبح بحمده فالمراد به هنا ذكر الله باوصاف المدح والتنزيه، وذكر الممدوح يكون بواسطةاسمه الدال على ذاته والمقصود تنزيه المسمى فلذلك صح ان يتعلق فعل التسبيح بما يدل على الذات من الاسماء والصفات فقال هنا سبح اسم ربك. ولما كان الكلام دليلا على معان في النفس كان التسبيح يقتضي اعتقاد تنزيه الله عن النقائص . واجراء صفات الاعلى وما بعدها على الرب للدلالة على انه مستحق التسبيح فهو تعريض بالذين يسمعون القرءان من المشركين وان كان الخطاب موجها الى الرسول كما في قوله تعالى « يسبح له السماوات السبع والارض ومن فيهن ـ وقوله ـ فاسجد له وسبحه » .

وفي اطلاق الرب على الله مضافا الي ضمير المخاطب فائدتان احداهما التنبيه على انه مستحق للتنزيه لانه الخالق والثانية التنويه بقدر النبيء صلى الله عليه وسلم باضافة اسم الرب الى ضميره. وفيه تثبيت لقلبه بان الله ربه وبدبر شانه. والا على تفضيل في العلو وهو علو الشان والعظمة والله هو الاعلى لان علوه حق ذاتي له لا مزية لغيره في علوه وذلك ايماء الى استحقاقه التنزيه ففيه تعريض بالمشركين اد لم ينزهوه عن الشرك .

والوصف بالذي خلق لما في الصلة من التسبب في الامر بالتسبيح لله لان الخلق والتسوية والهداية والرزق من الاسباب الموجبة تسبيح فاعلها. وحذف مفعول خلق ليفيد العموم اي خلق كل شيء وحذف مفعول فسوى تبعا له وللرعاية على الفاصلة ، والتسوية تقدم معناها في سورة الانفطار .

والتقدير هو جعل الاشياء ذات مقادير مناسبة اي على مقدار ما تحتاجه في اداء وظائفها فحقيقة التقدير تؤذن بوضع المقادير المناسبة المنضبطة . ومفعول قدّر محذوف للعموم اي قدر كل شيء قال تعالى وخلق كل شيء فقدرة تقديرا . ولاجل هذا المعنى وهذا العموم فُرع عليه قوله فهدى اي فهدى الاشياء التي قدرها هدايةً الى اداء وظائفها كما قدرها لها ، فالهداية هنا بمعنى التعليم والالهام كما في قوله «وهديناه النجدين» فانه لما قدر الانسان قابلا للنطق والعلم والصناعة هداه الى استعمال ذلك كله ، ولما قدر البقرة للدَّر الهمها الرعي و رِئْمَانَ ولدها حتى تدر له وللحالب ، ولما قدر النحل لاخراج العسل الهمها الى رعي النَّور والثمر والى بناء الخلايا في الشهد ووضع العسل فيها . فاما الاشياء التي قدرها ولم يجعل لها ادراكات مثل تقدير الاثمار للشجر والانبات للارض فذلك غير مراد هنا لانها لا هداية لها وهو مراد من قوله قَدَّر كما في وخلق كل شيء فقدره تقديرا كما انبا عنه عطف قوله والذي اخرج المرعى فجعله غثاء احوى فان ذلك ضرب من التقدير لكنه خصه بالذكر لما فيه من العبرة الخاصة ولانه تقدير غير مرفوق بهداية فرجع التقدير والهداية الى خلق العقول والادراكات في الموجودات .

وكرر اسم الموصول في قوله والذي قدر وقوله والذي اخرج المرعى مع ان صاحب الصلة واحد فلم يقل الذي خلق فسوى وقدر فهدى واخرج

المرعى فجعله غثاء احوى، للاهتمام بمدلول كل صلة من الصلات الثلاث واستقلال كل واحدة منها في الدلالة على استحقاق التسبيح وعلى نوع من الايجاد فمقام البيان اقتضى الاطناب .

والمرعى الكلا والنبت الذي ترعاه الانعام والدواب واصل المرعى اسم مكان الرعي فاطلق على ما يقصد لاجله مجازا بقرينة اخرج .

والغثاء ما يبس من النبت . والاحوى وصف من الحُوَّة بضم الحاء وتشديد الواو المفتوحة وهي سُمْرة تقرب من السواد، وهذا مثال خاص من التقدير فيه النعمة على الحيوان بايجاد ما يحفظ حياته وفيه ما يذكر الانسان بما خلق الله من الارزاق التي بها قِوام حياته فان المرعى ترعاه الانعام والانعام تَدُر الالبان وتُخرج الاصواف. وفي قوله فجعله غثاء احوى ايماء الى الافناء بعد الايجاد ليتذكروا الموت فهو تمثيل للبعث بطريق الكناية .

(سنُقْرِئُك فلا تنسَى إلا ما شاء اللهُ انه يَعْلَمُ الجَهْرَ وما يخفَى ونُيَسِّرُك لليُسْرَى) هذا هو المقصود من الكلام وهو الممهّد له بافتتاح السورة بامره بالتنزيه لربه شكرا على نعمة ستذكر. فجملة سنقرئك مستانفة استئنافا بيانيا لان امره بالتسبيح ينشيء في نفس النبي ترقب بشارة بنعمة . والسين للاستقبال المراد منه تكرير نزول الوحي عليه لان هذه السورة قد تقدمها نزول عدة سور فكان الاخبار بانه بقرئه في المستقبل اخبارا بدوام الوحي واسترساله .

وعُقِّبَ وعدُ تكرر الاقراء بالاخبار بنفي نسيان ما يقرأه في المستقبل تثبيتا لقلبه لان تكرر الاقراء في المستقبل يستلزم كثرة القرءان المحفوظ، والكثرةُ مظنة النسيان لعسر احاطة الحفظ بالمحفوظات الكثيرة، فيوجس الرسول خيفة من التقصير في تبليغ جميع ما انزل اليه من القرءان، فلذلك عطف نفي النسيان بفاء التعقيب على الوعد باقرائه . والنسيان انمحاءُ المعلوم من الحافظة. وهذا الوعد يؤذن بعصمة الرسول عليه السلام من نسيان شيء مما يوحى به اليه وهو من تمام معنى الحفظ الذي في قوله تعالى «انا نزلنا الذكر وانا له لحافظون».

وحذف مفعول تنسى لدلالة المستثنى عليه اي لا تنسى الذي نقرئك . والاستثناء من المفعول المحذوف مفرغ اي لا تنسى الا المقرؤ الذي اراد الله

انساءك اياه، وذلك هو ما اراد الله نسخ تلاوته فامر جبريل بترك مراجعته اياه حتى يزول من حفظ النبيء فهو الانساء الذي في قوله تعالى « ما ننسخ من ءاية او ننسها نات بخير منها او مثلها». وهذا الاستثناء بمنزلة الاحتراس لانه قد يقع النسيان لحكمة ارادها الله فنبه عليه هنا وان كان المقصود من الكلام هو قوله فلا تنسى، ولان هذا انساء مقصود لمصلحة فهو من تمام المقصود من الوحي فان الوحي للتشريع .

وجملة انه يعلم الجهر وما يخفى معترضه وهي تعليل لتثبيت قلب النبي بقوله فلا تنسى اي لانه يعلم انك لست بمقصِّر ويعلم انه مـا اوحى اليـك القرءان الا وقد اراد حفظك من نسيانه اذ لو لم يحفظك منه لكان انزال بعض القرءان اليـه قليل الفائدة اذا كان ينسى، ولاجل هذا المعنى تعلق فعل العلم بالجهر وما يخفى دون ان يتعلق بشيء آخر مما يفيد احاطة العلم مثل ان يقال يعلم ما يزول وما يبقى .

وجملة ونيسرك لليسرى معطوفة على جملة سنقرئك فلا تنسى وهي بمنزلة ذكر الاعم بعد الاخص قبله للاهتمام بخصوصه ثم ذكر ما يشمله وغيره، فان حفظه من النسيان تيسير للقرءان عليه. ثم بشره بانه يجعل شؤونه كلها ميسرة لاحرج عليه في عملها .وقد رُكب للدلالة على هذا المعنى تركيب بليغ اذ جعل النبيء هو الميسر للدلالة على ان الله خلقــه خلقـا يجعله قابـلا لتلقي الكمالات ومحـاسن الامور فذلك تيسير ذاته بحيث لا يشق عليه شيء من اعمال الفضائل والكمالات وهي من شانها ان تشق على الناس كما قال الهذلي :

وان سيـادة الاقـوام فاعْلَمْ لهـا صُعَدَاء مَطْلَعها طويـل

فلذلك لم يقل ونيسر لك اليسرى .

فهذا كقوله « الله اعلم حيث يجعل رسالاته ».

واليسرى صفة من يُسر الامر وهي مؤنث الايسر وهي هنـا صفة لموصوف محذوف اي الامور اليسرى وهي الامـور التي يحصل منها اليسر للنـاس وهي الفضائل والكمالات لانها منافع للناس ومصالح لهم فهي وان شقّت على من تَصْدر منه يسيرة الوقع على من تقع عليه ولذلك سمّى الله الجَنة باليسرى والنار بالعسرى في قوله « فاما من اعطى واتقى وصـدق بالحسنى فسنيسره لليسرى واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ومـا يغني عنه ماله اذا تردى » اى في جهنم ، فجعل الله خلقه نبيه جبلة مناسبة وملائمة لصدور الفضائـل منـه التي هي

مصدر اليسر للناس وهذا مثل قوله وما ارسلناك الا رحمة للعالمين . ولاجل هـذا المعنى الجليل لم يقل ونيسر اليسرى لـك كما هو الشائع في الكلام ان يكون فعل التيسير متعديا بنفسه الى الامر المسخر للفاعل ومتعديا باللام إلى الفاعل المسخر له الامر كقوله ويسر لي امري، وانظر ما ياتي في قوله تعالى فسنيسره لليسرى في سورة الليل . وفي هذا دلالة على ان الشريعة التي جاء بها شريعة يسر ورحمة قال تعـالى يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر وقال مالك رحمه الله ودين الله يُسْر» .

(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى) تفريع على مضمون سنقرئـك فلا تنسى ومضمون و نُيَسرك لليسرى وذلك ان اقراءه وحفظه من النسيان وتيسير المهمات عليه كل ذلك كان لحكمة ارادها الله وهي تبليغ رسالة الله الى الناس وذلك التبليغ هو التذكير ففرع الامر عليه والامر بالتذكير مستعمل في الامر بالدوام على التذكير والزيادة منه . والذكرى تقدمت في سورة عبس .

ولما كان الغرض من التذكير هو اهتـداء الناس الذين يذكرهم كان قوله فذكر مشعرا بتقـدير يَتَذَكَّر الناسُ كما دل عليه قوله سيذكر من يخشى فوقع قـوله ان نفعت الـذكرى موقع الاحتراس لمـا تضمنه لازم الامر بالتـذكير ، والتقدير فذكر يتذكّرُ الناسُ ان نفعت الذكرى فانها تنفع اقوامـا ولا ينتفع بها ءاخرون فهو تقييد للحاصل بالتذكير . والمقصود من هذا التسجيلُ على من لا ينتفعـون بالذكرى ولا يتصدّون لقبول الاهتـداء، والتكفل بحصول النفع بها للذين طلبوا الهدى، فليس الشرط لتقييد الامر بالتذكير لان النبيء صلى الله عليه وسلم لم يكن في حال من الاحوال مامورا بترك التذكير ولو على تقـدير ان الله اطلعه على تعلق ارادته بحرمان بعض معين من الكفار من الايمان فما كان ذلك ليصده عن تذكير اولئك في جملة عموم الناس لان الدعوة عامة ، ولاقامة الحجة عليهم، ولانما في علم الله قد اراد اخفاءه عن الناس لحكمة الحمل على الظاهر واما معان اخر تـاولها بعض المفسرين فهي بمعزل . وقد رتب على ذلك التسجيل قوله :

(سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ويَتَجَنَّبُها الاشقى الذي يَصلى النَّارَ الكُبرى ثم لا يمـوتُ فيها ولا يَحْيَى) فجملة سيذكر من يخشى مستانفـة استئنافا بيانيـا لان

قوله ان نفعت الذكرى يثير سؤالا عن الذين تنفعهم الذكرى وعن اضدادهم وفيها وعد للرسول بانه ستنفع رسالته الخلق . والمراد بمن يخشى وبالاشقى الجنسان لا شخصان معروفان .

ومن يخشى هو من يتوقع صدق الوعيد فينظر في الدعوة حتى يعلم صدق الرسول فيتذكر فالمشركون لما نفوا البعث والجزاء بعد الموت ، وزعموا ان اصنامهم تدفع عنهم غضب الله في الدنيا ؛ فقد انتفت عنهم خشية الله فلا يرجى منهم التذكر الا من شاء الله هديه لحكمة يعلمها والخشية الخوف وتقدمت في سورة النازعات والتقدير من يخشى الله . والتجنب ترك الشيء بجانب اي بعيدا اي يعرض عن الذكرى للمكابرة . والاشقى وصف صيغ بزنة التفضيل من شَقِيَ اي الفائق في الشقوة وهي سوء الحالة وتعبها . والشقوة في اصطلاح الشرع الحالة المفضية بصاحبها الى عذاب الآخرة فتقابلها السعادة، ولما في هذا الاطلاق من الخفاء في صدر البعثة أُتبع اسمُ الاشقى بوصفه المبيّن له الكاشف عن معناه وهو قوله الذي يصلى النار الكبرى . ومقابلة من يخشي بالاشقي تؤذن بان الاشقى من شانه أن لا يخشي فهو منغمس في غروره وكبريائه فلذلك يبقي في ضلاله حتى يحق عليه العذاب والشقاء . وتؤذن إيضا بان من يخشى ليس بشقي فو السعيد ، ولاجل هذا الايذان تُرك الثناء على مصير من يخشى اكتفاء بذكر ذم مصير ضده وهو الاشقى . و معنى يصلى تقدم في سورة الانفطار .

وجملة ثم لا يموت فيها ولا يحيى معطوفة على جملة الذي يصلى النار الكبرى فهى في موضع الصفة. وعطفت بثم التي هي في عطف الجمل للترتيب الرتبي لتدل على ان مضمون الجملة المعطوفة اقوى رتبة في الغرض المسوق اليه الكلام فان الغرض هو تفظيع عَاقبة المُعرِضين عن الذكرى بما ينالهم من عذاب النار وذلك العذاب يكون افظع واشد اذا علم ان الواقع فيه لا يموت فيستريحَ منه ولا يحيى الحياة المعروفة فيكونَ سالما منه فهو بين الحياة والموت لانه يذوق آلام العذاب ولا يذوق نعيم الحياة .

(قد أفلح من تـزَكّـى وذَكَر اسمَ ربه فصَلّى) استئناف بياني لان السكوت عن مصير من يَخشى يثير سؤال من يَسأل عن مصيره فذكر هنا على وجه يعم

الخيرات اذ عبر عنه بالفلاح مع الاشارة الى ان الذي يخشى هو من تزكى وذكر اسم ربه فصلى اي من آمن لان اجراء هذه الاوصاف على المفلح في مقام الاستئناف البياني يقتضي لامحالة ان المفلح هو الذي يخشى بطريقة قياس المساواة . ويحصل كشفُ معنى الخشية المتقدم ذكره اجمالا كما حصل كشفُ معنى الشقوة بقوله الذي يصلى النار الكبرى الخ طريقة بديعة من التفنن في النظم .

والفَلاح النجاح في العمل وصلاحُ الشان ففيه الفوز والنفع فهو جامع لمعنى الظَّفَر بالخير . والتزكـي التنزه النفساني اي جَعل نفسه زَاكيـا اي تنزّه عـن الشرك والخبائث النفسية وتقدم في سورة النازعات وسياتي قوله « الذي يؤتي ماله يتزكى» في سورة الليل فهذا كقوله تعالى «قد افلح من زكّاها» وليس المراد هنا اعطى الزكاة كما توَهمه بعضهم لان ذلك يقال فيه زَكـى لاتزكى .

وذكَـر اسم ربه يحتمل ان يراد به الذّكر القلبي فتكون كلمة اسم مقحمة كاقحامها في قول لبيد ﴿الى الحول ثم اسم السلام عليكما﴾ والمعنى تفكر في شان ربه وعَلم انه واحد لاشريك له ، ويحتمل ان يراد به الذّكر اللساني فيكون كلمة اسم مرادا بها اللفظ الدال على الله من اسمائه اي تكلم باوصاف الله ، ولعل كلا المعنيين مراد اكثارا للمعاني القرآنية . وعَطف فصلـى بفاء التعقيب والتفريع لان التزكي وذكـر الله يدعوان الى الصلاة لتعظيم الله والخضوع اليه والصـلاة هي شعـار المؤمنين الا ترى الى قوله تعالى « ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين » اي لم من الطائفة الذين شأنهم ان يصلوا .

وفي هذا تنويه بشأن الصـلاة فانها عمـاد الدين لانها تقتضي حضـور ذهن المصلي لمناجة ربه ، وتقتضي تذكرة رضى ربه وغضبه ، فيتكرر تذكر المؤمن ربه في خمسة اوقات من اليوم وذلك يجدد في نفسه مراقبة ربه ومحاولة الاقبـال على ما يرضيه والفكـرَ في التوبـة ، ولا شك ان تكرر ذلك يصل بنفس المؤمـن الى مقام التقوى بسرعة او ببطء على حساب استعداد نفسه قال تعـالى « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .

(بَـلْ تـؤْثِرون الحَياة الدُّنيا والآخرةُ خيرٌ وأبْقى)

بل للاضراب عن مقدَّر دل عليه قوله قد افلح من تزكى المؤذنُ بان فريقا

من النـاس لا يتزكى ولا يذكر اسم ربه وهم المشركـون فنبهـوا على سبب ضلالهم بانهم يؤثرون الدنيا على الآخرة توقيفـا لهم على خَطَل رايهم وسـوء تدبيرهم لانفسهم، وايقاظا لهم عسى ان يتداركوا امرهم، فالتقدير وانتم لا تاتون ما به الفلاح بل تؤثرون الحيـاة الدنيا . وقد قراه الجمهور بتاء الخطـاب على طريقة الالتفات من ضمير الغايب الى الخطاب ، وقراه ابـو عمرو بيـاء الغيبة على بقـاء السّياق . واعلم ان لطوائف المؤمنين حظوظا من هذا التوبيخ على إيثار الحيـاة الدنيـا على الاخرة على مبلغ تفاوتهم فيه وبمقدار التفريط في واجب اعمال الاخرة يقترب المؤمن من حال اهل الشرك الذميم وان لم يكن مشركا فيناله من العقاب ما علم الله مقداره والايثار التفضيل والترجيح والمراد بالحياة الدنيا منافعها المضـادة لمنافع الآخرة فمنها ما ايثاره يفوت بعض نعيم الاخرة ورفعَ درجاتهـا مثل إيثار اللهو على الاشتغال بخيرات دينيّة كالنوافل والصدقات ومنها ما ايثـاره يفيت بعض وسائل النجاة مثل ايثار الشهـوات على كلفة ترك المحرمات. والدنيـا وصف للحياة ، والاخرة وصف جرى مجرى الموصوف اي الحياة الاخرة .

(إنّ هذا لَفِي الصُّحـف الاولىَ صُحُف ابْراهِيمَ ومُوسى)

جملة هي تذييل لما سبقها المشارِ اليه بهذا اي هذا المذكور ، وجيء بحرف التاكيد للاشارة الى ان ما سبق امر مما لا شك فيه والمشار اليه بهذا اي مضمون قوله سيذكر من يخشي الى ءاخره يعني ان ذلك مما جاء به كل الرسل وتضمنته الكتب السابقة .

والصحف جمع صحيفة وهي القطعة من رقّ اوثوبٍ يُكتب فيها ما يراد إبْلَاغُه الى غائب او إمْكانُ مراجعته خشية النسيانُ . وصحف ابراهيم ما كَتب فيه ابراهيمُ عليه السلام بعَض ما اوحَى الله اليه او جميعَه ، وصُحُف موسى هي التوراة التي كتبها موسى بيده وضمّن فيها ما في الالواح من الكلمات العَشر .

اسلوب هذه السورة

ابتدئت السورة بامر الله نبيه ان ينزه اسم ربه الاعظم ايذانا بانه سيبشره ببشرى وانها من جنس ما يُسْدِيه الـرب الى مربوبه . ثم اردف ذلك بوصف

الله تعالى بصفات تقضي باستحقاقه التسبيح وهي مناسبة للبشرى التي في هاته السورة لشمول تلك الصفات خلق النبيء وتسوية نفسه وتقديره النبوءة له واخراج صالح لتمثيل اظهار دين الاسلام في امة امية وايماء بانه سيبلغ كماله ، كما اشار اليه قوله النبي صلى الله عليه وسلم « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير اصاب ارضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلا الخ . . » وفي ذلك ايضا تعريض بخطل المشركين اذ لم ينزهوا خالقهم عن الشريك مع انه خالق اكمل خلق للذوات والعقول والادراكات ، وخالق ما به دوام حياتهم ، واو مات الى مثل الحياة والموت . ثم رجعت الى المقصود وهو تبشير النبيء بان الله ينزل اليه القرءان ويحفظه من نسيانه حتى يبلغ ما أنزل اليه الا ما اراد الله نسخه من القرءان ، ثم طمأن قلبه مما يختلج في نفسه من خشية التقصير في اداء الرسالة ووعده بانه ييسر له ذلك ، وفرع على ذلك امره بتذكير الناس سواء من تنفعه الذكرى فيهتدي ام من لا تنفعه فتقوم عليه الحجة ، واثنى على الذين يقبلون الهدى وذم وتوعد الاشقياء الذين لا يقبلون الذكرى ، ثم خاطب المشركين بكشف دخيلتهم التي تصرفهم عن الذكرى وهي محبة الدنيا والرئاسة ، وختم ذلك كله بان ذلك كله حق قد جاءت به الرسل الاولون في صحفهم ، وفي هذه الخاتمة ايذان بجامع ما تقدم وذلك من براعة المقطع .

سورة الغـاشية

تسمى سورة هل اتاك حديث الغاشية وتسمى سورة الغاشية وهي من ءاخر ما نزل بمكة .

اشتملت هذه السورة على تهويل يوم القيامة وحال الناس فيه من شقي وسعيد وما اعد للاشقياء من عذاب وما اعد للسعداء من نعيم ترهيبا وترغيبا . ثم انتقل الى اقامة الحجة على المشركين في عدم اهتدائهم الى بديع صنع الله الدال على تفرده بالالاهية. وفرع عليه امر النبي بتذكيرهم لعلهم ينظرون فيما لَهُوا عن النظر فيه. وختم بتهديدهم بانهم راجعون الى الله فمحاسبهم على عملهم . وافتتاحها بالاستفهام تشويق لتلقي ما يرد بعد.وذكر حديث الغاشية فيه براعة استهلال لاغراض السورة.

(هَلْ اتاكَ حَدِيثُ الغَاشِيَةِ)

تقدم الكلام على هل اتاك حديث في قوله تعالى « هل اتاك حديث موسى اذ ناداه ربه » في سورة النازعات ومثله قوله تعالى « وهل اتاك نبا الخصم اذ تسوروا المحراب » وهو للتهويل المشوب بالتهديد ولذلك اختير من اسماء المتحدث عنه اسمُ الغاشية . والغاشية الداهية العظيمة لانها تغشى الناس اي تحيط بهم وتدعوهم فلا يجدون عنها منجى . والغاشية لم يستعملوها في الكلام الا مؤنثة فلا تذكّر وهذه طريقة في كلامهم في كل ما اريد نقله من الوصف الى الاسمية مثل الداهية والطامة والدّارّة والمصيبة والصاخّة والحاقّة والقارعة والازفة وقد قطع النظر عن اشتقاقها فصارت بمنزلة العلم بالغلبة على ساعة البعث .

والمراد بالغاشية هنا يوم البعث بقرينة قوله الآتي وجوه يومئذ والمقصود الاول تهديد الكفار بانه واقع لان ذلك يتضمن تهديدهم بحصول العقاب الموعود.

(وُجُوهٌ يومَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى ناراً حَامِيَةً تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ليس لهم طعامٌ الا مِنْ ضَرِيعٍ لا يُسْمِنُ ولا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ)

هذه الجملة مستانفة استئنافا بيانيا جوابا عما يثيره الاستفهام من انتظار خبر عظيم في جواب السؤال على طريقة قوله عم يتساءلون عن النبا العظيم .

والخشوع المذلة قال تعالى « خَاشعين من الذل ينظرون من طَرْف خفي — وقال — خاشعة ابصارهم ترهقهم ذلّة » والمذلة تظهر على الوجه واختيرت لها مادة الخشوع على ضرب من التورية اي كانوا خاشعين يوم العقاب ولم يخشَعوا في الدنيا خشوع العبادة ، وعاملة بمعنى مُتْعَبَة ناية عن تعب العـذاب واختيرت له مـادة عاملـة على وجه التورية تبعـا للتي في قوله خاشعة لانهم لم يعملوا في الدنيا ما امروا بعمله من الصالحات واعلاها الايمان . وأُتبعت عاملة بناصبة تهكما لانها استَثْقلت نَصَب التكاليف وعَدَلت الى اللهـو واللعب فعُوضت عنه النَّصب الدائم واطلاق النَّصَب على العبادة في جاء قوله تعالى « فاذا فرغت فانْصَبْ » .

واسناد عاملة وناصبة الى الوجوه مجاز عقلي تبع لاسناد خاشعة الى الوجوه لكونها دالة على حال اصحابها فهو من الاسنـاد الى غير ما المسند له ولكن الى مُلابسه . وجملة تصلى نارا حامية خبر رابع عن وجوه ومعنى تَصْلى تحترق وقد مر تفسيره عند قوله تعالى يصلونها يوم الدين في سورة الانفطار . وقرأه الجمهور بفتح التـاء من صَلِـيَ وقرأه ابو عَـمْرو بضم التاء من أصـلاه النار اذا احرقه . والحَمْي شدة الحر ، وجملة تُسقى من عين آنية خبر خـامس . وآنية اسم فاعل من أنَـى اذا بلغ غاية الحَـرّ كقوله تعالى « يطوفون بينها وبين حميم آن » والمعنى من ماء سخن ، وجملة ليس لهم طعـام خبر سادس عن وجوه باعتبـار اصحـاب الوجـوه وقرينة ذلـك اجـراء ضمير العاقـل عليه في قـوله لهم دون ان يقـال لها . والضريـع نبت مسموم اذا رعته الابل والوحش اصابهـا وجَع شديد في امعائهـا فاهلكها ، والكـلام هنا جـرى على طـريقة التشبيه البليـغ اي الا من مِثْل الضَّرِيع في شدة الم الامعـاء لآكليه والغرض من التشبيه تقريب المشبه كقـول النبي صلى الله عليه وسلـم في صفة جهنـم فاذا لها كلاليب مِثْل حسك السعد ان هَلْ رَأيتم حَسَك السعدان .

وجملة لا يسمن ولا يغني من جوع صفة لطعام المقدر في الاستثناء المدلول عليه بلفظ المستثنى منه والتقدير الاطعام لا يسمن ولا يغني من جوع زيادةً على ايلامه الامعاء . والمعنى انه قد انعدم منه جميـع فوائد الطعـام من الالتذاذ بحصوله في المعدة ومن عودة على الجسد بالصحة واخلافِ ما اضيع من اللحـم والشحم ومن دفعه ألم الجوع .

وتنكير وجوه وهو مبتدا لان المقصود منه النوع. وخُصت الوجوه بالذكر دون غيرها من الاعضاء لان الوجوه تدل على حالة اصحابها لان الوجه هو مظهر ما لصاحبه من نعيم او شقاء كما يقال خرج بوجه غير الذي دخل به والمعنى اناس اصحاب وجوه .

ويومئذ ظرف متعلق بخاشعة، واذ مضافة الى جملة محذوفة كما يقتضيه تنوين العوض ، وهذه الجملة يدل عليها لفظ الغاشية باعتبار اصل الاشتقاق والتقدير يوم اذ تُغْشَى بالغاشية وتقدر جملة يدل عليها السياق نحو يوم اذ تقع الغاشية وهو احسن كقوله « يوم ترونها - وقوله - يوم ياتي بعض ءايات ربك » .

والسمن كثرة اللحم في بدن الحيوان . ومن جوع متعلق بيغني . وحرف مِن بمعنى البدلِ اي لا يغني ذلك الطعام غناء يكون بدلا من الجوع اي فالجوع باق والطعام لا يزيله فالجوع باق في المحل .

(وُجُوهٌ يومئذ نَاعِمة لِسَعيها رَاضِيَةٌ في جَنَّةٍ عالِيَةٍ لا تَسْمَع فيها لاغية فيها عينٌ جارية فيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ وأَكوابٌ مَوْضُوعة ونَمَارِق مَصْفُوفةٌ وزرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ)

قد يتبادر الى الذهن انّ حق جملة وجوه يومئذ ناعِمة ان تعطف على التي قبلها كما عطفت جملة ووجوه يومئذ عليها غبرة على جملة وجوه يومئذ مسفرة في سورة عَبس ، ولكن لما اريد الايماء الى ان المقصود من الاستفهام هو التعريف بحال المهددين بحاصل الخبر وهم اصحاب الوجوه الخاشعة ، قُطِعَتْ هذه الجملة لئلا يكون حكمُها حكمَ الجملة الاولى وجُعلت مستانفة استئنافا بيانيا كجواب عن سؤال تثيره فظاعة وصف اصحاب الجملة الاولى، كانّ السامع تساءل هل يكون في ذلك اليوم نعيمٌ لقوم آخرين ، بخلاف الجملتين اللتين في سورة عبس اذ لم يتقدمهما ابْهام لاتصالهما معا بالظرف المفاد من اذا جاءت الصاخّة وبهذا الاسلوب صارت هذه الجملة بمنزلة الاعتراض والاستطراد لاظهار الفرق بين حالي الفريقين زيادة في غم المعرَّض بهم وايماءً الى بشارة

اضدادهم ، ويُعلم من سياق الكلام ومقام الدعوة الى الاسلام ان الفريق الشقي هو الفريق المكذب بالرسول والفريق السعيد هم المؤمنون .

والناعمة التي صادفها النعيم. والسعي الاجتهاد في العمل . ورضاها سعيها حمدها عاقبته يوم القيامة اي سعت في الدنيا فرات حسن عاقبته يوم القيامة فاللام في قوله لسعيها لام التقوية لضعف العامل بكونه فرعا في العمل وبتاخره عن المعمول . وتقديم لسعيها للاهتمام به وللتقوي ولتاتي الفاصلة مع قوله: عالية، ولاغية،وجارية. وسعي هذه الوجوه هوسعي اصحابها اي عملهم الصالح يعلم من المقام .
والعالية المرتفعة لان ذلك يزيدها حسن منظر لناظرها وللناظر منها وقد يراد بالعلو شرف القدر ونفاسة الشيء . والمعنى ان لكل وجه من تلك الوجوه جنة خاصة يتمتع بها .

وناعمة وراضية خبر ان عن وجوه.والمجرور في قوله في جنة خبر ثالث وقد قوبلت صفات وجوه الكفار خاشعة عاملة ناصبة ، بصفات وجوه المؤمنين ناعمة لسعيها راضية ، فناعمة مقابل خاشعة ولسعيها مقابل عاملة وراضية مقابل ناصبة وكونها في جنة يقابل كون وجوه الكفار تصلى نارا حامية .

وجملة لا تُسمع فيها لاغية نعت لجنة وكذلك فيها عين جارية ، فيها سرر مَرْفوعة . واللاغية الكلمة التي لا جدوى لها مشتقة من اللغو وهو الكلام الذي ليس منه فائدة . وقرا نافع لا تُسمع بالمثناة الفوقية مضمومة وبرفع لاغية على انه نائب عن الفاعل ، وقرا حمزة وعاصم والكسائي بفتح الفوقية ونصب لاغية على ان الخطاب لغير معيَّن . وقرا ابو عمرو وابنُ كثير وابنُ عامر بالتحية المضمومة ورفع لاغية من باب تذكير الفعل المسند الى اللفظ المؤنث لوقوع الفصل بين الفعل ومرفوعه. وقوله فيها عين اي في كل جنة من جناتهم عين ووصف العين بالجري للاشعار بصفاء الماء وتجدده.ووجود العيون في الجنات من متممات حسنها .

وقد وصف ترف الجنة باقصى ما تبلغ اليه الرفاهية عند المخاطَبين تقريبا لافهامهم لان ترف الجنة لا يوصف الا على وجه التقريب اذ لا يبلغه الوصف الكلامي ، او لان الارواح ترتاح في الجنة الى مالوفاتها فيكون نعيم ارواح عصر

القرءان في الدرجة القصوى مما الفوه . وكذلك قوله فيها سرر مرفوعة واكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة وقد دلت ءايات اخرى على ان لاهل الجنة كل ما يشتهون .

وفصلت جملة فيها سرر مرفوعة فلم تعطف على جملة فيها عين جارية لانه قصد التّعداد لهذين النوعين ومقام التعداد تقطع فيه الجلة . والسُّرُ جمع سرير وهو مقعد اقيم على أرْجل ليكون مرتفعا بعيدا عن تـراب الارض وذلك من الرفاهية. ووصفهابالمرفوعة بمعنى انها عالية باكثر مما تقتضيه صورة السرر المعروفة . والاكواب جمع كوب وهو انـاء الخمر الذي لا عُروة لـه ولـه ساق يمسكه الشارب منهـا وذلك اجود آنية الخمر عرفـا . والموضوعة المهياة للشاربين من قبل حضورهم وذلك ادعى للشراهة على الشراب . والنمارق جمع نُمْرُقَة بضم النون وضم الراءي وهي الوسادة التي يُتكأ عليها .

والزرابي جمع زَرْبِيّة وهي بسـاط منسوج من صوف رفيـع لـه خمل رقيق وانما سميت زربية لانها تجلب من مدينة أذربيجان من بلاد فارس واسمها بالفارسية ازربيجان بالزاي لان اللسان الفارسي ليس فيه حرف الذال المعجمة فلذلك سمّى العرب البساط المجلوب منها زَربية ومع ذلك سَمَّوْا الصوف اللّيّن بالاذْربي بالذال وذلك لاختلاف الحال التي وقع فيها التعريب باختلاف الازمان او القبائل او التلقي من الناطقين . والعرب قد يغيرون الاسماء العجمية اذا عربوها. وكان السادة واهل الرفاهية من العرب يفرشون الزرابي في البيـوت للجلوس عليها ويضعون عليها النمـارق للاتكاء . والمبثوثة المنثورة المتفرقـة في الارض. وهذا من احسن التمثيل اذ شبه هيئة كثرتهـا في اراضي البيوت بهيئة انتثار الاشياء في الارض .

(أفـلا يَنْـظُرُونَ الى الابِل كَيفَ خُلِقَتْ والى السّماء كيفَ رُفِعَتْ والى الجِبَال كَيفَ نُصِبَتْ والي الارض كَيفَ سُطِحَتْ)

الفاء للتفريع والعطف فرعت جملة الا ينظرون على جملة الوعيد اعني قوله وجوهٌ يومئذ خاشعة عاملة ناصبة الآيـات تفريعَ التعليل على المعلّل لان فظـاعة ذلك الوعيد تجعل المقام مقام الاستدلال على انهم احرياء به لانهم أعرضوا عن

النظر في دلائل الوحدانية من عظيم مصنوعات الله الدالة على ان انشاء الانسان بعد الفناء ليس باعجب من انشاء المخلوقات العظيمة بعد ان كانت معدومة، فعبدوا غيره وكذبوا بلقائه . وجملة وجوه يومئذ ناعمة الى ءاخرها بمنزلة المعترضة بين المعلّل والعلة كما اشرنا اليه قريبا .

والاستفهام انكار عليهم ترك النظر والاعتبار والتدبر لانظر العين لانهم نظروا تلك الاشياء باعينهم ولكنهم لم يكرروا النظر في دقائق تلك المخلوقات ولم يتفكروا في انفسهم في دلالتها على الصانع .

وعُدّدت لهم اشياءُ هي منهم عن كثب بحيث لا تغيب عنهم : فالابل انعامهم ورواحلهم فمنها عيشهم بالبانها، وعليها حمل اثقالهم، ومن اوبارها لباسهم، ومن لحومها طعامهم وقد خلقها الله قادرة على النهوض بالثقل بعد بروكها ليسهل تحميلها ، وقادرةً على تحمل العطش في المفاوز . والسماء ينظرونها نهارهم وليلهم في اقامتهم وظعنهم اذ هم يتعرفون بها اوقات الليل والنهار ووجهةَ السير . والجبال ينزلونها وينزلون سفوحها ويعتصمون بها في حربهم ويتخذونها مراقب يحرسون منها اوطانهم . والارض مرعاهم ومفترشهم . وفي كل ذلك من بديع صنع الله ودقيق لطفه بهم ما لو اهتدوا اليه لوحدوه ولصدقوا رسوله، والابل اسم جمع لا مفرد له من لفظه في اللغة . وكيف المتكررة في المواضع الاربعة من الآية استفهامية وبها صار فعل ينظرون معلقا عن العمل وصار معنى الهمزة الاستفهام التقريري، والتقدير كيف خلقت الابل الا ينظرون ذلك وقد شملت كيف جميع ما في ذلك الخلق من الدقائق فالمقرر عليه هو جميع هيئة ذلك الخلق . وكيف في موضع نصب على الحال من مرفوع خلقت ومعنى نُصبت وضعت ظاهرةً مرتفعة ففي هيئة نصب الجبال واختلاف كيفياته عبرة، ومعنى سُطحت سويت يقال سَطَح الشيء جعله مسوًّى .

(فَـذَكِّر إنما أنتَ مُذكر لست عليهم بمُصَيطِر الا مَنْ تولىَّ وكفَر فيعذبه الله العذابَ الاكبَر إنَّ الينا إيَابَهُم ثم ان عَلَينَا حِسَابَهُم)

الفاء للتفريع على تركهم النظر امر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ان يذكرهم

لعلهم ينظرون ويفيؤون الى الرشد والحق. وحذف مفعول ذكر لدلالة المقام عليه اي فذكرهم .

وجملة انما انت مذكر مستانفة استئنافا بيانيا للجواب عن سؤال يثيره في نفس الرسول الامر بالتذكير بعد ان تكرر منه التذكير فلم ينجح فيهم وما يخالج نفس الرسول من الياس من ايمانهم وتحيره في وسيلة جلبهم الى الايمان فقيل له انما انت مذكر دفعا ليأسه وجلبا لا يناسه. والقصر قصر موصوف على صفة وهو اضافي اي بالنسبة الى بقية وسائل ايصالهم الى الهدى اي مالك صفة في جلبهم الى الهدى الا صفة تذكيرهم .

وجملة لست عليهم بمصيطر بيان لجملة القصر فلذلك فصلت والمصيطر المشهور انه بصاد قبل الياء وفيه لغة بالسين وقراه غير حمزة بالصاد وقراه حمزة باشمام الصاد شيئا من السين . ومعنى المصيطر المتسلط المجبر اي لا تقدر على جبرهم كقوله « أفانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين وما كان لنفس ان تؤمن الا باذن الله » اي لست مامورا باكراههم على الايمان ولا قادرا على ادخاله الى قلوبهم . وقدم عليهم على مصيطر للرعي على الفاصلة . ومن الكاتبين من يضع هذه الفقرة في غير موضعها ، ويحيد بها عن مهيعها ، فيجعلها حجة على حرية التدين وشتان بين احوال اهل الشرك واحوال جامعة المسلمين . والاستثناء في قوله الا من تولى منقطع في معنى الاستدراك وهو استعمال من استعمالات إلا ، تكون عليه قرينة اما لفظية كذكر حكم للمستثنى ليس نقيض الحكم المتقدم عليه كما هنا فان قوله فيعذبه الله العذاب الاكبر ليس نقيضا لحكم قوله لستَ عليهم بمسيطر ، وإما معنوية مثل قول جران العَوْد :

وبَلدَةٍ ليس بها أنيسُ   الا اليعَافِيرُ والا العيسُ

فان اليعافير وهي حمر الوحش والعيس وهي الابل التي يسير عليها المسافرون ليست من جنس الانيس .

ووجه الاستدراك في الاية انه لما نفى ان يكون النبيء مصيطرا على المشركين كان المقام ان يتوهم متوهم انهم أمِنوا من المؤاخذة فعقب بقوله الا من تولى الآية اي فان حسابهم لله . ودخلت الفاء على جملة فيعذبه الله وهو خبر عن

المبتدا وهو من تولى لمّا كان المبتدا موصولا عاما شابه الشرط فدخلت الفاء على خبره كما تدخل على الجزاء ومثله كثير .

وجملة ان الينا ايابهم تعليل لجملة القصر وما بينهما اعتراض والمعنى لست بمامور بجبرهم على الايمان لان حسابهم علينا حين رجوعهم الينا فالمقصود بالتعليل هو جملة ان علينا حسابهم واما كون إيابهم الى الله فذلك كالوقت للحساب ولكنها قدمت جملة ان الينا ايابهم للايذان بان لجملة ان الينا ايابهم حظًا من التعليل لان نفي كون الرسول مصيطرا عليهم نشا عن ارادة الله تأخير عقابهم الى يوم البعث ولو اراد تعجيله لكان احق الناس بتوليه هو الرسول ، فعلم من قوله الينا ايابهم ان العقاب مؤخر ومدخر لهم ولذلك رتب الكلام على هذا الاسلوب البديع في النظم . والاياب الرجوع . وتقديم المعمولين في قوله الينا ايابهم وقوله علينا حسابهم للاختصاص اي لا الى احد غيرنا فلذلك لم يكن لاحد ان يتعجل لهم ما ارجأه الله لهم .

اسلوب هذه السورة

افتتحت باستفهام عن خبر القيامة ليلفت اليه اذهان السامعين تهويلا له فيشعر المشركون بانهم المراد بهذا التهويل فيحصل بذلك وعيدهم . واختير للقيامة لفظ الغاشية لما يؤذن به من الغلبة والاحاطة تهديدا لهم .

واستؤنفت جملة وجوه يومئذ خاشعة لان ذلك الاستئناف يؤذن بان اصحاب هذه الوجوه هم المقصود بالتهويل والوعيد ووصفهم بصفات الشقاء والغم والعذاب ، ثم استطرد بذكر حال اهل النعيم زيادة في نكاية الفريق السابق واظهارا للمقابلة بين حالهم وحال اهل الخير وتبشيرا للمؤمنين . ثم رجع الكلام الى ما يناسب الغرض الاول بالانكار على اهل الشقاء اعراضهم عن النظر في دلائل الوحدانية وفرع على ذلك امر الرسول بتذكيرهم وبأن اعراضهم لا يصده ونبهه الى انه جاء مذكرا لا قاهرا وانه لا يستطيع احد تعجيل عقاب ولا حساب ادخره الله لهم الى يوم القيامة .

وانتهاؤها بآية ان الينا ايابهم ثم ان علينا حسابهم مؤذن بانتهاء السورة لانه كلام جامع لما تحوم اغراضها حوله ولان الاياب والحساب اخر احوالهم .

سورة الفجر

تسميتها ظاهرة وهي مكية. اكد في هذه السورة بالقسم ان الله يحاسب الناس على اعمالهم وذكرهم العبرة بالامم القوية التي استاصلها الله تعالى لطغيانهم وفسادهم تعريضا بالمشركين الذين طغوا على الرسول . ثم كان الانتقال من ذلك الى الاعتبار بحال الذين بطروا نعمة الله بعد ان أبالهموها وبيان خطا ظنهم ان ما فعل الله بهم من رخاء وشدة انما هو اكرام لهم او اهانة بلا سبب واعلمهم ان الشدة مسببة عن سوء اعمالهم وسكت عن اسباب الرخاء لانها معلومة بطريق المقابلة . ثم حذرهم يوم الحساب وعرض النار على الناس وما يحصل للمجرمين من الندامة. ثم سكن روع المحسنين بذكر حسن مصيرهم .

(والفَجرِ ولَيالٍ عَشرٍ والشَّفْعِ والوَتْرِ والليلِ إذا يَسْرِي هَلْ في ذلك قَسَمٌ لذي حِجْرٍ ، ألم تَرَ كيفَ فَعَلَ ربُّك بعَادٍ إرَمَ ذاتِ العِمَادِ التي لم يُخْلَق مثلها في البِلادِ وثَمُود الذينَ جَابُوا الصَّخْرَ بالوَادِ وفرعونَ ذي الاوتاد الذين طَغَوْا في البلاد فاكثروا فيها الفَساد فصَبَّ عليهم ربُّك سَوْط عَذابٍ إن ربَّك لبالْمِرصَادِ)

قسم بازمان مباركة عظمتها الملة الحنيفية من قديم فعرف العرب فضلها في الجاهلية ثم جاء الاسلام فاكد تعظيمها .

والفجرُ هو ابتداء ظهور الضياء عند ما ياخذ الليل في الانقضاء وهو وقت مبارك اذ عنده تنقضي حالة النوم الذي هو شبيه الموت وياخُذ الناس في ابتداء ارتجاع شعورهم والانس بما القوة من الاعمال الملائمة لنفوسهم وابتداء سعيهم في العبادة والعادة وذلك عمل نافع مبارك من الدين والحياة. والفجرُ ايضا مظهر من المظاهر المذكرة بعظيم قدرة الله والدالة على انفراده بالالاهية. وهو وقت للصلاة الاولى من الصلوات وهي افضل الصلوات عند الاكثر لانها الاولى ولان اداءها في وقتها مؤذن بحرص مصليها على الخير لما يتجشمه من الهبوب وترك التكاسل المحبوب في وقت يطيب فيه النوم صيفا والدفء شتاء . ولانه قد وقتت به اعمال في الحج

وهي الدفع الى عرفات من منى والوقوف بالمشعر الحرام بالمزدلفة والدفع في آخر وقت الفجر من مزدلفة الى منى يوم النحر . ولانه وقت بـه ابتداء الصيام من ايام رمضان وغيرها قال تعالى: وكلوا واشربوا حتي يتبين لكم خيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر » . فاعتبر هذا في تعظيم شانه كما اعتبر في الاهلة انها مواقيت للحج في قوله تعالى قل هي مواقيت للناس والحج .

والليالي العشر هي الليالي العشر الاوائل من شهر ذي الحجة وهي ليالي شروع الناس في اعمال الحج اذ كانوا يبتدئون عندها اعمال الحج ويدخلون مكة بعد ان يقضوا معظم ذي القعدة في الاسواق حول مكة .

والشفع من العدد هو الذي يثنّى بمعدود معه . والوَتر بفتح الواو الفَردْ من العَدد وهما وصفان والموصوف هنا محذوف دل عليه ذكر الليالي والمراد الليلة الشفع والليلة الوتر من الليالي العَشر . فالليلة الشفع هي ليلة التروية لانها الليلة الثامنة التي يسفر صباحها عن يوم التروية وهو يوم الاستعداد لوقوف عرفة . والليلة الوَتْر هي ليلة عرفة لانها الليلة التاسعة يسفر صباحها عن يوم عرفة وهو يوم الحج . وقيل الشفع ليلة النحر وهي ليلة العاشر . وخصهما من بين الليالي العشر اهتماما بهما تنبيها على شرفهما لما تقع فيهما من اعمال الحج المتقبلة ولاستجابة الدعاء فيهما قال النبي صلى الله عليه وسلم افضل الدعاء دعاءُ يوم عرفة .

واما القَسم بالليل فلِمَا في حالة الاظلام بعد الضياء من الدلالة على عظيم القدرة ودقيق الصنعة، ولذلك قيد القسم بحال سريانه اي امتداده وهو حال شدة ظلمته كقوله والليل اذا سَجَى وقوله والصبح اذا أسْفَر .

وجملة هل في ذلك قسم لذي حجر معترضة بين القَسم وجوابه وهو قوله ان ربك لبالمرصاد . والاستفهام تقريري وهو لغرضين احدهما التنبيه على انها جديرة بان يُقسم بها لعظمتها لان القسم بها انما هو قسم بصفات خالقها ومدبرها والثاني تحقيق الخبر . والاشارة بقوله « ذلك » الى المذكور من الاشياء المقسم بها هنا . والظرفية مجازية وهي في غاية الرشاقة هنا لدلالتها على ان القَسَم بتلك الاشياء انما هو لمعان كائنة فيها يهتدي اليها المتدبرون وذلك

تعريض بالمكذبين بانهم لا يقنعهم هذا القسم فهم لا يعقلون عن الاعراض والتكذيب لانهم ليسوا من اهل الحجى والعقول ونظير هذا قوله تعالى « فلا اقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم ». وجواب القسم يأتي في قوله ان ربك لبالمرصاد او هو محذوف تقديره ليعذبن دل عليه قوله الم تر كيف فعل ربك الخ .

والحِجْر بكسر الحاء العقل لانه يحجر صاحبه اي يمنعه عن الفساد كما سمي عقلا لانه يعقله اي يمنعه مما لا يليق . والمعنى ان العاقل لا يشك في احقية القسم بها وان ما أُقسم عليه بها صِدق ، وفي ذلك تعريض بالذين يصرون على انكار ما اقسم عليه .

وجملة الم تر كيف فعل ربك بعباد معترضة ايضا وهي تنظير لمضمون جواب القسم وهو قوله ان ربك لبالمرصاد ومثال لعمومه ببعض افراده فانه لما وقع توكيد الجواب بالقسم ذكر له مثيل وشبه تنبيها على تقريب وقوعه لان استحضار النظائر يقرب الغريب النادر الوقوع فان بُعْد العهد بحدوث امثاله يوجب نسيانها واذا نُسيت صار وقوع امثالها مستبعدا ، فالتذكير بها يزيل ذلك الاستبعاد وهذه العبر المذكورة هنا هي جزئيات من مضمون جواب القسم في قوله ان ربك لبالمرصاد قدمت على الجواب بطريقة الاعتراض زيادة في التشويق الى تلقيه وائذانا بالوعيد الذي تضمنه جواب القسم وهذا من براعة الاستهلال .

والاستفهام تقريري عن الرؤية بتنزيل العالم بالشيء عن أخبار متواترة منزلةَ من رآه ببصره لانهم قد ايقنوا بما فعله الله بعاد . والخطاب للنبيء عليه السلام والمقصود التعريض بخطاب قومه الذين كذبوه وهو يتضمن وعدا بالانتصار له ووعيدا لمكذبيه . وعدل عن تعريف المسند اليه فَعَل ربك بالعلمية الى تعريفه بالاضافة ليتاتى الاتيان بلفظ الرب المشعر بالولاية والتايد ولما في اضافةلفظ الرب الى ضمير المخاطب من اعزازه وتشريفه. والرؤية هنا رؤية بصرية وهي تنزيلية لا تحقيقية لان النبيء والامة المخاطبة لم يروا كيف فعل الله بعاد وثمود وفرعون ولكنهم راوا من ءاثارهم وديارهم وسمعوا من اخبارهم المتواترة ما كان عندهم بمنزلة رؤية ما فعل الله بهم كقوله « افلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم

وكيف منصوبة على المفعولية بفعل الروية وهي بمعنى الكيفية .

وعاد قبيلة عظيمة من العرب البائدة كانت ذات عزة ومَنعة وثروة غلب عليهم اسم ابي قبيلهم وهو عاد بن عوص بن إرَم ويقال عاد بن ارم بن سام ابن نوح ، كانوا ينزلون بالاحقاف والرمال في شمال حضر موت وكانت مدينة حضر موت من مدنهم . وارم بيان من عاد وهو اسم الجد القريب لعاد الذي سميت به القبيلة قصدا ، بهذا بيان تعريف المراد بعاد وهم قوم هود لان في العرب قبيلة اخرى صغيرة تسمى بعاد كانت تنزل مكة مع العماليق هم بقية عاد الكبرى ، فلما كان كلا الفريقين غلب عليه اسم الجد اريد تمييز احدى القبيلتين بالقربى من الجد الاعلى الذي لم يغلب اسمه عليهما .

والمقصود الاعتبار بمهلك عاد الاولى لانها اعظم واشد من قريش ولانهم الذين كذبوا رسول الله هودا فاهلكهم الله بالريح الصرصر ، ففي ذلك عظة لقريش اذ كذبوا رسول الله . ووصفها هنا بطريق البيان مثل وصفها في سورة النجم بالاولى في قوله وانه أهلك عادا الاولى . وذات العماد وصف لعاد جاء بصيغة التانيث لتاويل عاد بالقبيلة والعماد حقيقته ما يعتمد عليه البيت من عود يقام عليه وهو المسمى بالدَّعَامة وهو هنا مستعار للقوة لان البيت الذي يعتمد على عماد يكون ارسخ واثبت قال الفرزدق :

ان الذي سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه اعز واطول

والمعنى ذات القوة والشدة كقوله « افلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا اشد منهم قوة ». والتي لم يخلق مثلها في البلاد صفة ثانية اي القبيلة التي لم يخلق الله مثلها . والبلاد الارض كلها والارض الخاصة بقوم فالتعريف للعهد وذلك يختلف باختلاف المقام والاظهر ان المراد هنا في البلاد المعهودة وهي بلاد العرب اي هم القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلاد العرب في كثرة العدد وقوة الاجسام واصالة الآراء وسعة الرزق « وقالوا مَنْ أشَدُّ منا قوة » .

وثمود قبيلة من العرب البائدة ايضا اخوان عاد وتقدم الكلام عليهم وعلى منع اسم ثمود من الصرف في سورة البروج .

ومعنى جابوا قَطَعوا . والصخر الحجارة العظيمة . والواد المنخفض بين جبلين وتقدم في قوله تعالى بالواد المقدس في سورة النازعات والواد يجوز فيه

ان يكون صحيح الاخر ، ويجوز ان يكون ءاخره ياء بعد الدال وقراءة الجمهور بدون ياء وصلا ووقفا . وقراءة ابن كثير باثبات الياء وصلا ووقفا وقراءة ورش بالياء في الوصل وبدونها في الوقف. وكانت منازل ثمود في واد صخري واسع مستطيل نحتوا من الصخور فيه قرى ذات مساكن كثيرة وهو المكان المعروف الى اليوم بوادي القُرَى ويسمى ايضا حِجْرِ ثمود بكسر الحاء وسكون الجيم، وديار ثمود بين الشام والمدينة . وذلك النحت دل على قوتهم وعظمة امرهم،وفرعون تقدم ذكره في سورة النازعات .

والاوتاد الاهرام وهي ابنية ضخمة اقامها فراعنة مصر على قبورهم تكون مربعة متسعة وكلما ارتفع البناء اخذت تنقص سعتها الى ان ينتهي اعلاها باربع زوايا متصلة وسميت اوتادا لان الهَرَم يشبه الوتد المدقوق في الارض وتلك من بناء اسلاف فرعون

وجملة الذين طغوا في البلاد مستانفة استئنافا ابتدائيا على انها خبر لمحذوف اي هم الذين طغوا، وضمير الجمع عائد الى المذكورين عاد وثمود وفرعون، والطغيان التكبر والظلم ومن اشده الاشراك وقد مضى عند قوله تعالى اذهب الى فرعون انه طغى في سورة النازعات .

والبلاد الارض كلها لان طغيانهم في مواطنهم آيل الى الطغيان في الارض اذ تلك المواطن جزء من الارض فالطغيان المظروف فيها هو مظروف في الارض اذ الجزء من جملة الكل الا ترى قوله تعالى في فرعون وهو ممن ذكر ههنا «ان فرعون علا في الارض ـ الى قوله ـ انه كان من المفسدين «وقوله» كانوا هم اشد منهم قوة وءاثارا في الارض ».

والفاء في قوله فاكثروا تفريع على طغوا اي فنشأ عن تجبرهم وكبرهم في الارض ان اكثروا فيها الفساد لان الطغيان يفضي بصاحبه الى قلة الاكتراث بحقوق المخلوقات وبالحفاظ على نظام الكون البديع فينشا عنه الفساد في الارض وهم افسدوا في مواطنهم فآل ذلك الى الفساد في الارض كما في قوله « ولا تَعْثَوا في الارض مفسدين ،

والفساد خرم الامور الصالحة وابطال المنافع واتلاف النظم فهو جامع لمعاني الظلم والضر، وضده الصلاح وهو الجامع لمعاني البر والخير قال تعالى «واذا تولى

سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد - وقال - ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها » فقابل الفساد بالاصلاح .

والفاء في فصب عليهم ربك فاء التفريع ايضا للاشارة الى ان الفساد في الارض يسبب غضب الله فيترتب على غضبه عقابه وانتقامه والله لا يحب الفساد .

والصب حقيقته افراغ جسم سائل من ظرفه الى الارض وقد تقدم في قوله تعالى إنَّا صبينا الماء صبا في سورة عبس واستعير هنا للاحاطة وسرعة النزول مثل قولهم شَنّ عليه الغارة ففيه استعارة مكنية اذ شبه العذاب بالماء ولم يذكر المشبه به بل رمز اليه بذكر لازمه وهو الصب الذي هو من مناسبات الماء . والسَّوط قِدٌّ من جلد يلوى ويظفر فيتخذ لضرب الابل والخيل وتسمى الضربة به سوطا يقال ضربه عشرين سوطا وهو شائع .

وتعلق الصب بالسوط اما على جعل السوط بمعنى الضرب فيكون الصب كناية عن الكثرة والشدة كما يصب الماء ويكون من باب ضربه عشرين سوطا فيكون السوط مستعملا في حقيقته ، واما لتضمن الكلام استعارة اخرى بعد استعارة الصب للعذاب بان استعير السوط للعذاب على طريق المُصَرَّحَة ووجه الشبه انه اذى وان ما ناله من العذاب الشديد هو اذا نسب الى ما عند الله من اصناف العذاب في الآخرة كضرب بالسوط بالنسبة الى ما اشد منه كضرب بعصى وسيف فيكون بمنزلة قوله تعالى « يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون » اذ عبر عنه بالمس وكقوله «ولعذاب الآخرة اشد» وفي البخاري عن بعض المفسرين سوط عذاب كلمة تقولها العرب لكل نوع من العذاب يدخل فيه السوط .

وجملة ان ربك لبالمرصاد هي جواب القسم وهي المقصود من الكلام وفيها من عموم الجزاء ما يشمل التهديد بانواع العذاب اعم من عذاب عاد وثمود وفرعون ، وما يشمل البشارة بانواع النعيم ، ونعلم من ذلك ان الله لا يعامل عباده بالعذاب جزافا لغير حكمة . وقد حصل تفنن في نظم الكلام اذ قدم على الخبر المقصود وعبرته ودليله وهو قوله الم تر كيف فعل ربك الخ وهذا فن من الخطابة ان يجعل البيان والتنظير بمنزلة المقدمة ويجعل المقصود كالنتيجة له والعلة، فصار القسم كانه محذوف الجواب وصار الجواب كانه جملة مستانفة تعلل ما حل باولئك من العذاب لانه وفاق لاعمالهم وان الله بالمرصاد لامثال اولئك الذين ذكر الله كيف فعل بهم وهذا نظم بديع ونسج مريع .

والمرصاد مكان الرصد اي الترقب وقد تقدم عند قوله ان جهنم كانت مرصادا في سورة النبا والباء للمصاحبة يقال فلان بالمرصاد منك اي مصاحب لمكان يرصدك منه فجاء الكلام هنا تمثيلا لشان الله في تقدير عقوبة الظالمين وتأخيرها الى امد بحال من يرصد عدوا لياخذه ، فالكلام كناية عن مجازاته الظالمين بما يكافىء جرمهم.

(فَأَمَّا الانْسَانُ اذَا ما ابْتَلَاه ربُّه فأَكرَمَه ونعَّمَه فيقولُ رَبِّي أكرمني وأما اذا ما ابتَلاهُ فقَدَرَ عليه رِزْقَه فيقول رَبِّي أهانني كلَّا بَلْ لا تُكرِمونَ اليَتِيمَ ولا تَحُضُّونَ على طعَام المِسْكِينِ وتأكلُونَ التُّرَاثَ أَكلاً لمًّا وتُحبون المال حُبًّا جَمًّا) دلت الفاء على ان الكلام متفرع على ما قبله باعتبار ما اقتضته الكناية بقوله ان ربك لبالمرصاد من كون عذاب الظالمين جزاء لجرمهم وفسادهم وان الناس يظنون غير ذلك وهو المعنى الذي اجمله الكلام فجيء بحرف التفصيل لتفصيل اجماله ، ودلت اما التفصيلية على معنى ان ذلك المراد من فعل الله لا يكون عبثا وصدفة ولكنه حكمة ومصلحة فاما الانسان الجاهل فيظن خلاف ذلك لجهله بتصرفات الله وحكمته في افعاله فيسيء التاول ويحسب للنعمة والنقمة غير ما رتبهما الله عليه ويفرط في النظرِ والتذكرِ بالسبب الحقيقي فبذلك يستمر في ضلال وعماية . وحرف اما يفيد التفصيل ويتضمن اداة شرطها تقديره مهما يكن شيء فالامر كذا او كذا ، وقد التزم العرب اندماج هذا الشرط في أما والتزموا تقديم جزء من جوابه يوقعونه عقب اما وهو الجزء الاهم من الجواب ليعلم انه هو المقصود من الشرطية المبهمة ثم يأتون في الجواب بضميره كما هنا او بمتعلقه كما في قوله تعالى « فاما اليتيم فلا تقهر »وتقدير الكلام هنا مهما يكن شيء فالانسان اذا ما ابتلاه ربه يقول الخ . .

فالتعريف في الانسان تعريف الجنس وهو الملقب عند علماء المعاني بالعهد الذهني الصادق ببعض افراد الجنس فالمراد الناس الذين هم اهل الجاهلية ومن كان حديث عهد بالاسلام لم يتأثر بتعاليمه وهم اكثر الناس في وقت نزول السورة فالمقصود تقريع المشركين وتذكير المؤمنين وتعليمهم.

والابتلاء الاختبار يطلق على اصابة الخير والشر لان في كليهما اختبارا

لمقدار عقل الانسان ودينه قال تعالى « ونبلوكم بالشر والخير فتنة ».

والاكرام اسداء الخير والنفع . والتنعيم اعطاء النعيم وهو ما يلتذ به المعطى ويلائمه . والفاء التي في قوله فيقول رابطة جواب اما بشرطها المندرج فيها وهذه الفاء ملازمة لجواب أما سواء كان صالحا لمباشرة اداة الشرط كما هنا ام لم يكن صالحا كما في قوله فاما اليتيم فلا تقهر لان الجواب لما بعد عن الشرط بتقديم بعضه لزمه تقوية الربط بالفاء ولذلك لا يكون مجزوما .

والقول هنا قول لفظي بقرينة حكايته للفظه والمراد انه يقول ذلك في نفسه ويقوله بين الناس اذ من الناس من يعتقد ذلك ولا يتحدث به فهو يقوله في نفسه ولو دعت المناسبة الى ان يقوله بين الناس لقاله او قال ما يرادفه وقريب من هذا قوله تعالى «ذلك بانهم قالوا ليس علينا في الاميين سبيل» اي اعتقدوا ذلك في نفوسهم فقالوه لان عدم رد الامانة مسبب على اعتقاد عدم التَّبعة ثم ان ذلك الاعتقاد يستتبع قول المعتقد واعتذاره به بين اهل ملته . ولعل قريشا كانوا كثيري الحديث بالرفاهية وكثيري الشكاية من الحاجة كما قال تعالى «ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا » .

ومعنى قدر عليه رزقه ضيقه وقتّره قال تعالى « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض ولكن ينزل بقَدَر ما يشاء » والاهانة الاذلال .

والمعنى ان شان الله تعالى في معاملته مخلوقاته انه بالمرصاد منهم على حسب اعمالهم واما الناس فانهم اذا انعم ربهم يحسبون ما ينالهم من نعمة اكراما من الله اكرمهم به لكرامة لهم عنده ويحسبون ما ينالهم من الباساء اهانة لبغض الله اياهم وتعليق هذا الظن بالظرف المفاد باذا مشعر بانهم يحسبون ان ذلك صدفةٌ وبَخْت لا جزاءً عن عمل ، وقد مثل ذلك باقل مراتب الخير والشر وهو اصابة سعة الرزق وضيقه على الانسان اي فهم ذاهلون عن التذكر والاعتبار بالاسباب ومخطئون في تعليل ذلك ولو تذكروا لعلموا فسلكوا سبل الفوز والنجاة . وكذلك شان اهل الجهالة من الامم قال تعالى في شان قوم فرعون «فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه » وكان اهل الجاهلية اذا راوا امرأة لا يعيش لها ولد لعاهة في مزاجها او سيء غذاء او نحو ذلك زعموا انها مقلاة وان الجن تتبع اولادها والعامة اليوم اذا راوا رجلا في نعمة

ويسر حال يقولون هو مولود ليلة القدر واذا راوا ضد ذلك قالوا مولود في طالع نحس ويزعمون في الدراويش انهم يفعلون ما يشاؤون لانهم مدللون عند الله . وقرا نافع اكرمني واهانني باثبات الياء وصلا وحذفها وقفا ، وقرا ابن كثير باثباتها فيهما ، وقرا الباقون بحذفها فيهما.

وقد دل حرف الزجر وهو كلا على فساد ذلك القول المعتقد مع ان كون التنعيم اكراما امر ثابت فقد اثبت الله ان ذلك اكرام بقوله فاكرمه فتعين ان يتوجه الانكار الى المعنى المقصود من قولهم ذلك المعنى هو ان الاكرام والاهانة حاصلان على سبيل الصدفة بدون موجب .

وبل للاضراب الابطالي فبعد ان زجروا عن ذلك الاعتقاد بين لهم السبب في الواقع .

وقوله لا تكرمون اليتيم استئناف ابتدائي وهو تنبيه على بعض الاسباب التي استحقوا بها الاهانة من الله والمقصود ان يتذكر الناس بما ينالهم من خير وشر فيسبروا احوالهم ليعلموا ما الذي جر اليهم الخير والشر قال تعالى «واما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا وأنْ لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غَدَقا لنفتنَهم فيه» واقتصر على ذكر سبب الباساء لانه اعلق بمحل الموعظة ويعرف ضده بمقابلته وللاشارة الى ان الاصل في معاملة الله عبيده ان تكون تفضلا وانعاما لانها معاملة الرب لمربوبه وان ما ينال الناس من الباساء انما هو جزاء على عدم شكرهم قال تعالى « لئن شكرتم لازيدنكم » .

واختير ذكر الاكرام في قوله لا تكرمون اليتيم للتنبيه على ان الانسان اذا اكرمه الله فلم يقابل ذلك الاكرام بالشكر وهو اسداء الاكرام لذي الجانب الضعيف كان جديرا بسلب ذلك الاكرام وتعويضه بالاهانة على وزان قوله في الحديث القدسي « يقول الله يا ابن آدم جُعْتُ فلم تُطعمني ومَرِضْتُ فلم تَعُدْني فيقول كيف يا رب وانت اغنى الاغنياء فيقول جاع عبدي فلم تطعمه ومرض عبدي فلم تَعُدْه » .

فعلمنا من هذا ان لتصرفات الله في خلقه اسبابا خفية يجب على الناس ان يتعرفوها وان احوال الناس التي تستند الى اسباب ظاهرية هي ايضا ترجع الى اسباب خفية بها يسر الله تعالى الاسباب الظاهرية وذلك داخل تحت قول النبي صلى الله عليه وسلم « كلٌّ ميسَّر لما خلق له » .

والحض على طعام المسكين الحرص عليه اي على اعطائه اياه فعُلِّق الحض بنفس الطعام مبالغة في ايصاله اليه . فالطعام هنا بمعنى المطعوم وليس اسم مصدر. وانما جعل حظُّ المخاطبين من اطعام المساكين هو الحض عليه لان مباشرة اطعام المساكين انما كانت من شان النساء ونظيره قوله في الآية الاخرى ولا يحض على طعام المسكين » ولذلك جاء في الحديث « اذا تصدقت المراة من طعام بيتها كان لها اجرها وللخازن مثل ذلك » بخلاف اكرام اليتيم فانه كان من شؤون المخاطبين لان مخالطة الايتام والتصرف في اموالهم كان من شان الرجال قال تعالى « وان تخالطوهم فاخوانكم » ويجوز ان يجعل الحض على طعام المسكين كناية عن الاطعام لان من يحض على الشيء يكون فاعلا له بالاولى فيكون كقول لبيد :

فضلا وذو كرم يعين على الندى   سَمْحٌ كَسُوبُ رغائب غَنَّامُها

اذ جعل الاعانة على الكرم من الكرم وقوله تعالى « وتواصَوْا بالحق وتواصَوْا بالصبر » اي عملوا بهما وتواصوا بالعمل بهما . والاكل مجاز في الاحتواء على الشيء الانتفاع به ومنع غيرك منه كقوله ولا تاكلوا اموالكم بينكم بالباطل ولذلك لا يطلق الاكل على جمع الانسان مال نفسه وانما يقال على اخذه مال غيره . واللم الجمع ، والتراث المال الموروث واصله وراث بالواو قلبت الواو تاء قلبا سماعيا كما قلبت في تجاه و تُكَأة والتعريف فيه للجنس .

واشعر فعل تاكلون ان ذلك تصرف حيلة واخفاء فدل على ان المراد بالذم هو اكل تراث فيه حق الغير وبذلك اشعر قوله « لا تكرمون اليتيم »وكان كبير الابناء من اهل الجاهلية يحتوي على ميراث اخوانه الصغار واخواته النساء وكذلك كان ولي الايتام منهم يفعل بميراث مواليه ، ومن هنا يعلم وجه تعليق الذم باكل التراث دون اكل المال اذ لم يقل وتاكلون المال اكلا لما لان جمع الانسان مال نفسه لا يسمى اكلا ولا يقتضي ذما ولا يسبب اهانة الله اياه بتقتير الرزق عليه.

والجم الكثير والمراد بالكثرة في مثل هذا الشدة والقوة والافراط ، والحب الجَمُّ هو المفرط وهو اقصى انواع حب المال عند الناس اعني حب تحصيله وهذا محل الذم لان ذلك يوقع في اكل اموال الناس بطرق الغصب والحيلة وقرا ابو عمرو يكرمون ويحضون وياكلون ويحبون بالتحتية على التزام

اسلوب الغيبة والضمائر للناس الدال عليهم جنس الانسان في قوله فأما الانسان ، وقراه الباقون بالفوقية على الانتقال من الحديث عنهم الى مخاطبتهم ابلاغا للتقريع مباشرة وهو من اسلوب الالتفات .

(كَلَّا اذا دُكَّتِ الارضُ دَكاً دَكاً وجاء ربُّكَ والمَلكُ صفًّا صفًّا وجيءَ يومئذٍ بجَهَنَّمَ يومئذٍ يتذكر الانسانُ وأنَّى لَهُ الذِّكرَى يقولُ ياليتَني قدمْتُ لِحياتي)

انتقال من التهديد بعذاب الدنيا الى الانذار بعذاب الآخرة الذي اعرضوا عن التصديق به ولم يؤمنوا به فهم يعلِّلون ما ينالهم في الدنيا بغير علته واما ما ينالهم في الآخرة فهم مُعرِضون عنه اصلا . والاظهر ان كلا الثانية تاكيد للاولى وليست ردعا وزجرا عما قبلها لان ما قبلها اخبار وكشف عن ضمائرهم واعمالهم وليس هو من اقوالهم فلا يناسب ان يدخل حرف الزجر الا بتاويل الزجر على مضمونه ، على ان الزجر على احوالهم مستفاد من ايراد ذكرها بيانا لموجب الزجر عن قولهم واعتقادهم فكان حمل كلا الثانية على التاكيد اوقع وليرتبط الكلام الثاني بالاول فيرجع الى تحقيق انهم لا يتذكرون بالبلوى ولا يعتبرون بتنبيه الله اياهم فيقلعوا عما هم فيه من الغرور الا ترى كيف اعيد في هذا الكلام لفظ الانسان في قوله يتذكر الانسان ليتصل بنظيره الذي في الكلام الاول فاما الانسان اذا ما ابتلاه ربه.

فحاصل الكلام الاول ان الانسان بغروره ينوط الاشياء بغير اسبابها ولا يهتدي الى العظة بما يبتليه ربه بل يحمله على غير محمله وانه يستمر على ذلك طول عمره فاذا جاء يوم القيامة يومئذ تظهر له الحقائق ويتذكر تذكرا لا ينفعه.

فالكلام الاول بيان لسبب النعمة والكلام الثاني زجر لهم عن عدم التذكر بالاسباب الحقة واستمرارهم على تلك العماية، ويستتبع ذلك افاقة المؤمنين من الغفلة عن هذه الحقائق المنقذة من الورطة .

والجملة استئناف ثان بعد جملة لا تكرمون اليتيم. واذا ظرف زمان . والدك الهدم والدق، ودكا الاول مصدر مؤكد ودكا الثاني تكرير لفظي يقصد منه الدلالة على تكرر المدلول وترتيبه اي دكا عقب دك والمعنى اذا تكرر دك الارض اي انعدام اجزائها جزءا بعد جزء وذلك هو انقراض العالم وحلول يوم البعث .

وقوله وجاء ربك تمثيل لحضور جنده وصدور امره وحسابه كما يجيء الامير بلدا فيتهافت الناس حوله لظلاماتهم وقد شاع في كلامهم اطلاق المجيء على مطلق الحضور كقوله فاذا جاءت الصاخة ، اذا جاء نصر الله ، والمعنى هنا وجاء امر ربك وفصل قضائه . وقوله صفا صفا حال من الملك وتقدم معنى الصف في سورة النبا. والتكرير لتكرير المعنى والمراد به الترتيب اي صفا وراء صف اذ الاصطفاف لا يكون الا كذلك . وانما قال وجيء يومئذ بجهنم لان جهنم لا تصلح لاسناد المجيء اليها في الظاهر فبني الفعل للمجهول دفعا لسماجة الاسناد والمراد ظهورها وحضور الناس حولها كقوله « وبُرِّزت الجحيم للغاوين » وانما اقتصر على ذكر جهنم مع ان الجنة تحضر ايضا في ذلك اليوم تنبيها على ان المقصود بهذه القوارع هم اهل النار الذين يابون التبصر في الحقائق . وجهنم علم على نار العذاب تقدم في سورة النبا. ويومئذ هو يوم اذ دكت الارض وما بعد ذلك فالتنوين عوض عن الجملة المحذوفة المدلول عليها بما قبلها واليوم معبر به عن الزمان المفاد باذا وانما اعيد لزيادة ربط الكلام . والتقدير اذا دكت الارض الخ يتذكر الانسان اي يتذكر التذكر الذي اضاعه في الدنيا .

والاستفهام في وانى له الذكرى للانكار والمراد الانكار باعتبار انعدام فائدة الذكرى يومئذ اي ومن اين له الذكرى التي تفيده والتي امر بها فاهملها .

وجملة يقول بيان لجملة يتذكر . والقول لفظي وصح بيان الذكرى به لدلالته على ما في النفس وهو تلهف على ما فات ولذلك تمنى ان يكون قدم التذكر فاجتنب المهلكات وعمل الصالحات .

والنداء في يا ليتني لزيادة التنبيه لان حرف التمني لا ينادى على الحقيقة .

والحياة اريد بها الحياة الاولى واللام في لحياتي للتوقيت مثلها في قوله تعالى « فطلقوهن لعدتهن » وقولهم وكتب لعشر خلون من شهر كذا اي يقول يا ليتني قدمت العمل عند حياتي لاجد نفعه اليوم .

(فيَومئِذ لا يُعذبُ عَذابَه أحَدٌ ولا يُوثِقُ وَثاقَهُ أحَدٌ)

الفاء للتفريع على جملة وجاء ربك والملك صفا صفا وجيء يومئذ بجهنم

لان فيما تقدم ايماء الى الانـذار والتهديد بان المَجيئين المذكورين سينكشفان عن عقاب عظيم للمكذبين في ذلك اليوم وذلك هو الغرض الاصلي الذي سيق له الكلام من قوله ان ربك لبالمرصاد ، وقد تبين بذلك انهم المقصودمنهذه القوارع وذلك انه بعد ان هددهم بعذاب الدنيا انذرهم بعذاب الآخرة فتفـرع على ذلك الانذار تهويل الوعيد صريحا او كناية على اختلاف قراءة الآية الآتي، واعيد لفظ يومئذ لزيادة الاتصال بين التفـريع والمفرع عليه وهو وجـيء يومئذ بجهنم .
وقرا الجمهـور لا يعذب ولا يوثق بكسر الذال وكسر المثلثة فيكون احـد فاعل يعذب ويوثق وضمير الغائب عائدا الى الله تعـالى ولا معـاد له في اللفظ لظهور المراد كقوله حتى توارت بالحجـاب اي لا يصدر عن احد عذاب مثل اعذاب الله اي لا يقع عذاب يماثل ذلك العذاب وعلى هذه يكون الكلام تعريضا بان الانسان المكذب هو الذي يقع عليه ذلك العذاب الذي لا يماثله عذاب ، وقرا والكسائي بفتح الذال والثاء فيكون احد نائب فاعل يعذب ويوثق وضمير الغيبة عائدا على الانسان والمعنى فيومئذ لا يعذب احد عذابا كعذاب الانسان اي الكافر وعليها فالكلام صريح في ان ذلك الانسان المكذب يعذب عذابا لا يماثله عذاب، وانتصاب عذاب على القراءتين على المفعولية المطلقة المفيدة للتشبيه. والوثاق بفتح الواو الشد بالسلاسل والاغلال وهو من احـوال الجـاني الماخوذ بجنـايته قال تعالى « اذ الاغلال في اعناقهم والسلاسل » .

(يَأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارجِعِي الى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيةً فادْخلِي في عِبادِي وادْخلِي جَنَّتِي)

لما ذكر عقاب المكذبين اردفه ببشارة المؤمنين على عادة القـرآن في تعقيب النذارة بالبشارة والعكس ليكون الانسـان راغبـا في الخير راهبا من الشـر وبه استوعب التفصيل الذي دل عليه قوله فاما الانسـان اذا ما ابتلاه ربه بتفنن يؤذن بان قسيمه هو المقصود وان هذا بمنزلة التكملة والتطمأن.

والكلاممسوقمساقالقول بقرينة الخطاب، وهو قول يقال يوم القيامة بقرينة قوله وادخلي جنتي والتقدير يومئذ يقـال يايتها النفس فاسلوب الكـلام اسلوب قول وحذف فعل القول كثير في الكلام وفي القرآن .

والمخاطب هو المؤمن باعتبار انه نفس ووَجِّهَ الخطاب اليه بذلك الاعتبار لان النفس هي مقر الايمان فلما كان عمل النفس هو الذي خول المؤمن تلك المنزلة العالية عند الله خوطب المؤمن بذلك العنوان ، فالنفس المطمئنة هي نفس المؤمن وفيه تنبيه على ان المقصود بالتهديد والتقريع المشركون.

اطْمَأَنَّ سكن وهدأ وهو بوزن المطاوعة على وزن افعلل يقال طَمْأنه فاطْمَأَنَّ ، فالنفس المؤمنة مطمئنة بالايمان سالمة من الشك والتكذيب والتردد في صدق الرسول .

والرجوع في قوله ارجعي الى ربك مستعمل في القرب وهو قرب شرف وكرامة وذلك تأنيس للمؤمن عندما يدعى لدخول الجنة والعرب تقول للمدعو الى الدنوّ «إليّ إليّ» اي ادن او ارجع إلي .

والراضية هي التي رضيت بما تلقى من اكرام . المرضيَّة المرضيّ عنها من الله اي المُكَرَّمَة فاصله مرضي عنها فنَزل الفعل منزلة المتعدي بنفسه وصيغ له اسم المفعول وهذا يسمى الحذف والايصال اي حذف حرف الجر وايصال الفعل الى المجرور حتى يصير كالمفعول. والمعنى انها راضية ومزيدة مما ترضى له لان المرضي عنه يزاد في اكرامه على الحد الذي يرضيه .

وقد فرع عليه ما يتحقق به وهو الدخول في زمرة الذين شرفهم الله بانهم عباده وهذا يرجع الى معنى المرضيّة. والدخولُ الى الجنة لنوال النعيم الذي ترضى به وهذا يرجع الى معنى راضية على طريق شبه اللف والنشر المعكوس .

والدخول الاول مستعمل في الاستقرار والكون ولذلك عدي بحرف الظرفية ولم يعدّ بنفسه بخلاف الدخول التاني .

واضافة عباد وجنة الى ضمير المتكلم وهو الله تعالى لتشريف المضاف .

اسلوب هذه السورة

افتتح الكلام بالقسم المطوَّل لتشويق السامعين الى تلقي الخبر المقسم عليه المقصود بالتاكيد، وفي ضمن ذلك أقسم بامور دالة على عظيم قدرة الله تعالى وامور معدمة وبالبركة وكثرة افعال الخير فيها تنبيها على يمنها في ضمن الكلام .

وعقب ذلك بتعظيم القسم مبالغة في تاكيد الخبر المقسم عليه .

واعترض الكلام بذكر امم عظيمة استاصلها الله لتكذيبها الرسل لطغيانها في الارض تهديدا للمشركين وتعليلا لما اخبر به من اهلاك المعتدين .

ثم عقب ذلك بابطال ما يتوهمه الجاهلون في تعليل احسان الله بالناس واساءته بهم، تنبيها على خطئهم وغفلتهم عن اسباب استحقاقهم ما حل بهم تقريعا للمشركين وتعليما وتذكيرا للمؤمنين . وأُعلموا بان الذين يستمرون على هذا الخطا يتبينون ضلالهم يوم يحضر الناس للحساب والجزاء بالعقاب .

وذيل ذلك بان المؤمنين برءاء من الوقوع في ذلك . وختم بذكر الجنة التي لم تذكر من قبل زيادةً في التفضل بالبشارة .

وفي هذ الختم ايذان بانتهاء قصة الجزاء الممهد افتتاحها بقوله ان ربك لبالمرصاد فكان ذلك ايذانا ايضا بانتهاء السورة .

سورة البلد

تسمى سورة لا اقسم وتسمى سورة البلد وهي مكية وحكي الاجماع عليه.

والمقصود مما حوته هذه السورة بيان شرف مكة وشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرف ابراهيم عليه السلام وذريته، ثم تاكيد غرور الانسان ووصفُ ما اعقبت الجاهلية اهلها من المذام التي جاء الاسلام يزيلها عنهم ويكسبهم عوضها محامد وفضائل وبيان حسنى عاقبة الذين اتبعوا الاسلام وخسرى العاقبة للذين كفروا بآيات الله. وهي تشبه آخر سورة الفجر من قوله كلا بل لا تكرمون اليتيم الى آخرها .

(لا أُقْسِمُ بِهَذا البَلَدِ وانْتَ حِلٌّ بِهذا البَلَدِ وَوالدٍ وما ولَدَ لقَدْ خَلَقْنا الأنسانَ في كَبَدٍ)

لا اقسم معناه القسم وقد تقدم بيانه عند قوله تعالى فلا اقسم بالخنس في سورة التكوير . والبلدُ المكان من الارض المحصور بحدود والشائع اطلاقه على محلة القوم ومجتمع ديارهم وبنائهم كما في قوله رب اجعل هذا البلد آمنا.

والاشارة بهذا البلد الى البلد الذي نزل فيه هذا الكلام. ونكتة الاشارة زيادة تمييزه ليتمحض كونه المقصود بالقسم به اهتماما بتمييزه كقوله وهذا البلد الامين فالمراد بالبلد مكة لا محالة وفي القسم به ايذان بعِظَم قدره عند الله تعالى .

وجملة وانت حل بهذا البلد جملة حالية من البلد قصد منها تقييد القَسَم به بتلك الحالة بالخصوص ليكون لتلك الحالة حظ من التشريف الذي اقتضاه القسم وهو تشريف يؤول الى تعظيم قدر المسند اليه في الجملة اعني ضمير النبي صلى الله عليه وسلم فالمخاطب بضمير الخطاب هو النبي صلى الله عليه وسلم لا محالة فالكلام قسم بمكة في حال كون النبيء موصوفا بانه حل بها. واعادة البلد المجرور بلفظه الظاهر اذ لم يقل وانت حل به لزيادة التعظيم . واختيار القسم بمكة هنا للمناسبة بينه وبين المقسم عليه وهو احوال سكانه المشركين والتنبيه على انهم اضاعوا فضلا عظيما .

واختلفت تاويلات المفسرين في المراد بالحل والذي يرمي اليه كلام اهل اللسان منهم ان حِلٌّ وصف من الحلال ضد المنع وضد الاحرام وانه وصف بالمصدر او صفة مشبهة اي وانت حلال في هذا البلد اي لست بمُحْرِم وسو كناية عن تشريفه لذاته الشريفة لا لاجل كونه حاجا، فان العرب كانوا يعظمون الحجيج تبعا لتعظيم الحرم ومناسكه . فيؤول قوله وانت حل الى معنى وانت ساكن بهذا البلد غير حاج تشريفا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بجعل وجود ذاته في مكة مما يزيدها حرمة تستحق بها ان يقسم بها . وهذا المعنى انما حصل بطريق استعمال وصف حل في لازمه على طريق الكناية وليس بدلالته الوضعية لان وصف حل لا يستعمل بمعنى حال .

والمراد بالوالد والد النبي محمدصلى الله عليه وسلم والمراد به ابراهيم عليه السلام والمناسبة انه دعا لمكة بالبركة وبنى فيها كعبة التوحيد وهو جد اعلى للنبي صلى الله عليه وسلم فاقسم به لعظم قدره عند الله تعالى وعبر عنه بوصف الوالدية دون وصف بناء البلد للاستغناء عن وصف الباني باستفادته من ذكره عقب ذكر البلد ولذلك استغني عن التعريف لاستواء التنكير والتعريف هنا ولما يؤذن به التنكير من التعظيم والتعجيب والمراد انه والد محمد تنبيها على شرف محمد صلى الله عليه وسلم على نحو قوله وانت حِلٌّ بهذا البلد فحصل من ذلك تشريف البلد وبانيه والمقتدين به من ساكنيه .

وما ولد اريد به من ولدهم الوالد وهم صالحوا ابنائه اسماعيل وبنوه الذين اقتفوا اثر ابيهم في الاستقامة على التوحيد ومحمد صلى الله عليه وسلم وهو افضلهم. وفي هذا تذكير للمشركين من ذريته بهدي ابيهم وانهم اولى الناس باتباعه وان الذين اتبعوه اولى به من المشركين الذين استبدوا بالبلد الحرام « إن اولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي ـ وما كانوا اولياءه ان اولياؤه المتقون ـ قال اني جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين » وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون بل متعت هؤلاء « وآباءهم » والتذكير بفضائل الآباء طريق من الحث على الاقتداء بهم قال تعالى تذكيرا لبني اسرائيل « ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مع نوح إنّه كانَعبدا شكورا » وقال النابغة :

فالفِيتَ الامانَةَ لم تَخُنْها كذلك كان نوح لا يخون

والعدول عن مَن الموصولة الى ما الموصولة في قوله وما وَلد لان مَا اضعف في التعريف من مَن فهي اعرق في افادة غير معين بالذات الا بالصلة ليكون قوله وما ولد بمعنى وجميع الذين ولدهم فلا يتوهم ولد معين فان ما ادخل في الابهام الا ترى انها تستعمل نكـرة موصوفة ونكرة تامـة وبذلك العموم يستفاد منها التعجيب من شان صاحب الصلة كما في قوله تعالى « والله اعلم بما وضَعَتْ » . ومعلوم ان المراد اولاده المقتدون به لان من نبذ عهده لا يستحق ذلك قال تعالى « قال اني جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين » . والتعريف في قوله الانسان هنا للعهد الذهبي الصادق بناس من جنس الانسان وبجميع الناس كما في قـوله « ويقـول الانسان آيذا ما متُّ لَسوفَ أُخْرج حيا - وقوله - ايحسب الانسان ان لن نجمع عظامه » اي يقول اناس وايحسب اناس بقرينة قوله عقب الاول « فوربك لنحشرنهم والشياطين » . واريد بالناس الذين لم ينفعهم هدي الرسل فما صدْق الانسان هنا المشركون . والكَبَد قيل المشقة والتعسف فالمراد بذلك مشقة الشرك وعسفه فان احوال الشرك كلها تعسفات في الاعتقاد والعمـل لما فيها من الانحراف عن الفطرة ، وقيل معناه الشدة في الخَلْق يعني القوة وعلى هـذا التاويل يكون كقوله « لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم » اي الخلق الاصلي الذي لم تطرأ عليه العالل والعوائق الغالبة والمصنوعة فان اعمال الناس غير اهـل الاستقامة افسدت عليهم فطرتهم وهذا التاويل اوفق بقوله ايحسب ان لن يقدر عليه احد . والظرفية من قوله في كبد مجازية معناها شدة الملابسة بين الناس والكَبَد باي المعنيين .

(أيحْسِب أن لنْ يَقْدِر عَليْـهِ أحَدٌ)

جملة مستانفة استئنافا بيانيا لافادة من حصل له التعجب من تعجيب جملة القسم فحدث نفسه متسائلا عن مَدَى الكبَد الذي خلق فيه الانسان على معنييه السابقين فافيد ان مداه انه بحال من يحسب ان لن يقدر عليه احد ، فان كان الكبَد بمعنى الشدة فالانسان لاغتراره بمقدار شدته ينسى مقدار ضعفه فيحسب ان لن يقـدر عليه احد وقد كان معظم المشركين صنـاديد معتزين بقـوتهم وحماستهم فاخرين بهما قد طفحت اشعارهم وامثـالهم بذلـك فأوقظوا بانكار ذلك عليهم . وان كان الكبَدَ بمعنى المشقة والعَسف فقد بلغ عسف المشركين الى حد الاستخفاف

بانذار الرسول اياهم فقالوا كما قالت عاد « مَنْ أَشَدُّ منا قوة او لم يروا ان الله الذي خلقهم هو اشد منهم قوة » وقد بقيت بقية من ذلك في بقية منهم بعد ان ظهر النبيء عليهم فقال عبد الله بن أُبي بن سلول رأس المنافقين . « لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل » يريد بالاعز قومه وبالاذل المهاجرين، ومحل الانكار انه لا بد ان يقدر عليه احد واعظم من يقدر هو الله تعالى ومن يسلطه من رسله . والاستفهام على التقديرين مستعمل في التعجيب والانكار وهو كناية عن اقتدار الله عليهم في الدنيا والآخرة وتسليط بعض عبيده الاقوياء عليهم كما في قوله « بعثنا عليكم عبادا لنا اولي باس شديد » .

(يَقُولُ اهلَكْتُ مَالاً لُبَداً أَيَحْسَبُ ان لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ)

جملة حالية من الانسان . واللُّبَد الكثير . أُردف ذم غروره بقوته بذكر تبجحه بسرفه وريائه بذلك وانما كانوا ينفقون اموالهم غالبا في الفساد من خمر وميسر ويتبجحون بذلك وذلك ان من حال اهل الجاهلية التفاخر بالاسراف واتلاف المال قال عنترة :

واذا سَكِرْتُ فانني مُستهلك ... مالي . وعِرْضي وافرٌ لم يُكْلَمِ
واذا صحوت فما أُقصّر عن ندًى ... وكما عَلِمْتِ شَمَائلي وتكرُّمي

وسموا الكريم مِتلافا اشتقاقا من التلف وهو الهلاك اي متلافا لماله (١)

جملة ايحسب ان لم يره احد مثل جملة ايحسب ان لن يقدر عليه احد في موقعها ومفادها صريحا وكناية فهي كناية عن علم الله بخفاياهم وما انفقوا اي لا بد له من ان يَطلع على دخيلته احد من الناس وبعض الناس بعلم وجوه ما انفقوا فيه وكيف اكتسبوا ذلك المال من الباطل واعظم من يطلع عليه هو الله تعالى ومن يطلعه من رسله اي لا ينفعه الرياء والتظاهر .

(أَلَمْ نَجعلْ له عَيْنَيْنِ ولِسَاناً وشَفَتَين وهَدَيْنَاه النَّجْدَيْن فلا اقْتَحَم العَقَبَةَ وما ادراكَ ما العَقَبَةُ فكُّ رَقَبَةٍ او إِطْعَامٌ في يومٍ ذي مَسْغَبَةٍ يتيما ذَا مَقْرَبَةٍ او مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ ثمّ كان من الذين آمنوا وتَوَاصَوْا بالصَّبْر وتَوَاصَوْا بالمَرْحَمَةِ)

جملة الم نجعل له عينين واقعة موقع التعليل للانكار المفاد بالاستفهام

(١) قال : مُفيد ومِتلاف اذا ما انيته ... تبسّم واهتزّ اهتزاز المهنّد

الانكاري في قوله ايحسب ان لم يره احد ، وللمعنى المكنّى عنه بالانكار وهـو قدرةُ الله وعلمُه فانّ خلْق البصر والنطق والعلم دلائـل على عظيم قـدرة الله تعالى وأن الذي خلق العلم وآلته وأثَره لهؤلاء، هو اعلم بهم لايخفى عليهامرهم • وذكر من حواس الانسان وجوارحه العينين لانهما من اعظمها وهما آله البصر وطريق لغالب المعلومات • وذكر اللسان والشفتين وهما معا آلة النطقالذي فُضل به نوع الانسان على سائر الانواع • ومن دقائق القرآن عدم الاقتصار علىاللسان هنا خلافعادة كلامهمانيقولوابنطق بلسان فصيحمثلاولم يتّبع القرآنُ استعمالهم لان المقام مقام استدلال فزيد معه ماله مزيد تصوير الخَلْق آلةِ النطق • ثم ذكر الهدي وهو العلم الذي به ساد الانسان على مخلوقات عالمه الارضي. ولم يذكر السمع ههنا كما ذكر في قوله تعالى « فجعلناه سميعا بصيرا انا هدينـاه السبيل » لان المقام للرد على غرور الناس بالقوة وولعهم بالتفاخر والاستغفال والاخفاء عنالناس فاقتصر على ذكر الآلات التي لها اثر في ظهور تلك الافعال بخلاف السمع فهـو آلة لاكتساب العلم .

والنَّجْد اصله المرتفع قليلا دون الجبل ويطلق على الطريـق الواضحة لان الطريق في المكان الصلب تكون واضحة حيث لا ينبت فيها العشب ولا تطغى عليها الرمال والاودية ولذلك يقـال المحجة البيضاء لان الطريـق في الارض المرتفعة تكون مغايرة لسواد الارض المُعْشبة، ويقولون في ضده طريـق طامس اي غير واضحة طمستْها الرمال او انقطاع السير قـال كعب ❊ عُرْضَتُها طَامِسُ الاعْلامَ مَجْهُول ❊ والمراد بالنجدين هنا طريقا الخير والشر اي مـا يوصـل الى اعمال الخير واعمال الشر كقول انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا • والمراد بهذا الهدي خلق العقل والادراك الذي يميز به الانسان بين الخير والشر فيما يفعـل وفيما يفعل به. فالمعنى وخلقنا فيه العلم الذي يعلم به طريق الخير وطريق الشر • وقرينة ذلك قوله في التفريع فلا اقتحم العقبة • وقوله والذين كفـروا بآياتناهم اصحاب المشأمة •

والفاء في «فلا اقتحم العقبة» للتفريع اي هدينـاه فلم يقتحم طريق الخير • واستعير لفظ العقبة للوسيلة الصعبة للفوز استعارة مبنية على اطلاق النجد علىوسيلة

العمل من خير وشرّ فناسب ان يجعل لاصعب الوسيلتين لفظ عقبة كالعقبة التي لا يخلو منها السير في الطريق فيعسر سلوكها كما قال امرؤ القيس

غداةَ غدوا فسالكٌ بطن نخلة   وءاخرُ منهم جازع نجد كبكب

وقد علم ان المراد بالعقبة شيء من احد النجدين عسير على العامل لكنه أبهم قصد التشويق الى معرفته ، وقد زاد الاعتراض بجملة وما ادراك ما العقبة تشويقا اليه . والاقتحام الدخول الشاق .

ومعنى ما ادراك ما العقبة ما الشيء الذي صَيَّرَكَ دَارِيا اي أَعْلَمَكَ حقيقة العقبة اي هي حقيقة عظيمة خفية قل من يهتدي اليها. فما الاولى والثانية استفهاميتان وقد تقدم تفسير هذا التركيب عند قوله تعالى وما يُدريك لعله يزكى في سورة عبس . وفعل الدارية هنا معلق عن العمل في المفعولين لوجود ما الاستفهامية بعده . وجملة فك رقبة تفسير للعقبة فهي كجواب لسؤال وما ادراك ما العقبة والتقدير العقبة فك رقبة . وحذف المسند اليه حذفا متابعا فيه الاستعمال لانهم يحذفونه اذا تقدم الحديث عنه كقوله «وما ادراك ما الحطمة نار الله» . والفك النزع . والرقبة الشخص المملوك سميت رقبة اعتبارا بانه يقاد الى الاسر بان يوضع حبل في رَقَبة الاسير ويقاد الى مكان القوم الذين اسروه والاسر اصل الملك . وكذلك كانوا يفعلون بالمَقُود الى القتل وسموه القود . والمتبادر من فك الرقبة عتق العبيد لان الاسلام جاء بتكثير الحرية . وقد يراد بفك الرقبة ما يشمل فداء الاسرا وبذلَ الدِّيَات في الدماء وكان ذالك من اعمال البر في الجاهلية واقره الاسلام قال زهير

تُعَفَّى الكلوم بالمِئِينِ فاصبحت   ينجمها من ليس فيها بمجرم

ينَجِّمُها قوم لقوم غرامة   ولم يُهَرِيقوا بينهم ملء مَحْجَم

واو للتخيير والمسغبة المجاعة . والمَقْرَبَةُ القرابة . والمَتْرَبة الفقر مشتقة من التُّراب لان الفقير يضطجع التراب اذ لا فراش له .

والمعنى ان هذا المرائي باهلاك المال لم يهلكه في الاحسان للناس فتعين من هذا انه اهلكه في الفساد وهو تنديد على اهل الجاهلية بجاهليتهم وقسوتهم بحيث كانَ كُفْرهم اشنع الكفر لانه فساد اعتقاد قارنه فساد العمل . ولما كان المقام مقام تشنيع على المشركين صح ان يُعَيروا بتركهم الفضائل كناية عن مذام الشرك

وتعريضا بفضائل الايمان . وليس هذا تشريعا ولا ترتيب عقاب حتى يشكل بقوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا . وفهم من نفي سلوكه العقبة انه سلك من النجدين سهل الطرائق وهي طرائق الشهوات وهيّن الاعمال وهي ما شأنه يفضي الى الخسران وفي الحديث حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات . وقوله ثم كان من الذين امنوا عطف على اقتحم اي فلا اقتحم ولا كان من الذين آمنوا وثم للتراخي في الزمان اي ما فعل الخير في الجاهلية ولا استيقظ من جهالته حين جاء الاسلام فيكون من متبعيه اي انتفى ذلك فلم يفعل خيرا في جاهليه ولا في اسلام . وقد سال حَكِيمُ بنُ حِزامٍ النبيء صلى الله عليه وسلم عن أعمال من الخير كان يعملها في الجاهلية فقال له «اسلمتَ على ما سَلَفَ من خير» . وقوله كان من الذين ءامنوا ابلغ في اثبات الايمان من ان يقال كان مؤمنا كقوله «وكانت من القانتين» والمعنى انهم لم يكونوا مؤمنين. والمراد بالذين ءامنوا المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم لان ذلك الوصف صار كاللقب لهم في ذلك الزمان .

واثنى على المؤمنين بانهم يتواصَون بالصبر وبالمرحمة مقابل حال المشركين في قوله «ولا تَحضون على طعام المسكين» والمعنى ان ذلك فاش فيهم عملا وقولا. وخص الصبر من بين خصال الايمان لانه يجمع الصالحات كلها لان الاعمال الصالحة لا تخلو من قمع شهوات نفسانية وذلك القمع هو الصبر .

(أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ)

لما نوه باللذين ءامنوا اعقب التنويه عليهم باسم الاشارة اليهم لتميزهم اكمل تمييز استحضارا لذهن السامع ، ولما فيه من الايذان بتعظيم منزلتهم ولذلك جعلهم اصحاب الميمنة اي اصحاب الكرامة عند الله . فالميمنة جهة في الجنة واصل المَيْمَنة هي جهة اليمين واهلها حقيقون بالتقدم العُرف قال عَمْرو بن كلثوم «وكَانَ الكأسُ مَجْرَاهَا اليَمِينَا» والمَشْأمة جهة الشِمال وسميت مَشْأمة لان الشام من جهة شمال الكعبة لان باب الكعبة شرقي فاعتبروا الجنوب يمينها وسموه يَمَنا واشْتَقُّوه من اليُمْن واعتبروا الشَمال (بفتح الشين) شِمالها (بكسر الشين) وسموه شئاما من الشؤم ضد اليُمن ، وسميت بلاد الشام بذلك ولاشؤم لها لان الشؤم ابطله الاسلام وفي الحديث «اللهم بارك لنا في يمننا وفي شأمنا» فأجملت الآية الميمنة هنا حوالةً على العرف وعلى قرينة المقابلة باضدادهم اصحاب

المشامة اذ قال «عليهم نار موصدة» وفَصّل القرءان اصحاب اليمين واصحاب الشمال في سورة الواقعة بقوله « واصحاب اليمين ما اصحاب اليمين في سدر مخضود الى قوله لا بارد ولا كريم ».

(والذين كَفَروا بآيَاتِنا هم اصْحَابُ المَشْأَمَةِ عَلَيهم نَارٌ مُوصَدَةٌ)

لما مدح المؤمنين بمحمدصلى الله عليه وسلم اعقب ذلك بذم الذين كفروابالقرءان فجعلهم بمكان هو ضدمكانالمؤمنين وهو مكان النار . وقد علم من هذه المقابلة ان الناس الذين وُصف حالهم فيما مضى من الكلام هم الذين كفروا بآيات الله انفسهم بطريقة تشبه طريقة الفذلكة والخلاصة للكلام السابق . والمُوصدة المغلقة يقال اوصد الباب اي اغلقه ويقال ايضا ءاصده بالهمز والفعل المجرد منه وصد واصد لغتان بمعنى ثبت فيكون اسم المفعول موصد بالواد ولذلك قرا الجمهور موصدة بواو ويكون مؤصد بهمز بعد الواو ولذلك قرا ابو عمرو وحمزة وحفص مؤصدة بهمزة بعد الميم والمعنى مغلقه لان المغلق يثبت ولا يتحرك وذلك اشد في العذاب . وضمير الفصل في قوله هم اصحاب لقصر هذه الصفة عليهم دون احد من المؤمنين . وجملة عليهم نار موصدة خبر ثان عن الذين .

اسلوب هذه السورة

افتتحت بالقسم لتاكيد الخبر . وكان المقسم به اشياء اريد التنبيه على عظم شانها وهي مكة والرسول المبعوث فيها وبانيها الذي هو جد الرسول وابناء البابي وهم الاجداد الاعاون للنبيء من اهل التوحيد . ثم ذكر المقسم عليه وهو خلق الناس في كَبَد . وانتقل الى الانكار على الناس المغترين بالقوة المفتخرين بالجِدَة الذاهلين عن قدرة الله عليهم واطلاعه على خفاياهم وكيف يذهلون ولم يتدبروا في ان الذي خلق فيهم ءالات العلم والقوة هو اقدر منهم واعلم . وعطف في عِداد ما جَعَل لهم انه اهداهم طريقي الخير والشر . فتخلص من ذلك الى انهم لم ينتفعوا بذلك الهدي ولم يسلكوا الطريق العسرة من الطريقين الموصلة الى النجاة وهي طريق الخير بل اتبعوا سهل المسالك وهي الشهوات في الجاهلية ثم لم يكونوا من المؤمنين بعد مجيء الاسلام . وتخلص الى مدح المؤمنين والبشارة بحسن عاقبتهم وقابل ذلك بذكر سوء عاقبة الذين كفروا بالآيات فعلم انهم اصحاب هذا الحديث على طريقة الفذلكة اذ قد ختم الاستدلال والامتنان على الانسان بذكر عاقبة الفريقين من الناس النعم عليهم وانقسامهم الى شاكر وكافر وبيان المصير الابدي للفريقين فكان ذلك ايذانا بانتهاء السورة .

سورة الشمس

تسمى سورة الشمس وتسمى سورة والشمس وضحاها وهي مكية.

احتوت هذه السورة على التنويه بعظائم مخلوقات الله تعالى تنبيها على عظيم قدرته وسعة علمه . وعلى الامتنان على الانسان باتقان خَلْقه وخلقِ العقل فيه وانه سبب فلاحه وخيبته معا . ثم على العبرة بهلاك امة كذبت رسولها وآذته وجحدت آيات الله وان الله لا يعجزه احد . وذلك تعريض بجحود المشركين وتهديد لهم.

(والشمسِ وضُحاها والقمرِ اذا تلاها والنهارِ اذا جَلَّاها والليلِ اذا يَغْشاها والسماءِ وما بَناها والارضِ وما طَحاها ونفسٍ وما سوَّاها فألهَمَها فُجورَها وتَقْواها)

تصدير الكلام بالقسم مشعر باهمية الغرض وهو غرض التعريض بالتهديد لقريش الذي في قوله « كَذَّبت ثمود بطَغْواها - الى قوله - فدمدم عليهم ربهم كما سياتي . والواو الاولى واو القسم والواوات التي بعدها واوات عطف على المُقْسَم به فتفيد تلك الواوات التشريك في حكم القسم .

وقع القسم بذات الشمس حين تكون مرئية مشاهدة عند الشروق . والضحى وقت ارتفاع الشمس عن افق المشرق حين ظهور ضوء الشمس وهي ترى بالابصار . فالقسم بذات الشمس لما في عظيم خلقتها من الدلالة على عظيم القدرة وبالضحى لما فيه من البهجة والانتفاع به .

والقمر يتلو الشمس اي يخلفها عند مغيبها بضَوئه لانه لا يظهر ضَوءه الا بعد اختفاء الشمس . وجعل القسم به في حين تُلوّه للشمس للاشارة الى ما في ذلك من دقائق صُنع الله كقوله « والليل اذا عسعس »

وفي الآية اشارة الى ان القمر تابع لنظام الشمس وليس كوكبا مستقلا بضيائه فان لاختيار التعبير بكونه تاليا للشمس نكتةً لطيفة، ولان القسم به كان بقيد ضيائه حين يخلف ضوءُه ضوء الشمس ولم يقع القسم بذاته بدون قيد كما وقع القسم بالشمس لان نوره مستفاد من الشمس ولكن لم يُصَرَّح بهذا المقصود لهم وقد عَلِمه الذين جاؤوا من بعد فكانت هذه الاية مشتملة على اعجاز علمي وقد

اشرنا اليه في المقدمة العاشرة . والقسم بالنهار وهو زمان قوة ظهور الضوء بحيث لا يرى الراءي قُرص الشمس مثلَ ما يراه عند الشروق بلا ضوءٍ وعند الضحى بضوئها وانما يَرى ضياءيعم الارضَ . وقد جعل القسم بالنهار في وقت تجليته الشمس على نحو قوله والقمر اذا تلاها وقوله والليلِ اذا يغشاها ، والضمير المنصوب في قوله جَلاَّها يعود على الشمس فمعنى جلاها انه كان وقت تمام تجليها واشتداد نورها فالاسناد مجاز عقلي اسندت التجلية الى وقتها .

واعقب ذكر النهار بالليل لانه ضده. وجعل الليل غاشيا للشمس باعتبار كونه مسببا على الغشيان وهو احتجاب قرص الشمس عن النصف المظلم من الكرة الارضية فذلك الجزء غشي الشمس فكان الليل ، او لكون الليل وقتا لذلك الغشيان على سبيل المجاز العقلي والغاشي الحقيقي هو تكوير الارض ،وفي الآية تنويه بعظمة الشمس اذ جعل القسم بالقمر والنهار والليل مقيدة بكيفيات تعود الى الشمس ليتنبهوا الى ان هذه الاشياء ناشئة عن حركات الشمس ، واختيار القسم بهذه المقسمات هنا لمناسبة مافيها من اختلاف الاحوال اختلاف تضاد لاختلاف الاحوال المقسم على اثباتها وهي فجور الذين كفروا وتقوى الذين ءامنوا، وتزكية النفوس وتدسيتها وفلاحها وخيبتها لتنبية الناس للاختلاف الحاصل بين حالتي الكفر والايمان فما كان من هاته الاحوال كمالا، فهو مثل للايمان ، وما كان بضده كظلمة الليل فهو مَثل للكفر ، وقد زاد ذلك افصاحا القسم بنفس وما سواها الآية .

واذا في المواضع الثلاثة ظرف زمان بمعنى حين منتصب على المفعولية فيه لما في واو العطف في المواضع الثلاثة من النيابة عن فعل القسم وبائه فلذلك عملتْ واو العطف الجر في الاسماء المقسم بها وعملت النصب في اذا المذكورة مع كل منها.

وفي هذه الآية من البديع الطِّباق وهو ذكر اشياء متقابلة حيث ذكرت الشمس والقمر ، وذكرت النهار والليل والسماء، والارض، والتجلية والغشيان ، والبناء والطَّحْوَ .

وما في قوله وما بناها وما طحاها وما سواها موصولات،وماصْدَقُهنَّ الامر التكويني الذي به خلقت السماء والارض والنفس وهو المذكور في قوله تعالى « فقال لها وللارض ايتيا طوعا او كرها » . ويجوز ان تكون ما في تلك المواضع

مصدرية فيكون القسم بصفات من صفات افعال الله تعالى والتقدير والسماء وبناءها والارض وضحاها . ونفس وتسويتها .

ومعنى طحاها بَسَطَهاووطاها وهو مرادف دحا يقال طحا يطحو ويَطحِي، والنفس ذات الانسان وتنكير نفس يفيد العموم في مقام عدم ارادة نفس معينة مثله، في قوله علمت نفس ما احضرت فعدل عن التعريف لئلا يتوهم ارادة نفس معهودة كما في قول لبيد ❊ اوْ يعْتَلِقْ بعضَ النفوسِ حِمَامها ❊ يريد نفسه . والتسوية جعل الشيء غير متفاوت الخَلْق كما تقدم في سورة الانفطار وتسوية الانسان انتظام خلق جسمه وعقله .

والفاء في قوله فالهمها فاء التعقيب والتفريع اي خلقها خلقا سويا يعقبه الالهام وهو ظهور الخواطر النفسانية في العقل فالتعقيب هنا عرفي لان الهام الفجور والتقوى يكون بعد البلوغ . والفجور المعاصي والتقوى الطاعات وتقديم الفجور على التقوى لان لفظ التقوى يساعد الفاصلة ولان المعرَّضَ بهم هم ممن أُلْهِمَ الفجور . والضمير المستتر في فالهمها عايد على ما ان جعلت موصولة لانها في معنى الذي واسناد الالهام الى امر التكوين ظاهر . وان جعلت ما مصدرية عاد الضمير الى التسوية . ولا يهولك تذكر الضمير لان تانيث التسويه لفظي فقط

(قَدْ أفْلَحَ مَنْ زَكاهَا وقَد خَابَ من دَسَّاها)

جملة قد افلح من زكاها مقدمة لجواب القسم الذي هو كذبت ثمود الخ وهذه المقدمة معترضة بين القسم وجوابه ومناسبة الاعتراض انه لما دلت جملة فالهمها فجورها وتقواها على ان النفوس مودع فيها معرفة الخير والشر ناسب ان يحرض على التقوى وينبه على انها تزكية للنفس وتطهير وان صاحب التزكية مفلح ويحذر من الفجور وينبه على انه تدسية للنفس واهلاك لها ويجوز ان تكون جملة قد افلح الى آخرها جوابا للقسم فتصير جملة كذبت ثمود الى ءاخره استدلالا على خيبة من دسى نفسه، والوجه الاول اولى والمعنى واحد على كلا التقديرين وحذفت اللام التي تدخل على جواب القسم على الوجه الثاني لاستطالة القسم وحذف اللام في مثل هذا كثير وشواهده كثيرة . والتزكية التطهير وتنزيه الشيء والتدسية انقاص الشيء واعدامه واصل دسى دسس فخفف فصار دَسَّى . والخيبة الخسران

والفلاح تقدّم في سورة الاعلى وقدم الفلاح هنا لانه الا جدر بالتقديم بعد قضاء حق التعريض بتقديم الفجور على التقوى .

(كَذَّبَتْ ثَمودُ بِطَغْواهااذْ انْبَعَثَ اشقاها فقالَ لَهُمْ رسولُ الله ناقَةَ الله وسُقْياهافكَذبوه فَعَقَرُوهافدَمْدَم عَليهم ربُّهم بِذَنْبِهمفسَوّاها فلايَخاف عُقباها)

الاظهر ان جملة كذبت ثمود بما عطف عليها هو المقسم عليه . والمقصود من القسم هو قوله فدمدم عليهم ربهم الخ لان الغرض من ايقاع القسم عليه التعريض بانذار الذين فعلوا مثل فعل ثمود فطَغَوْا وتجبروا وبعثهم طغيانهم على تكذيب الرسول والجحود بآيات ربهم والجرأة على رسوله. واما ما عدا ذلك فبعضه لا ينازع فيه المشركون ، وبعضه يسرهم الاخبار عنه كقوله « اذانبعث اشقاها الى قوله فعقروها » فقوله كذبت ثمود بطغواها بمنزلة الدليل على ان المشركين سيصيبهم مثل ما اصاب ثمود ، ولذلك يكون المقسم عليه بمنزلة المحذوف الدال عليه المذكور فتقدير المعنى أُقْسم ليصيبن المشركين عذاب كما اصاب ثمود ، وليس يلزم تماثيل العذابين فان الله عذب ثمود بالصاعقة وعذب قريشا بالسيف وبالجوع . وحذفت لام جواب القسم للوجه الذي تقدم آنفا. وان جَعَلْت جواب القسم هو جملة قد افلح من زكاها كانت جملة كذبت ثمود بطغواها مستانفة لتقرير مضمون جملة وقد خاب من دساها كما تقدم . والتكذيب النسبة الى الكذب والكذب الخبر بما ليس واقعا في الوقت المخبر فيه،ولم يُذكَر المكذبُ به اجمالا لانه سيبين في قوله فكذبوه ، وتقدم ذكر ثمود في سورة البروج .

والطغوى الطغيان وقد تقدم عند قوله « الذين طغوا في البلاد » في سورة الفجر . والباء في بطغواها للسببية اي بسبب الطغيان لان الطغيان هو الحامل لهم على التكذيب فالجار المجرور ظرف مستقر هو حالمن ثمود وليست هذه الباء التي يُعَدّى بها فعل التكذيب كالتي في قوله تعالى «وكذبوا بآياتنا كذابا» . واذ منصوب على الظرفية الزمانية لِكذّبت وخُصّ من ازمان تكذيبهم زمن انبعاث اشقاها لان ذلك هو اشد احوال تكذيبهم وطغيانهم .

والانبعاث مطاوع بعث اي بعثه قومه ليعقر ناقة صالح عليه السلام فانبعث وذهب لذلك .

والاشقى هو الذي تولىّ عَقْرَ الناقة واسمه ُقدارُ بضم القاف وتخفيف الدال ، وانما جعل فعله من طغيان قومه كاهم لانهم اغروه بذلك ورضوا به وكان قدار هذا زعيم تسعة رهط يفسدون في الارض .

والتفريع في قوله فقال لهم رسول الله على فعل انبعث اي قال لهم ذلك حين رأى عزمهم على عقر الناقة ورسول الله هو صالح . والناقة الانثى من الابل . والسُّقيى اسم مصدر للسَّقْي . وناقة الله وسُقياها منصوبان على التحذير والتقدير احذروا اي احذروا ذاتها فلا تصيبوها بسوء واحذروا سقياها فلا تمنعوها الشراب . ووجه هذا التحذير انهم يضربونها يذودونها عن الشرب ظلمه واهانة . وانما حذرهم من منعها السقيا في حين انبعاث الاشقى الى عقرها ارتقاء في الموعظة فبعد ان حذرهم اصابة نفسها حذرهم ظلمها لئلا يحسبوا ان عدولهم عن اصابة نفسها كاف في الحذر .

والتكذيب المعقب به التحذير بقوله فكذبوه تكذيب خاص وهو تكذيبهم بما اقتضاه التحذير من وعيدهم بالهلاك كما ذكر في سورة الاعراف «ولا تمسوها بسوء فياخذكم عذاب اليم» . وعُقِب ذلك بقوله فعقروها فدمدم عليهم ربهم للاشارة الى اسراعهم بفعل ما حذروا منه والى سرعة حلول العذاب الموعود كقوله « فعقروا الناقة وعتوا عن امر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين فاخذتهم الرجفة فاصبحوا في دارهم جاثمين » . والعقر النحر واصل العقر الجرح ومنه قيل الكلب العقور .

ومعنى دمدم اصابهم بالدمدمة وهي الرجفة وكأن اصله حكاية صوت فان اهلاك ثمود كان بالصاعقة . وعدي بعلى للاشارة الى ان الدمدمة كانت من اعلاهم اي من السماء .

والضمير المنصوب في سوّاها راجع الى ثمود باعتبار القبيلة او القرية اي سوى الارض عليهم اي سوى الامة بالارض اي اماتهم قال تعالى « لو تَسَّوَّى بهم الارض » وهذا معنى قوله في الآية الاخرى « فاصبحوا في دارهم جاثمين » .

ومفاد الفاء في قوله فلا يخاف عقباها ان انتفاء خوف الله منهم يتفرع العام

به على العلم بالدمدمة لان الذي يدمدم عليهم مثل تلك الدمدمة قدير فاذا اهلك قوما لا يخشى ان ياخذ لهم احد بثار اي دمدم عليهم دمدمة اعقبها الياس من انتهاضهم وتناسلهم عكس ما في قوله تعالى « ثم رددنا لكم الكرة عليهم وامددناكم باموال وبنين» . وقرا غير نافع وابن عامر ولا يخاف بالواو وهي واو الحال المقارنة فتفيد مفاد فاء التعقيب .

والعقبى هي عاقبة الشيء وهي ما يترتب على الفعل ويعقبه عادة ولما كان شان الغالبين ان يخشوا ثار المغلوب فلذلك كانوا اذا غلبوا يُبقون على المغلوب بعض ما يمكنهم ان يَرزَؤوه اياه ويسمون ذلك البُقيَى على وزن العُقبى قال مِسْوَر بن زيادة من شعراء الحماسة :

أُذَكِّرُ بالبُقْيى على مَنْ أصابني وبُقْيايَ انّي جَاهِدٌ غيرُ مُؤتَلِي

ومن امثال العرب ملكت فأسجح وصريح معنى هذا الكلام الاخبار بان الله لا يخاف عاقبة اهلاك ثمود وصريح هذا المعنى غير مراد من الخبر لانه معلوم للسامعين فليس في الاخبار به فائدة وإنما هو خبر اريد به الكناية عن اخذ شديد لم يُبق منهم باقية ولا يذر لهم فاذة كقوله « فاخذناهم اخذ عزيز مقتدر - وكقوله - فمابكت عليهم السماء والارض» وفيه تعريض بالتهديد لكفار العرب .

اسلوب هذه السورة

لما كان القصد تهديد قريش بان يصيبهم العذاب بسبب تكذيبهم الرسول واجترائهم عليه كما اصاب ثمودا، افتتحت بالقسم لتاكيد المقسم عليه وهو اهلاك ثمود باعتبار ما اريد به من التعريض . وضمن في القسم التنويه بعظائم من مخلوقات الله تعالى ومنها النفس الانسانية ، ونوه بما خُلق فيها من الالهام الموصل الى الفجور او التقوى . وفيه تعريض بالمهدَّدين من اهل الفجور . واستطرد بذكر فلاح من زكى نفسه وخيبة من أنقصها . ثم ذكر المقسم عليه واشير الى قصة هلاك ثمود وسببها وهو عصيان نصح رسولهم وان الذي اهلكهم لا يخاف غيرهم .

وفي جملة فلا يخاف عقباها ايذان بطي بساط القصة ففيه براعة المقطع .

سورة الليل

تسمى سورة الليل وسورة والليل اذا يغشى، وهي مكية.

وقد اشتملت على ذكر جزاء اصحاب فعل الخير المصدقين بالبعث والمتصدقين باموالهم ومقابلة ذلك بوعيد اصحاب فعل الشر المكذبين بالبعث والممسكين لاموالهم عن الفقراء وان لا عذر للضال في ضلاله بعد ان ارشده الله الى الخير وانذره الشر. والامتنان بان الله تعهد لعباده ان يهديهم. واومأت الى علامات اهل الفلاح واهل الخسران ، وفيها تعريض بمن كان من احد الفريقين .

(واللَّيلِ اذا يَغْشَى والنَّهارِ اذا تجَلّى وما خلقَ الذَّكَرَ والانثى انَّ سَعْيكُمْ لشَتَّى)

القسم لتاكيد الخبر . وكان القسم بالليل والنهار لدلالتهما على عظم القدرة. وجعل القسم بالليل في وقت غشيانه والنهار في وقت تجليه لان ذينك الحالين اوضح دلالة على عظيم صنع الخالق كما تقدم في قوله والليل اذا عسعس ونظائره المتقدمة آنفا ، والغشيان والتجلي تقدما في السورة قبل هذه ، والظاهر ان المراد هنا يغشى الشمس فهو مجاز عقلي ويجوز ان يفسر بانه يغشى الارض او يغشى الناس . وابتدىء في القسم بالليل للاشارة الى انه وقت عظيم يدل على عظم قدرة الخالق كما تدل عليه الشمس فكما ابتدىء في السورة الاخرى بالشمس وضحاها ابتدىء في هذه بالليل لئلا ينتقصه المنتقصون ، ولان غرض السورة تفصيل اهل الايمان وذكر مراتب فوزهم فاشير بالقسم بالليل وذكر النهار عقبه الى ظهور الاسلام بعد الجاهلية . وحذف مفعول يغشى لانه لا يخفى .

وما خلق الذكر والانثى قسم بالتكوين العجيب الذي كان به تكون هذين المختلفين في الخصائص اللازم احدهما للاخر الناشيء عن مجموعهما تولد افراد النوع وفي ذلك كله دلالة واضحة على عظيم صنع الله ولطفه بالانسان. وما

مصدرية اي وخلْقِ الذكر والانثى فهو قسم بصفة من صفات الافعال الالهية والمناسبة بين الاقسام والمقسم عليه مثل المناسبة في السورة قبلها لان اختلاف احوال الاقسام مناسب لاختلاف السعي المقسم عليه بانه لشتى .

وجملة ان سعيكم لشتى جواب القسم وهو مجمل تفصيله بعده والمقصود من هذا الاجمال التشويق الى تفصيله . والسعي العمل وهو مجاز واصل السعي الاشتداد في المشي ثم يستعار للعمل تشبيها لعامل العمل بالماشي وشتى جمع شتيت ووزنه فعلى مثل قتيل وقتلى والشتيت المتفرق عن غيره والشت التفرق يقال شت جمعهم يشت اذ تفرق اي ان عملكم لمختلف غير متماثل بعضه حسن ياتي بالاحاسن وينجي صاحبه من العذاب وبعضه قبيح ينشا عنه القبائح ويردي صاحبه في النار . وضمير جمع المخاطب مخاطب به الناس من مؤمن وكافر .

(فأمَّا منْ اعْطى واتّقى وصَدّقَ بالحُسْنَى فسَنُيَسِّرُه لليُسْرَى وأما منْ بخِلَ واسْتَغْنى وكَذَّبَ بالحُسْنى فسَنُيَسّره للعُسْرى وما يُغْني عنهُ مالهُ اذا تردّى)

تفريعُ التفصيل على الاجمال فهو المقصود بالقسم. وتقدم الكلام على اما وجوابها عند قوله تعالى فاما الانسان اذا ما ابتلاه ربه في سورة الفجر . وتقدير الكلام هنا مهما يكن من شيء فسنيسر لليُسْرى مَنْ اعْطى واتّقى وصَدّق بالحُسنى . وابتديء بذكر احوال اهل السعادة لشرفها والترغيب في الاقتداء باهلها . وماصْدق من اعطى ومن بخل كل من يفعل ذلك كما دل عليه العموم الذي في اجماله من قوله ان سعيكم فيدخل فيه كل مسلم ومنهم ابو بكر الصديق فقد كان متصفا بذلك ، وماصدق من بَخل كل مشرك ومنهم أُمية بن خلق فقد كان متصفا بذلك وقد قيل انهما مرادان هنا .

وذكر من الاحوال التي عرف بها المؤمنون والتي عرف بها المشركون : ما هو عماد الايمان وهو التقوى والتصديق بالحسنى ، وما هو عماد الشرك وهو الطغيان والتكذيب بالحسنى . وذكر مع ذلك بعض خصال المؤمنين وهو السخاء وكانّ وجه ذلك انه انفع الاوصاف لاهل الايمان يومئذ وانه من المحامد في عرف العرب فثبوته للمؤمنين مؤذن بطيب اعراقهم وثبوت ضده للمشركين وهو البخل المعير به عند العرب مؤذن بردالة اصحابه فذلك الزامٌ لهم بما هو من الاصول المقررة في عوائدهم .

وحذف مفعول اعطى لان اعطى اذا اريد به اعطاء المال بدون عوض يتزل منزلة اللازم لان شهرة استعماله تغني عن ذكر مفعوله ولذلك يسمى المال الموهوب العطاء . قال بشار :

ليس يعطيك للرجاء او الخوف ولكن يَلَذُّ طَعْمَ العطاء

والحسنى واليسرى والعسرى صفات من اليسر والحسن والعسر اصلها صفات لمؤنث نحو الخَصْلة اوالفَعْلة ، واريد بالحسنى خصلة معينة يتعلق بها التصديق المناسب للاعطاء والتقوى ، وهي الجزاء الحسن . وقد روعي في التسمية مناسبة الجزاء للمجزي فالحسنى هي الجنة والتعريف للعهد بقرينة المقام . وقد اطلقت الحسنى على الجنة في قوله تعالى للذين احسنوا الحسنى وزيادة وهذا احسن ما فسرت به . والتصديق بالجنة تصديق بالبعث والجزاء ، وهو يقتضي الايمان بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم لان المشركين ينكرون ذلك ، وعلم من التصديق بالجنة التصديق بجهنم . وانما اقتصر على الحسنى في الموضعين لان دعوة الاسلام الى العمل الصالح هي المقصد الاول فلذلك كان ذكر الجزاء الحسن هو الاهَمّ .

واما اليسرى فتعريفها تعريف الجنس اذ لا عهد هنا فتصدق بكل خصلة فيها يسر لفاعلها وصلاح لحاله وهي خصال الخير كلها لان عاقبتها يسر لصاحبها في الآخرة وتقدم ذلك في سورة الاعلى . يعني ان فعل الخير قد جعله الله سببا لتسهيل امثاله على فاعله فلا يزال يستكثر منه حتى تعمه الخيرات .

والعُسرى ضد اليسرى وهي خصال الشر المُفْضِيَةُ بفاعلها الى الشدة عليه في الآخرة وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بما في الصحيحين عن علي قال كنا في جنازة في البقيع فأتى النبيء فجلس وجلسنا معه ومعه عود ينكت به في الارض فرفع راسه الى السماء فقال ما من نفس منفوسة الا كتب مدخلها فقال القوم افلا نَتّكِلُ على كتابنا فمن كان من اهل السعادة فانه يعمل للسعادة ومن كان من اهل الشقاء فانه يعمل للشقاء فقال بل اعملوا وكلٌّ ميسّر اما من كان من اهل السعادة فانه ميسر لعمل اهل السعادة ومن كان من اهل الشقاء فانه ميسر

لعمل اهل الشقاء ثم قرا فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى . والتيسير التسهيل فمعنى نيسره نسهله واذا اريد تسهيل شيء لشيء كان كلا ذينك الشيئين مسهّلا للاخر فلك ان تقول يَسَّرتُ الراكبَ للفرس ولك ان تقول يسرت الفرس للراكب وعلق التيسير في الآية بصاحب العمل لا بالجزاء لان التيسير اظهر في الانسان منه في جزائه لما في تيسير الانسان للعمل من تكوين توفيقه او خذلانه ومن قبوله لذلك التكوين فهو فيه ادل على تعلق قدرة الله وعنايته او غضبه وقد ساير هذا الاستعمالَ القرءانيَّ اللفظُ النبوي في قوله «وكل ميسر» وانظر ما تقدم في قوله ونيسرك لليسرى في سورة الاعلى .

وقوبل اعطى ببخل لان البخل ضد الاعطاء . وقوبل اتقى باستغنى لان المراد بالاستغناء هنا عدم الاحتياج الى مرضاة الله لان الممعن في العصيان والمعرض عن الدعوة يرى نفسه غنيا عن الله وعن التعرض لرضاه واتقاء غضبه وهو المعبر عنه بالطغيان في قوله فاما من طغى وآثر الحياة الدنيا الآية . وفي الآية . محسن الطباق للمضادة بين اعطى وبخل . وبين صدق وكذب . وبين اليسرى والعسرى . ولما كان الباعث للبخيل على البخل هو قصد ادخاره المال لنوائبه انذر بانه لا يغني عنه ماله اذا سقط في نار جهنم والتردي السقوط من اعلى الى اسفل ومنه الشاة المرتدية المذكورة في المحرَّمات في سورة العقود .

(إنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى وإنَّ لَنَا لَلاخِرَةَ والاولى)

استئناف مقصود به القاء التّبعة على من صار الى العسرى فان الله اعذر اليه ان هداه فاعرض عن الاهتداء بمحض اختياره الشرَّ على الخير وترجيحه الشهوات الباطلة على التقوى .

وعلى تدل على معنى اللزوم والوجوب وذلك مما وجب لله تعالى بارادته ورحمته حيث تعلقت حكمته بان يهدي الناس الى الخير قبل ان يؤاخذهم بسوء افعالهم التي هي فساد فيما صنع الله واتقن من الاعيان والانظمة التي فطر العالم على مناسباتها . وجملة وان لنا للاخرة والاولى تنبيهٌ على ان التعهد بالهدى فضل ومنة منه تعالى والا فله الاطلاق في مخلوقاته من الدنيا والآخرة بما تحويانه من

المخلوقات . وفي الآية اشارة الى ان جزاء الصالحات بالحسنى وجزاء السيئات بالسوأى من قبيل ترتب المسببات على اسبابها وذلك الناموس المؤسس عليه نظام العالم .

واللام في قوله للهدى وقوله للاخرة لام الابتداء المفيدة زيادة تاكيد الخبر .

(فَأَنذرتُكم نـارا تَلَظَّى لا يَصْلاهَا الا الاشْقَى الذي كَذبَ وتَولَّى وسَيُجَنَّبُها الاتْقَى الذي يُؤتِي مَالَه يَتَزَكَّى ومَا لاحَدٍ عِنْدَهُ من نعمةٍ تُجْزى الا ابتِغَاءَ وَجْهِ ربِّهِ الاعْلَى ولَسَوْف يَرْضَى)

تفريع على قوله إن علينا لَلْهُدَى اي هَديْتُكم فانذرتكم ، والانذار بعاقبة الافعال السيئة ضرب من الهدى الى الخير لانه باعث على تجنب السيئات . والانذار الاخبار بحصول امر مخوف وتنكير نارا للتهويل وتلظى اصله تتلظى بتاءين احداهما للمضارعة والاخرى من اصل الفعل حذفت احدى التاءين تخفيفا وهو حذف كثير . ومعنى تتلظى تتلهب من شدة الاشتعال يقال تلظت النار .

والقصر المستفاد من قوله لا يصلاها الا الاشقى قصر قلب لان المشركين كانوا يزعمون ان ءالهتهم شفعاؤهم عند الله ان كان بعث وحساب وكانوا يحسبون المسلمين قد استوجبوا غضب الاصنام فان كان بعث كما يقول النبي فالمسلمون الخاسرون دون المشركين فجاءت صيغة القصر لرد هذا الاعتقاد ولما كانوا هم المراد وصفوا بالشقاوة ابتداء ثم فسر الاشقى بانه الذي كذب وتولى وهم يعلمون انهم المكذبون المتولون فصار المعنى لا يصلاها الا انتم ايها المشركون دون المسلمين . ومعنى يصلاها تقدم في تفسير قوله يصلونها يوم الدين في سورة الانفطار والاشقى تقدم في سورة الاعلى والتولي الاعراض اي عن دعوة الاسلام والتعريف باللام في الاشقى وبالموصول في قوله الذي كذب تعريف الجنس وليس المراد به واحدا معهودا .

وجملة وسيجنبها الاتقى تاكيد لمفهوم القصر ايضاحا للمقصود منه للتنويه بحال الاتقى وتوصلا الى ذكر بعض اعماله ايماء الى انها من اسباب نجاته من النار بانه اعطى ماله قاصدا بذلك التقرب عند الله تزكيا اي تطهيرا لنفسه لتلتحق

بالنفوس الملكية لا للرياء والفخر لان كثيرا من اهل الجاهلية من يعطي ماله كما قال عنترة :

وإذا سَكِرْتُ فَإِنني مُسْتَهْلِكٌ مَالي ، وعِرْضِي وافرٌ لم يُكْلَمِ
وإذا صَحَوْتُ فما أُقَصِّرُ عَنْ ندًى وكما عَلِمْتِ شَمَائلي وتَكَرُّمي

والمراد بما له ما يصدق عليه اسم مال ، وليس في اللفظ ما يقتضي اعطاء جميع ماله ، والاتقى بالغ الحد في التقوى وتقدم تفسيرها في سورة الشمس . والتعريف باللام في الاتقى وبالموصول في قوله الذي يؤتي ماله تعريف الجنس كالذي في قوله الاشقى الذي كذب . وبين الاشقى والاتقى الجِنَاس المضارِع لتقارب مخرجي الشين والتاء كقوله تعالى « وهم ينهَوْن وينأوْن عنه » .

وجملة وما لِاحَدٍ عنده في موضع الحال من الذي لزيادة تحقيق مضمون يتزكى لانه اشعر بان الاتقى يؤتي ماله غير راج منه نفعا دنيويا يحصل له فيبقى ان يتوهّم متوهم أنْ يؤتيَ الاتقى مالَه جزاءً عن نعمة أُسلفت اليه فنُفي ذلك ايضا وبنفيه تحقق ان اعطاءه المال لوجه الله لا غير ، فضمير عنده راجع للذي ومعنى يتزكى يتنزه اي ينزه نفسه من الرذائل والكفر والمعاصي . وكلمة عند تشعر باستقرار مجازي يقال لفلان عندي يد اي تحققت له علي . ومن نعمة اسم ما جُرَّ بمن الزائدة في النفي . وتجزى صفة لنعة . ولا حد خبر نعمة وكذلك عنده خبر ثان عن نعمة اي يعطي ماله يتزكى في حال انتفاء نعمة تجزى بذلك المال فالمراد ليس لاحد عنده نعمة يقصد جزاؤها بذلك المال وليس المراد انتفاء نعمة تجزى بمال آخر اذ ليس ذلك بمشترط في تحقق نجاته من النار فهذا وجه هذه الجملة ، والجزاء العوض والاستثناء في الاّ ابتغاء وجه ربه الاعلى استثناء منقطع اي لكن يبتغي وجه ربه الاعلى لما اعطى . والنعمة النفع الذي يسديه احد الى غيره . والابتغاء الطلب ، والوجه الذات يقال اعطاه لوجه فلان اي لذاته وهو استعمال شائع فلا يعد من المتشابه مثل ويبقى وجه ربك ، وجملة ولسوف يرضَى عطف على جملة سيجنَّبُها الاتقى اي يجنَّب النار ويزاد باعطاء ما يرضيه وهو ما يرضى به حين يرى مراتب النعيم . وسوف حرف يدل على زمن الاستقبال اي ويرضى في مستقبل امره اي في الآخرة . وفي حذف متعلق ترضى افادة التعميم بانه

يرضى بكل ما يطلبه لتذهب نفوس السامعين كل مذهب ممكن في الارضاء كقوله تعالى «وفيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين».

قيل اريد بهذه الصفات ابو بكر رضي الله عنه حين اشترى بلالا من امية ابن خلف لينقذه من التعذيب في ذات الله وتشمل كل من فعل مثله .

واذ كان هذا الاسلوب من صنف الكلام الجامع ووقع بعد التبشير والانذار كان وقوعه مؤذنا بانتهاء الكلام في غرض السورة وفيه رد العجز على الصدر .

اسلوب هذه السورة

لما اريد من هذه السورة التذكير بالفرق بين المسلمين والمشركين جاء نظمها مفتتحا بما يؤكد الخبر وذلك هو القَسَم وفي اثناء القسم حصل التنويه بمخلوقات عظيمة تدل تصرفاتها على سعة علم صانعها وعظم قدرته . ثم انتقل الى المقسم عليه فاشير الى شيء من فضائل المؤمنين ورذائل المشركين ذُكر منها ما اتفق العرب على انه من المحامد وهو الاعطاء وعلى ان ضده من الرذائل وهو البخل . وان من اتصف بمبادئي الفضائل يزداد منها ومن سلك مبادئي الرذائل لا يزيده الا توغلا في النقائص . وانتقل الى المن على الخلق بالهداية وقطع عذر من هدي فلم يهتد . واعيد انذار المعرضين بالنار ووصف اهلها . كما وصف الناجون منها . واعيد ذكر اعطاء المال لقصد وجه الله دون عرض دنيوي . وان النجاة من النار يتبعها ارضاء الله اياهم . وختمت بما فيه براعة المقطع ومحسن رد العجز على الصدر .

سورة الضحى

هي مكية وهي اولى قصار المفصل . والغرض منها تانيس النبيء صلى الله عليه وسلم حين فتر الوحي مدة بان ذلك ليس قطعا للوحي ولا قلى من ربه فاكد ذلك بالقسم مع وعده بانه سيكون آخر امره خيرا من اوله. وذكر ما حف بالنبيء صلى الله عليه وسلم من عناية ربه به في وقت صباه وفي وقت فتوته وفي وقت كهولته . ثم امر بشكر نعم ربه عليه بما يناسب نعمه المذكورة . وقد احتوت هذه السورة على ابطال اختلاق من اختلق من المشركين ان فترة الوحي غضب من الله وعلى تبشير النبيء صلى الله عليه وسلم برضى ربه وزيادة الخيرات له في مستقبل الزمان وقاس ذلك على ما حفه به من عنايته في مبدا نشاته ووسطها ومجيء النبوءة . واوصي بالشكر على ذلك بما يناسبه وبالاحسان .

(والضُّحى والليل اذا سَجَى ما ودّعك ربُّك وما قَلَى)

القسم بالضحى وبالليل تقدم الكلام عليه وكذلك تقييد الليل في القسم به باذا سجا كتقييده في قوله والليل اذا يغشى . ومعنى سجا امتد ظلامه واشتد ومصدره السّجو . والمناسبة بين القسم والمقسم عليه الاشارة الى ان قطع الوحي عنه مدة هو لطف بالنبيء كما ان قطع النور بالليل لطف بالبشر وانه قطع يعقبه عود وازدياد كما ان الليل يعقبه الصباح ثم انتشار النور وشرف هذين الوقتين حصل من نزول الوحي على النبيء صلى الله عليه وسلم فيهما

وفعل ودّعك من التوديع وهو الائذان بالفراق واستعمل هذا تمثيلا لحال قطع الوحي بحال قطع المسافر الاقامة . وقلى ابغض يقال قلاه يقليه .

نزلت هذه السورة عقب انقطاع الوحي عن النبي صلى الله عليه وسلم مدة اربعين يوما في اول ابتداء نزول الوحي عليه بعد ان نزلت عليه ثمانية سور رفقا به كي تستجم نفسه فلما انقطع الوَحْيُ خشي رسول الله ان يكون الله قد ترك الوحي اليه وخاف ان يكون ذلك عن غضب وروي انه صرح بخوفه لخديجة وقد ارجف المشركون فقالوا قلاه ربه وشافهته حمالة الحطب زوج ابي لهب ام جميل فقالت له يا محمد ما

اري شيطانك الا قد تركك فلهذا كله نفى ان يكون الله قد تركه وقلاه واختير هذان اللفظان حكاية لما تكلم به بين النـاس . وكان نزول السـورة هو معاودة نزول الوحي واسترساله .

وقـدم القسم بالضحى لانه انفع للناس وأهْدَى لهم ولان الوحي يشبه النور في حصول الاهتداءبه وانقطاعه يشبه الليل لانقطاع النـور فيه . وحذف مفعول قلى لدلالة ودعك عليه .

(وَللاخِرَةُ خَير لك من الاولى ولَسوفَ يُعطِيك رُبك فَتَرضَى)

عطف على جملـة مـا ودعك ربك فانه بعد ان نفى ان يكـون ربه تركه وابغضه اعقبه بوعده الزيادة من الخير في الدنيا والآخرة فالـوعد بحسن العقبى في الآخرة ضمان له بان الله خاتم له بافضل مما في الدنيا ليدفع عن نفسه تخوف غضب الله . والاولى من الاسماء التي غلبت على مُدّة الحياة كما غلب عليهـا اسم الدنيا . ثم اعقب ذلك بوعده اعطـاءه في المستقبل مـا يرضيه . وسـوف تقدم الكـلام عليها في السورة قبل هذه . وادخلت لام الابتداء على الجملتين لتاكيد الخبر وحذف مفعول يعطيك لقصد التعميم فيما يرغب فيه مـن الخير من النصر وظهور الدين ورفع الذكر وغير ذلك فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم متصاعدا في الكمـال والنعم الكاملة الفاضلة . واجتلاب حرف الاستقبال للدلالة على انه يستغرق المستقبل البعيد اذا جعلنا سـوف اشد بعـدا مـن السين وانا لا اطمئن لذلك واراهما في كلام العرب سواء . وتعريف المسند اليه في قـوله ربك بالاضـافة دون العلميـة ليتسنى الاتيـان بلفظ الرب المعشر بالرافة به واللطف وللتوسل الى اضافـة الرب الى ضمير المخاطب فيشعر ذلك بمعنى عظيـم من عنايته عناية الرب بمربوبه وتشريف المضاف اليه . وجيء بفاء التعقيب في قوله فترضى دون حتى للاشعار يكون الاعطاء معجل المنفعة واضحها بحيث يحصل رضى المعطى بحصول مرامه باثر الاعطاء .

(أَلَمْ يَجِدْك يتيماً فآوَى ووجَد ضَالاً فهدى ووجدك عائلا فَأَغْنى)

جملة مستانفة مسوقة مساق الدليل على صحة الوعد تانيسا للرسـول واكباتا للمشركين الشاكيـن في ذلك بان بـوارق عناية الله به حاصلـة من اول الامر .

وفي ذلك تعداد لنعمه عليه وتذكير بشكره فعدد نعمه عليه وايـاديه وانه لم يُخَـلِّه منها من ابتداء نشاته ترشيحا لما ارادة به من عظيم المنزلة فحصل من ذلك التعداد تصب دليل قياس المترقّب من فضل الله فيمـا يستقبل على مـا سلف من فضله فيعلم الناس انه لا يترقبه الا الكرامة والرضا دون مـا يضيق به صدره .

وسيق الكلام مساق التقرير بالاستفهـام لان المقصـود التعريض بتقرير السامعين من المعاندين فانهم يعلمون ذلك فما بهم الا ان يتذكروه ويعتبروا به. واستعمل فعل الوجدان مجازا في العلم بالحال بتشبيه العلم بالمصادفة والعثور على الشيء . وانتصب يتيما على الحـال من كاف الخطاب كما يقـال وجدت فلانا جالسا فجلست اليه ولهذين الاعتبارين استعمل وجد بمعنى عَلِم .

واليتيم هو المفقود الاب في حال صباه وقد مات ابو النبيءصلىاللهعليه وسلم وهو جنين ثم ماتت امه وهو ابن ستّ او ثمانِ سنين . والايواء الضم والكفالة واصله جعل الشيء آويا يقال اوى الى المكان اذا صار اليه واستقر به « قال تعـالى سآوي الى جبل يعصمني من الماء وقال ـ آوى اليه اخـاه » اي قربه اليه وادناه منه ، وقد اطلق الايواء هنا على تكوين نفسه على السيرة الكاملـة وكان شـان اليتامى ان يشبوا على نقائص الاخلاق لانهم يشبون على حـال اهمـال لفقدانهم من يقوم على تربيتهم فكان محمـد صلى الله عليه وسلم اكمل صبيـان قريش تربية وخلقا وفي الحديث «ادبني ربي فاحسن تاديبي » فكان ذلك التكوين لنفسه الزكية خيرا من كفالة الابوين. وعطف وجدك بصيغة المضي على الم يجدك المضارع لان لم تقلب معنى المضارع الى الماضي ولان قوله الم يجك صار في قوة قـوله قد وجدك يتيما الخ فنبه بعطف ووجدك على ان الاول في معنى الخبر .

والضال الذي لا يعرف الطريق المطلـوب ، والمهتدي ضده ويقال هداه الطريق اذا ارشده اليه كما تقدم في سورة الاعلى والضلال هنا هو طلب محمـد صلى الله عليه وسلم ان يكون متبعا لما فيه الفـوز في الآخرة فان الله لمـا انشاه على كمال العقل الهمه طلب اليقين في امر الدين حتى تهيا لقبـول الرسالة عن الله تعـالى فذلك معنى وجدك ضالا فهدى . وحذف مفعول اغنى لظهوره ولرعاية الفاصلة .

والعائل الفقير لان الفقر يسمى عَيلة قـال تعالى « وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم

الله من فضله » ، والغِنَى ضده وهــو ان يملك المرء ما يَغنُل احتــياجــه اليه ، وحذف مفعول اغنى لِـمَا حذف له مفعــول هــدى ، واغناء الله اياه هو تيسيره خديجة لتقارضه ثم لتتزوجه وكانت ذات مــال فاعطته مالهــا ثم بما تتابع عليه من منائح الانصار ثم بما افاء الله عليه من المغانم .

(فَأَمَّا اليَتيمَ فَـلَا تَقْهرْ وامَّا السَّائِل فلا تَنْهرْ واما بنَعْمة ربّك فحَدثْ)

تفريع على المنة بانها تستحق الشكــر من نوعها على وجــه الاجمــال ، والاتيان بحرف التفصيل للدلالة على ان في الكلام مجملا مقدرا ، والمعنى فمهما يكن من شيء في الشكر فلا تقهر اليتيم ، والفاء الثانية فاء جواب الشرط المدلول لحرف التفصيل كما تقدم في قولــه تعالى فامــا من اعطى واتقى وصــدق بالحسنى فسنيسره لليسرى. وقد قوبلت الاشياء الثلاثة المفرع عليها بثلاثة مفرعة تقابلهــا على ترتيبها على طريقة اللف والنشر الا انه جاء على خلاف الترتيب اعتمادا على ظهور مقابلــة كلٍّ بما يناسبه ، والنكتة الداعية الى ذلك هي ما في مقابل النعمــة الثانية من عموم الخيرات فكان تاخيره الى آخــر الكلام موقعا اياه في موقــع التذييل لتختم السورة به . وانما اقتصر على هذه الثلاثة لانها من جنس ما احسن الله به اليه على حد قول قوم قارون «وأحسن كما أحسن الله اليك» . والقهر الغلبة بالفعل او بالقول ولا يستطيع رده والمراد النهي عن كسر خاطر اليتيم لانــه يستضعف نفسه فيتوجس من الاغلاظ عليه انه بمثابة الاحتقار . والنهر الزجــر .

لم ينه الله رسوله عن اكل مال اليتيم وأذاته ولا عن حرمان السائــل لانــه عصمه من ذلك ولكنه نهاه عما عسى ان يعرض لطبع النفوس البشرية عند انحراف يصدر من يتيم والحاح يصدر من سائل مما قد يستفز غضب الحليم فنهاه عن الوقوع في ذلك اكمالا لادابه صلى الله عليه وسلم .

ثم ختمه بالامر بالتحديث بنعمة الله عليه لان في ذلك اعــلانــا لفضل الله وتعريفا بكمال نعمائه وتعليما للناس ان يتعرضوا الى افضاله .

والتحديث الاخبار بشيء لا يعلمه السامعون سمي تحديثا لانه يحدث لهم علما لم يكن حاصلا لهم فهو ايجاد حــادث في عملهم فهو مرادف للاخبــار واعل الحديث يختص بخبر طويل فيه اهمية .

وتقديم المفاعيل الثلاثة على عواملها للاهتمام والتوكيد وليس للقصر لعدم صلوحية المقام لاعتبار القصر .

اسلوب هذه السورة

ابتدىء الكلام بالقسم لتوكيد الخبر . وروعي في القسم المناسبة لغرض السورة . وكان المُقْسَم عليه نفيَ ما توجسته بعض النفوس من شماتة او حزن لاجل انقطاع الوحي . وحكي في نفي ذلك الفاظ قيلت في هذا الشان . ثم عقب بالانتقال الى وعده بالزيادة من الخير في الدنيا والآخرة بما يرضيه وطمأن نفس نبيه بتحقيق ذلك . واكمد نفوس اعدائه فذكره بنعمه السالفة المعروفة عندهم تعريضا بما يحزنهم . ثم فرع على ذلك امره بالشكر بما يناسب . وحصل من ذلك تبشير للمسلمين وتعليم لهم .

سورة الانشراح

وهي محتوية على ذكر ما من الله به على محمد صلى الله عليه وسلم من المنن بعد رسالته فهي كالتكملة لما تضمنته السورة قبلها من هدايته بعد حيرته وقد قيل انها نزلت اثر نزول سورة والضحى . وذيلت بموعظة وعبرة بحصول اليسر عقب العسر وبامره بالشكر لله على ما منحه.

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ووضَعْنا عنكَ وِزْرَكَ الذي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ورَفعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

الاستفهام يصح اعتباره للتقرير نظرا لحال الرسول عليه السلام وهو الاليق بالمقام ويصح اعتباره للانكار وهو الذي قاله في الكشاف وكانه نظر الى حال اعداء الرسول ممن ينكر ذلك او ينزّل منزلة المنكر وهما الوجهان المتقدمان في قوله الم يجدك يتيما فآوى في سورة الضحى. ولاجل كون الاستفهام على الوجهين هو في معنى الخبر بالحصور اختير ان يعطف على المضارع المستفهم عنه فعل مضي في قوله ووضعنا ورفعنا لان الم نشرح صار في قوة قد شرحنا ، وقد قدمنا عند قوله الم يجدك يتيما ان هذا الاستفهام لا يحتاج الى جواب لانه من الظهور بحيث لا يخفى.

والشرح حقيقته شق اللحم ويستعمل في مطلق التوسعة استعارة غالبة في كلامهم ومنه قوله تعالى « يشرَحْ صدره للاسلام » واطلق على ضده ضَيْق الصدر في قوله « يَجْعَلْ صَدْرَه ضَيّقاً حَرِجاً » وقوله ـ ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون » . فشرح الصدر مراد به القاء الصبر والاناة والرضا والمسرة في النفس حتى لا يضجر ولا يستحمق وهذا الشرح اعظم الوسائل للرسالة ولذلك سأله موسى بقوله « رب اشرح لي صدري » لان به استطاعة القيام بمهام دعوة الخلق بما فيهم من مختلف الانفس والعقائد وهذه منة عظيمة ومن هذا الشرح انه دفع عنه اضرار اليتم كما تقدم في قوله الم يجدك يتيما فآوى.

والصدر اطلق على النفس من اطلاق اسم المحل على الحال . وزيادة لك

بعد نشرح معان تعدية الفعل الى صدرك كافية في الدلالة على المقصود لقصد حصول اجمال يعقبه تفصيله فيقع في نفس السامع موقع تمكن ولان في لام التعليل دلالة على ان في هذا الشرح فائدة له فيحصل بذلك اظهار العناية به، وفي هذا الكلام ايذان بان شرح صدره كان بعد ضيق وتخوف من العجز عن الاضطلاع بعبء الرسالة،

والوضع الحط والازالة . والوزر بكسر الواو وسكون الزاي الحمل بكسر الحاء وهو الثقل قال تعالى « ولكنا حُمّلْنا اوزارا من زينة القوم » والمراد فرجنا عنك ما احرج النفس ويضيق له الصدر ، ومعنى أنقَضَ ظهرك جعله ذا نقيض والنقيض صوت التفكك في أقتاب الرحل وهو صَرِيرٌ مخصوص ويقع في الاعضاء اذا حَمَلَ المَرْءُ ثقلا عظيما وهذا ينظر الى قوله « ووجدك ضالا فهدى » وتركيب ووضعنا عنك وزرك الذي انقض ظهرك تمثيل حيث شبهت حالة تفريج الحرج عنه بهيئة حط الثقل عن حامله المتحرج المتعب من عبء يحمله تعبا شديدا يبلغ حد صرير ظهره من شدة الثقل ، كيف يصير في راحة بعد عناء .

والآية تشير الى اشياء كان النبي صلى الله عليه وسلم متحيرا منها فازال الله حيرته فيحتمل انها كانت من معاني كراهية ما عليه اهل الجاهلية وعلمه بانهم على ضلال ولكنه لم يعرف وجه الهداية لانه امر لا يسهل البلوغ الى كنهه الحق الا بتوقيف من الله فلما اوحى الله اليه بالحق ارتاح ضميره ، ويحتمل ان المراد ما اعتراه من شدة الوحي في بدء امره حتى كانت تضيق نفسه بذلك فلما دربه الله به ازال عنه ما كان يجده من شدة ويحتمل ان ذلك ما كان يجده من شدة قريش على المؤمنين فلما اعلمه الله بان العاقبة له وللمؤمنين وانه ناصره عليهم زال عنه ما كان يجده ، ويحتمل ان ذلك لما كان يحزنه من ضلال العرب في حين كثرة عددهم فلما اعلمه بانهم سيؤمنون استراح باله ولا مانع من ارادة جميع ذلك . والحاصل ان المراد سر بين الله وبين رسوله المخاطب بالآية وهذا التفريج غير ما اريد بشرح الصدر وان كان يستلزمه ولكنه نعمة اخرى جديرة بالمن واظهار العناية . والقول في اقحام لفظ عنك بين وضعنا ووزرك كالقول في اقحام لك بين نشرح وصدرك، وكذلك القول في عطف وضعنا بصيغة المضي على الم نشرح كالقول في عطف ووجدك ضالا على الم يجدك يتيما.

والرفع مجاز في الشرف والتفضيل لان الشيء المُشَرَّفُ يجعل في محل مرتفع

لا يداس نفاسة به ، فرفع الذكر هوحسن السمعة وتحدث الناس بفضائل المتحدث عنه وذكرهم اياه بالمحامد والثناء ، وحسبك من ترفيع الذكر تشريع ذكر اسمه مع اسم الله تعالى في كلمة الشهادة وفي الاذان وفي اي كثيرة من القرءان . والقول في اقحام لك بين رفعنا وذكرك كالقول في الم نشرح لك صدرك .

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

الفاء لتفريع الاخبار بهذه المنة الالهية على ما تقدم من حصول الفرج بعد الشدةوهذا كالعلة والسبب الوضعي لما حكي من قبل وهذا معنى قول من قال انها فصيحة لان شرح صدره بعد ضيقه وتفريج همه كان مسببا على قدر الاهي اراده الله بالنبي وامته وهو ان ما حل بهم عسر في حياتهم الا وكان معه يسر يزيل ذلك العسر فعرفهم بذلك ليعلموا ان ما ابتدا الله به نبيه قد اراد ان يكون سنته تعالى معه ومع امته وهذه بشارة .

فالتعريف في العسر للاستغراق بقرينة مقام التبشير اي ان مع كل عسر يسرا، وتنكير يسر لانه واحد مع كل فرد من افراد العسر فيؤول الى العموم فلا حاجة الى تعريفه باللام لظهور المراد والتقدير لكل عسر يسر يصحبه ولكل شدة فرج يقلعها وكلمة مع مؤذنة بالمقارنة وهي مقارنة عرفية اي يقع اليسر عقب العسر بسرعة حتى كانه معه ومعلوم ان المقصود الرسول وامته كقوله «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر»وليس ذلك في كل عسر يحصل في الدنيا لكل احد .والعسر واليسر في معنى العسرى واليسرى المتقدمين في سورة الليل . وجملة إن مع العسر يسرا تاكيد للجملة الاولى لقصد التقوية بتحقيق حصول "يسر مع كل عسر فالمذكور فيها هما العسر الاول واليسر الاول . وما روي لن يغلب عسر يسرين فاسانيد نسبته الى النبي صلى الله عليه وسلم ضعيفة وفي الموطا انه من قول عمر رضي الله عنه فمراده ان التوكيد افاد تقوية ضمان اليسر لهذه الامة عند العسر فكانه جعل مع كل عسر لهم يسرين اي يسرا يغمر ذلك العسر .

(فإذَا فَرَغتَ فانْصَبْ وإلى ربك فارْغبْ)

فرع على ما تضمنه « فان مع العسر يسرا » من الامتنان بالوعد بجعل اليسر غالبا عليه وعسره هو وامته ، أن امره بالشكر على ذلك بالعمل والقول فلايفتر عن

عبادة الله وان يرغب من ربه المزيد ، فاذا فرغ من عبادة شرع في اخرى .
وهذا من صيغ المبالغة في طلب مواصلة الفعل والاكثار منه كما تقول ما تصلني صلة
من فلان الا وتعقبها صلة اخرى .

والنصَب بالتحريك التعب وفعله من باب علم وقد كُني بالنصب عن الاجتهاد
في العبادة وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم من الليل حتى تنفطر
قدماه .

وتقديم المجرور على عامله في « والى ربك فارغب » للتقوي اهتماما
بجانب المعبود بحق ورعاية للفاصلة . والرغبة السؤال والضراعة والدعاء يقال رغبت
اليه بمعنى سالته وعدي بالى لانه ضمن معنى توجهت وحذف مفعول ارغب لظهوره
اي ارغب الزيادة . والفاء الداخلة على قوله فانصب رابطة لجواب اذا واما الفاء في
قوله فارغب فالظاهر انها رابطة لجواب اذا ايضا لان واو العطف في قوله والى
ربك فارغب عاطفة على جملة الشرط فكان للجملة المعطوفة حكم الشرط وهو
محذوف يدل عليه الجواب كانه قيل واذا رغبت فالى ربك ارغب ولك ان تجعل
تقديم المجرور مشما رائحة الشرط كقوله النبيء صلى الله عليه وسلم « كما تكونوا
يُوَلّ عليكم » في رواية حذف نون تكونوا اذ جاء بفعل تكونوا مجزوما لجعل
تقديم المجرور بمنزلة الاشتراط كقوله وثيابك فطهر والرجز فاهجر وفي
قوله بل الله فاعبد وهي شبيهة بفاء الجواب لان تقديم المعمول اما للاهتمام او
للاختصاص فهو يؤذن بمعنى الشرطية فكانه قيل اما ثيابك فطهر واما الله فاعبد
وبهذا يشعر كلام الكشاف في قوله تعالى لايلاف قريش وقال ابو علي الفارسي هي
في مثل ذلك زائدة وفي الطيبي عن امالي السيد (يعني الشريف المرتضى) ان هذه
الفاء من عجيب كلامهم .

اسلوب هذه السورة

افتتحت بالامتنان على طريقة الاستفهام التقريري على النفي والمراد الاثبات
ثم عطف عليه الخبر . ووقع الامتنان بافضل ما ترتاح له النفس وهو شرح
الصدر وازالة الكرب ورفعُ الذكر . ثم فرع على ذلك ان الله اراد به وبامته اليسر
في كل مقام حرج . وفرع عليه الامر بالاجتهاد في العبادة شكرا لله والدعاء لله طلبا
للزيادة ، وفي ذلك اشعار بانتهاء الكلام

سورة التين

سميت سورة التين لوقوع هذا اللفظ في اولها وتسمى سورة والتين حكاية للفظ القرآن . وهي مكية.

(والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الامين لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم ثم رددناه اسفل سافلين)

المناسبة في المتعاطفات تقتضي ان يكون المراد بالتين والزيتون موضعين مقدسين ليتلاءم ذكرهما مع ذكر طور سينين والبلد الامين فالاظهر ان التين اسم للجبل المعروف بالجودي الذي نزل عنده نوح بعد الطوفان وهو من بلاد العراق يعرف بجبل تينا او طور تينا وعن ابن عباس انه كان فيه مسجد بناه نوح عليه السلام . وعنه ان المراد بالزيتون الذي بيت المقدس ويسمى طور زيتا ولعل ذلك لكثرة ما فيه من شجر الزيتون وهو الجبل الذي دعا فيه عيسى عليه السلام اهل اورشليم الى الدين . وايًاما كان فاصل التين اسم ثمرة تشبه الكمثرى ذات قشر غليظ سهلة التقشير حلوة المذاق تحتوي على لحم ابيض في وسطه عسل مخلوط ببزور دقيقة مثل السمسم الصغير . والبلد الامين مكة مهبط الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم .

فالقسم وقع بهذه المنازل الاربعة التي هي مهابط اشهر الشرائع ومناط اطوار التشريع الالهي : فالتين مهبط اول رسالة جاءت الى اهل الارض وهي رسالة نوح . والزيتون مهبط شريعة عيسى وهي آخر شريعة جاءت قبل الاسلام . وطور سينين مهبط شريعة موسى وهي اوسع واكبر شريعة جاءت قبل الاسلام . والبلد الامين مهبط اخر الشرائع وخاتمتها وافضلها وهي شريعة الاسلام. ولعل وجه تقديم مكان ظهور الدين المسيحي في الذكر على مهبط الشريعة الموسوية هو التناسب الذي بين اسمي التين والزيتون حتى يكون في الكلام محسن بديع من التورية ، وليقع لفظ طور سينين في محل الفاصلة مع لفظ البلد الامين والفواصل بعده وذلك محسن بديع من الفصاحة العربية .

وطور سينين هو المعروف بطور سينا وبالطور بالتعريف باللام والطور

الجبل بلغة النبط اي الكنعانيين واضافته الى سيناء للتعريف لانه في بادية تسمى صحراء سيناء بكسر السين والمد ويقال لها سينين وقيل سينين هي الاشجار بالنبطية واحسب ان سينين وسيناء لغتان في سين وهو اسم الصحراء عند اليهود. وتقدم معنى البلد في قوله لا اقسم بهذا البلد والامين مبالغة في الامن وهو وصف له باعتبار حال ساكنيه واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلد آمنا ، والاشارة بهذا الى مكة لان نزول هذه السورة فيها فكانها حاضرة بمرأى السامع ، والغرض من الاشارة زيادة استحضاره اهتماما بتمييزه كقوله لا اقسم بهذا البلد .

والتعريف في الانسان للجنس فقد يفيد الاستغراق كما هنا بقرينة الاستثناء وهو استغراق عرفي فلا يشمل الذين عرض فيهم اختلال الخلقة في الجسد لندرة الاعتداد بحالهم فلا ينافي الاستغراق العرفي .

والتقويم مصدر قوم الشيء اذا عدَّله اي جعله ذا قوام اي عدل والعدل التناسب والتنسيق اي غير ذي امت ولا عوج .وفي للظرفية المجازية وهي بمعنى المبالغة في الملابسة اي خلقنا الانسان ملتبسا باحسن تقويم وذلك في نظام حواسه وعقله فكان افضل انواع جنسه اذكان فيه كمالات الانواع ذات الكمال وبريئا من نقائصها وذالك بحسن الصورة وبالفعل الذي شرفه الله به .

والمقصود بالقسم هنا هو تحقيق ما يخفى على الناس من تقويم خلقة الانسان وهو تقويم عقله واعتقاده ، واما تقويم صورته فلا يحتاج الى التاكيد،وانما احتيج الى القسم لان المشركين كانوا يزعمون انهم مهتدون حيث اتبعوا ءاباءهم وهم ينزهون آباءهم عن الضلال قالوا انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مهتدون. اعلم الله بانه خلق عقل الانسان في احسن تعديل بحيث لو خلي وفطرته لما تعقل الا الحق وهذا ابطال لعقيدة الشرك. فالمعنى تحقيق ان الله خلق الانسان على الفطرة الصالحة لتلقي الخير والهدى قال النبيء صلى الله عليه وسلم يولد الولد على الفطرة فابواه يُهَوِّدانه او ينصِّرانه او يمجِّسانه

وثم للتراخي الزمني لان جنس الانسان دام زمنا على استقامة العقيدة كما قال تعالى« كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين» اي كانوا امة واحدة على الحق فاشركوا فبعث الله النبيين وقال «وما كان الناس الا امة واحدة فاختلفوا».

وضمير رددناه عائد الى الانسان باعتبار معنى تعريف الجنس فيساوي

المعرف باللام ويحمل على الاستغراق العرفي ايضا بقرينة الاستثناء والغالب على المخاطبين في وقت نزول هذه السورة هو الشرك الا طائفة المؤمنين.

والرد هنا بمعنى التصيير فيتعدى الى مفعولين. واسفل سافلين مفعوله الثاني واسفل تفضيل سافل بمعنى الانحطاط واضيف الى السافلين مبالغة في فساد الاعتقاد بعد صلاح الفطرة فكانه كان في رفعة فصار الى الحضيض يقال سفل فلان اذا اذا اتصف بخسة وفساد فمعنى اسفل سافلين اشد الموصوفين بالسفالة كقوله اليس الله باحكم الحاكمين والمراد هنا فساد الاعتقاد وانما كان ذلك افسد الفاسد لان فساده تنشا منه افانين الفساد في احوال صاحبه واحوال معاملته للناس ولا افحش في ذلك من فساد اعتقاد الانسان في خالقه واشنع ذلك عبادته المخلوقات كما قال ابراهيم عليه السلام لقومه «اتعبدون ما تنحتون» ويلتحق بهذا ما يكتسبه الانسان من مساوي الاخلاق بمخالطة اهل السوء وممارسة العوائد الذميمة التي تفسد سلامة الفطرة . وهذه الآية تشهد لكون الاصل في الناس الخير حتى يثبت خلافه . واما اختلال الاعضاء الظاهرة فليس من السفالة فضلا على ان يكون اسفل. والى معنى الآية يشير الحديث «يولد الولد على الفطرة فابواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه» واسناد الرد الى الله مجاز عقلي لانه خالق اسباب انحطاط الناس من ضلال في العقول ومن اتباع للشهوات . ومتى انحرف الانسان عن التعاليم الدينية وما انتزع منها اعترته احوال تلحقه بانواع الحيوان في سيء الآثار في مظاهر القوة الغضبية السبعية ومظاهر الطمع الخسيس كاحط الحيوان.

(الا الذين آمنوا وعملوا الصّالحاتِ فلهم اجرٌ غيرُ ممنونٍ)

استثناء من ضمير رددناه اي لم يسلم من ذلك الرد الا الذين ءامنوا لانهم بالايمان صاروا في احسن تقويم بعد ان ردوا قبل ذلك الى اسفل سافلين فراجعوا اصلهم وعادوا الى فطرتهم . وعطف عمل الصالحات على الايمان لانها من تمام معنى احسن التقويم. وينسحب الايمان والعمل الصالح على الاخلاق فيردها الى فضلها وكرمها وفي الحديث انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق .

والفاء في فلهم اجر للتفريع على الاستثناء الذي صار به المعنى ان الذين ءامنوا في احسن تقويم فيفرع على احسن تقويم ان لهم اجرا على عملهم

الصالحات التي الهمهم الى عملها كونهم في احسن تقويم فنظم الكلام على طريقة الايجاز . وتنكير اجر للتعظيم والاجر العوض الذي يعطاه العامل جزاء لعمله. ووصف الاجر بانه غير ممنون لتمحيصه للنفع والمسرة لان المنة على الاحسان تُمِرُّه في مذاق الانفس. والممنون المتصف بانه مفعول المن والمن التذكير بالانعام . ويفهم من سياق اثبات الكرامة للمؤمنين ان غيرهم الذين ردوا اسفل سافلين بضد جزائهم .

(فَما يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ)

تفريع على جميع الكلام السابق المفيد ان الانسان خلق على سلامة الفطرة وخلوص العقيدة فكان من اثر ذلك لو لم يرد اسفل سافلين ان يؤمن بالبعث والجزاء لان النظر الحق يدل على ان الله لم يخلق الخلق سدى وانه ما امر ونهى الا ليمتثل الناس وان من لم يمتثل لا يتاح له افلاته من ربه واذ قد شوهد نجاة كثيرة من المفسدين والظالمين من ان ينالهم جزاء على سوء عملهم في الحياة كنا نؤمن لا محالة بان الذي وضع هذا النظام للخير والشر لا يناسب حكمته ان يعجزه احد من خلقه فعلمنا ان العبد الذي يعمل المفاسد حياته ثم اخترمته المنية انه مجازى بما عمل في عالم آخر فهذا وجه التفريع في قوله فما يكذبك بعد بالدين . والاستفهام للانكار والخطاب الاظهر انه خطاب لغير معين اي فما يكذبك بالدين ايها المكذب به ، ويجوز ان يكون للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد التعريض بالمكذبين. ومعنى يكذبك يجعلك مكذبا بالدين اي لاشيء يبعث على التكذيب بالدين فان دلائل بطلان التكذيب به قائمة واضحة. والتكذيب تقدم في سورة الشمس. والدين الجزاء وهو الثواب والعقاب في الآخرة كقوله ملك يوم الدين. والمراد التكذيب بيوم البعث ويجوز ان يراد بالدين الدين المعهود وهو الاسلام اي لانه داع الى الفطرة وهي احسن التقويم .

وجملة اليس الله باحكم الحاكمين في موضع التعليل لنفي التكذيب بالدين بمعنييه ولذلك فصلت عن التي قبلها اي اليس الذي خلق الانسان في احسن تقويم احكم الحاكمين. وأحكم تفضيل من حكم اذا اتقن الامور والمعرفة . واضافة احكم الى الحاكمين للمبالغة مثل اسفل سافلين وهو يشير الى ما قدمناه من ان الحكمة الالهية تقتضي اقامة الجزاء على الاعمال .

والمعنى ان احكم الحاكمين اقتضت حكمته العليا ان يكون للناس جزاء على اعمالهم وفاق لها وان لا ينتفي الجزاء فالتكذيب بالجزاء ابطال لحكمة خالق الناس. وفي لفظ الآية توجيه إذ وصف احكم الحاكمين صالح لان يكون من الحكم بمعنى القضاء فيكون توجيها بالتهديد للمشركين بان الله سيحكم عليهم بما يستحقون وفي هذا ايذان بانتهاء الكلام.

اسلوب هذه السورة

لما اريد من هذه السورة اثبات ان التوحيد هو الحق وان الحق هو الموافق لما في نفس الامر والذي تؤيده الادلة، وابطال الشرك وان الشرك ضلال وتحريف للفطرة واريد تاكيد ذلك ردا على منكريه ، افتتحت السورة بالقسم. واذ قد كان شان اقسام القرآن ان تكون بعظيم المخلوقات لانها دلائل على صفات الله حتى تؤول الاقسام الى اقسام بالله في نفس الامر ولكنها في الظاهر مغايرة لاسم الله جريا على اسلوب الكلام العربي في ان يكون المقسم به شيئا غير اسم المقسم اختير للقسم في هذه السورة اسماء الامكنة التي انزلت فيها اعظم الشرائع واشهرها وهي امكنة نزول شريعة نوح وشريعة موسى وشريعة عيسى على ثلاثتهم السلام واشرف تلك الامكنة وهو مكان نزول شريعة محمد صلى الله عليه وسلم اشارة الى ان تلك الشرائع جاءت باعلان التوحيد وابطال الشرك ليفيق المشركون من ضلالهم كقوله تعالى « ان ابراهيم كان امة قانتا لله حنيفا وما كان من المشركين ». والمقسم عليه هو خلق الانسان في اكمل حالة من العقل والجسم وانه اعتراه الفساد فعمه الا الذين ءامنوا وعملوا الصالحات. وتخلص من ذلك الى فضيلة المؤمنين وجزائهم. ثم من ذلك الى انكار ان يكون ثمة دليل يبعث على التكذيب بالبعث بل ان دليل حكمة الله تعالى يدل على وجوب الجزاء ومن الايجاز عدم ذكر جزاء الفريق الذي استثنى منه الذين ءامنوا لانه يعلم من المقابلة . وفي قوله فما يكذبك بعد بالدين اليس الله باحكم الحاكمين براعة الختام لانه يوذن بانتهاء الكلام

سورة العلق

هي مكية واول سورة نزلت . نزلت بغار حراء اول ما نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

اشتملت على امر الرسول بالقراءة لما سينزل عليه. وافتتاحها باقرأ مؤذن بان الرسول سيصير قارئا اي تاليا لكلام يوحي الله به اليه وفيه ايماء الى انه سيكون الوحي اليه كتابا يقرا . وعلى التعريف برب الناس وخالقهم ومعلمهم الكتابة والعلم . وكيف قابل الناس نعمة الله بالطغيان . والى ما نشا عن قراءته ما أوحي اليه من مُباداة المشركين بمنع النبيء صلى الله عليه وسلم من اظهار صلاته. وكيف انكروا دون تامل ما هو عليه من الهدى وانه مبعوث به فلو لم ياخذ به لما وسعه . ثم على تهديد المشركين وانهم لا ينفعهم اصارهم من عذاب الله .واعيد نهي النبيء عن طاعة من ينهونه عن الصلاة وامره بالدوام عليها لانها تقربه من ربه

(اقْـرَأْ باسم ربّك الـذي خَلَق . خَلَقَ الانسانَ من عَلَقٍ اقـرأ وربُّك الاكْرمُ الذي عَلَّمَ بالقَلَم عَلَّم الانسَانَ ما لَمْ يَعْلَمْ)

ورد في الاحاديث الصحيحة ان هذه الآية اول ءاية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء في شهر رمضان وكان النبيء يتحنث في ذلك الغار قبل ان يوحى اليه (ومعنى التحنث التعبد) اذ فجأه المَلَك جبريل فقال اقرأ قال رسول الله فقلت ما انا بقاريء فاخذني فغَطّني (اي ضَمَّني اليه بكبس وعصر) حتى بلغ منّي الجَهدَ ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما انا بقاريء فغطني الثانية حتى بلغ مني الَجهد ثم ارسلني فقال اقرا فقلت ما انا بقاريء فغطني الثالثةَ حتى بلغ مني الجَهد ثم ارسلني فقال اقرأ باسم ربك الذي خلق حتى بلغ ما لم يعلم . وقول النبي ما انا بقاريء خبر مكنى به عن الامتناع من القراءة والتنصل منها اد كيف يُرجى ممن ليس بقاريء ان يقرا .

وقول جبريل في المرات الثلاث اقرأ ليس من القرءان وهو من امر التكوين المُسخَّرُ جبريل لايقاعه والمقصود منه تهيئة نفس الرسول لقبول الوحي الذي اوله اقرأ باسم ربك الآية فاقرأ المذكور رابعا هو مبدأ القرآن الموحى به .

والقراءة التلاوة اي اعادة الفاظ معينة محفوظة في القلب او مرسومة في الخط فحكايتها باللفظ قراءة وانما تكون القراءة ممن عني بحفظ المقروء او عرف الخط فتلا شيئا مكتوبا في ورقة ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما انا بقاريء اي لست ممن يحفظ المتلوات ولا ممن يعرف ما الكتابة . فقوله اقرا امر بالقراءة وهو بمعنى الشروع ولم يذكر المقرؤ لانه سياتي في بقية الآية .

والباء في باسم ربك للمصاحبة بمعنى الاستعانة تلقيناً للرسول ان يكون اول عمل لم يكن يعلمه من قبل وهو القرءان مصاحبا لذكر الله تعالى فقوله باسم ربك كالجواب عن قوله في المرات الثلاث الاولى ما انا بقاريء اذ كان قوله ما انا بقاريء كالاعتراف بالعجز عن القراءة فلقن ان يستعين بمصاحبة اسم الله على عمل لا يقدر عليه فهو كقوله فاذا قرأناه فاتبع قرءانه فهو امر بان يسمي الله عند القراءة استعانة عليها كما امر بان يستعيذ من الشيطان عند القراءة في قوله فاذا قرأت القرءان فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم فيكون النبي قد سمى الله تعالى عند ما سمع هذه الآية ثم قرأها فكانت قراءته إياها مصاحبة لاسم ربه كما امره الله تعالى .

وزيادة اسم في قوله باسم ربك للتنبيه على ان المراد المصاحبة بالذكر لاسم الله لتيسير القراءة عليه من بعد تلك التسمية . ومحل المجرور في موضع الحال . وتعريف الجلالة بطريق الاضافة دون العلمية على خلاف ما وقع في البسملة للتوصل الى الاتيان بلفظ الرب مضافا الى ضمير الرسول للايماء الى ان وصف الربوبية يقتضي رافته به وان لا يحماه ما لا يطيق تطمينا لنفسه حيث تجهم الامر بالقراءة اذا كان اميا .

ووصف الرب بانه الذي خلق لما في الموصولية من الايماء الى وجه الامر بالقراءة وان الذي خلق الخلق قادر على خلق قدرة القراءة في نفسك ولان المقام مقام ابتداء تعريف الرسول الاستدلال على وجود المرسل معرفة حقيقية فذكر ادل الاوصاف على وجوده . وحذف مفعول خَلَق لان الفعل نزل منزلة اللازم اي الذي صفته الخالقية لان ذلك الوصف هو اول الصفات التي بها يعرف الانسان ربه لان من طبع النفوس التذكر في وجودها وموجدها كما اشار اليه الحديث وهو

ان الشيطان يخطر في نفس الانسان فيقول لـه من خلقك فيقول في نفسه الله فيقول من خلق الله فاذا اوجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان فعرف الرسول ربه بواسطة هذه الاشارة .

وجملة خلق الانسان من علق بدل بعض من كل من جملة خلق خص خلق الانسان بالذكر دون بقية احوال الخلق لما يشتمل عليه من عجيب الاطوار . ولما كان الانسان مرادا به الجنس كان في معنى الجمع فلذلك جاء لفظ علق بصيغة اسم الجمع فلم يقل من علقة لان كل انسان خلق من علقة فمجموع الافراد خلقوا من جمع من العَلَق فهذا من مقابلة الجمع بالجمع المقتضي توزيع الافراد على الافراد .والعَلقة القطعة قدر الانملة من الدم الجاف شبهت بالحشرة المائية التي تكون في الماء حمراء اللون . وفائدة وصف الرب بهذا الخلق تهوين تلقي القراءة على الرسول يعني ان الذي خلق الانسان من بضعة صغيرة كالعلقة قادر على ان يخلق فيك القدرة على القرءاة وان لم تكن قرأت من قبل . وفيه اشارة الى ان خلق الانسان من علقة ينطوي على قوى وقابليات عظيمة منها قابلية القراءة والكتابة ولذلك عقب بقوله « وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم »

وجملة اقرا الثانية تاكيد لفظي لاقرا الاولى وتمهيد لتهوين القراءة عليه واظهار لجزم الامر وانه يقع لا محالة وفيه بعث الهمة للنبيء بالقراءة فكان امر تكليف فيه أثارة من امر التكوين الذي فاتحه به جبريل .

وجملة وربك الاكرم الذي علم بالقلم معطوفة على جملة خلق الانسان من علق فكانه قيل خلق الانسان من علق وعلمه ما لم يعلم ولكن نظمت الجملة على صيغة الجملة الاسمية دون الفعلية للاهتمام بفعل التعلم اذ المقام مسوق لتقريره فاتي بالخبر عنه بطريق الجملة الاسميه الدالة على ثبات ذلك الخبر وتحققه ثم يتوسل بذلك الى الاتيان بالمسند اليه في الجملة الاسمية لفظ الرب مضافا الى ضمير المخاطب إيماء الى ان في هذا الامر عناية بالمامور وشانا من شؤون الربوبية المقتضية العناية بالمربوب وتكميله وبتوسل الى اظهار لفظ الانسان دون ضميره وبتوسل الى ادماج التعليم بالقلم . والتعليم ايصال العلم بشيء الى ذهن من ليس عالما بذلك الشيء . ومعنى

العلم ادراك وقوع شيء على وجه اليقين . فقوله ربك مبتدا والاكرم والذي علم بالقلم صفتان لربك وقوله علم الانسان ما لم يعلم خبر المبتدا .

وادماج بالقلم للاشارة الى تعليم الكتابة وانها وسيلة للتعليم لان تعليم العلوم يعتمد امرين الاول التلقين الدراسي وطريقه القراءة اي تلاوة المحفوظ والثاني المراجعة والمطالعة وطريقهما الكتابة وقراءة الخطوط وبالهام الله الانسان لوضع الكتابة امكن للامم تدوين آراء علمائهم ونقلها الى الاقطار النائية وتخليد اخبارهم وقضاء مهامهم .

والقلم شظية من قصبة تُبْرَى وتُرَقق بالسكين ويجعل طرفها مسننا مشقوقا قدر نصف الانملة فيوضع في المداد وتخط به الخطوط الكتابية . وفي إمر الرسول بالقراءة مجردة ثم الاخبار بان الله علم الانسان بالقلم اشارة الى ان الرسول غير مخاطب بالتعلم بالقلم وفيه تشجيع للرسول على تلقي القراءة التي تجهمها واشفق منها .

ولعل هذه الاشارة هي التي دعت الرسول صلى الله عليه وسلم الا ان يامر بكتابة كل ما ينزل عليه من الوحي وندب لذلك كتاب الوحي من اصحابه من ابتداء نزوله وجملة علم الانسان ما لم يعلم فصلت عن التي قبلها لانها بدل اشتمال من جملة علم بالقلم اشتمال الاخص على اعمه والتقدير الذي علم بالقلم علوما جمة لم يكن الانسان يعلمها وعلم الانسان ما لم يعلم بغير القلم مثل تعليمه محمدا صلى الله عليه وسلم بغير واسطة الكتابة وكانت هذه الجملة بمنزلة التذييل للكلام كله وذلك ايضا يقتضي الفصل .

وقد ثبت في الصحيح ان قوله ما لم يعلم هو نهاية الآيات التي نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم اول مرة في غار حراء .

(كَلا ان الانسان ليطغى أن رَآهُ اسْتَغْنَى إنَّ الى رَبِّكَ الرُّجْعَى)

كلا للردع كما تقدم في سورة النبا وكثر وقوعها عقب كلام محكي يراد الردع عنه وقد تقع في صدر الكلام للردع عن شيء محكي فيه فهي مقدمة من تاخير مبالغة في الردع كما يقع حرف النفي في صدر الجملة المشتملة على النفي مثل قوله تعالى فلا وربك لا يؤمنون . وهكذا وقعت كلا في هذه الآية فهي للردع

عن مضمون الجملة المحكية بعدها وهي جملة ان الانسان ليطغى لان ما قبلها قد انتهى بقوله ما لم يعلم فتكون جملة ان الانسان ليطغى مستانفة .

والتعريف في الانسان للجنس وهو للاستغراق العرفي على وزان التعريف المتقدم في قوله ثم رددناه اسفل سافلين . والطغيان تقدم في قوله للطاغين مآبا في سورة النباء .

والرؤية هنا قلبية ولذلك تعدت الى المفعول الاول الذي هو نفس الفاعل اي ان راي نفسه استغنى . واستغنى بمعنى صار ذا غنى فالسين والتاء للتاكيد كما في استقر واستجاب .

وجملة ان الى ربك الرجعى تذكير لمن يعتريه الطغيان بالانكفاف عن طغيانه بغناه ليعلم انه راجع الى ربه فيشعر بان لاستغنائه حدا يضمحل بعده فلا يزده بغنى زائل .

والرُّجعى بضم الراء اسم مصدر على وزن الفُعْلى بمعنى الرجوع كالبشرى . والرجوع هنا مجازي بمعنى الحصول في حكم الله اي راجع الى ربه بالموت اي تؤكد له ان آخر امره الموت ليرعوي عن طغيانه بغنى زائل كقوله يايها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه ويجوز ان يكون المراد ان استغناه الانسان غير حقيقي لانه محتاج الى الله في معظم اموره ولا يدري ما هو صائر اليه من الاحوال فلا ينبغي ان يزدهي بالغنى الزائف في هذه الحياة وعلى هذا تكون الرجعى مجازا عن الاحتياج في ءاخر الامر وتأكيد الخبر بان لتنزيل الناس منزلة من ينكر ذلك لكثرة عدم جريهم على موجب العلم وهذه الآية قد كشفت حقيقة نفسانية عظيمة من الفلسفة والاخلاق ونبهت الى التحذير من توغل هذه الصفة في الانسان وان كانت لا تقتلع من النفوس اصلا .

ونكتة الالتفات الى الخطاب من الغيبة ان المقصود الاعظم تعليم النبي مكارم الاخلاق .

(أرَايت الـذي ينهَى عبدا اذا صَلّى ارايتَ إنْ كانَ على الهُـدى أوْ أمـرَ بالتَّقوى أرايتَ إنْ كَـذّب وتَـوَلّى ألَمْ يَعلَم بأنَّ اللهَ يَرَى)

هذه الجملة استئناف وهي اول ءاية نزلت في شان تكذيب قريش النبيء عليه

السلام فيما جاء به من الدين فالمراد بالذي ينهى معين وهو ابو جهل كان ينكر على النبي صلى الله عليه وسلم صلاته حول الكعبة ويتهدده ان رآه ليؤذينه ويهدد النبيء بقوله لتعلم ما بها اي بمكة نادٍ اكبر مني قصده الله عنه . والمراد بالعبد النبي صلى الله عليه وسلم فالمراد عبد معين بالقرينة كقول لبيد ، او يَعْتَلِقْ بَعْضَ النفوس حمامها ، يريد نفسه والاستفهام للتعجيب والتشنيع بحال هذا الناهي عن امر من التقوى والخطاب لغير معين وهو كل من تتاتى منه رؤية هذه الحالة ومثل هذا الخطاب ملازم لصيغة الاستفهام التعجيبي نحو ارايت وهل اتاك وما يدريك والمقصود بالخطاب التعريض بالذي ينهى فكانه قيل ارايتك ايها الناهي عبدا اذا صلى الايات . والرؤية الاولى بصرية لانه بحيث يبصر ، واذا صلى ظرف يتعلق بينهى وهو يدل على ان ذلك الوقت هو موقع النهي فيدل على ان النهي لاجل ما يقع في ذلك الظرف وهو الصلاة فالمنهي عنه هو الصلاة . وهذه الآية تدل على ان الصلاة كانت مشروعة للنبيء صلى الله عليه وسلم منذ بعثه اما بوجوب خاص به واما باختياره تطوعا دون ايجاب واما وجوب عدد الصلوات الخمس فانما شرع ليلة الاسراء شرعا عاما وذلك بعد البعثة بخمس سنين .

وجملة ارايت ان كان على الهدى مستانفة ايضا والاستفهام للانكار والرؤية قلبية بقرينة ان المذكور بعدها ليس ممايرى والخطاب لغير معين والمعنى انكار حال الذي ينهى عبدا اذا صلى بانه نَهَى دون ان يتامل في ان الفعل المنهي عنه هدى وتقوى وذلك ابلغ في تشنيع النهي اذ قد صادف نهيا عن معروف .

وحرف عَلَى للاستعلاء المجازي وهو التمكن من الشيء . وحذف مفعولاَ ارايتَ الثاني لدلالة مفعولي ارايتَ الاول وصليه والتقدير ارايته ناهية ان كان على الهدى وهذا حذف اختصار . والضميران المستتران في كان وفي امر عايدان الى « عبدا » والمعنى ارايته ينهاه ايضا حتى ولو كان على الهدى اوامر بالتقوى .

وجيء بأن في مقام تحقق كون المنهي على الهدى وءامرا بالتقوى مجاراة لحال الذي ينهى لايقاعه في الشك الباعث على النظر اي لنفرض العبد الذي صلى كان على الهدى فهل ينهاه .

وجملة ارايت ان كذب وتولى مستانفة ايضا لانها انتقال الى احوال الذي ينهي والمفعول الاول لفعل الرؤية محذوف هو ضمير الذي ينهي والتقدير ارايته

والعامل معلق عن العمل بالاستفهام الانكاري اى اتظنه لا يعلم ان الله يراه وضميرا كذب وتولى يعودان الى الذى ينهي اذ لا لبس في هذه الضمائر . اي ان دام على تكذيبه وتوليه ومفعول يرى محذوف دل عليه كذب وتولى والاستفهام في الم يعلم بأن الله يرى للانكار والتهديد بقرينة قوله بعده لئن لم ينته لنسفعن بالناصية .

والتولي حقيقته الانصراف من المكان الذي جيء منه وهو هنا مجاز في الاعراض والالغاء كما في قوله عبس وتولى .

(كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ)

كلا ردع عن نهيه عبدا عن الصلاة او عما تضمنه انكار علم الناهي بان الله يراه والمعنى كلا بل يراه الله اي يطلع على حاله والمراد بل يؤاخذه الله بذلك بقرينة قوله لئن لم ينته لنسفعن بالناصية . واللام في لئن موطئة للقسم تاكيدا للوعيد وضمير الغيبة عائد على الذي ينهى واللام في لنسفعن لام جواب القسم والنون للتوكيد . ونسفع مضارع سَفَع اي قبض بشدة والناصية الشعر الممتد من الراس على الجبهة ومنه ناصية الدابة وهو خصلة الشعر الذي على جبهتها ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها . والتعريف في الناصية تعريف العهد اي ناصية الذي لم ينته عن تكذيبه وتوليه والسفع هنا تمثيل لشأن القادر على عاصيه بهيئة المتمكن من ناصية داعر بجره الى الانتصاف منه .

وناصية بدل من قوله بالناصية اعيد لفظها لتجري عليه الاوصاف المقصودة. ووصفت بالكذب والخطا على طريقة المجاز العقلي اي كاذب صاحبها وخاطيء اي مرتكب للخطيئة اي الاثم وهي خطيئة التكذب والتولي وفي هذا المجاز ضرب من التمليح او التهكم اذ جعل التكذيب مسندا في الظاهر للناصية المسفوعة لان عقوبته ظهرت فيها . والكلام وعيد بالقدرة عند ارادة الله .

(فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ)

الفاء لتفريع امر التعجيز على الوعيد اي فليدع من يخلصه منا حينئذ النادي المجلس الذي يجتمع فيه القوم ويقال له الندي وهو مشتق من النداء لانهم يتنادون الى الاجتماع فيه ويقال انتدى القوم اي اجتمعوا في النادي والمراد بالنادي اهل النادي بقرينة فليدع لان الذي يدعى هو العاقل ومنه قوله واسال القرية وكني بالنادي عن قوم الرجل وانصاره واصحابه واضافة النادي اليه لانه من

اهله فان كان المراد بالذي ينهى عبدا اذا صلى ابا جهل فاضافة النادي اليه لانه صاحب البيت الذي يتدون فيه وذلك ان ابا جهل قال للنبيء مهددا « انك لتعلم ما بها اي بمكة ناد اكبر مني » اي من نادي بعني عشيرته وشيعته الذين يأتمرون بامره ويغضبون لغضبه وكان الجلاس ياوون الى سادة القوم لرَحْب منازلهم وكثرة ابياتهم وكان لابي جهل ناد هو اكبر نوادي قريش فذكر النادي هنا تعريض بابي جهل بانه كان زعيم المكذبين . وكان لاهل المدينة سقائف يتدون فيها ومنها سقيفة بني ساعدة.والامر للتعجيز اي فليدع اهل ناديه ان استطاع ذلك.

وجملة سندعو الزبانية مستانفة لزيادة الوعيد وفي سندعو مشاكلة اثارها امر التعجيز بالدعوة فقوبلت دعوة بدعوة .

والزبانية الشُّرَطُ والوَزَعَة اي اعوان الولاة وواحد الزبانية زِبْنِيَة بكسر الزاي وسكون الباء وكسر النون وتخفيف الياء مشتق من الزبن وهو الدفع والصك والمراد بالزبانية هنا ملائكة العذاب الذين يسوقون المجرمين الى النار .

وقد كتب في المصاحف سندع بدون واو مع انه ليس بمجزوم ولكن الكاتب اعتبر حالة النطق في الوصل .

(كَلَّا لاَ تُطِعْهُ واسْجُدْ واقْتَرِب)

كلا هذه تاكيد للردع الحاصل بكلا التي في قوله كلا لئن لم ينته بقرينة قوله لا تطعه واسجد اي لا تطعه في نهيه عن الصلاة ودم عليها فالامر مستعمل في الدوام.

وعطف الامر في واسجد على النهي في قوله لا تطعه تاكيدا له وبيانا لمحل النهي عن طاعته . والسجود الصلاة من اطلاق اسم الجزء على الكل كقوله ومن الليل فاسجد له اي فصل له والامر بالسجود يقتضي ايجاب الصلاة اجمالا من مبدا البعثة هذه الآية ان تكون في عداد ءايات احكام القرءان .

والاقتراب افتعال من القرب وصيغة الافتعال هنا للمبالغة والمراد القرب الى الله بالطاعات والامتثال لان ذلك قرب اعتباري وقد اطلق على ذلك وعلى الصلاة العرب في حديث مسلم ان رسول الله قال أقرب ما يكون العبد الى ربه وهو

ساجد فعطف الامر بالاقتراب على الامر بالسجود ضرب من التذييل لان الاقتراب بالقراءة للقرءان وتبليغ الرسالة .

اسلوب هذه السورة

لما كانت اول سورة نزلت من القرءان افتتحت بالامر بالقراءة وبان يكون ابتداء القراءة مصاحبا لذكر اسم الله تعالى ومستعانا فيه باسمه تعالى واجريت على الله صفة الخالقية ليتضمن الامر بالقراءة تنبيها على دليل وجود الله ، ثم ذكر انه تعالى هو الخالق للانسان من قطعة من دم ، وتخلص منه الى انه علم الانسان بالقلم ما لم يكن يعلم تشجيعا للنبيء على تلقي القراءة . وأُدمج في ذلك التنويهُ بشان التعليم بالقلم وهو علم الكتابة . فلما تم ذلك ثُنيَ عنان الكلام الى ما هو واقع او متوقع من تلقي المعاندين للقراءة المامور بها النبيء وهي القرءان والصلاة وشنع بحال الناهي عن الصلاة هُدد واوعد ان لم ينته بانه يدفع الى العذاب ثم اعيد الكلام الى الامر بعدم طاعة الناهي عن الصلاة . وختم ذلك بالتذييل بقوله واقترب اي الى الله بالقراءة والصلاة وغيرهما .

سورة القدر

وهي مكية على التحقيق اشتملت هذه السورة على تعيين الوقت الذي اختاره الله لا نزال اول القرآن والتنويه بفضيلة ذلك الوقت عند الله وسريان ذلك الفضل الى ما يماثله من الزمان في كل سنة وتقدير ذلك الوقت بجعله ليلة كاملة الى ان تنتهي بطلوع الفجر الموالي لها وذلك تنبيه للامة الى الاقبال على العمل الصالح في تلك الليلة.

(إِنَّا أَنْزَلْنَاه في ليلةِ القَدر ومَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القدرِ ليلة القدر خيرٌ من أَلفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ المَلَائِكَةُ والرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهم مِنْ كل أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتى مَطْلعِ الفَجْرِ)

قد خصص الله تعالى بعض الازمان بفضائل أعلمنا إيّاها وهو اعلم باسبابها. ومن تلك الاوقات ليلة القدر وهي ليلة عَرَّفها الله بهذا العلم الاضافي والقدر الشَرَف وعلوُّ الشان وارشدنا الى انه اختارها لا نزال القرآن لعظم قدره عند الله تعالى فاختيار افضل الاوقات لابتداء انزاله ينبيء بسموه عند الله فان الاحوال والازمان تدل على مكانة ما يقع معها.

فليلة القدر التي انزل فيها القرآن قد انقضت قبل ان يشعر بها احد عدا محمدا صلى الله عليه وسلم فكأن فضلها بابتداء رسالته وانها تنزل فيها الملائكة اي تقترب من عالم الناس وذكر في آيات اخرى انها ليلة مباركة وفيها يفرق كل امر حكيم رحمةً من الله لها فضائل تنويها بشانها فتفضيل الليالي الموافقة لها من كل عام تنويه بشان القرآن والرسول . وفيه تعريف بفضل امثالها من كل سنة لقوله تَنَزَّل الملائكة والروحُ فيها وقوله سلام هي حتى مطع الفجر . وتعليم للامة بان تنوه بايام النعم ولياليها كما قال لرسوله موسى عليه السلام وذكرهم بايام الله ولم يزل من سنة الاديان اعلان فضائل لاوقات جرت في امثالها اعمال صالحة .

وهذه السورة تدل على ان المسلميـن قد عرفـوا ليلة القدر وفضلها منذ كانوا بمكة قبل الهجرة .

وقد اخبر الله تعالى في القرءان انه أُنزل في رمضان اذ قال شهْرُ رمضان الذي انزل فيه القرءان فعلمنا ان ليلة القدر تقع في رمضان .

ثم ان الله لم يبين انها أيّةُ ليلة منه ودلت احاديث صحيحـة على انها ليلـة غير معينة من كل شهر رمضان فتعين ان يكون الملحوظ في موافقتها انها الموافقة في الوقع من ليالي الاسبوع لا في العدد من ليالي الشهر انها ليلة ماذ الا ليلة كم .

وفي هذا ما يقتضي ان تكـون ليلة جمعـة لان البحث عن تطلبها في بعض ليالي الشهر يقتضي ان تكون من افضل لياليـه ولا افضل من ليـالي الجمعة فهي ليلة جمعة لا محالة .

ويجوز ان تكون ليلة القدر التي ابتدىء فيها نـزول القرءان كانت في العشر الاواخـر وان الله ابهم عددهـا ليحرض الناس على العمل الصالح في العشـر الاواخر كلها .

وافتتاح الكلام بحرف التاكيد انا انزلناه بدون توقع انكار لمجرد الاهتمام بالخبر وهو تفضيل ليلة القدر ويجوز ان يكون مصب التاكيد هو فعل انزلناه وهو الخبر ويحصل تاكيد المتعلق تبعا .

والضمير المنصوب للقـرءان المعلوم من فعل انـزلنـاه . والقدر الشرف والكرامة . وما ادراك ما ليلة القدر تنويه بشانها لما في الابهام من تعظيم الشان وعسر ادراك كنهها كما تقدم في قوله وما ادراك ما يوم الدين في سورة الانفطار . واعيد اسمها الظاهر دون الضمير لزيادة الاهتمام بها . وكذلك اظهارها في قوله ليلة القدر خير من الف شهـر فوقع ذلك لفظها ثلاث مرات وهذا من اخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهـر الذي هو الاضمار لنكتـة الاهتمام كقول العَرْجي« لَيْلايَ مِنْكُنّ امْ ليلى من البَشر » والمراد ان ليلة القدر خير من الف شهر من اشهر ليست فيها ليلة القدر . وعدد الالف مـراد به التكثير مثل السبعين في قوله تعالي ان تستغفر لهم سبعين مرة . والمراد الخيرية في آثار الاعمال التي تقع فيها من ثواب الاعمال واستجابة الدعاء وبركة الصدقة ونزول

البركة للامة وفي الموطا قال مالك انه سمع من يثق به من اهل العلم يقول ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أري اعمار الناس قبله او ما شاء الله من ذلك فكانه تقاصر اعمار امته ان لا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر فاعطاه الله ليلة القدر خير من الف شهر .

وجملة ليلة القدر خير من الف شهر واقعة من التي قبلها موقع البيان للتنويه الذي اقتضاه قوله ما ادراك ما ليلة القدر فلذلك فصلت عنها .

وجملة تنزل الملائكة بمنزلة البيان للخيرية لان ذلك بعض وجوه الخيرية ولذلك فصلت الجملة عن التي قبلها وليست خبرا ثانيا عن ليلة القدر واصل تنزل تتنزل حذفت احدى التاءين تحقيقا . ونزول الملائكة من السماء الى الارض لبركة اعمال العباد . والتعبير بالمضارع ظاهره ان ذلك متكرر في كل عام والروح جبريل . وفيها متعلق بتنزل والضمير عايد على ليلة القدر . وقوله باذن ربهم يتعلق بتنزل والباء للمصاحبة والاذن بمعنى الماذون به ولذلك جاء بيانه بقوله من كل امر اي بما ادن الله به من كل امر ياذن به لذلك فالامر هنا بمعنى الشيء المهم اي بما ادن الله به من الخيرات لاهل الطاعة في تلك الليلة فالتنكير في امر للتعظيم اي من كل امر مهم .

وجملة سلام مستانفة استئنافا بيانيا ناشئا عن الاخبار بتنزل الملائكة فيها فالنفس تشتاق الى معرفة أثر هذا التنزل فلخص ذلك في جملة سلام هي اي تلك الليلة سلام والسلام بمعنى السلامة كقوله تعالى كوني بردا وسلاما على ابراهيم وهو اسم يشمل كل خير لان الخير كله سلامة من الشرور والاذى فيصدق ذلك بالغفران لانه سلامة من النار ويَصدق باعطاء المطلوب لان الناس يسالون المنافع والسلامة من الشر .

وقد جعلت الليلة نفس السلام اخبارا بالمصدر للمبالغة لشدة ما يحصل فيها من السلامة فكانها هي نفس السلام . وسلام خبر مقدم اذ ليس المراد الاخبار عن السلام بانه هو ليلة القدر بل المراد ان ليلة القدر هي السلام اي زَمَنُه . فالمقصود من تقديم المسند قصر المسند اليه على المسند اي ما هي الا سلامة . والقصر اضافي اي هي سلام لا غير سلام اي لا يقع فيها من امر الله الا السلامة للعاملين فيها .

وحتى مطلع الفجر غاية للاحاطة اي ليست السلامة في بعض اجزائها دون بعض بل في جميعها الى انتهائها .

اسلوب هذه السورة

ابتدئت السورة بحرف التوكيد للايذان باهمية الغرض . واسند الانزال الى ضمير الجلالة بصيغة التعظيم ايذانا بتعظيم شان المنزَّل والمنزَّل عليه . وادمج التنويه بليلة ابتداء انزال القرءان بان وصفت بالقدر وهو الشان وبما افاده قوله ما ادراك ما ليلة القدر تعظيما لحقيقتها المستفادة من كلمة ما ليلة القدر . وتُخلص من ذلك الى ما يقع فيها من خير والى استيفاء زمانها ايماء الى الترغيب في تطلبها وتوسعة على طالبيها ان يتعبدوا في اولها او وسطها او ءاخرها وآذن قوله سلام هي حتى مطلع الفجر بانتهاء الكلام على تلك الليلة وهو تناسب بين نهايتين ففيه مراعاة النظير وحسن المقطع .

سورة البينة

تسمى سورة البينة وسورة لم يكن . وهي مكية عند الجمهور ويـؤيـده ذكر المشركين فيها . وقيل هي مدنية وهو الذي جرى عليه ما يروى عن جابر ابن زيد في ترتيب السور في النزول فعدها مدنية،

وقد اشتملت على توبيخ الكفار من اهل الكتاب والمشركين على استمرارهم في ضلالهم وعلى سوء فهم اهل الكتاب حقيقة الحنيفية ثم على تهديدهم والمشـركين وذمهم ومدح المؤمنين وتبشيرهم .

(لم يَكُنِ الذينَ كَفَرُوا من اهلِ الكِتاب والمشركين مُنْفَكِّينَ حتَّى تَأْتِيَهُمْ البَيِّنَةُ رسولٌ من الله يَتلو صُحُفاً مُطهَّرَةً فيها كُتُبٌ قَيِمَةٌ)

الانفكاك الاقلاع والمفارقة ولما وصفهم بانهم كفروا علم ان المراد الانفكاك عما هم فيه من الكفر سواء كان كفرهم بالاشـراك والتكذيب معا وذلك ككفر المشركين من العرب بمكة والمدينة ام كان بالتكذيب بالرسول خاصة وذلك كفر اهل الكتاب من اليهود والنصارى والمعنى انهم لم يكونوا مفارقين ما هم عليه من الكفر حتى تاتيهم البينة .

وهذا الكلام جار على انه لحكاية لزعمهم فلذلك كان المضارع في قوله حتى تاتيهم البينة على اصله بعد حتى من افـادة الاستقبال لان البينـة التي يزعمونها لم تأت بعدُ حين كانوا يقولون ذلك . فنسبة هذا الخبر اليهم ليست على معنى الاخبار بل على معنى انهم يقولون ذلك وذلك قريـب من الخبر في قولـه تعالى يحـذر المنافقون ان تنزل عليهم سورة تنبئهم لما في قلوبهم اي يزعمون انهم يحـذرون ذلك زعما كاذبا بدليل قوله قل استهزئوا ان الله مخـرج مـا تحذرون فالكـلام مستعمل في التعجيب من حالهم والتهكم بهم والبينة الحجة الواضحة ولعل كلمة البينة كانت كلمة متداولة بينهم قد اصطلحوا عليها او هي ترجمة عربية لكلمـة من العبرانية وقعت في كتبهم وقد يؤذن بذلك قولـه تعالى حكايـة عن اهل الكتـاب « وقالوا لولا ياتنا بآية من ربه أوَلَـمْ تاتهم بَيِّنَةُ ما في الصحف الاولى » فأطلق

على ما في الصحف الاولى كلمة البينة ويزداد ذلك وضوحا عندما نفسر قوله تعالى « وما تَفَرَّقَ الذين اتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة » ثم قد تاولوا هذه البينة بتاويلات اخترعوها فهم ينتظرون ظهورها على يد المبعوث اليهم المؤيد بها .

وكان احبارهم قد اساءوا التاويل للبشارات الواردة في التوراة والانجيل بالرسول المقفي للرسل وادخلوا علامات يعرفون بها الرسول الموعود به هي من المخترعات الموهومة وليست في البشارات فبقي قومهم ينتظرونها وكلما جاءهم رسول توسموا تلك العلامات فاذا لم يجدوها كذبوا المبعوث اليهم كما حكى الله تعالى عنهم بقوله « الذين قالوا ان الله عهد الينا ان نؤمن لرسول حتى ياتينا بقربان تاكله النار » كما كذب اليهود عيسى لانهم زعموا ان الرسول الذي يجيء بعد موسى لا يجوز ان يبطل شيئا من شريعة موسى عليه السلام لان احبارهم اولوا لهم وصف الرسول المعزز للدين بمعنى المؤكد للدين فتوهموا ان نسخ بعض الاحكام مناف للتعزيز وقد اشتبه عليهم معنى التايد بالتقرير وكذبت النصارى محمدا صلى الله عليه وسلم لانهم تاولوا المعزي الذي يرسله الله ويمكث الى الابد بعد عيسى عليه السلام انه هو عيسى نفسه يعود مرة ثانية فاصبحوا لا يصدقون رسولا يقول إنه غير عيسى .

ولما كان غالب المشركين اميين لم يكونوا يعلمون شيئا من احوال اهل الكتاب الا ان الذين تلقوا من اهل الكتاب بعض اوهامهم تلقفوها واعتقدوها وتابعوهم عليها لما جاء محمد صلى الله عليه وسلم فصاروا يسالون اهل الكتاب فيجدون من ضلالات اهل الكتاب ما يوافق هوى اشراكهم مع ما ادخلوا على ذلك من الخرافات الزائدة كما حكى الله عنهم بقوله « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا الآية » فعقد الجميع العزم على ان لا يفارقوا ما هم عليه من شرك او يهودية او نصرانية الى الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم حتى تاتيهم البينة التي ينتظرونها ويصفونها بما املتْه عليهم خيالاتهم فهذا هو الذي يفسر قوله هنا لم يكن الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تاتيهم البينة وانما قدم اهل الكتاب على المشركين مع ان كفر المشركين اشد لان اهل الكتاب مقدمون في هذا الغرض على المشركين من حيث كانوا هم الذين بنوا في المشركين شبهة انتظار البينة ولقنوها للمشركين كما حكى الله تعالى عنهم بقوله

وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا (اي المشركين) فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به .

والتعريف في البينة للعهد الذهني لان المراد فرد غير معين من جنس فانهم كانو يترقبون بينة تعرف باوصافها عند مجيئها وليست معينة من قبل والمعرف بلام العهد الذهني له حكم النكرة في المعنى .

وجملة رسول من الله مستانفة استئنافا بيانيا ناشئا عن سياق التهكم مع ما في البينة من الايهام فان ذلك يثير سؤال من يسال ما هذه البينة فاجيب بانها رسول من الله فاسلوب الكلام انتقال من التوبيخ الى التبيين والتعليم كانه قد قيل اتدرون ما هي البينة التي تلوكون لفظها ولا تعلمون كنهها هي رسول من الله اي ليست البينة الا ذلك لا التي تتوهمون فتنكير رسول للنوعية مبالغة في التغليط اي البينة ان هي الا رسول وهذا مثل تنكير كتاب في قوله تعالى المص كتاب انزل اليك اي هذا قصارى ما تحير فيه قومك ومن هذا القبيل تنكير حيوان في قول المعري :

والذي حارتْ البريَّة فيه　　　حيوانٌ مُسْتَحْدَثٌ من جَمَادِ

وهذا على اسلوب الجواب الذي في قوله تعالى «وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا او تاتي بالله والملائكة قبيلا - الى قوله - قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا » . ويجوز ان يكون رسول من الله بدلا من البينة وان ذلك من مقالهم يصفون الرسول المنتظر بانه يتلو صحفا اي حتى ياتينا رسول من الله بكتاب من عند الله .

وانما كان الرسول عليه السلام هو البينة لان النظر في معجزاته الذاتية يبين انه رسول من الله حقا كما قال حجة الاسلام في المنقذ من الضلال ان مجموع الاخلاق الفاضلة كان بالغا في نبينا الى حد الاعجاز وان معجزاته كانت غاية في الظهور والكثرة .

وجملة يتلو صحفا مطهرة حال من رسول اوصفة ثانية والتلاوة اعادة الكلام بلفظه والغالب ان تكون اعادة كلام مكتوب للتعليم ونحوه فهي اخص من

القراءة فالرسول يتلو على الناس الوحي المنزل عليه لانه يعيده بالفاظه دون تغيير والتلاوة لا تنافي الامية قال تعالى « وما كنت تتلو من قبلـه من كتاب ـ وقال ـ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم » والصحف هي صحف القرءان لانه كان يؤمر بكتابة ما ينزل منه محافظة عليه قال تعالى «او لم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم» فسمّى المنزل كتابا لذلك فقوله يتلو صحفا معناه يتلو ما في صحف وتعدية فعـل التلاوة الى الصحيفة باعتبار ان الصحيفة تنحـل الى كلام كما تقول تـلا قصيدة وتلا سورة كذا .

والمطهرة المنزهــة عن الباطل . ومعنى فيهـا كتب قيمة انها حاوية لمـا في الكتب السالفة وقيمة وصف من القيام الذي هو بمعنى الاستقامة لان القائم يكون مستقيما غير ذي اعوجاج والمراد القيام المعنوي وهو كون الكلام حقا نافعا قـال تعالى «قائما بالقسط » فالقيمة مبالغة في الوصف بالقيـام بوزن فيعل مثل السيد والميت والمعنى ان حال الرسول وحال ما جاء به من الوحي كاف في انه بينة من عند الله على حد قوله او لم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم .

(وما تَفَرَّقَ الذينَ أوتوا الكتابَ الّا مِنْ بَعْدِ جاءَتْهمْ البَيِّنَةُ)

هذا تخصيص لاهل الكتاب من بين الذين كفروا يذكر حالهم في انتظار البينة دون المشركين لان المشركين لم يسبق مجيء نبـيء اليهم واما اهل الكتـاب فقد جاءهم عيسى وهو البينة المنتظرة من بشارات كتب اليهود فكذبه جمهورهم وصدقه فريق آخر فتفرقوا عند مجيء بينتهم التي كانـوا ينتظرون . فالتفـرق الانقسام بينهم . فالظاهر ان الـواو في وما تفـرق واو الحـال زيادة في تغليطهم والتعجيب من حالهم وابطالا لزعمهم اي هم لا ينفكون عن التمسك بعقائدهم حتى تاتيهم البينة في حال انهم لما جاءتهم البينة تفرقوا اي كذب بعضهم وصدق بعض فكان منهم نصارى ومنهم من بقي على الموسوية فكيف يدعـون بعد ذلك انهم اذا جاءتهم صدقوا بها وانفكوا عما هم عليه وكيف يرجى منهم الاقلاع عما هم عليه وقد كفر اكثر اليهود ببينة عيسى قليل منهم ءامنوا به ومعظمهم كذبـوه فكان من الشان ان يكفر اليهود والنصارى ببينة محمد عليه السلام فان تلك شنشنة فيهم وهذا كقوله تعالى فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فالتفرقة هنـا مراد منه كلا

معنيه الصريح والكنائي لانه اريد كذبوا فتفرقوا واذا كان هذا حال اهل الكتاب فحال المشركين اشد لانهم مقلدون في ذلك لاهل الكتاب ولان كفرهم اوسع . والبينة المذكورة ثانيا في الآية مراد بها عيسى عليه السلام والتعريف تعريف العهد الذهني كما تقدم في نظيره اي من بعد ما جاءتهم بينة .

(وما أُمِرُوا الا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاء ويقيموا الصلاةَ ويُؤْتُوا الزكاةَ وذلك دينُ القَيِّمَةِ)

عُطفت جملة وما امروا على جملة وما تفرق الذين اتوا الكتاب فهي في موضع الحال زيادة في التعجيب من امرهم اي تفرقوا بتكذيبهم عيسى ثم ازدادوا تفرقا بتكذيبهم محمدا عليه الصلاة والسلام والحال انهم ما امروا في كتبهم الا بما جاءهم به محمد من الاسلام فان اصل الاسلام هو اسلام القلب الى الله وهو الحنيفية والصلاة والزكاة وذلك هو الدين القيم الذي كانوا يتطلبونه من اهل الكتاب ومن تطلبه من المتحنفين من العرب في الجاهلية مثل زيد بن عمرو بن نفيل وامية بن ابي الصلت .

والمقصود من هذه الآية ان التكذيب دب الي فريقي اهل الكتاب مرة ثانية ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم كما طرا على اليهود منهم عند بعثة عيسى عليه السلام والحال انهم ما امروا في كتابيهم الا بما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ففي الكلام ايجاز حذف بعد قوله الا من بعد ما جاءتهم البينة وتقدير المحذوف اذ كذب اليهود بينة عيسى ثم كذب اليهود والنصارى بينة محمد مع انهم ما أمروا في كتابيهم الا باتباع دين خالص حنيف وهو عين ما جاء به محمد وقد دل على هذا المقدر قوله وذلك دين القيمة وهم لما انكروا بعثة محمد عليه السلام لم يخلصوا لله الدين لانهم لو اخلصوا لتطلبوا الحق ونظروا في دلائل البعثة المحمدية ولكنهم اثروا حب الرئاسة والتعصب لسمعتهم فانكروا أن تنسخ شرائعهم فلم يكن لهم اخلاص لله بل شابوه بحب الرئاسة والاثرة .

وقد حذف مفعول امروا لدلالة الكلام عليه من قوله اوتوا الكتاب . واللام في ليعبدوا الله لام التعليل والفعل بعدها منصوب بان مضمرة وكثر وقوع هذه اللام بعد مادة الامر وبعد مادة الارادة فتغني عن المفعول المامور به وعن المراد لقصد الاهتمام بالمفعول بجعله بمنزلة العلة والغرض كقوله تعالى « وامرنا لنسلم لرب العالمين - وامرت لان اكون اول المسلمين - يريد الله ليبين لكم - يريدون ليطفئوا نور الله بإفواههم » وهذا ما اشار اليه سيبويه . والتقدير هنا وما أمروا

لشيء الا لعبادة الله مخلصين لـه والمعنى وما امروا الا بعبادة الله خالصة والاخلاص عدم اشراك الشيء بغيره . والدين الملة والعبادة والمراد به هنا التوحيدوعدم الاشراك بالله وهو الاسلام.

والحنفاء جمع حنيف والحنيف المتبع الملة الحنيفية وهي ملة ابراهيم عليه السلام غلب عليها هذا الاسم من عهد ابراهيم وعلى اساسها جاء دين الاسلام. والمقصود الاحتجاج على اليهود والنصاري ومشركي العرب لان كل فريق من هؤلاء الملل كان ُيقرّ بان الحنيفية هي الدين الحق الذي اقيمت الاديان الحقه على اصوله ، فاليهود والنصارى يجعلون دينهم متفرعـا على الحنيفية ، والمشركون يتطلبون الحنيفية ويتساءلون عنها ويلتقطون آدابها من وصايا اوليائهم ويزعمون ان اليهودية والنصرانية تحريف للحنيفية او خليط من الحنيفية وما زاد عليها فلذلك كان عامة العرب يتمسكون بما هم عليه من حـال آبائهم ويتوخون ان يكونوا صادفوا معظم الحنيفية ولم يتهود او يتنصر منهم الا قليل. وكان خاصتهم وهم قليل يتطلبون الحنيفية الحقة بمخـالفة حال اسلافهم فمنهم من تنصر مثل وَرَقَةَ بن نَوْفَل ومنهم من تهود مثل بعض الاوس والخزرج ومنهم من احتـار في الامر مثل زَيْد بن عَمْرو بن نفيل وأُمَيَّةَ بن ابى الصَّلْت . فانكار هـؤلاء الاسلام مكابرة لانه جاء للجميع بما جاءت به الملل التي يطلبونها . وجملة وذلك دين القيمة معطوفة على جملة ومـا امروا فهي في موضع الحال وهي زيـادة في التعجيب من حالهم وتغليط معتقدهم.

والقَيِّمة المستقيمة وتقدم آنفا. وهو هنا وصف لمحذوف دل عليه السياق اي الطريق القيمة وهي مكنى بها عن الموصلة الى الحق المطلـوب للنـاس كلهم لان المتدين انما يتطلب النجاة والفوز بالحق فاضافة دين الى القيمة اضافة لادنى ملابسة اي دين الطريقة الموصلة. وتعريف المسند اليه بالاشارة لتمييزه تنويها به.

(انَّ الذين كفَرُوا مِنْ أهْل الكِتَابِ والمشْرِكِينَ في نارِ جَهَنَّم خالدين فيها أولئـكَ هُمْ شَرُّ البريَّـة)

لما انحى على المشركين والكفار من اهل الكتاب بما شنع من حالهم اعقبه بوعيدهم فالجملة استئناف. وتوكيدها بانّ للاهتمام بالخبر او لانهم ينكرون ان

ان يصيروا الى النار فالكلام رد على انكارهم. وتقديم اهل الكتاب على المشركين في الذكر للوجه الذي تقدم في قوله لم يكن الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين ، ولان ما اجري من الاخبار عن احوال اهل الكتاب كان آخر الكلام واكثره فكانوا اشد حضورا في اذهان السامعين.

وفي للظرفية المجازية لانهم لما تلبسوا بما اوجب لهم النار وحقت عليهم كلمة العذاب صاروا كانهم مظروفون فيها او يكون المعنى انهم فيها في المستقبل فتكون الظرفية حقيقية. والخلود طول المكث في المكان كقول لبيد ، صما خوالد ما يبين كلامها . ويطلق على الدوام وهو المراد هنا.

وجملة اولئك هم شر البريئة منزلة منزلة النتيجة من الجملة التي قبلها. وشر اسم تفضيل واصله أشَرُّ فحذفت الهمزة تخفيفا كما حذفت من خير الذي هو وصف والبريئة بالهمز الخليقة فعيلة بمعنى مفعولة من برأ الله اي خلق. وقراه نافع وابن عامر بالهمز على الاصل وهي لغة اهل مكة . وقراه الباقون بياء مشددة لانهم خففوا الهمزة فصيروها ياء لوقوعها بعد ياء ثم ادغموا الياءين وهي لغة جمهور العرب. ووجه كونهم شر البرية انهم شر الناس في الدنيا لضلالهم في صفات الله وتصديق الرسول مع قيام دلائل الهدى وبسوء فهمهم واختلافهم ومجافاتهم للحق وحبهم الاعراض الزائلة ، وهم شر الناس في الآخرة لانهم اشد الناس عذابا . وتوسيط ضمير الفصل في قوله اولئك هم شر البريئة لافادة القصر وهو قصر حقيقي لما علمت آنفا.

(انَّ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ اولـئك هم خَيْرُ البَريئَةِ جَزاؤُهم عندَ ربِّهم جنات عَدْنٍ تَجْري من تحتها الانهارُ خالدين فيها ابدا رضَيَ الله عنهم ورَضُوا عنه ذلك لِمَنْ خَشِيَ ربَّه)

لما ذكر حال الذين لم يؤمنوا قابله بذكر حال الذين آمنوا، وهذا الموصول كاللقب للمؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم وعطف عليه عملوا الصالحات لان ذلك وصفهم الذي يعرفون به والقول في تفسيره كنظيره وخير وصف وهو ضد شر واصله أخْيَر بهمزة مثل ما قلنا في شر . وجملة جزاؤهم عند ربهم الخ بيان للخيرية . وقوله عند ربهم اشارة الا ان الجزاء مدخر لهم في المستقبل مضمون

الحصول مع ما في لفظ عند من الاشارة الى الكرامة وما في وصف ربهم من الايماء الى العناية بهم والى تعظيم شانهم لان شان من يـرب ان يبلغ بمن يَرُبُّه غاية الكمال . والجنات تقدم في سورة النبا .

والعدن اصله المكث وقد جعل وصفا للجنة في آي كثيرة للاشـارة الى انهـا محبوبة لسكانها وصار هذا المركب الاضافي علما بالغلبة على دار الجزاء للمحسنين. والانهار جمع نهر بسكون الهاء وبفتحهـا وهو الواد الذي يسيل فيه المـاء فقد يكون صغيرا وكبيـرا والمراد هنـا الاودية المستمرة في الجنـات المتفجرة من العيون ونحوها .

وجرُي الماء سيل بعضه اثر بعض واحسن الماء ماكان جاريا لانه يكـون جديدا حيثما اغترف منه المغترف.

ومن تحتها من اسفلها واريـد من اسفل اشجارهـا . ومن اتصاليـة اي متصلة بتحتها الانهـار وتقييد جـري الانهـار بهذا القيد لمجـر د الكشف اد لا تكـون الانهـار الا كذلك والمـراد منه زيادة التصوير لحال الجنات تحسينا لها . وقد ورد مثل هذا في القرآن عند ذكر جنة الآخرة كما هنـا وعند ذكر جنة الدنيا كما في قوله تعالى ايود احدكم ان تكون له جنة من نخيل واعناب تجري من تحتها الانهار.

والخلود المكث الطويل فقـوله ابدا تاكيد لمعنى الخلود لرفع احتمـال مطلق الطول.

وجملة رضي الله عنهم مستانفة ورضى الله عن عبيده تعلق علمه بانهم سلكوا ما طلبه منهم تعلق ارادته بالاحسان اليهم. وامـا رضى المؤمنين عن ربهم فهو سرورهم بما انالهم وحمدهم الله عليه .

وجملة ذلك لمن خشي ربه تتميم وحوصلة. والاشارة الى ما ذكر من جزاء المؤمنين ومن الاخبار برضى الله عنهم ورضاهم عنه . والخشية الخوف وتقدم ذكرها في سورة النازعات. ومن خشي ربه هم المؤمنون وذكروا هنا بصلة الخشية دون صلة الايمان للاشارة الى انهم مؤمنون يخشون. وفي ذكر الرب دون اسم الجلالة ايماء الى نسبة لهم عند الله وهي نسبة المربوبية فهي كنسبة الولاء .

اسلوب هذه السورة

افتتحت بكلام يشبه الاطماع في رجوع المشركين واهل الكتاب عن التمسك بما هم فيه الى الايمان بالنبي عند حصول غاية معينة ثم كر الكلام بالتاييس من رجوعهم والتذكير بشنشنتهم القديمة وهي زيادة الغلواء عندما تاتيهم البينة . وذكر من بين ذلك التسجيل عليهم بان البينة الحقة هي الرسول المرسل من الله وكتابه فكانت الجملة شبه اعتراض .

ثم سجل عليهم بان كتبهم لم تشترط عليهم ، الا العبادة والاخلاص لله والصلاة والزكاة وذلك الدين القيم وذلك هو الاسلام وهذا في معنى قوله تعالى قل يا اهل الكتاب هل تنقمون منا الا ان امنا بالله وما انزل الينا وما أنزل من قبل. ثم انحى باللائمة وبالوعيد لهؤلاء المعاندين وانتقل الى مدحة وبشارة مقابليهم المؤمنين .

سورة الزلزلة

مكية على الاصح وقيل مدنية وعلى هذا عدوها رابعة وتسعين في النزول .
وقد اشتملت على اثبات البعث وذكر علاماته واشراطه وعلى حساب الناس على
اعمالهم من خير او شر .

(إذا زُلْزِلَتِ الارضُ زِلْزَالها وأخرجَتِ الارضُ أثقالَها وقال الانسانُ مَالَها يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَها بأنَّ ربَّكَ أَوْحَى لَهَا)

ظاهر نظم الكلام بجعل اذا وجوابها وقتين انه اخبار بوقت البعث وليس
ذلك هو المقصود ولكن المقصود الاخبار بوقوع البعث والجزاء ولكن نزل تحقق
وقوعه منزلة المعلوم بحيث يهتم الناس بمعرفة وقت وقوعه مع ما في ذكر علامات
وقته من تهويل امره الباعث على اخذ العُدة له فالتوقيت مستعمل كنايةً عن لازمه
وهو تحقق وقوع الموقّت وقد افيد ذلك بقوله يومئذ يصدر الناس ومنه قوله
القارعة الى قوله يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتقديم الظرف على عامله لقصد
افادة الشرطية مع الظرفية ولما فيه من التشويق للجواب .

وزلزلت معناه اصيبت بالزلزال والزلزال مصدر زلزل المصوغ من تكرير
حرف الزاي واصله زَلَّ فكرر فاء الكلمة اشارة اي التكرر اي الانتقال من
المكان عن غير قصد لمكان آخر معين مشتق من زل بمعنى زلق فتكرير الحروف
دال على تكرير المعنى مثل لملم بالمكان وكبكبه الله . واسند فعل زلزلت الى صيغة
نائب الفاعل لظهور ان المعنى زلزلها حادث عظيم فحذف الفاعل لعدم تعلق غرض
السامع بمعرفته في هذا المقام .

وزلزالها مصدر مؤكد لعامله لئلا يحتمل ان يكون زلزلت بمعنى اصيبت
بشيء مضر غير الزلزال كقوله وزلزلوا زلزالاً شديداً . واضافته الى ضمير
الارض لا يدل على بيان نوع اذ لا يكون الزلزال الا في الارض ولكن اريد
باضافته الى ضمير الارض التنبيه على تمكنه من الارض وطول مدته حتى صار

يعرف بها كما في قوله بَلْبَلَـهُ بلْبَـا له. وإعادة اسم الارض الظاهر في مقام الاضمار لزيادة التمكن .

واثقال الارض ما في بطنها من المعادن وذلك من كثرة الانفجارات الناشئة عن الزلزال .

وقول الانسان مالها كناية عن هول الحال حتى يبلغ الى تساؤل النـاس عنه لان الناس لا يتساءلون عن حال الا عند اشتداده وخروجه عن المعـتاد وذكر ما يقوله الناس في المقامـات كناية عن شدة الحال في الغرض المتحدث عنه استعمـال عربي بايغ ومنه قول كعب بن زهير :

وقال للقَوم حَادِيهم وقَـدْ جَعلتْ وُرْقُ الجَنَادِبِ يَرْكُضْنَ الحَصى «قِيلوا»

وقوله تعـالى هنالك ابتلي المـؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا . واذ يقـول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا . فالتعريف في الانسان للجنس المفيد للاستغراق اي قال الناس كلهم هذا القول .

وضمير مالها ضمير الارض ولم يتقدم له معاد في قول الانسان لظهور انه عائد الى الارض المشاهدة احوال زلزالها المثيرة للسؤال والتعجب .

ويومئـذ بـدل من اذا لانه عـين الوقت الذي افـادته اذا . لان اذا تجيء للمستقبل ويكثر ذلك مع يومئذ وتُحدِّث هو جواب اذا . ودل قوله يومئـذ على ان وقت هذا الزلزال وما بعده يوم من الايام وهو يوم البعث . والتحديث الاخبار بخبر طويل كما تقـدم في قوله واما بنعمة ربك فحـدث في سورة الانشراح . وضمير تحدث عائد الى الارض وتحدث الارض إخبـارها وهو دلالة احـوالها المذكورة على الحدث العظيم الذي يعقبها وهو حدث فنـائها فالتحديث مستعمل في الدلالة مجازا مرسلا مثل نطقت الحال وقول عنترة . وشكى إلَيَّ بعبرة وتحمحم يعني فرسه . وأخبارها متعلق بتحدث على نزع الخافض واصله باخبارها . وحذف مفعول الاول لعلمه من الكلام وهو الانسان اي تحدث الانسان اخبارها اي اخبار اختلال نظامها وفنائهـا وما سيحل بالناس الذين ظهـروا عليها من وقت خلـق الانسان من الجزاء فجَمْع الاخبار باعتبار عدد الناس الذين عَرفوا تلك الدلالة .

والباء في بان ربك اوحى لها للسببية متعلقة بتحدث او بما يتضمنه اخبـارها من الافعـال الكثيرة من زلزال وخسف ونحو ذلك اي ذلك كلـه بسبب ان الله

اوحى لها اي أمَرَها بان تَزَلزل وبان تُخرج اثقالها . والوحي هنا مستعمل في امر التكوين مجازا مرسلا فيعلم الناس من دلالة تلك الاحوال الخارقة للعادة ان الله اراد بذلك امرا عظيما وهو فناء العالم .

(يَومَئذٍ يَصْدُرُ الناسُ أشتَاتاً لِيُرَوْا أعمالَهم فَمَنْ يَعْمَل مثقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه ومَنْ يَعْمَل مِثقالَ ذرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

يومئذ الثاني بدل ثان من اذا فلذلك جعل له جواب ثان وهو يَصْدر الناس .

والصدور الخروج . والاشتات جمع شتٍ بفتح الشين وهو المتفرق عن غيره . والمراد انهم متفرقون جماعات لاختلاف مراتبهم ودرجاتهم التي يؤولون اليها فيكون بَدْءُ حالهم مؤذنا بمآلهم كما انبا عن ذلك قوله لِيُرَوا اعمالهم اي ليريهم الله اعمالهم اي جزاء اعمالهم .

والرؤية مستعملة في ادراك الشيء الحاضر الذي ترى ءاثاره . ثم فرع عليه قوله فمن يعمل مثقال ذرة الخ انتقالا للترغيب والترهيب الذي هو المقصود من الموعظة بالبعث ولذلك جيء فيه بصيغة الشرط الدال على الوعد والوعيد . والمثقال ما يوزن به . والذرة بيضة النملة اي من يعمل عملا اقل عمل من خير او شر يره اي يلقه ويجاز عليه .

اسلوب هذه السورة

ابتدئت باسم الظرف والشرط للتشويق الى الجواب الموقت . واطيل الشرط لزيادة التشويق . واعيد لفظ الارض واعيد الظرف بلفظ يومئذ للافضاء الى ان الموقت يوم وهو يوم البعث والجزاء على الاعمال . وفرع على ذلك الترغيب في الخير قليله وكثيره والتحذير من الشر قليله وكثيره . ولما اجمل الموقت بقوله ليروا اعمالهم ثم فصل بقوله فمن يعمل مثقال ذرة الخ علم بان المقصود قد تم وذلك من براعة المقطع .

سورة العاديات

قال الجمهور هي مكية وهو قول علي وجماعة وقال انس بن مالك وقتادة مدنية . والغرض منها تسجيل كفران المشركين بنعمة الله عليهم مع حبهم الازدياد منها وتهديدهم بيوم البعث تهديدا مبهما لتهويل ما فيه .

(والعَادِيَات ضَبْحاً فالمُورياتِ قَدَحاً فالمُغيرات صُبْحاً فَأثَرْنَ به نَقْعاً فَوَسَطْنَ به جَمْعاً إنَّ الانْسانَ لرَبِّه لكنودٌ وإنَّه على ذلك لشَهيدٌ وإنَّه لِحُبِّ الخَيْرِ لشَديدٌ)

العاديات وصف مشتق من العَدْو وهو سرعة المشي فهي صفة لموصوف محذوف يعلم من المقام وتقديره الابل والخيل العاديات والعدو يوصف به الخيل والابل من المراكب لا غير وجاء وصف العاديات بصيغة جمع المؤنث لان ذلك استعمال العرب لانهم يعاملون غير العاقل معاملة المؤنث .

والضبح اضطراب الصوت في الحَنْجَرَة دون بروزه الى الفم مثل صوت التنفس المعتلي ومنه ضبح السباع والضبح للخيل والابل صوت تنفسها يعرض لها عند شدة العدو وعن ابن عباس انه حكاه فقال أح أح . وهو مصدر وقع حالا فهو مؤول باسم الفاعل والتقدير والعاديات ضابحة اي حين عدوها فصار تصويرا لعدوها الشديد لانها لا تضبح الا عند شدة العدو .

والفاء عاطفة لصفات الموصوف الواحد للدلالة على حصولها للموصوف متعاقبة متتالية كقول عمرو بن زبابة :

يا لَهْفَ زَيَّابَةَ لِلْحارِثِ الـــصَّابِحِ فالْغَانِمِ فالآيِبِ

والموريات جمع المورية التي توري النار اي تقدحها وذلك عند شدة الاصطدام بالحجارة من قوة العدو وقدحا مصدر مؤكد لعامله وهو الموريات والقدح عند العدو كثير الحصول عند عدو الخيل والابل .

والمغيرات اسم فاعل من اغار فيقال اغار بمعنى هجم على ديار القوم للقتل والنهب ويقال اغار بمعنى دخل في الغور وهو المنخفض من الارض والاطلاقان

محتملان هنا كما سيجيء . وصبحا منصوب على الظرفية اي في وقت الصباح .والصباح هو انتشار الضياء وهو بعد وقت الفجر . وأثرن جعلن النقع ثائـرا اي هائجا اي متحركا حركة اضطراب غير هدوء . والثوران الارتفاع . وعطف فاثرن وهو فعل على العاديات وما بعده وهي من الاسماء لانهـا اسماء اوصاف فيهـامعنى الافعال والتقدير التي عدت الخ فاثـرن وانما اختير صيغة الفاعل في الاوصـاف الثلاث الاول واختير الفعل في الاخيرين لان العدو والايراء والاغارة من الصفات الذاتية لها بخلاف اثارة النقع وتوسط الجمع فانه من عـوارض خاصة في اوقـات خاصة فعبر عنه بالفعل الدال على تجدد الحصول والباء في به للظرفية اي في الصبح . والنَّقْع الغبار . ووسطن بمعنى حللن وسط الشيء . والجَمْعَ يُطْلَق على الجماعة ويطلق اسما على مَكانِ الجَمْع وقد سميت مزدلفـة جمعـا لاجتماع النـاس بها ليلة النحر .

ثم ان كانت السورة مكية كان المتبادر ان المقسم به هي الرواحل التي يركبها الحجيج في ايام الحج وهو تفسير ماثور عن علي ابن ابي طالب والسندي ومحمد بن كعب القرظي فيكون المعنى القسم برواحل الحجيج حين صدورهم من عرفة الى مزدلفة ليلة النحر وذلك انها تخرج من عرفات عادية لقصد الوصول الى مزدلفة في اول الليل لياخذوا منازلهم ويطهوا عشاءهم وكانـوا يخرجون بسرعة وجلبة ضاربين الرواحل بالسياط لقصد السرعة كما ورد وصف ذلك في حديـث النهي عن تلك الجَلَبَة في الصحيـح ، والقسم بابـل الحجيـج وشـدة سيرها معـروف في كلام العرب قال الشاعر :

حَلَفْتُ بِربِّ الرَّاقصَاتِ الى مِنَى   يَغُول الفِيَافي رَقْصُها وذميلها

فالقسم بها على هذا الوجه من حيث انهـا من المخلوقات الدالـة على عظيم صنع الله تعالى كما قال تعالى « والانعام خلقها لكم فيها دفء ـ الى ان قال ـ وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بِشِقِّ الانفُس » وتخصيص الابل التي يركبها الحجيج لانها وسيلة العبادة عظيمة حنيفية مقدسة في الجاهلية والاسلام .

فوصفها بالعاديات والضبح ظاهر ووصفها بالموريات لان الابل اذا ارتطمت

مناسمها بالحصى تطاير منه نار الحباحب . وقد كثر وصف الـرواحل الشديـدة المشي بانها تكسر الحجر الذي تمشي عليه قال عنترة :

وكأنّما تَطِسُ الاكامَ عَشِيَّةً   بقريبِ بَيْنَ المَنْسِمَيْن مُصَلَّمِ

اي تكسر الاكام اي حجر الاكام لشدة وطئها .

والمغيرات التـي تغير صباح يـوم النحر من مزدلفـة الى منى عنـد شروق الشمس من وراء جبل ثبير وكانوا يقولـون عند انتظار الشروق يومئذ « أشْرِقْ ثَبِيرْ . كَيْما نُغِيرْ » ومعنى الاغارة في هذا الدفع الشديد او الـدخول في الغور لان منى واد منخفض وعرفة مرتفع عليها .

والجمع جماعة الناس حين السير اي يسـرن وسط جماعـات الناس رجـالا وركبانا . ومناسبة القسم بها للمقسم عليـه وهو كنود المشركين وبخلهم انهـم يقيمون مناسك الحج قاصدين به ارضاء الله كما قـال النابغة . عليهـن شعث عامدون لربهم . وهم ناسون انهم يشركون معه في العبادة آلهة لا نعمة لهـا عليهم ، وهم ياتون افعال الحج غير معتبرين بما فيها من تذكير بالتجـرد وما يَلْـقَون من قلـة الازواد والماء بحال احتياج الفقير الى القوت واللباس .

وفي اختيار هذه الصفات المشتركة بين الابل والخيل ايهام بالارهاب والتهديد ليتوقع المشركون يوما تغير عليهم خيل المسلمين فيه وفيه بشارة للمسلمين يـوم الفتـح .

وقيل اريد بجمع مزدلفة لانهم يسمونهـا جمعـا ولكن هذا لا يظهر لان حلول الابل بمزدلفة لا يكون بعد في الصباح .

وان كانت الصورة مدنية كان المتبادران المُقسم به خيل الجهاد وبذلك فسرها جمهور المفسرين فالمراد بالمغيرات التي تَشُن الغارة على العدو وتقييده بالصبح لانه وقت الغارة اذ كانت عادتهم ان لا يغيروا بالليل وانما يغيرون اذا اصبح الصبـاح ولذلك كانوا اذا أغير على دار قـوم خرج الصريح منهم مستنجدا ونـادى بأعلى صوته « ياصَبَاحاه » توجعا وندبة ولذلك جعل عمرو ابن كلثوم الغـارة قبـل الصباح من تعجيل العقاب في قوله :

قَرَيْنَاكم فعجّلْنَا قِرَاكم   قُبَيْلَ الصُّبْحِ مِرْدَاةً طَحُونَا

والجمع على هذا هو جماعة القوم المغار عليهم وفي هذا القسم تهديد للمشركين وتهويل عليهم . على ان كلا التفسيرين صحيح المحمل على طريقة التورية فاذا كانت السورة مدنية فالاحتمالان واقعان واذا كانت مكية فاحتمال خيل الجهاد من قبيل الانذار بما سيكون وبالا على المشركين .

وجملة ان الانسان لربه لكنود جواب القسم. والتعريف في الانسان تعريف الجنس المفيد للاستغراق وهو استغراق عرفي كالذي في قوله ان الانسان ليطغى فالمراد كثير من الناس وهو المشركون ومنه قوله تعالى « ويقول الانسانُ أأيذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا » فانه قول المشركين . والكنود الذي يكفر النعمة يقال كَنَد ضد شكر . واللام في لربه للتقوية لان العامل غير فعل ولضعفه بتاخيره عن معموله . وانما قدم المعمول للاهتمام به لقصد التعجيب من هذا الكنود اذ كان كنودا لنعمة من خلقه واحسن تدبيره وهذا مسوق مساق الذم لهذا الكنود والمراد بذلك كفر المشركين اذ جعلوا لله شركاء وهو خلقهم دون شركائهم .

وضمير وانه على ذلك لشهيد عائد الى الانسان أي وان الانسان لشهيد على كنوده اي شاهد على نفسه بذلك معترف لا يستطيع انكاره فهي شهادة حال لانهم وان لم يعترفوا بذلك بالصريح فلا ملجا لهم من الاعتراف به لانهم اتخذوا لله اندادا ثم يقولون ان الله هو الذي خلق السماوات والارض ويقولون في الشركاء « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » والمراد التسجيل عليهم وقطع معذرتهم بالجهالة .

وانه اي الانسان لِحُبِّ الخير لشديد واللام في لحب الخير للتعليل اي لاجل حب الخير. والخير المال ويطلق على كل ما فيه نفع.والشديد البخيل أيوإنهلبخيل بماله لاجل حب المال وهذا ذم ايضا لان البخل مشهور قبحه . وكان اهل الجاهلية يبخلون بمالهم في مواساة الفقراء غالبا ويسرفون في اللذات والانفاق في مظان السمعة والرياء وقد وصفهم القرءان بذلك غير مرة كما قال تعالى « ولا تحضون على طعام المسكين وتاكلون التراث اكلا لما وتحبون المال حبا جما » .

(أفَلَا يَعْلَمُ اذا بُعْثِرَ مَا في القُبُور وحُصِّل ما في الصُّدور إنَّ ربهم بهم يومئذٍ لَخَبِيرٌ)

استفهام انكاري تعجبي تفرع على الصفـات المذمومة المذكورة ءانفا فالفـاء عاطفة الجملة للتفريع والمقصود انكار عدم علمه ذلك والتعجيب من عدم علمه بعاقبة سوء فعله .

واذا ظرف لما يستقبل وهو متعلق بيعلم وهو ظرف مجرد عن معنى الشرط هنا فلا تحتاج الى جواب ومفعول ايعلم محذوفان ولم يُقم عليها دليل وهذا الحذف يسمى عند النحاة الحذف الاقتصاري وفايدته ان لا يقدر المتكلم شيئا معينـا لتذهب نفس السامع كل مذهب ممكن لقصد التهويل .

وبعثر اثير وقلب حاله وقد تقدم عند قوله واذا القبور بعثرت .

وما في القبور الاجساد وهذا اشارة الى البعث المهتم به في السور المكية .

وحصل معناه محص وميز وذلك بالحساب على الاعمال والسرائر حتى يتميز الخبيث من الطيب وهذا اشارة الى الحساب .

وجملة ان ربهم مستانفة والمقصود منها التهديد والوعيد لانه اذا كان عليما بهم وكانت افعالهم مذمومة كما اشار اليه الكلام السابـق علمـوا انه يجازيهم عنها بما يناسبها في ذلك اليوم .

اسلوب هذه السورة

افتتحت بالقسم بمخلوقات عظيمة الدلالة على بديع صنع الله ونعمته وانتقامـه اهتماما بالمقسم عليه بما فيه تذكير بنعمة الحج او ببطشة الغـزو لمقاصد التذكيـر كما تقدم . ثم انتقـل الى المقسم عليـه وهو كفر المشركين نعمـة ربهم عن غـرور وبخلهم بما اتاهم . ثم انتقل الى اثبات البعث وتهويـل ما يحصل عنده بالابهـام الحاصل من حذف مفعولي يعلم وبالكلام الجامع لاثبات عموم علم الله تعالى والتعريض بالوعيد لهم وفيه ايذان بانتهاء الكلام .

سورة القارعة

هي مكية . اشتملت هذه السورة على ذكر انتهاء العالم وقيام القيامة وعلى ما يقع عند ذلك من المزعجات ثم على ان ذلك يعقبه الجزاء على الاعمال وذلك تهديد للمشركين وتبشير للمؤمنين .

(القَارِعَةُ ما القارعة وما أدْراكَ ما القارعة يومَ يكون النّاس كالفَراشِ المبثوث وتكونُ الجبالُ كالعِهْنِ المَنْفُوشِ)

القارعة صفة مشتقة من القَرْع وحقيقة القرع ضرب جسم بجسم آخر ويستعمل مجازا في المباغتة والمفاجأة بما يزعج كقول الحريري في المقامة الاولى « ويقرع الاسماع بزواجر وعظه » وهذا هو المراد هنا . واجري الوصف بالتانيث للاشارة الى ان موصوفه في معنى الحادثة والكائنة ونحو ذلك واريد بالقارعة القيامة . وفي الابتداء بهذا الوصف ادخال روع في ضمير السامعين وتربية المهابة في قلوبهم . وما في قوله ما القارعة للاستفهام المستعمل في التهويل على طريقة المجاز المرسل من حيث ان هول الامر يستلزم عسر فهم كنهه فيسال عن حقيقته ومن اجل ذلك وقع الاستفهام بما الغالبة في الاستفهام عن الذات والجملة من اسم الاستفهام وخبره هي خبر القارعة . فالمعنى القارعة شيء عظيم لا يدرك كنهه . واظهار لفظ القارعة في موضع الاضمار زيادة في التهويل لما في هذا اللفظ من معنى القرع كما علمت .

وجملة وما ادراك ما القارعة معطوفة على جملة ما القارعة فهي عطف على الخبر . وما استفهام مستعمل في التهويل والمعنى اي شيء أنبَأك ايها السامع والمراد كل سامع زيادة في الابلاغ وذلك من التهويل كما يقال اسمعوا وعوا . والخطاب في ادراك لغير معين ليعم كل مخاطب . وقد تقدم وجه تركيب ما أدراك ما كذا في سورة الانفطار . والاظهار في قوله ما القارعة دون ان يقال ما هي كما في آخر السورة لزيادة التهويل .

وقوله يوم يكون الناس ظرف معمول للقارعة لما يتضمنه من معنى الفعل اي

تَفَرَّع- الناس يوم يكونون كالفراش وهذا ابرز في صورة التوقيت الا انه لما كان الموقت به غير معلوم مقدار ما بقي لحصوله كان هذا التوقيت زيادة في ابهام وقت القارعة لزيادة التهويل وانما ذكر ما يحصل في ذلك اليوم من الزواجر والمزعجات وهو كون الجبال كالعهن المنفوش زيادة في التهويل بتلك الحالة العجيبة وتقدم تظير هذا التوقيت في قوله اذا زلزلت الارض . وفي التوقيت ههنا زيادة ابهام بعد الاطماع في معرفة الوقت فهو بمنزلة تاكيد الشيء بما يشبه ضده فحصل التهويل بثمانية طرق وهي (١) الابتداء باسم القارعة المؤذن بالهول (٢) والاستفهام المراد به التهويل (٣) والاظهار في مقام الاضمار اول مرة (٤) والاستفهام عما ينبي بكنه القارعة (٥) وتوجيه الخطاب لغير معين (٦) والاظهار في مقام الاضمار ثاني مرة (٧) والتوقيت بالمجهول (٨) وتعريف ذلك التوقيت بصورة عظيمة .

والفراش بفتح الفاء صغار الجراد حين تخرج من الارض يركب بعضها بعضا لكثرتها . والمبثوث المتفرق في الارض قال تعالى وزرابي مبثوثة . والتشبيه بالفراش في التحرك بعد السكون في الكثرة والازدحام .

والعِهن الصوف وقيل يختص بالمصبوغ منه الوانا لان الجبال مختلفة الالوان والمنفوش المفكوك بعضه عن بعض لاجل ان يحشى به او يُغْزل . ووجه الشبه التفرق . واعيد لفظ تكون مع الجبال لزيادة الافصاح عن اختلاف الكونين وتظير ذلك كثير في الاستعمال الفصيح .

(فأمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوازينه فهو في عِيشةٍ راضية وامَّا من خفَّتْ موازينه فأمُّه هاوِيةٌ وما ادراك ما هِيَهْ نارٌ حامية)

الفاء لتفريع الاخبار بما يحصل في يوم القارعة على الاخبار بوقوع القارعة وهذا المفرع هو الغرض من ذكر القارعة وتهويلها والترهيب منها وهو بهذا الاعتبار صار في قوة الخبر عن القارعة من ثقلت موازينه فيها فهو كذا ومن خفت موازينه فهو كذا ولما حال هذا المخبر منه منقسما الى قسمين صدر الخبر باداة التفصيل وهي اما للانباء بان الناس يومئذ قسمان اهل نعيم واهل عذاب . ومن صادقة على الفريق اي فاما الفريق الذي ثقلت موازينه واما الفريق الذي خفت موازينه. والموازين من جمع ميزان وانما جاء جمعا مع انه اضيف الى ضمير مفرد

لان الضمير روعي فيه لفظ من وكونها صادقة على الفريق. وهذا ظاهر في ان موازين الاعمال موازين كثيرة ولكل احد ميزان لاعماله قال تعالى ونضع الموازين القسط ليوم القيامة وثقل الميزان تذليه لثقل ما وضع فيه فوصفه بالثقل مجاز عقلي . وقد جعل ثقل الموازين مثلا لرفع الشان وخفة الموازين مثلا لانحطاط المقدار والمراد بذلك الايمان والكفر على طريقة العرب في قولهم هو ارجح الناس وقولهم يكتال بالمكيال الاوفى . وميزانه راجح ، قال النابغة « وميزانه في سورة الحق ماتع » ويقال في عكسه لا يقام له وزن قال الله تعالى فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ، ويقال لا يزن مثقال ذرة اي من خير ويعلم من ذلك ان المراد الرجحان في الخيرات والفضائل فهذا ما يتبادر للعرب من سماع هذا الكلام ولذلك لم يحتج الى التصريح في الآية بذكر ما تقل به الميزان . ثم الآية محتملة لان تفيد مع ذلك اثبات معادلة بين الاعمال الصالحة فتفيد ان الاعمال تنفع بمعانيها والاخلاص فيها لا بظواهرها فهي كالاشياء الموزونة وتفيذ بعد ذلك ان من كانت اعماله راجحة سعد ومن كانت اعماله لارجحان لها شقي . وتفيد ان الله يظهر يوم القيامة اشياء تكون دالة على رجاحة الاعمال وذلك من المغيبات عنا ولم يذكر وزن الاعمال في القرآن الا مجملا كهذا او اقرب الى البيان من هذا ولم يرد له وصف في السنة فيما جزم به ابن العربي في كتاب العواصم ومن المفسرين الاقدمين من قالوا ان للحساب ميزانا واحدا .

والعِيشة اسم مصدر العَيش كالخيفة بمعنى الخَوْف اي في حياة راضية . والظرفية مجاز في التلبس المستمر . ووصف العيشة بانها راضية مجاز عقلي اي راض عائشها اي ليس فيها ما ينكده

وقوله فأمه هاوية خبر مستعمل كناية عن المصيبة اللاحقة به لسوء مصيره لان العرب يكنون عما يحل بالمرء من المصائب بشيء مما يحل بامه عند اصابة ابنها فقولهم ثَكلتْه أمُّه وقولهم لا مِّه الويل ، وهبَلَتْه أمه . وهم يريدون سوء حاله المفضي الى سوء حال اهله . وهاوية بمعنى هالكة كقوله تعالى ومن يحلل عليه غضبي فقد هَوَى . فالمعنى واما من خفت موازينه فهو في اسوا الحالات . وقيل الام مستعار للمصير لان المرء يأوي اليه كما ياوي الى امه . وهاوية بمعنى مكان يهوي فيه اي يسقط واطلاق الهاوية على الماوى مجاز عقلي وانما الهاوي الحال فيه .

وجملة وما أدراك خبر ثان عن «مَن خَفّت موازينه» . وهِيهْ ضمير المؤنثة الغائبة لَحِقَتْه هاء السكت للوقف لاجل الفاصلة وهو عائد الى الحالة السوأى والمصيبة المكنى عنها بجملة «فامه هاوية» على التفسير الاول اي وما ادراك ما تلك المصيبة اي بلغت في كنه المصائب مبلغا لا يتصور بسهولة . وقيل عائد الى هاوية على التفسير الثاني اي وما ادراك ما هي تلك الهاوية .

وقوله نار حامية خبر مبتدا محذوف تقديره هي اي المصيبة على اول التفسيرين او الهاوية على التفسير الثاني .

وحذف المسند اليه في هذا مما اتبع فيه استعمالهم فقد كَثُر ان يحذفوه اذا وقع بعد حديث او استفهام او نحوهما .

وحامية شديدة الحرارة يقال حميت النار اذا اشتد حرها .

اسلوب هذه السورة

افتتحت بما فيه تهويل وابهام . ثم عقب ذلك بما يدل على عظم امر القارعة ثم اتي لها بصورة التوقيت بشي غير معلوم الوقت زيادة في الابهام والتهويل . وقد ادمج في ذلك ذكر حشر الناس للحساب وتفكك اجزاء العالم الارضي . وانتقل من ذلك الى البشارة والنذارة . وختم بما يناسب غرض السورة وهو التهويل بقوله « نار حامية » فكان من براعة الختم في هذا الغرض .

سورة التكاثر

هي مكية عند الجمهور وهو الظاهر . وقال بعض المفسرين هي مدنية استنادا لخبر عن ابي بن كعب يقضي ظاهره انها نزلت وهو في الاسلام ولكنه خبر ذكره البخاري تعليقا في باب ما يتقي من فتنة الحال وهو محل نظر ، اشتملت هذه السورة على توبيخ سادة المشركين على اقبالهم المحض على المال والتكاثر به والصلف على الضعفاء واعراضهم عن توحيد الله الذي انعم عليهم بنعمة المال والترف ، وهددهم بما اعد لهم من العذاب بعد الموت ،

(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ)

الخطاب لسادة المشركين وعظمائهم واهل الثراء منهم لانهم الذين تصدو لدعوة النبي عليه الصلاة والسلام بالمعارضة والعناد واغراء العامة فإلْهَاءُ التكاثر المشركين عن التوحيد والايمان بالبعث حصل من قبل نزول هذه الآية وفي وقت نزولها حيث لم يُلْقُوا اذ هانهم الى الدعوة المحمدية ولذلك جاء بصيغة الماضي قوله الهاكم ، والالهاء الصرف عن الاشتغال بالشيء لاشغاله بغيره الذي هو اوقع عنده ، والتكاثر مصدر كاثر المستعمل في المبالغة من اكثر اي شدة التكثر والمراد التكثر من الاموال ، واستعيرت للكون في القبرا لزيارة الموضوعة للحلول في المكان مدة قصيرة ثم مغادرته، على طريقة التهكم لان حالهم في الاعراض عما ينجيهم في الآخرة كحال من يحسب انه انما يزور القبر ثم يرجع والمراد من هذه الاستعارة الكناية عن الموت. والتعبير بصيغة الماضي في زرتم اما لتنزيل المستقبل منزلة الماضي تنبيها على تحقيق وقوعه والمعنى حتى تزوروا المقابر،واما لانه قصد موت الذين ماتوا قبلهم من اسلافهم فاسند الى ضمير المخاطبين لان ما يثبت لاسلافهم محمول عليهم اذ هم على اثارهم مقتدون ونظائره في القرءان كثيرة قال « تعالى فاخذتكم الصاعقة وانتم تنظرون ثم بعثناكم بعد موتكم» ولم يكن ذلك حاصلا للمخاطبين ولكن

لاسلافهم والمعنى حتى زار ءاباؤكم المقابر. وكلا للزجر عن تلهيهم بالتكاثر كما تقدم في اول سورة النبا .

وقوله سوف تعلمون انذار ووعيد اي سيحل بكم في المستقبل ما تعلمون به انكم كنتم في ضلال . وحذف مفعول تعلمون لدلالة المقام عليه اي تعلمون ضلالكم وفساد امركم لانهم ما كانوا يحسبون ان ما هم فيه ضلال وذلك العلم حين يشاهدون العذاب بعد الموت .

والخطاب وان كان للمشركين الا ان المسلمين يعلمون ان التلبس بشيء من هذا الخلق مذموم شرعا فيحذرون من ان يلهيهم حب المال عن شيء من الخيرات ويتوقعون ان يفاجئهم الموت وهم في شيء من ذلك وقد قال تعالى في خطاب المسلمين «اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد» فذكر التكاثر ولم يذكر انه الهاهم .

(ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعلَمُونَ)

ارتقاء في الزجر والانذار والوعيد فاكدت جملة الوعيد باعادة لفظها مع قرنها بثم الدالة على التراخي المراد به بعد رتبه هذا الوعيد عن الوعيد السابق بانه زيادة تشديد في هذا الغرض فيدل على التحقيق في الوعيد والتحقيق للشيء تشديد في شأنه .

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ)

تاكيد للزجر ثم تعقيب له بالتهويل لمضمون الانذار والوعيد . فحرف لو للشرط وجوابه محذوف لافادة التهويل اي لو تعلمون الآن علم اليقين لعلمتم امرا فظيعا وحذف جواب لو لقصد التهويل استعمال شائع في القرءان وكلام البلغاء . وفرق بين تعلمون المذكور هنا وبين تعلمون في الموضعين السابقين لان هذا مراد به العلم في الحياة والآخرين مراد بهما العلم بعد الممات والقرينة ظاهرة .

(لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عن النعيم)

اللام لام جواب القسم وهي تؤذن بقسم محذوف فجملة لترون الجحيم

جواب قسم والجملة من القسم المحذوف وجوابه المذكور استئناف بياني لان الانذار بانهم سيعلمون ضلالهم يثير في النفوس التساؤل عن عاقبة هذا الضلال ولما كان خاطر السؤال ناشئا في نفوس المشركين المنكرين جيء في وعيدهم بصيغة القسم المؤكد بالنون لتحقيق الوعيد والرد للانكار لانهم كانوا ينكرون البعث والجزاء . والجحيم علم على جهنم كما تقدم في سورة النازعات . ولا تظنن ان جملة لَتَرَوُنَّ الجحيم جواب لو لعدم استقامة المعنى واللفظ .

وثم في قوله ثم لترونها للترقي مثل الذي في قوله ثم كلا سوف تعلمون للترقي في الوعيد لان في هذا الوعيد الثاني زيادة تحقيق بقوله عين اليقين وعين الشيء حقيقته التي لا مراء فيها ولا تاويل وهي التي يؤكد بها في قولهم جاء فلان عينه وفي قولهم الشيء الفلاني بعينه كقول الحريري في المقامة الحادية عشرة « فاذا هو ابو زيد بعينه ومينه » فقوله عين اليقين يقوم مقام اليقين عينه والمعنى لترونها رؤية يقين عينه فانتصاب عين على النيابة عن المفعول المطلق المحذوف لدلالة وصفه عليه .

وثم في « ثم لتسالن» مثلها في قوله ثم لترونها للترقي في التهديد والوعيد لان السؤال سؤال محاسبة على كفرهم بالمنعم اذ جعلوا آلهة شركاء لا نعمة لها عليهم . والنعيم ما يتلذذ به والمراد نعيم الدنيا الذي انعم الله به عليهم فلم يشكروه .

اسلوب هذه السورة

افتتحت بمجابهة قادة المشركين ورؤسائهم بان حب الدنيا والتكالب على جمع المال شغلهم عن ادلة التوحيد وصرفهم عن الاستماع للرسول دفاعا عن ما لهم ان يصادرهم فيه من يبقى من المشركين وعقب ذلك بالتنبيه على انه شان ذميم فزجروا عنه وهددوا واكد تهديدهم ثلاث مرات وجيء فيه بالتهويل الحاصل بحذف جواب لو تعلمون علم اليقين . وختمت بانهم مسئولون يوم القيامة عن نعيم الدنيا فحصل بذالك محسّن الطباق بين الجحيم والنعيم وبين الاخرة والدنيا وءاذن هذا الاستيعاب بانتهاء الكلام .

سورة العصر

هي مكية عند الاكثر وقال كثير هي مدنية اشتملت على ابطال ما عدا الاسلام من الاديان والتحريض على ترك مساوي الاعمال والترغيب في صالح الاعمال وخص بالذكر من صالح الاعمال التواصي بالحق والتواصي بالصبر وذلك جماع الخيرات كما سيأتي تفصيله .

(والعَصْرِ إنَّ الانسانَ لَفِي خُسْرٍ الاَّ الذين آمنوا وعَمِلوا الصَّالحات وتَواصَوْا بالحَقِ وتَواصَوْا بالصَّبْرِ)

العصر يطلق على الوقت المتوسط بين الزوال وبين الغروب ويطلق على اليوم ويطلق على الليلة ويطلق على مدة بقاء شخص او جيل كما يقال عصر النبوءة وعصر الصحابة والاطلاقات المذكورة محتملة في هذه الآية والظاهر ان المراد الاطلاق الاول، فالتعريف فيه للعهد وهو علم بالغلبة بالغيب اقسم به كما اقسم بالضحى والفجر والليل والشفق لما في تغيرها من الدلالة على عظيم قدرة الله تعالى . ومناسبة القسم به هنا انه وقت وسط بين النهار والليل فكان حاله مناسباً لحال تَهَيُّؤ الانسان للكمال والنقص بالايمان والكفر . وجملة ان الانسان لفي خسر هي جواب القسم .

والتعريف في الانسان تعريف الجنس المراد به الاستغراق بدليل الاستثناء والخسر انتقاص المال وضياعه وضياع ما ينتفع به وتنكيره للتعظيم بقرينة المقام المؤكد بالقسم والخسر مستعار هنا لانتفاء الانتفاع من الاعمال في الحياة كما تقدم في قوله تعالى قالوا تلك اذن كرة خاسرة في سورة النازعات .

فالناس يعملون ويَسْعَوْن جلبا لما فيه نفعهم في ظنهم : فمنهم من يعمل لحصول النفع في هذه الحياة وهو معرض عن الحياة الآخرة ومنهم من يعمل لذلك ويحسب انه يعمل لما ينفعه في الاخرة بالتمسك بدين باطل ، وكلا الفريقين في خسر لان الذي طلب نفع الحياة الآخرة من غير طريق الايمان والعمل الصالح قد طلب النفع فلم ينله ما ناله من النفع في الدنيا لم يعد عليه بحسن الخاتمة

ومنه ما كان سببا في ورطته من العزة والمكابرة للحق اجابة لهوى النفس فانتفع بذلك ارضاء لنفسه ، وكذلك ما ناله منها المُعرِض عن الآخرة بالكلية لا يعد نفعا في جانب ما اضاعه وما عادت عليه حياته به من واجبات الخيبة في الآخرة ، فكلا الفريقين في خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فالئك الذين لم يخسروا ؛ ومعنى انتفاء الخسران عنهم انهم قد ربحوا لظهور ان المقام دال على فريقين خاسر ورابح فالذين لم يخسروا هم الذين نالوا الفوز في الاخرة ولم يكن حصلوه من منافع الحياة الدنيا موجبا خيبتهم في الآخرة . وقد علم من نظم الكلام على اسلوب التعميم ثم التخصيص بالاستثناء ان المستثنى هو اعز جنس الانسان وان الاكثر هو اهل الخسر لان كلام العرب مبني على عدم استثناء الاكثر ، والتعريف بالموصول هنا للدلالة على ان الصلة هي السبب في انتفاء الخسر عن الموصول فيعلم ان الايمان جزء سبب وان العمل الصالح جزء آخر فلما قدم الايمان في الذكر علم السامع ان للايمان الحظ الاول في انتفاء الخسر فبدونه لا ينتفي الخسر ، وعلم من عطف العمل الصالح على الايمان ان للعمل الصالح اثرا في انتفاء الخسر وذلك بان يكون سببا في نفي خسر كثير وهو الخسر الحاصل من المؤاخذة على الذنوب .

والتواصي بالحق والتواصي بالصبر صريحه ان يكون الامر بهما شائعا في الامة واريد به مع ذلك الكناية عن اقامة الحق والتخلق بالصبر لما يدل عليه الكلام عرفا من ان احدا لا يوصي غيره بملازمة شيء الا وهو يراه جديرا بالملازمة فما اوصى به الا وقد سبق الى ملازمته والاهتمام به ، فصار المعنى وعملوا بالحق وتخلقوا بالصبر واوصى بعضهم بعضا بذلك اي فهم يعملون بالحق ويامرون به ويصبرون ويوصون بالصبر وهذا كقوله ولا تَحُضُّون على طعام المسكين وقد تقدم بيانه .

وتخصيص هذين العملين بعد ذكر الاعمال الصالحات اهتمام بهما لانهما اصلان للفضائل والاعمال الصالحات اذ الحق اسم جامع لما حَقّ اي تعيَّن ووجب والشيء الذي يحق هو الذي يتعين العمل به بين الناس من كل حقيقة ثابتة وشريعة قائمة .

والصبر حمل النفس على اقتحام ما تكرهه النفوس مما فيه مشقة عليها

سواء كان عائدا عليها بالنفع دون الضر في العاجل او الآجل كشرب الدواء المُر والصوم ، ام كان عائدا بشيء من الضر كالصبر على المكاره لدفع ما هو اكره.

فاما الحق فهو جامع لسائر الواجبات على المرء لربه وللناس على حسب ما جاءت به الشريعة واصول الاخلاق الفاضلة ، وضد الحق هو الباطل فتعرُّف الحق لتميزه من الباطل شرط للتواصي به واتّباعه .

واما الصبر فهو مرجع للفضائل التي بها كمال المرء في سيرته وتخلقه بالامتثال للواجبات الدينية لانها ثقيلة على النفس اذ النفس تميل للانطلاق والاسترسال فيما تشتهي وبعض الصبر وان لم يرجع الى تحمل كمالات بل يرجع الى احتمال الاذى الذى لا محيد عنه هو ايضا يرجع الى فضيلة ورباطة الجاش التي تمكن صاحبها من الثبات والتفكير في وسائل الخلاص من المصائب وفي الحديث «حُفّت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات» .

فالتخلق بالصبر واجب اذ هو شرط للتواصي به والتواصي به مستلزم للعمل به في عرف اهل الكمال وبالعمل بالصبر يتم العمل بالحق وحمل النفس عليه الى ان يصير لها ملكة .

اسلوب هذه السورة

شابه افتتاح هذه السورة فواتح امثالها المفتتحة بالقسم لقصد التاكيد والتنويه بالمقصد من السورة . واختير القسم بالعصر لما علمت آنفا . وكان اسلوب طالعها رهيبا اذ قضى على جميع الناس بالخسران ليتاتى استثناء الذين آمنوا فيفيد اختصاصهم بالربح. والاستثناء مؤذن في الغالب بقلة المستثنى بالنسبة الى المستثنى منه. ثم وصفهم بصفتين للدلالة عن انهما اكبر اسباب الربح . والتواصي بالحق والصبر من جوامع الكلم فختم السورة به من براعة المقطع .

سورة الهمزة

هي مكية . اشتملت على وعيد جماعة كانوا يلمزون المسلمين ويطعنون فيهم وكانوا من اهل الثراء هزهم الازدهاء والصلف والتفاخر بالمال . ثم انتقل من ذلك الى تهويل ما تُوعدوا به مصيرهم في النار .

(ويْلٌ لكلِّ هُمَزَةٍ لمَزَة الذي جَمَعَ مالاً وعَدّدَه)

الويل كلمة تقال في الانذار بسوء الحال اي عذاب وخزي ويراد منها الدعاء وقد تقدم في سورة المطففين وهي هنا تحتمل الدعاء والوعيد . والهُمَزة واللّمزة وصفان على صيغة فُعَلَة المفيد كون الفعل كثير الصدور من فاعله . وتانيثه للمبالغة مثل تاء علامة . فالهُمَزة من الهمز وهو الكسر . واللمزة مشتق من اللمز وهو الطعن وقد شاعت استعارة كل منهما لشتم اعراض الناس وغيبتهم والمقصود هنا تناول اعراض النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين بقرينة السياق فلذلك حذف متعلق همزة لمزة .

وقد كان فريق من المشركين رصدوا انفسهم لاغتياب المسلمين واختلاق الاخبار السيئة عليهم وقد عد من هؤلاء الوليد بن المغيرة ، وامية بن خلف ، وأُبَيّ بن خلف ، والعاصي بن وائل من عظماء قريش ، والاسود بن عبد يَغوثَ والاخْنَس بن شَريقٍ من ثقيف اهل الطائف وكلهم من زعماء المشركين .

ودلت كلمة كل على الشمول فاقتضت عددا من الناس ولذلك تعين ان يكون لفظ «الذي جمع مالا» مرادا به كل من ثبت له وصف الهمزة واللمزة وانما جاء بصيغة الافراد رعيا لافراد موصوفه في اللفظ وهو كل همزة لمزة فتعين ان هؤلاء كانوا من اغنياء المشركين المفتخرين بما جمعوا من الاموال فهم من الذين قال الله لهم الهاكم التكاثر .

والمال عند العرب هو الكسب الذي به الغنى فيعم كل ما يحصل به الغنى من اصناف المكاسب وقد غلب لفظ المال عند كل قوم من العرب على اغلب مكاسبهم فهو عند اهل البوادي غالب على الابل قال زهير :

فكلا اراهم اصبحوا يعقلونه   صَحِيحَاتِ مالِ طالعَاتٍ بمَخْرَمِ

يذكر ابل الدية ولذا قال صحيحات مال وقال طالعات بمخرم . وهو عند اهل القرى الذين دابهم التجر غالب على الدراهم قال النبي صلى الله عليه وسلم للعباس لما سر وهو طلب بان يفدي نفسه فاعتذر بالعجز عن ذلك أيْنَ المال الذي عند ام الفضل اي المال المخزون وفي حديث الموطا في صاحب المال الذي يمنع زكاته مُثل له ماله يوم القيامة شجاعا أقرع ياخذ بلِهْزِمَتِه يقول انا مالك أنا كنزك وعند اهل القرى اهل الحرث مثل اهل المدينة غالب على النخيل يقولون خرج الى مال له اي الى حائط نخيله قال ابو هريرة وان اخواننا الانصار شغلهم العمل في أموالهم . ولعل المراد هنا الدراهم والدنانير لان اهل مكة و اهل الطائف كانوا اهل تجر وكان اهل الطائف اهل نخيل واعناب وكان للفريقين مكاسب من الابل .

وعَدَّدهُ مبالغة في عَدّ اي اكثر من عده لشدة ولعه بالاكثار منه كقوله الهاكم التكاثر او المراد اكثر من اعداده اي اجناسه فهو كقوله والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث .

(يَحْسبُ أنَّ مَالَه أخلَدَه)

هذه الجملة في موضع الحال من الذي فتكون جملة الحال مستعملة في التشبيه فيكون المعنى كالذي يحسب ان ماله اخلده لانهم لم يكونوا يحسبون ذلك حقيقة وكيف وشاعرهم يقول :

أرى قَبْرَ نَحَّامٍ بخيلٍ بماله   كقَبْرِ غَوِيّ في الضَّلالةِ مُفْسِدِ

ولكن اهل الثراء منهم لم يكن لهم حظ من الدنيا الا لذاتها فهم يرغبون في طول الحياة للازدياد من اللذات فهم يكرهون الموت ولذلك قال تعالى وذرني والمكذبين اولي النعمة . وقد كثر في كلامهم ما يقتضي التلهف على عدم الخلود قال طرفة :

ولوْلا ثلاثٌ هُنَّ من عِيشة الفتى   وجَدِّك لم احْفِلْ مَتَى قَامَ عُوَّدِي

وايضا فان اهل الثراء منهم يطغيهم المال مع قساوة الكفر فلا يتذكرون

الموت فحالهم كحال الذي يحسب ان ماله اخلده وهذا المعنى هو نكتة التعبير بالماضي في قوله اخلده كانه قد فاز بالخلود وقدر له الخلود ومقتضى الظاهر ان يقال يخلده فلذلك تكون الآية تمثيلا لحال الذي جمع مالا وعدده في افراط حرصه على جمعه بحال من يعتقد ان المال يدفع عنه الموت ويوجب له الخلود الذي هو اقصى متمناه.

(كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ وما ادراك ما الحُطَمَةُ نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ التي تَطَّلِعُ عَلَى الأفئدَةِ)

كلا زجر وابطال لمضمون جملة يحسب ان ماله اخلده لاظهار أفن رايهم من شدة في الحرص على جمع المال مع قلة جدوى ذلك عليهم . ولما كان داعي الحرص على جمع المال هو الاكثار من اللذات كما في قوله طرفة المتقدم وكان ذلك ناشئا عن اعتقاد عدم البعث فلم يكونوا يتفكرون في مالهم بعد الموت عُقّب الزجر بانذارهم ووعيدهم بتاكيد انهم صائرون الى عذاب النار لاعراضهم عن النظر في دعوة الاسلام كما دل عليه قوله همزة لمزة .

وجملة لينبذن ابتدائية لان القسم يكون في ابتداء الكلام واكد الكلام بالنون لقوة انكار المخاطبين بذلك.

والحطمة علم وضعه القرآن لجهنم لانها تحطم اي تهلك الاشياء، وصيغ هذا الاسم على صيغة فعلة للدلالة على الكثرة ولينا سب وصف المهدد بها وهو همزة . والنبذ الالقاء باحتقار وكراهية . وجملة وما ادراك ما الحطمة حالية وتسمى اعتراضية لانها حال معترضة في الكلام وقد تقدم نظيرها عند قوله وما ادراك ما يوم الدين في سورة الانفطار والمقصود من الجملة تهويل امر الحطمة للسامع . ولما كان اسم الحطمة علما جديدا على جهنم احتيج الى تفسير مسماه بجملة نار الله الموقدة فالجملة استئناف بياني جواب لسؤال مقدر اي الحطمة نار الله الموقدة . وحذف المسند اليه من الجملة جري على طريق الاستعمال . واضافة نار الى اسم الجلالة للدلالة على عظمتها . والموقدة وصف مؤكد لمعنى نار الله لان النار لا تكون الا موقدة.

والاطلاع مبالغة في الطلوع كقوله قال « هل انتم مُطَّلِعون فاطَّلَعَ فرآه في

سواء الجحيم » والمراد بالمبالغة سرعة طلوعها الى افئدة المعذبين بها شان نار الدنيا ان تحرق الجسد ثم تنتهي الى العظام ثم الى الفؤاد واما نار جهنم فهي تلتهم الباطن والظاهر دفعة واحدة . والافئدة جمع فؤاد وهو في كلام العرب يطلق على ما به العلم والتفكر . وتخصيصه بالذكر للتنبيه على سبب العقوبة لان سبب وقوعهم في العذاب هو اعتقادهم الباطل بانكار الرسالة وانكار البعث فكان العضو الذي هو محل الاعتقاد هو الاول في تعلق العذاب عدلا من الله تعالى .

(إِنَّها عَلَيْهِمْ مُوصَدَةٌ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ)

الجملة مستانفة استئنافا ابتدائيا . وتقديم الجار والمجرور على موصدة لتعجيل المساءة لهم اذا سمعوا ذلك ولاجل الرعاية على الفاصلة . والوصد الغلق والمعنى انهم لا يجدون فيها منفسا للانتشاق . وقرا الكوفيون عدا حفص مؤصدة بهمز الواو وهي لغة للعرب وتقدم عند قوله تعالى عليهم نار موصدة في سورة لا اقسم بهذا البلد وقوله في عمد ممددة حال يجوز ان يكون من ضمير عليهم اي هم في عمد ممددة اي موثقون في العمد مثل ما يوثق الاسرى ويجوز ان تكون حالا من ضمير انها اي النار في عمد اي وسط عمد كنار الشواء إذ يجعل الشواء على عمد اوحجارة وتجعل النار تحت ذلك . والعمد جمع عمود بفتح العين وهو الخشبة الغليظة الطويلة التي يعمّد بمثلها البيت ونحوه . والممددة الطويلة .

اسلوب السورة

افتتحت بلفظ الويل تشئيما لهم وكانوا يتشاءمون فاريد تكيدهم بادخال الروع والشؤم في نفوسهم . ذكرت اوصاف تجر الويل اذا تاملوا حالهم وجدوها لاصقة بهم . فانتقل الى الذم بجمع المال وتكثيره لينتقل من ذلك الى تشنيع حالهم بانه كحال من يحب ان ماله يعطيه الخلود . وانتقل من ذلك الى سوء مصيره بطريقة الاجمال والتفصيل . وختمت السورة بجملة انها عليهم موصدة في عمد ممددة تذييلا لما قبلها من معنى لينبذن في الحطمة وايذانا بانتهاء المقصود من السورة وفي موصلة ايذان بالانتهاء لان الوصد ختم .

سورة الفيل

هي مكية. وقد اشتملت هذه السورة على امتنان الله تعالى على قريش بان انجاهم من مخالب استيلاء الاحباش عليهم وكيف انقذ الكعبة وفي انقاذها عزة لهم ونفع وان ذلك عناية منه بهم ليقدروا قدرها فيوحدوه ويؤمنوا برسالة محمد الذي ابرزه الله لهم عقب ذلك النصر . وفي ذلك النصر عبرة عظيمة بعظيم قدرة الله تعالى وشديد انتقامه . وانذار لهم بان الذي قصم قوة اصحاب الفيل لا يعجزه كسر المشركين امثالهم كما قال تعالى وللكافرين امثالها .

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

افتتاح الكلام بالاستفهام عن الرؤية تشويق للخبر المقصود . وهو استفهام تقريري بتنزيل العالم بحصول الشيء عن تواتر منزلة من رآه ببصره لان الموجودين يوم نزول هذه السورة ليس احد منهم ممن راى كيف اهلك الله اصحاب الفيل او كان منهم نفر قليل ولكن بلغ الجميع من خبره ما يقوم مقام الرؤية .

والخطاب للنبي والمراد التعريض بخطاب قريش امتنانا عليهم وفي الخطاب ايضا تاييد للنبي بان الله ينصر دينه وشعائره ويجوز ان يكون الخطاب لغير معيَّن فيعم كل من يتاتى توجيه الخطاب اليه ممن بلغه امر الفيل وراوا ءاثار ذلك وقالت عائشة ادركت قائدَ الفيل وسائسَه بمكة أَعْمَيَيْنِ مُقْعَدَيْنِ يستطعمان الناسَ .

والرؤية فيه بصرية تنزيلية . وكيف منصوبة على المفعولية مجردةً عن الاستفهام كما تقدم بيانه في قوله الم تر كيف فعل ربك بعاد في سورة الفجر . وتقدم هنالك وجه تعريف المسند اليه بالاضافة في قوله فعل ربُّك . وفيه اشارة الى ان ما فعله الله باصحاب الفيل كان لحكمة عظيمة منها الابقاء على قريش وتاييد عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم وهو شيخ الاباطح يومئذ وارهاصا للنبيء صلى الله عليه وسلم لوقت ظهوره في عالم الوجود فهو بمنزلة ان يقول فَعَل الله باصحاب الفيل ما فَعَل لانه ربك فما فعله فعله لاجلك .

واصحاب الفيل هم جيش الحبشة الذين قدموا مكة بقيادة أَبْرَهَة بن يَكْسُوم الحبشيّ امير اليمن من جانب النجاشي سلطان الاحباش وكان ذلك عام مولد النبي صلى الله عليه وسلم سنة اربعين او نيف واربعين قبل الهجرة . وانما سُمُّوا اصحاب الفيل لان قائدهم كان راكبا فيلا إغرابا في العِزَّة ويسمى ذلك العام عامَ الفيل . وُعدل عن التعبير عنهم بالحبشة او نحو ذلك لما في الاضافة من الدلالة على قوة شانهم .

والفيل حيوان من بلاد الهند والصين والحبشة والسودان يوجد في البلاد الحارة ذات الانهار لانه يحب الحرارة ويحب السبح في الماء وهو ضخم الجثة اكبر من الجمل واعلى واكثر لحما واكبر بطنا له خرطوم طويل يتناول به طعامه ويماؤه بالماءليشرب واذناه كبيرتان مسترخيتان وللذكر منه نابان طويلان بارزان من فمه يبلغه طولهما الى نحو ذراعين وجلده اجرد مثل جلد البقرة اصهب قاتم وقد يكون ابيض وهو نادر وهو قابل للتهذيب قوي الذكاء سريع التعلم ، تحمل عليه الاثقال ويُركب . واهل الهند يجعلون الفيل في الحرب كالحصن المتنقل يركب عليه ستة من الجند او نحو ذلك في محفة كالبرج ويقاتلون عليه . والفاره منه يكون من مراكب ملوك الهند والحبشة .

جاء ابرهة قاصدا امتلاك بلاد العرب وبخاصة مكة ويريد هدم الكعبة لانها هيكل دين العرب حبا في سعة السلطان وكان نصرانيا . ولانه بنى القُلَّس كنيسة بصنعاء ليصرف العرب عن الحج الى الكعبة فجاء رجل من بني كنانة من اصحاب شعائر الحج في الجاهلية فاحدث في القلس فغاض ذلك الحبشة حماة النصرانية المنبثة يومئذ في بعض بلاد العرب وارادوا الانتقام من اهل مكة فقصدوا فتح مكة ولما دخلوا مكة امر عبدَ المطلب قومه ان يَخرجوا من مكة ويأووا الى الجبال باهليهم وأُلْهِمَ الى ان الله لا يسلم بيته بايديهم . وقد اقاموا بها اياما قليلة ثم اصاب الله الحبشة بالجدري المستوبيء في الجيش لم صب غير الاحباش فهلك جيش ابرهة وحمل ابرهة مريضا الى صنعاء فهلك هنالك . وخبرهم متواتر في العرب ولذلك جُعل تحققه بمنزلة الرؤية فقال الم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل .

(أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ)

جملة مبيّنة لمضمون جملة الم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل فالاستفهام

الذي فيها كالاستفهام في الجملة المبّينة بها . والكَيد الحيلة على إيصال الضرّ بخفية وذلك ان الحبش بَنَوا القُلّس في صنعاء لقصد ابطال حج الكعبة ثم لما اتسع طموحهم لمد سلطانهم اخذوا اليَمن ثم راموا اخذ الحجاز وتعللوا لذلك فزعموا انهم ارادوا الانتقام من بني كنانة لاجل فعلة احدهم وانهم ينتصرون لدين النصرانية وكانت نيتهم في الحقيقة فتح بلاد العرب وهدم الكعبة ليستعبدوا العرب ويزيلوا ما به عزهم فذلك بعض المراد من الكيد في الاية .

والتضليل التضيع لان اصل الضلال هو الضياع عن الطريق اي ابطل الله كيدهم بان لم تتمش حيلتهم على العرب فألهم من اهانَ القَليس إهانةً ايقن بها العرب انه لا حرمة للقُلّيْس، وبان صَرَف العرب عن الرضا بطاعتهم فاظهروا كراهيتهم لهم وحرجوا من مكة كراهية لرؤيتهم فاستاصلهم وكفى العرب شرهم .

(وأرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيل فجَعلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكول)

عطف على جملة الم يجعل لانها في معنى جعل كيدهم في تضليل اي جمع بين ابطال كيدهم وبين عقابهم على سوء نواياهم نحو العرب اكراما لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

وهذه آية عقاب ارسلها الله على الحبشة انتصارا للعرب كرامة لنبيه الذي قَدّر قرب ظهوره وهي تدل على ان الله اراد اكرام العرب لانه سيظهر فيهم نبيه الكريم المرسل بالدين الذي هو مراد الله من البشر .

ارسل على جيش الحبشة طَيْراً مسخرة ترمي الحبشة بحجارة مسمومة فلا تصيب احدا منهم الا اهلكته بقروح خبيثة.

والابابيل جمع إبّالة بكسر الهمزة وتشديد الباء وهي الحزمة من الحطب شبهت جماعة الطير في تضامها بإبالة الحطب والمعنى جماعات من الطير كثيرة . والتعبير بالمضارع في قوله ترميهم لاستحضار حالة الرمي العجيب .

والسجّيل هو السجين المتقدم في سورة المطففين انه اسم لجنهم او واد فيها لانه يقال سجين وسجيل فان ابدال النون لاما في مثله كثير مثل اسماعيل واسماعين

واسرائيل واسرائين . واختير الذي باللام هنا لاجل الفاصلة . والمعنى انهـا تعمل عمل النار اذ ينفط لها الجلد ويسيل منها الحميم قيل تركـت في اجسادهم مثـل الجدري فتمزقت اجساهم فتكون من الداخلة على سجين ابتدائية .

والعصف ورق الزرع . ومعنى ماكول انه اكلته الديدان او الدواب حيـث يبقى مثقبا منقوصا .

اسلوب هذه السورة

ابتدئت بالاستفهام التقريري تشويقا للخبر وتنويها به . في المفتتح بالاجمال لزيادة التشويق . وجعل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلـم للتنبيه على ان الحـظ الاهم من هذا الخبر راجع الى المخاطب والمقصود التعريـض بالسامعين او جعـل الخطاب لكل من يتاتى منه تحقق ذلك فيؤول الى تشريف النبي بالاخارة . وانتقل من استفهام تقريري الى آخر مثله بطريقة البيان ليكون حصوله اوثق في نفـوس السامعين . وفي قوله فجعلهم كعصف ماكول تهيئة للكلام اذ اقضت القصة بخبر اقضاء اصحابها ففي هذا الانتهاء حسن الختام .

سورة قريش

مكية . قيل نزلت بعد سورة الفيل وقد جعلتا في مصحف أُبَيّ بن كعب سورة واحدة .

اشتملت هذه السورة على الامتنان على العرب بنعمة عظيمة انعم الله بها عليهم وهي نعمة المهابة التي اكسبهم الله في قلوب العرب نحوهم حتى أمنهم في مسيرهم في تجارتهم تيسيرا لرزقهم بالتجارة اذ كان بلدهم بلدا غير ذي زرع لا يرتزق سكانه الا من المخالطة مع الناس ليشكروا نعمة الله فيعبدوه دون غيره وليعظموا الكعبة ويعلموا انها معلم التوحيد فلا يجعلوها ماوى للاصنام .

(لايلَافِ قُرَيْشٍ ايلَافِهِمْ رحْلَةَ الشتاء والصَّيْفِ فلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا البيت الذي أطْعَمَهُم من جُوعٍ وآمَنَهُم من خَوْف)

هذا الافتتاح للسورة بمتعلق فعل فصل عن متعلقه بخمس كلمات افتتاح مشوق للمتعلق (بفتح اللام) فالجار متعلق بقوله فليعبدوا واللام للتعليل اي عليهم ان يعبدوه لاجل ايلافهم فتلك نعمة وحدها يستحق لاجلها ان يعبد . وتقديم الجار والمجرور على عامله للاهتمام وهي نعمة كافية في وجوب توحيده وكان غيرها من النعم لا يلتفت اليه تعريضا بالتوبيخ لهم على كفرانهم بنعمه اذ أشركوا معه غيره في العبادة .

والايلاف مصدر آلَفَ مبالغة في أَلِفَ اي اعتاد شيئا وتعلق به قلبه . واضافته الى قريش لانه اريد به اعتياد قريش السفر للتجارة مرة في العام في فصل الشتاء الى اليمن ومرة في الصيف الى الشام ذلك ان بلاد العرب كانت مخوفة لكثرة الغارات والترات في انحائها بين القبائل وكانت قبيلة قريش معظمة عند جميع العرب لانهم اهل الحرم وعمارة المسجد الحرام ونقباء موسم الحج فكانت القبائل تسالمهم في اسفارهم لا يخشون عادية وتلك حرمة ورثوها من عهد اسماعيل فكان تجار الجهات المجاورة لهم يجلبون امتعتهم وسلعهم الى مكة فتباع هنالك ويصدرها اهل مكة الى الشام في الصيف والى اليمن في الشتاء وضروري

انهم يحملون سلع اهل اليمن الى الشام وسلع اهل الشام الى اليمن وكانوا يخرج تجارهم في ركب عظيم يسمونه العير بكسر العين يحمل الامتعة على الابل وتسير معها الرواحل تحمل التجار فتروج في مكة ثروة عظيمة وناهيك بان فيها اسواق موسم الحج مثل سوق مَجَنَّةَ وسوق ذي المَجاز وسوق عُكاظ ويرافق العِيرَ ذوو الحاجات الى البلدان التي في طريق العير ليقتنوا حاجاتهم من اليمن كالاديم والثياب والسيوف اليمانية، ومن الشام كالحبوب والخمور والثياب والزيت والسيوف المَشْرَفِيَّة .

وقريش اسم لقبيلة يجمعها جد واحد هو النَّضْر بن كنانة وكان النضر يلقب قُريشاً تصغير قِرْش بكسر القاف وسكون الراء وهو كلب البحر وهو حوت يعظم جدا وياكل ما يجده ويعدو على السفن فلا يندفع عنها الا بالنار وقريش كلهم يسكنون مكة والنسبة الى قريش قُرَشي بضم القاف وبحذف الياء .

وقوله ايلافهم بيان لايلاف قريش لما فيه من الاجمال فبين بانه اعتيادهم رحلة الشتاء والصيف كقوله تعالى لعلي ابلغ الاسباب اسباب السماوت وقول امريء القيس ❋ ويوم دخلتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنَيْزَةٍ ❋

واضافة الرحلة الى الشتاء والصيف اضافة الى وقت وقوعهما مثل قولنا صلاة الفجر . والشتاء مدة ثلاثة اشهر من السنة الشمسية يكون فيها الهواء باردا ومبدؤها من حلول الشمس في برج الجَدْي ونهايتها خروج الشمس من برج الحوت . والصيف مدة ثلاثةاشهرمن السنة يشتد فيها الحر ومبدؤهاحلولالشمسفي برج السَّرَطان ونهايتها خروج الشمس من برج السُّنْبُلَة .

وفي الامتنان على قريش بهاتين الرحلتين ما يقتضي فضل التجارة اذ جعلت من تمام الفضل وكانت عمل اهل فضل وقد اتجر النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة بمال لخديجة بنت خويلد ام المؤمنين رضي الله عنها .

والفاء في قوله فليعبدوا مؤذنة بمعنى الشرط الذي تولد من تقديم المجرور لانه يصير في معنى الشرط اي ان لم يعبدوه لنعمه الكثيرة فليعبدوه لنعمة الايلاف ومن هذا الاستعمال قوله تعالى قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا وقد تقدم نظيره في قوله تعالى والى ربك فارغب في سورة الانشراح . والمراد بالعبادة المامور بها اقراره بالعبادة اي التوحيد واما عبادة المشركين فكانها غير عبادة لانهم شغلوا بعبادة آلهتهم عن عبادة ربهم .

والعدول عن اسم الجلالة الى الوصف المضاف بقوله ربَّ هذا البيت للايماء

الى ان سبب نعمة الايلاف هو انه اقام لهم البيت الحرام فكان سببا لرفعة شانهم بين قبائل العرب ومهابتهم اياهم في حلهم وترحالهم . وفي ذلك ادماج لتنويه شان البيت وفضله . وتعريف البيت للعهد لانه معروف بين المخاطبين لا سيما مع كون البيت صار علما بالغلبة بينهم على الكعبة مثل الكتاب على كتاب سيبويه عند اهل العربية .

واختيار طريق الموصولية في اجراء الاوصاف لرب هذه البيت لما في الموصولية من الايماء الى علة الامر بالعبادة ففيه ادماج نعمتين اخريين هما نعمة القوت ونعمة الامن اجابة لدعوة ابراهيم عليه السلام اذ قال رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق اهله من الثمرات الى آخر الآية .

ومن في قوله من جوع بدلية اي اطعمهم اطعاما بدلا عن الجوع كقوله لن تغني عنهم اموالهم ولا اولادهم من الله شيئا والمراد الجوع الذي تقتضيه قحولة بلدهم كما قال ابراهيم عليه السلام اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع فيسر الله لهم ذلك الايلاف لاجتلاب الميرة وجعل افئدة الناس تهوي اليهم شوقا الى الحج فيكثر البيع والشراء في اسواق ذي المجاز وعكاظ ومَجَنَّة وجعل بلدهم تجبي اليه ثمرات كل شيء وليس المراد من جوع حصل لهم لمنافاته لقوله وءامنهم ولان ذلك لم يقع الا بعد نزول هذه السورة حين دعا عليهم النبيء بسنين كسنين يوسف . وكذلك من التي في قوله وآمنهم من خوف اي بدلا من الخوف الذي تقتضيه الحضارة اذ لم تكن قريش اهل باس ولا فروسية ولا شكة سلاح فكان حالهم يقتضي الخوف فابدلهم من خوفهم امنا لا انّ خوفا حصل لهم .

اسلوب هذه السورة

كان افتتاح السورة بديعا غريبا مشوّقا لما بعده من المنة . وجيء بالاجمال ثم بالتفصيل بعده ليتمكن ما يعقبه في النفس كمال تمكن وفي التنويه بهذه النعمة التنويه بفضيلة التكسب للارتزاق ورمز لفضل التجارة . ثم امروا بان يوحدوا الله الذي جعل لهم البيت الحرام سببا لتوقير العرب اياهم واغناهم وآمنهم في حال يجوع الناس فيها ويخافون . ولما كانت السورة مفتتحة بالتعليل بان ما سيذكر فيها معلل بالايلاف كان الامر بعبادة الله الذي من عليهم بالامن من الجوع والخوف مؤذنا بانتهاء الغرض ففيه براعة الختم .

سورة الماعون

المشهور انها مكية وقيل هي مدنية وقيل نزل اولها بمكة وءاخرها بالمدينة يعني من قوله فويل للمصلين الآيات .

اشتملت هذه السورة على التعجيب من حال المكذبين بالبعث والجزاء الجبارين على ضعفاء الخلق ، الاشحاء على الفقراء ، الذين لا يؤدون الصلاة ولا الزكاة ، وهم مع ذلك يتظاهرون بالنزاهة . قيل نزلت في معين من اهل الشرك وفي معين من اهل النفاق كما سياتي .

(أَرايتَ الذِي يُكَذِّبُ بالدِّين)

افتتاح السورة بهذا الاستفهام عن الرؤية مشوق الى معرفة قصة هذا الجنس المستفهم عنه استفهام تعجيب بان حالته من شانها ان يعتنى برؤيتها لما فيها من العبرة . وقد تقدم نظير هذه الجملة في قوله تعالى ارايت الذي ينهى عبدا اذا صلى في سورة العلق . والرؤية محتملة للبصرية وهو الاظهر اي ان مثله ينبغي ان يرى رأي العين ومحتملة لمعنى العلم . والذي اسم موصول الاظهر انه مراد به الجنس اي جنس من يكون حاله هذا الوصف وهو التكذيب بالدين وقد كان جميع المشركين مكذبين بالجزاء قال شاعرهم :

أَمَوتٌ ثم حشرٌ ثم نَشْرٌ حَدِيثُ خُرَافَةٍ يَا أُمَّ عمرِو

ويحتمل ان يكون المراد بالذي شخصا معينا اتصف بالتكذيب بالدين اي اشتهر بذلك وعرف به فلذلك خص بالذكر من بين جميع المكذبين ، فقيل هو العاصي بن وائل السهمي ، وقيل الوليد بن المغيرة ، وقيل عمرو بن عائد وكلهم من قريش . ولعلهم اتصفوا بهذه الفواحش كلها من التكذيب بالدين ودع اليتيم ومنع الطعام عن المسكين . وقيل هو ابو جهل كان وصيا على يتيم فأتاه عريانا يساله من مال نفسه الذي بيده فقرعه بعصا . وقيل هو ابو سفيان قبل اسلامه نحر جزورا فساله يتيمٌ شيئا من لحم فقرعه بعصا .

(فَذَلكَ الذي يَدُعُّ اليَتِيمَ ولا يَحُضُّ على طَعَامِ المسكين)

الفاء فصيحة تؤذن بشرط محذوف نشا عن الاستفهام التعجيبي اي ان كنت

رايته او علمته فامره عجب او ان لم تره او لم تعلمه فان عليه علامة على تكذيبه بالدين وهي انه يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين .

وظاهر الكلام انه تعريف للمُنكر للبعث ونصبُ علامة على تمييزه بانه صاحب هذين الوصفين وليس هذا المعنى بكبير الجدوى وانما المراد الكناية على تلازم هذه الاوصاف الثلاثة بحيث يدل بعضها على بعض انكارا لاحوال المشركين . وفيه من ادماج تشويه دعّ اليتيم والاعراض عن اطعام المسكين معنى بليغ . والكلام وان كان على منكري البعث الا ان فيه تحذيرا للمؤمنين من هذين الوصفين وحسبك انهما كانا من شعار المكذبين بالدين . ومعنى عدم الحض على طعام المسكين تقدم عند قوله تعالى ولا تحضون على طعام المسكين في سورة الفجر .

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)

الفاء للتفريع اي تفريع الاخبار عنهم بان لهم الويل على الاخبار بسبب استحقاقهم فعلم ان المراد بهؤلاء المصلين هذا الفريق المكذب بالبعث والا لما كان للتفريع موقع لعدم المناسبة ولذلك كان مقتضى الظاهر ان يقال فويل لهم وهم عن صلاتهم ساهون فعدل عن الضمير الى التعبير بالمصلين للانتفال الى التصريح بمذمة اخرى من مذامهم وهي اهمالهم الصلاة التي هي عماد الاسلام كناية عن تجردهم عن الاسلام مثل قوله قالوا لم نك من المصلين . ووصفُهم بالمصلين تهكم قرينته قوله الذين هم عن صلاتهم ساهون اذ السهو اضاعة فعلم انهم ليسوا بمصلين يقال سهوت عن كذا اذا تركتَ عمله . واضافة الصلاة الى ضميرهم مع عدم ملابستهم لها من حيث انهم محقوقون بها فهي متخلدة بذمتهم وذلك من التقصير والظلم .

والسهو حقيقته الذهول عن شيء يحتاج الى عمله وهو هنا مستعار للاعراض عمدا على وجه التهكم وهو ترشيح للتهكم الاول لان اصل حقيقته تقتضي انه ترك شيء في بعض الاحيان لا دائما والمقصود انهم لم يصلوا قط .

والذين قالوا بان السورة مدنية او ءاخرها نزل بالمدينة فسروا المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون بالمنافقين لانهم كانوا لا يصلون الا اذا كانوا مع المسلمين فاذا خلَوا نسُوا الصلاة اي اهملوها فتكون الفاء للتفريع الذكري للمناسبة بين المشركين المكذبين بالدين جهرا وبين المنافقين المكذبين به في ضمائرهم والتهكم في قوله

ساهون هو هـو وعلى جميع التفاسير يكون في هذه الآية ايماء للمسلمين الى وجوب المحافظة على الصلوات في اوقاتها . والويل تقدم الكلام عليه في سورة المطففين .

(الذينَ هُمْ يُراءُونَ ويَمْنَعونَ الماعُونَ)

صفة ثانية للفريق الموصوف بالمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهـون . والمراءاة المبالغة في اظهار حسن الافعال وهي الرياء وكلاهما مصدر رأى مبالغة في الاراءة والمراد من المبالغة التكلف فتدل على انه يري الناس من المحاسن ما ليس فيه . فالمعنى الذين يظهرون انهم يحسنون وما هم بمحسنين ولعل المراد انهم يتحدثون بانهم يتصدقون ويعطون الفقراء وهم لا يفعلون ذلك وهذا مثل ما في قوله تعالى « يقول اهلكتُ مالا لبدا ايحسب أن لم يره احد » . وتقديم المسند اليه على الخبر الفعلي في قوله هم يراءون لقصد تقوي الحكم اي يراءون مراءاة واضحة فلم يقل الذين يراءون وعدل عنه الى الذين هم يراءون لتحقيق انهم مراءون لانهم يظهرون للناس من حسن القول ما يموه للناس حالهم فناسب ان يؤكد الخبر عنهم والماعون من اسماء الصدقة لانها عون للفقير فيراد منها ما يشمل الزكاة الواجبة وان كانت لم تشرع حين نزول السورة ان كانت السورة مكية او كان بعضها مكيا وءاخرها مدنيا وكان هناك صدقات واجبة مثل الصدقة قبل مناجاة النبي صلى الله عليه وسلم فاما ان كانت كلها مدنية جاز ان يراد بالماعون الزكاة الواجبة .

وجملة ويمنعون الماعون يجوز ان تكون حالية فيكـون الرياء في تحدثهم بالصدقات في حال انهم يمنعون الصدقات اصحابها ويجوز ان تكون صلة ثانيـة فتكون الرياء في اعم من اظهار التصدق .

اسلوب هذه السورة

افتتحت بالتعجيب من حال المعرضين عن عقائـد الاسلام ثم عقب بما يوهم شرح حال المعجب منهم بما يزيد التعجب تمكنا من المخاطبين ثم جيء بصـورة التفريع على الكلام السابق بما يزيد من مذمة المتحدث عنهم بذكر صفات اخرى تبعدهم عن الخير . او استطرد من مذام امثالهم ما يزيد الفريق الاخر مماثلـة لحالهم وفي قوله ويمنعون الماعون محسّن رد العجز على الصدر لان منع الماعـون يشمل دع اليتيم لمنعه من ماله ويشمل عدم الحض على طعام المسكين ولما كان منع الماعون اعم مما ذكر في اول السورة كان من التذييل الذي يختم به الكلام كثيرا .

سورة الكوثر

مكية . اشتملت هذه السورة على الامتنان على النبي صلى الله عليه وسلم بما اعطاه الله من الخير الكثير في الدنيا والآخرة . وتنبيهه الى الزيادة من شكر تلك النعمة . ثم تقبيح حال مبغضيه والاشارة الى من تنقصه من اهل الشرك . وهي اقصر سور القرءان ومع ذلك جمعت امتنانا وارشاد الى الشكر على النعمة بزيادة التقرب الى الله بالصلاة واطعام الطعام ، والاشارة الى قصة من تنقص النبي عليه السلام ووصفه بالابتر فقلبت ذلك الوصف اليه .

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)

افتتاح الجملة بحرف التوكيد لقصد الاهتمام بالخبر بالنسبة للمخاطب وهو النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، ولتحقيق الخبر بالنسبة للسامعين من المشركين الذين يُقْصد التعريض بهم في كثير من اغراض السور المكية . وقد قيل ان سبب نزول هذه السورة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد الحرام فلقيه العاصي بن وائل السهمي عند باب بني سهم فكلمه ثم انصرف فقال لنفر من قريش كنت اتحدث الى هذا الابتر يعني النبيء صلى الله عليه وسلم وكان النبي قد توفي له ابنه عبد الله قبل ذلك وكانوا يصفون من ليس له عقب بالابتر كما سيأتي فكأن المشركين لما شمتوا بالنبي عليه السلام اذ مات ولده وقال قائلهم تلك المقالة بشره الله بانه اعطاه الخير العظيم اي النبوة التي هي نعمة عظيمة عزيزة ورفع ذكره وايده بنصره وبالمومنين فكان لهم ابا وكانوا ابر به منهم بآبائهم واحب له من حبهم لانفسهم وذلك يعدل نعمة البنين الصالحين او يفوقها وقد قال حكيمهم :

كلاهما خاف من فقد صاحبه　　　هذا اخي حين ادعوه وذا ولدي

وقال تعالى « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ـ الى قوله ـ قل او نبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا الآية .

والكوثر الشيء المفرط في الكثرة . يقال تكوثر الشيء اذ افرط في الكثرة ، وقد علم من مقام الامتنان ان المراد الشيء المفرط في كثرة الخير فالمعنى انا اعطيناك اعظم الخيرات الشريفة الباقية ، وقد ورد في الصحيح ان في الجنة نهرا بديعا

يسمى الكوثر يشرب منه النبي صلى الله عليه وسلم وصالحوا المسلمين. وعن عائشة انها فسرت الكوثر الواقع في هذه السورة بذلك وقال ابن عباس الكوثر الخير الكثير الذي اعطاه الله اياه فقيل لسعيد بن جبير ان ناسا يزعمون انه نهر في الجنة فقال سعيد النهر الذي في الجنة من الخير الذي اعطاه . وتفريع امره بالصلاة على هذا الامتنان ظاهر فان الصلاة شكر لله الذي اعطاه هذه النعم وفي هذا الامر زيادة نكاية بالمشركين اذ كانوا ينهونه عن الصلاة لله تعالى كما تقدم في قوله ارايت الذي ينهى عبدا اذا صلى .

والعدول عن الاضمار الى الاظهار في قوله لربك دون ان يقال فصل لنا لما في لفظ الرب من الايماء الى استحقاقه ان يصلي له تعريضا بابطال صلاة المشركين اذ كانت لغير الله لان الرب هو مستحق العبادة .

وسلوك طريق الاضافة دون غيرها من الاسماء التي تفيد معنى الخالقية مثل ان يقال فصل للذي خلقك او فصل للخالق لقصد تشريف المضاف اليه واعتزازه بان الله ربه وان ارباب المشركين ليسوا اهلا للربوبية كقوله ذلك بان الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لا مولى لهم.وقد نادى ابو سفيان في المسلمين يوم احد فقال لنا العزى ولا عزى لكم فقال النبي صلى الله عليه وسلم قولوا الله مولانا ولا مولى لكم .

والنحر نحر الابل لاطعام الفقير لان من الشكر الاحسان الى عباد الله والنحر اذا اطلق ينصرف الى نحر الجُزُر للضيوف والمحاويج ولذلك يطلقون على الكريم اسم المِنْحار والمراد به هنا افضل الصدقة لان افضل الصدقة ماكان بالطعام وافضل الطعام عندهم اللحم وعن ابن عمر سال رجل النبي ، اي الاسلام خير فقال تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف . وحذف متعلّق وانحر فلم يقل وانحر له لدلالة ما تقدم عليه ولا يبعد ان يكون في اختيار التعبير عن الاطعام بالنحر الذي هو من وسائله نكتة لطيفة وهي الايماء الى ان النبيء سيطعن اعداءه برماح اتباعه من المسلمين كما وقع يوم بدر ففيه تعريض بالوعيد مناسب لسبب نزول السورة كانه يقول اشكر ربك اذ اعطاك خيرا من الولد وانحر عدوك المتشمت بك .

(إنّا شانِئَكَ هوَ الابتَر)

الجملة في محل التعليل لجملة فصلِّ لربك وانحر لان حرف انّ صالح لافادة مفاد فاء التفريع، فجملة ان شانئك هو الابتر كالتكملة لما اقتضته المنة التي في قوله انا اعطيناك الكوثر لانه لما امتن عليه بما اعطاه تسكينا لنفسه من اثر قول الاعداء انه ابتر ورتب على تلك المنة الامر بالشكر بالصلاة والاحسان الى عبيده، بقي ان يزال ما بقي من اثر شماتة عدوه أو اعدائه اذ نبزوه بانه أبتر فجعل ذلك في صورة تعليل الامر بالشكر باسلوب غير الاسلوب السابق تفننا في البلاغة فقيل انشانئكهوالابتر فرد الله كيد العدو في نحره بانه ابتر وان النبيءليس بابتر فكانه قيل انا اعطيناك الكوثر وذلك خير من الولد وجعلناك غير ابتر وجعلنا عدوك ابتر فصل لربكوانحر. ومعنى الابتر على هذا الناقص من الخير كما في الحديث كل امر ذي بال لايبدا فيهباسم الله فهو ابتر وحقيقة الابتر الدابة المقطوعة الذنب وهو وصف مشتق من فعل بتر بكسر التاء وهو هنا وفيالكلامالذي نزلت بسببه مستعار لمن ُنقِص شيئا من الخير في عرف الناس او في نفس الامر فالذي شنأ النبيء بابتر عنى نقص خير في عرفهم والذي في الاية مراد منه نقص الخير الحق. وضمير هو في قوله هو الابتر ضمير فصل وهو يفيد قصر جنس المسند على المسند اليه وهو قصر اضافي من قبيل قصر القلب اي هو الابتر لا انت . فصيغة القصر في قولههو الابتر اقتضت اثبات الابتر للعدو ونفيها عن النبيء صلى الله عليه وسلم والكلام جار على طريقة الاسلوب الحكيم بصرف وصف الابتر عن مراد قائله الى معنى الناقص من الخير الحق وهو الايمان وكمال الخلق اي ليس نقص المرء في انه لا ولد له لانه قد يخلفه ما هو خير منه فهو عارض ، بل النقص الحق هو النقص الذاتي من لازم السوء ، ولعل فيه انذارا للعدو وبانه ينقطع نسله وذلك يحتمل الحقيقة بان يكون ابتر بانقراض نسله وكفى به انذارا . او التنزيلَ بان يصير ابناء العدو مسلمين فينقطع بذلك اتصالهم وذلك اشد عليه فقد اسلم عمرو بن العاص رضي الله عنه فانقطع سبب الصلة بينه وبين ابيه العاص بن وائل القائل هذه المقالة الشنعاء لان الاسلاميجب ما قبله. ويحتمل المجاز بان يراد ان عدوه خلومنالخير فهو ابتر

والشانيء المبغض العدو والشنآن البغضاء والعداوة . واسم الفاعل حقيقة في

زمن الحال فالمراد شانئك الان فلا يقتضي شمولا لازمنة المستقبل فان كثيرا منهم كانوا يبغضون النبيء فلما اسلموا انقلب بغضهم حبا .

اسلوب هذه السورة

افتتحت بما يدل على الاهتمام بالخبر وكان افتتاحها بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم وتذكيرا له بان الله اعطاه اعظم الخيرات ردا على الذين قالوا انه ابتر فاعلمهم الله ان النعم انما تعتبر بمعانيها لا بما الصقته بها العادات من الاوهام فزالت شماتة اعدائه به. واكد ذلك بان فرع عليه الامر بالشكر بالاقبال على عبادته وبالاحسان الى الصالحين من عبيده . ثم غير الاسلوب فجيء بالرد الصريح على شماتتهم في طريق التعليل للامر بالشكر بانه ليس بابتر وان عدوه ابتر بحيث صار الشكر معلولا للامرين فافيدت معلوليته للامر الاول بالتفريع وللامر الثاني بالتعليل وفي خلال ذلك تعريض بالوعيد بنحر عدوه . وقد احاطت هذه الآيات بالغرض المقصود من ابلغ المعاني وباوجز الالفاظ من هذا المقام بما ليس وراءه للمستزيد مرام ، فآذن ذلك بانتهاء الكلام .

سورة الكافرون

هكذا سميت في الكثير من المصاحف برفع لفظ الكافرون بالواو حكاية للفظ الواقع فيها لئلا يظن انها سورة الكافرين وكذلك كتبت سورة المنافقون . وكتبت في بعض المصاحف على ظاهر الاضافة بالياء كما كتبت كذلك سورة المنافقين والمقصود ظاهر اذ لا يتوهم ذو راي حصيف ان تسمية السور مراعى فيها اغراضها

وهي مكية . وهي احدى السور الخمس التي افتتحت بجملة « قل » اهتماما بما حوته والا فان جميع القرآن مامورا لنبيء بان يقوله فهذا امر خاص . ونظايرها : قل اوحي الي . قل هو الله احد والمعوذتان .

اشتملت هذه السورة على تاييس طائفة من المشركين من رجوع النبي صلى الله عليه وسلم عن دعوة الاسلام وعلى يأسه من متابعتهم الاسلام ولعل هؤلاء هم عظماء المشركين الاقدمون منهم الذين ماتوا ولم يدخلوا في الآسلام قيل هم الوليد من المغيرة والعاصي بن وائل . واميه بن خلف . والاسود بن المطلب . قالوا يا محمد هلم فاعبد ، الهتنا سَنةً ونعبد الهك سنة فنشترك في امرنا كله فغدا النبيء الى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش فقام على رءوسهم فقرا هذه السورة فايسوا .

(﴿قُلْ يايها الكافرون لا أعبُد ما تعبدون﴾)

افتتاحها بالامر بالقول اذن باعلان الاسلام امر الله نبيه بان يعلن براءتهمن عبادة اصنام المشركين في المستقبل شان المضارع المنفي بلا تايسا لهم من ان يتبع دينهم في جميع ازمنة المستقبل وقطعا لاطماعهم من محاولاتهم ذلك لانهم كانوا يطمعون ان يقنعوه بتكرار المجادلة حتى يطيعهم ولو بعد زمن بعيد.

وقد ابتدىء خطابهم بالنداء تحقيقا للابلاغ، ونودوا بوصف الكفر تحقيرا لهم وتاييداً لوجه البراءة منهم وهذا الخبر مستعمل في المعنى الاصلي له وهو افادة المخاطب حكما . وافاد قوله لا اعبد نفي الفعل في المستقبل لان شان لا ان تفيد

نفي الفعل في الاستقبال ولذلك كان حرف لن مفيدا تاكيدا لنفي في المستقبل لان اصلها لا ان كما قال الخليل .

(ولاَ أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ)

ايذانا لهم بانه يعلم انهم لا يومنون لتصلبهم في كفرهم ، واعلام لهم بانه يعلم ان ما يظهرونه له من التقارب انما هم هازلون فيه ، لينتقل من ذلك الى ان تصلبهم في الكفر وتفننهم في الجدال والعناد في تمسكهم بدين الشرك لا ينكي الرسول ولا يحزنه فالخبر مستعمل في لازم فائدة الخبر وهو كون المتكلم عالما بما تضمنه الخبر ، وينتقل من ذلك الى الكناية به عن عدم اكترائه . وانما خاطبهم بضمير الخطاب المنفصل لتكون الجملة اسمية فتفيد تحقق نفي التوحيد عنهم تحقيقا لكونه يائسا من اسلامهم .

(ولا أنا عابدٌ ما عَبَدْتم ، ولا انتم عابدون ما أَعْبُدُ)

جملتان افادتا تاكيد معنى الجملتين السابقتين ولكن جملة لا اعبد ما تعبدون أُكدت بمرادفها لان لا اعبد ما تعبدون نفت ان يعبد هو آلهتهم في المستقبل وجملة ولا انا عابد ما عبدتم لكونها جملة اسمية دلت على تحقق انتفاء عبادته ، الهتهم فافادت مع التاكيد معنى جديدا ولاجل ذلك الاختلاف اعتبرت فيها مغايرة ما للجملة الموكدة بها فعطفت على الاولى بالواو ولوقوع الفصل بينها وبين الجملة المؤكدة بها بجملة ولا انتم عابدون ما اعبد ومن هذا القبيل قوله تعالى تبت يدا ابي لهب وتب كما سياتي . وعابد اسم فاعل وهو حقيقة في زمن الحال فنفى ان تحصل عبادته لما يعبدون في الحال بعد ان نفاها قوله لا اعبد ما تعبدون في المستقبل واما جملة ولا انتم عابدون ما اعبد الاولى فاكدتها نظيرتها الثانية ولولا الفصل بينهما بجملة ولا انا عابد ما عبدتم لجردت من حرف العطف ولكنها عطفت لاجل . ذلك الفصل ولذلك تعتبر الواو التي فيها عاطفة وليست توكيدا لفظيا للواو التي في نظيرتها على ان اقتران التوكيد اللفظي بحرف العطف وارد في الكلام العربي وهو كثير في العطف . بثم نحو كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون لاعتبارات يقتضيها المقام كما هنا .

(لَكُمْ دِينُكُمْ ولِيَ دِينِ)

تذليل بديع ارسل مرسل المثل لانه حوصلة الكلام السابق بما فيه من

التاكيد فلذلك جيء بتقديم المسندين اليهما لا فادة تقديم المسند تخصيصه بالمسند اليه اي دينكم لكم وليس لي وديني لي وليس لكم اي لا يثبت لا حدنا دين الفريق الاخر واللام للاستحقاق . فالقصر قصر افراد فيهما لا بطال اشتراك احد الفريقين في دين الاخر وهذه مقاطعة تامة في امر الدين وتاييس لهم وياس منهم .

والدين هنا معناه التعاليم التي يراها المرء وسيلة لقربه من خالقه وتحصيل نجاته وطهارة روحه وقد فسروا الحق منه بانه وضع الاهي سائق لذوي العقول باختيارهم الى ما فيه الخير عاجلا وآجلا وهو منقول من الدين بمعنى العادة والداب على العمل ومنه قول النابغة :

مَجَلّتهم ذاتُ الاله ودينُهم قَويمٌ فما يَرجوُن غيرَ العواقِب

فدين المشركين هو عبادة الاصنام وما تفرع عنها. ودين النبي هو الاسلام . وقرا السبعة دين محذوف ياء المتكلم للتخفيف عند الوقف ، وقرا ابو عمرو وحمزة والسكائي و لي سكون الياء وقراه الباقون بتحريك الياء بالفتحة .

اسلوب هذه السورة

لها اسلوب خاص وهو اسلوب كلام البراءة فافتتحت بالنداء ابلاغا لاسماعهم ما سيرد بعده من التبريء من دينهم . وقرن التبري من دينهم بما يدل على عدم طماعيته في ان يتبعوا دينه زيادة في البراءة منهم . ثم اكد ذلك كله بمثله وزيادة لم ختمت بكلمة جامعة للغرض وهي لكم دينكم ولي دين فكانت براعة مقطع . وقد شاع تمثل الناس بقوله لكم دينكم ولي يدين عند قصد المتاركة على تاويل كلمة الدين بمعنى الداب والعادة كقول المثقِّب:

تقول اذا دأرتُ لها وضيني ❊ أهذا دينه ابدا وديني

سورة النصر

هي مدنية . وهي من آخر سور القرآن نزولا وفيها ايذان باقتراب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وان آية ذلك مجيء نصر الله اياه على اهل الكفر وفتح مكة ودخول العرب في دين الله طائعين بعد فتح مكة وذلك في سنة الوفود. والاظهر انها نزلت قبيل فتح مكة وروي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم عاش سنتين بعد نزولها يعني سنتين وكسرا فقد كانوا يؤرخون بالتقريب .

(اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره)

تعليق الشرط بواسطة اذا المختصة بالدلالة على الاستقبال والقطع بوقوع الشرط مؤذن بنصر وفتح مستقبلين وبدخول الناس في الدين افواجا مع ذلك وان ذلك كله محقق الحصول. فالكلام وعد من الله تعالى بحصول هذه الامور وهي قرة عين للنبيء صلى الله عليه وسلم فاما النصر فهو الاظهار على العدو والاعانة بالقوة واضافته الى الله للدلالة على انه نصر خارق للعادة حصل في حال قلة المنصور بالنسبة الى من نصر عليهم فقد نصر على قريش وقبائل كثيرة ذات باس . فاضافة النصر الى اسم الجلالة من اضافة المصدر الى فاعله اضافة تشريف وتعظيم ليومىء الى نصر خاص . والفتح مرادف النصر ويطلق على النصر على اهل المدائن . والفتح المعرف باللام هو فتح مكة فاللام للعهد وعهده انه كان حديث المسلمين وحديث العرب كلهم فالمسلمون يتهيأون له وقريش يتوقعونه والعرب ينظرون الى ماذا سينكشف عنه غزو مكة حتى يعلموا اي الفريقين يجب عليهم اتباعه . والمجيء في قوله اذا جاء نصر الله مستعمل في معنى الحصول بعد الانتظار تشبيها للشيء الحاصل بعد الانتظار بمجيء الجائي .

ورؤية الناس يدخلون في دين الله افواجا بشارة بان القبائل تدخل في الاسلام جماعات بدون قتال وقد كان ذلك في سنة تسع من الهجرة وتسمى سنة الوفود لان جميع القبائل ارسلوا وفودا عنهم الى النبيء صلى الله عليه وسلم لابلاغ اسلامهم

وتلقي شرائع الاسلام منه واظهار ان أمرهم سِلْم معه وطاعة له . والرؤية بصرية وقد راى النبيء صلى الله عليه وسلم وفود العرب وراى الافواج الذين حجوا معه حجة الوداع . وجملة يدخلون في موضع الحال من الناس .

ودين الله هو الاسلام لانه الذي ارسل الله به رسولا في وقت نزول الآية ولقوله تعالى « ان الدين عند الله الاسلام » .

والافواج جمع فوج وهو الجماعة الكثيرة وانتصب افواجا على الحال من الواو في قوله يدخلون .

والتسبيح ان يقول كلا ما يدل على تسبيح الله اي تنزيهه عن النقائص شكرا لله بالثناء عليه .

والباء في قوله بحمد ربك للمصاحبة في موضع الحال من ضمير سبح اي سبّح ربك مصاحبا حمده اي في وقت واحد بحيث يكون التسبيح مع الحمد شكرا لنعمة نصره والفتح له وتيسير الاهتداء لامته بواسطته . والجمع بين التسبيح و الحمد والاستغفار للاشارة الى استحقاق الله الثناء لذاته ولاجل نعمة الهداية والعصمة من النقائص فان قوام امر الدين الجمع بين الطاعة والتحرز عن المعصية .

والاستغفار طلب المغفرة اي التجاوز عن كل تقصير يصدر من المستغفر وقد روت عائشة رضي الله عنها ان النبيء صلى الله عليه وسلم كان بعد ان نزلت هذه السورة يكثر ان يقول في سجوده « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي » يتأول القرآنَ .

(إنّهُ كان تَوّابا)

تعليل للامر بالاستغفار لان حرف إنّ اذ ورد بعد كلام في غير مقام رد الانكار يدل على معنى التعليل والتفريع . وهذا التعليل يؤذن بوعد بالاستجابة . وفيه تعليم للامة ان يتطلبوا اسباب الصفح عن ذنوبهم بالاكثار من الطاعات والاقلاع عن المعاصي .

وفعل كان اصله الدلالة على حصول خبره لاسمه في الزمن الماضي ويكثر ان يستعمله العرب مجازا مشهورا في الدلالة على استمرار اتصاف الاسم بالخبر بناء على ان الشيء الحاصل فيما مضى يرسخ ويثبت فلا يزول فمعنى كان توابا

تحقق له وصف التواب تحققا ازليا قد وصف نفسه به واخبر انه في اول الخليقة قال فتلقى ءادم من ربه كلمـات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم . والتـواب هنا مبالغة في وصف الذي يتوب على غيره فهـو متعد الى مفعـول مقدر بحرف على دلت عليه قرينة انه مسؤول منه المغفرة فلا يكون من التائب المتعدي بحرف مِن لانه يقال تاب من كذا فالتائب هو الآثم ويقـال في المبالغـة فيه تَـوَّاب ايضا قال : « ان الله يحب التوابين » واما تاب عليه بمعنى قَبل توبةغيره فلا يكاد يقال فيه تائب ولكن يقال تواب .

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس ان عمر دعاه ذات يوم في مجلس من الصحابة فقال لهم ما تقولون في قول الله تعالى اذا جاء نصر والفتح فقال بعضهم امرنا ان نحمد الله ونستغفره اذا نصرنا وفتح علينا فتح المدائن والقصور وسكت بعضهم فقال لي اكذلك تقـول يا ابن عباس فقلت لا قال فما تقول انتَ قلتُ هو اجـَل رسول الله أعْـلَمَـهُ له قال اذا جاء نصر الله والفتح وذلك علامة اجلك فسبّح بحمد ربك واستغفره فقال عمر ما أعْلَم منها الا ما تقول .

اسلوب هذه السورة

جاءت باسلوب بديع من الايمـاء الى استكمـال امر الدعوة واقتراب اجل النبي صلى الله عليه وسلم عند حصول النصر والفتـح له بطريق الرمز الكنائي لان تعليق التسبيـح والاستغفار المعلّقين على حصول النصر والفتح مؤذن بانهما تسبيـح واستغفار خاصان لان شان التسبيـح ان لا يتوقف على حصول النصر والفتح وشان الاستغفار ان يكون عقب الذنب او التقصير لا عقب افاضة المنـة والخير فتعين ان يكـون التسبيـح والاستغفار تهيـؤا للقاء الله تعالى كما يقول احد لآخر اذا سمعت النفير فاركب فرسك يريد تهيا للحرب ومنه قول الناس للمريض أوص اشارة الى ان مرضه لا يرجى له دواء . وبهذا انتهى الغرض من السورة .

سورة ابي لهب

مكيـة . وروي ان نزولها كان في اول سنة اربع من البعثة وسبب نزولها ياتي عند تفسير الآية الاولى .

(تَبَّتْ يدا أبي لَـهَبٍ وتَبّ ما أغْنى عنه مالُهُ وما كَسَبَ)

ورد في الصحيح عن ابن عباس ان سبب نزول هذه السـورة انه لمـا نزل قوله تعـالى وأنذرْ عشيرتك الاقربين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفـا فهتف يا صَبَاحَاه (بتقديم الصـاد بعدها باء موحدة ثم الف كلمـة يقولها المستنجد حين يغير العدو على حيه) فاجتمع اليه قريش فقال ارائتم ان أخبرتكم انّ خيلا تخرج من سفح الجبل اكنتم مُصَدِّقيّ . قالوا ما جربْناعليك كذبا . قال فاني نذير لكم بين يديْ عذاب شديد فقال له ابو لهب « تبًا لَك سائرَ اليومِ ألهذا جَمَعْتَنا » فنزلت تبت يدا ابي لهب الى آخرها .

وقوله سائر اليوم كلمـة تابيد اي تبا يتكرر في بقية الايام فتعريف اليوم تعريف الجنس المراد به الاستغراق وسائر بمعنى جميع تاكيد للعمـوم . ومعنى التباب الخسران فقول ابي لهب تبالك اي خيبة وخسـارة وهي كلمة يقولونها في مقام الغضب . وقد اجيب بمثل ما دعا به الا ان جـواب كلامه جاء على صيغة تناسب الدعاء الحقيقي اذ دعي عليه بخسارة يديه اي تلف ماله وذلك لانه كان من اغنياء قريش . واسناد التباب الى يديه مجاز عقلي لان اليدين هما آلة المعاملات وهو كناية عن ثبوته لذاته ونظيره قوله تعالى وجوه يومئذ ناعمةلسعيهاراضية اذاسندالرضى الى الوجوه . وبعد ان اسندت الخسـارة الى يديه اسندت الى ذاته على التفنن في التاكيد لانه يقال خسر فلان وخسرت يده ونحو ذلك . قال ابو الغول الطّهَوي :

فدت نفسي ومـا ملكتْ يميني ❀ فوارس صدقـوا فيهـم ظنـوني

وهو دعاء عليه بالمكروه وبسوء مصيره . وجملة قوله وتب توكيد لفظي لتبت الاول عطف بالواو ليكون دعاء مستقلا ولما بين الجملة المؤكّدة والمـؤكدة من اختلاف

في الصورة لان الاولى أُسند التبُّ فيها الى اليدين والثانية أسند فيها الى ذاته ،
اعقب الذم المجازي الكنائي بذم صريح على طريقة قولهم قال له كذا لا يَكني
اذا كان القول المحكي من شانه ان يكنى عنه لخوف او حياء ، فعطفها كعطف
جملة ولا انا عابد ما عبدتم بعد جملة لااعبد ما تعبدون . وفائدة التاكيد افادة التكرير
ليقابل قول ابي لهب « تبًا لك سائر اليوم » . وابو لهب هو عبد العُزّى بن عبد
المطلب احد اعمام النبيء صلى الله عليه وسلم . واللهب اشتعال الحطب اذا زال منه
الدخان فصار جمرا . قيل كني بابي لهب لشدة احمرار وجهه كانه يوقد لهبا ، وفي
كنيته بهذه الكنية من زمن الجاهلية معجزة خفية للنبي صلى الله عليه وسلم إذ قدر
له ان يكون من اشد اعداء الاسلام فالهم الله عبد المطلب فكناه بذلك فكانت كنيته
تشاؤما له بالنذارة بالنار ومهيئة لنبزه بها في القرآن . واختيارها هنا للتعبير عنه دون
اسمه العلم ليس اكراما له كما هو غالب الكنية وبدون ابهام كما هو عادة القرآن ؛
لما في كنيته من التورية لانه يقال ابو كذا كناية عن ملازم ذلك الشيء يقال ابو
الضيف للكريم . وقولهم أبوها وكيالها . وهذا نبز ديني هو من الذم الذي يقتضيه
الشرك في الدنيا .

وجملة ما اغنى عنه ما له وما كسب مستانفة استئنافا ابتدائيا لانها انتقال من
انشاء الدعاء والتحقير الى الاخبار بنفي ان يدفع عنه ماله الهلاك المدعو عليه به ،
فاختلف الجملتان في الانشائية والخبرية ولذلك فصلت الجملة الثانية من الاولى
لان بينهما كمال الانقطاع . والمعنى ان كثرة ماله لاتغني عنه من الهلاك شيئا. وعبر
عن المستقبل بلفظ الماضي للتنبيه على تحقيق وقوعه حتى كانه قد وقع .

وما كسب موصول وصلة اي والذي كسب وهو ما سعى لتحصيله من المال
يقال كسب اي جمع بسعيه والفرق بين المال والكسب ان المال يشمل المكسوب
كارباح التجارة وثمرة الشجر ويشمل غيره مثل الموروث . والمعنى ما اغنى عنه
ماله التالد والطارف وحذف متعلق اغنى لظهوره من المقام اي ما اغنى عنه من
التباب كقوله وما يغني عنه ماله اذا تردى .

(سَيَصْلى ناراً ذاتَ لهَبٍ)

جملة مستانفة استئنافا بيانيا لجواب سؤال من يسال عن مدى انتفاء غناء ماله

عنه فان ما ذكر منتهى الهلاك وتابيد سوء الحال . وفعل سيصلى مبني للفاعل والصلي تقدم في قوله تعالى يصلونها يوم الدين في سورة الانفطار . واللهب تقدم آنفا . واضافة النار الى اللهب لتاكيد شدة حرها والمراد بها نار جهنم .

(وامرأتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ في جِيدِهَا حَبْلٌ مِن مَسَدٍ)

انتقال من انذاره الى انذار امراته لانها كانت تغريه ببغض النبيء صلى الله عليه وسلم وتعينه على اذاه فجعل الله عقابها في جهنم مشوبا بذلة وهي امتهانها بالعمل الشاق وانها تحمل حطبا ترمي به في النار لا حراق زوجها في جهنم ليكون العقابان مناسبين للذنبين. وهذا عقاب جعله الله لها . وقوله حمالة الحطب خبر عن امرأته .

وامراة ابي لهب هي ام جميل بنت حرب بن امية . والحطب اعواد الشجر يقصد احراقها للطبخ والتدفي . والجِيدُ عنق المراة وهو من الالفاظ الشائعة في مقام الحسن والجمال فالعدول عن العنق الى الجيد تهكم اذ جُعل الحبل بمنزلة عقد الجيد .والحبل خيط غليظ تربط به الاشياء التي يراد أن لا تنفلت وهو يفتل من لِيف او من حلفاء . والمَسد ليف من ليف اليمن شديد تفتل منه الحبال وقد يسمى الحبل مَسَدا لذلك . وذكر من مسد احتراس من توهم ان الحبل حبل زينة . وقرا الجمهور حمالةُ الحطب بالرفع على انه خبر عن امراته وجملة في جيدها حبل خبر ثان . وقرا عاصم حمالةَ الحطب بالنصب على الحال وجملة في جيدها خبر . وقدم الجار والمجرور على حبل للاهتمام بذلك ومن مسد نعت لحبل هو مسوغ الابتداء به في جملته .

اسلوب هذه السورة

اسلوبها اسلوب الاهاجي وهي ان تفتتح بما يؤذن بالذم والشتم كقول عبد الرحمان بن الحَكَم من شعراء الحماسة .

لحا الله قيساً قيس عَيلانَ إنها اضاعت ثغور المسلمين وولت

وقول ابي تمام في طالع قصيدة هجاء * النار والعار والمكروه والعطب * فكذلك افتتحت هاته السورة بالشتم مجازا وتعريضا ثم بصريح الشتم . واوثر استحضار المذموم بكنيته لما فيها من التورية بالوعيد . وجيء في اشعاره باليأس من النجاة بلفظ الماضي في قوله ما اغنى تنبيها على تحقيق وقوعه . ثم انتقل الى ذم شريكته ووعيدها واقتصر عليهما دون غيرهما من ءالهما لان غيرهما لم يزد يومئذ على الكفر دون تجاوز الى اذى النبيء وقد اسلموا بعد ذلك . والاحتراس الذي في قوله من مسد مؤذن بنتر ما في الكنانة من الوعيد فهو مؤذن بانتهاء الغرض اذ شان مثله ان لا يطال كما قيل يكفي من القلادة ما احاط بالعنق .

سورة الاخلاص

سميت سورة الاخلاص لانها مختصة باثبات الوحدانية لله ونفي الشريك والولد والوالد والمثل ولان قوله « الله الصمد » يقتضي الاخلاص له في التوجه والعبادة. وهي مكية .

وفضل هذه السورة عظيم فقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال والذي نفسي بيده انها لتعدل ثلث القرءان اي في ثواب القراءة .

وقد اشتملت على اثبات وحدانية الله تعالى وانحصار استحقاق المعبودية له ونفي ان يكون له ولد وان يكون متولدا ونفي المماثل له .

(قُلْ هو اللهُ أحَد)

الامر بالقول في ابتداء الكلام اهتمام بالمقول وايذان بانه مقصود اعلانه للناس وان الرسول عالم بمضمون المقول ومتحقق فيه وان المقول كلام جامع لاصل الدين؛ والا فان جميع القرءان مامور النبيء بان يقوله فالخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وقد تقدم في سورة الكافرون والمقصود تبليغه للناس كما هو الشان في مقام التشريع والتعليم الا ما دل دليل على اختصاصه به . والضمير الذي في صدرها ضمير الشان مراد منه الاهتمام بما بعده لان السامع اذا سمع الضمير ولم يكن قد سبق له معاد انتظر ما يرد بعده ليفسره فالمعنى الشان والخبر العظيم هو انه الله احد ولذلك يجعل الضمير مبتدا والجملة التي بعده خبره وهو من قبيل ما الخبر فيه عين المبتدا فتستغني الجملة عن رابط يربطها بالمبتد. ومعنى احد انه واحد فهو وصف واصل احد وَحد بالواو اي متصف بالوحدة اي الانفراد يقال هو وحد اي منفرد فهو صفة مشبهة باسم الفاعل على زنة فَعَل مثل حَسَن وفَرَد . والمراد هنا ان الله واحد في الالاهية لا يشاركه فيها غيره ابطالا للشرك الذي عند العرب وللتثليث الذي عند النصارى وللثانوية عند المجوس وللتعدد الذي لا يحصى عند البراهمة. وقد اصطلح اهل العلوم العالية في اصول الدين على جعل وصف احد لله تعالى

وصفا يَرْمز الى كمال معنى الوحدة الموصوف بها تعالى وهي وحدة الذات بالتنزه عن الشريك وعن التركيب وعن الحلول ، ووحدة الصفات بانها متناهية في كمال حقائقها وآثارها .

(اللهُ الصَمَدُ)

جملة ثانية هي خبر ثان عن ضمير الشان فمضمونها شان مستقل بالاهتمام به ولذلك لم تعطف الجملة بالواو . والصمد اسم مشتق من الصّمْد وهو القصد. ومعنى الصّمَد السيد المقصود في المهمات وهو اسم غير جار على قياس الاشتقاق فهو اسم بمعنى المفعول اي المقصود وهم يطلقون الصمد على اعظم سادة القوم الذي هو مقصودهم في امورهم لانه الجامع لخصال الكمال المستوجبة للسؤدد . وتعريفه باللام في الآية لافادة القصر وهو قصر إفراد لان اهل الجاهلية كانوا يفزعون في الشدة الى اصنامهم فنبهوا بهذه الآية على خطئهم وان المستحق لان يصمد اليه هو الله دون غيره قال تعالى « ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا » فالله هو المنفرد باستحقاق السؤال لانه الذي يعطي ما لا يستطيع غيره ان يعطيه ويمنع من شاء فكان نوال غيره عائدا الى نواله واعلم ان الاختلاف المنقول عن بعض المفسرين من السلف في معنى الصمد يرجع الى خصوصات من هذا المعنى العام .

(لَمْ يَلِدْ ولم يُولَدْ)

الجملة خبر ثالث عن ضمير الشان ومضمونها مقصود بالاهتمام بشانه ولذلك لم تعطف كما علمتَ آنفا . وجملة ولم يولد عطف على جملة لم يلد لان المقصود من الجملتين معنى واحد وهو ابطال ان يكون لله ما يتولد عنه من الموجودات فبعد ان أبطلت الآية السابقة تعدد الاله بالاصالة ابطلت هذه الآية التعدد بالتولد والتفرع ابطالا لاصول اديان كثيرة وابطلت ان يكون الاله متولدا عن غيره لان ذلك يقتضي سبق العدم له وذلك مساو للتعدد الاصلي بالذات فابطال الولدية لالوهية غير الله، وابطال المولودية ابطال لحدوث الله. وابطالهما معا ابطال لالوهية المسيح بان الاله يستحيل ان يكون له ولد فليس المسيح ابنا لله وبان المولود يستحيل ان يكون الاها فبطلت بنوة عيسى لله التي هي اصل الاعتقاد بالاهيته. فلما أبطلت الجملة الاولى الهية غير الله بالاصالة. وابطلت الجملة الثانية الهية غير الله بالاستحقاق

ابطلت هذه الجملة الاهية غير الله بالفرعية والتولد وهي عقيدة النصارى في الاهية عيسى.وايضا يبطل قول بعض المشركين الملائكة بنات الله.وانما نفي ان يلدوان يولد بحرف النفي في الماضي لان المردود عليهم زعموا ان ذلك قد كان ولم يزعموا انه يكون في المستقبل ولان شان الالاهية ان ما نفي عنها فيما مضى يكون منفيا في المستقبل بالاحرى اي ان هذه الصفات ازلية له تعالى .

(ولَمْ يَكُنْ لهُ كُفُوًا أَحَدٌ)

عطف على جملة لم يولد وهي كالتعميم بعد التخصيص فيشمل نفي الزوجة له تعالى فان الزوجة كفؤ لزوجها ثم هو نفي لكل موجود مماثل له.والكفؤ بضم الفاء وبسكونها وبالهمز في آخر المساوي والمماثل فقوله ولم يكن له كفؤا احد كلام جامع لنفي كل ما هو من سمات الحوادث وهومثل قوله ليس كمثله شيء وهذه الجملة كالتذييل لما قبلها لقصد جمع معنى التنزيه له تعالى ولذلك نفي بصيغة النفي في الماضي جريا على طريقة نفي ما قبله .

وتاخير اسم كان وهو احد عن خبرها للرعاية على الفاصلة.وتقديم المجرور وهو له على متعلقه وهو كفؤا مع ان الشان تاخيره اذ هو من تكملة متعلقه فقدم للاهتمام به لان مصب المعنى الذي سيق له النفي هو المماثلة الخاصة وهي المماثلة لله فكونها لله هو المحترس منه فكان اهم فقدم كونها لله على لفظ المماثلة.

واحد هنا ليس كاحد في قوله قل هو الله احد بل هذا من الاسماء النكرات بمعنى انسان التي تقع في حيز النفي في كلام العرب فتفيد ان النفي قد عم جميع افراد الجنس وهي بهذا الاستعمال صارت مخالفة لكلمة احد التي تقع في حيز الايجاب وهي المتقدمة في اول السورة والجمع بينهما فيه محسن الجناس التام .

اسلوب هذه السورة

افتتحت بالامر بالقول لاسترعاء السامعين لما سيقال.وافتتح المقول بضمير الشان لاسترعاء اسماع المخاطبين. وجاء اسلوب المقول على اسلوب الايجاز لان المقصود منها ان تكون جامعة لاصل عقائد الاسلام فهي كالتفصيل لكلمة الاسلام التي في قوله«فاعلم انه لا اله الا الله»فهي كلمة عقيدة الاسلام كما كانت كلمةُ الشهادة كلمة الدخول في الاسلام.وقد جاءت على التدرج في احوال العقيدة اذ اثبتت الوحدانية ثم ما يجمع صفات احتياج الناس الى الله وهو انه الصمد ثم نفت ما لا يليق به مما مُوّه به على اهل الضلالة وفساد العقول ثم بما يجمع ذلك كله وغيره وختمت بالكلمة الجامعة فكانت لها براعة مقطع .

سورة الفلق

الاصح انها مدنية وقيل مكية والارجح عندي انها مدنية . وافتتحت بقل للاهتمام بما تضمنته من اعاذة الله نبيه من شر ما ذكر فيها عاما وخاصا .

وقد اشتملت هذه السورة على تلقين التعوذ من شر المخلوقات وخص من بينها ما يكون شره في الليل وشر من يحاول السحر وشر الحاسدين ليكون اعتماد النبي صلى الله عليه وسلم على ربه في ظاهر الاشياء وخفيها .

(قُل أعوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ من شَرِّ ما خَلَقَ)

الامر تعليم للتعوذ بالله من المضار المتوقعة فالخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمقصود شموله الامة لانهم يقتدون به ولذلك أمر النبي ان يتعوذ الناس بها . وجعل الامر بالقول المذكور دون الامر بالتعوذ المطابق لان المقول كلام جامع مرجو الاجابة اذ وضعه الله تعالى . وقد روى الترمذي عن عقبة بن عامر الجهني ان النبي صلى الله عليه وسلم قال قد انزل علي آيات لم يُر مثلهن قل اعوذ برب الناس الى آخر السورة وقل اعوذ برب الفلق الى آخر السورة .

وجعلت صيغة التعوذ بالفعل المضارع لان المقصود انشاء التعوذ بالمضارع لدلالته على التجدد اذ القائل ينشيء التعوذ بالله من شر الامور المذكورة كلما نطق بهذا الكلام .

والعَوذ الالتجاء لقصد النجاة من شر، يقال عاذ بكذا من كذا فمعنى أعوذ برب الفلق التجيء الى الله من شر ما ذكر . والفلق ظهور الضياء بعد الليل ومنه فلَق الصبح . والتعبير بوصف رب الفلق دون اسم الجلالة ايماء الى تصرفه تعالى باللطف فان خلق الصباح والنهار حائل دون ما يدبره اهل الكيد والدعارة من الكيد والتختل في ظلمة الليل فان الظلمة تعرِض الناس الى اضرار كثيرة من الآدميين والدواب بسبب ضعف الرؤية في الظلمة واختفاء الامور الضارة وكيد اصحاب المكائد والعجز عن عمل ما يريد عمله من سير واكتساب، فاذا ظهر الضياء زالت تلك المخاوف وتبصر الناس امورهم قال تعالى « وجعل النهار نشورا » فالمعنى ان

الذي يخرج الناس كلهم من شر الظلمات الى خيرات النور بخلقه الفلق نعوذ به لدفع الشرور عنا اذا عذنا به. وايضا لمناسبة التعوذ من شر الغاسق . وهي مناسبة التضادين الفلق والغسق وشر ما خلق يعم كل شر ينشا من المخلوقات بالقصد والاختيار او بالطبع والاتصال مثل شر النار وشر ذوات السموم .

(ومِنْ شَرِّ غاسِقٍ اذا وقَبَ)

عطف خاص على عام لان شر الليل من جملة شرور المخلوقات وهو يؤكد بعض معنى العام بذكر بعض افراده ويفيد الاهتمام بالتعوذ منه فان الليل داخل فيما خلق الله . واعيدت كلمة من دون اكتفاء بحرف العطف لتكون كل دعوة مستقلة بنفسها لان مقام الابتهال يناسبه الاطناب . والغاسق الليل عند اشتداد ظلامه . وفي الليل شرور عظيمة منها اختلاء المنافقين للتدبير بكيد الرسول والمسلمين قال تعالى «والله يكتب ما يبيتون» فيه تبتدا العلل البدنية. وفيه تشتد الامراض على المرضى لان الظلمة منافية لنشاط الاعصاب ولذلك اغتر بعض الضُّلال فجعل الليل الها للشر وهو دين المانوية من اديان الفرس القديمة اصحاب ماني قال ابو الطيب واجاد :

وكَم لِظَلامِ اللَّيلِ عندِيَ من يَدٍ تُصَدِّقُ ان المَانويَّةَ تَكْذِبُ

فاضافة الشر الى غاسق من اضافة الاسم الى زمانه على معنى في . واصل معنى وقب دخل وغاص وهو مستعار للتمكن والتغلغل كما يقال غاص رأي فلان على المعنى . اي من شر الليل في وقت اشتداد تمكن الشر فيه .

(ومِنْ شَرِّ النَفّاثاتِ فِي العُقَدِ)

هو ايضا من عطف الخاص على العام للتاكيد وللاهتمام بطلب الوقاية من شر النفاثات . واعادة كلمة من شر للوجه الذي ذكر آنفا . والنفث نفخ الفم واللسان شبه محاولة البصق بدون ريق . والعُقد جمع عقدة وهي ربط الخيط او الحبل. والمراد به هنا النفث الذي ينفثه اصحاب السحر. وانما اسند هذا الفعل الى جماعة الاناث لان الغالب عندهم ان تكون معالجة السحر في النساء لانهن لا شغل لهن فهن ينتحلن لانفسهن معرفة ما يموهن به على امثالهن من النساء لضعف نفوسهن فالحيل والعقائد الضالة تمشى عندهن ولان البطالة تمكنهن من التطلع لمثل هذه الامور . وعبر عنهن بالنفاثات في العقد لان النفث شعارهن للتمويه على من يلوذ بهن . والتعريف

في النفاثات وفي العقد تعريف الجنس للاشارة الى جنس معروف من بين الاجناس.

وانما جعلت الاستعاذة من النفاثات اي متعاطيات السحر ولم تجعل من النفث لان السواحر يأتين اعمالا تفضي بقصد وبغير قصد الى ما يجر اضرار عظيمة لمن يحاولن سحره من اطعامه سموما ومفسدات للعقل وقاذورات مما يسبب اضرار للمسحور وليس للنفث تاثير في الضر ولا للشعوذة تاثير ،وما امر الله رسوله بالتعوذ من السحر الا وقد اعاذه منه . ومناسبة التعوذ من شر النفاثات عقب التعوذ من شر الليل ان معظم اعمال السواحر وقته الليل .

(ومن شَرِّ حاسِدٍ اذا حَسَدَ)

هو ايضا من عطف الخاص على العام للتاكيد والاهتمام به،واعادة كلمة من شر للوجه الذي قرر آنفا . ومناسبة عطف التعوذ من شر الحاسد على شر الليل ان الليل وقت هيجان الخواطر النفسية عند اختلاء الناس وانقطاعهم عن الشواغل ولذلك كثر ان يقولوا بات يحرق الارم وقال ابو الطيب :

وأظلمُ خلقِ الله من باتَ حاسدا لِمن بَاتَ في نَعْمائِه يَتَقَلب

والحاسد هو الذي يسوءه ما يحصل لغيرة من النعمة والخير فيتمنى زواله عنه فاذا تمكن من ازالته فعل ذلك وقد كان كثير من المنافقين واليهود يبغضون النبي صلى الله عليه وسلم حسدا على ما آتاه الله من شرف وفضل قال تعال « ام يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » فالحاسد هو الذي الحسد طبعه. وتقييده باذا حسد اي اذا خطر له خاطر الحسد لان وقت خطور ذلك الخاطر في نفسه هو مظنة ابتداء عمله لاذى المحسود وابتغاء الغوائل له .

وتنكير حاسد يفيد العموم في سياق الدعاء كسياق النفي كما في قول الحريري في المقامة الخامسة « يا اهل ذا المغنى وُقيتُم شرا » .

اسلوب هذه السورة

افتتاحها بالامر بالقول لاعلان ان الله معيذ رسوله من الاشياء التي امره ان يتعوذ منها ففي ذلك مناسبة للمقصود وهو التحصن والتعوذ وذلك من حسن المطلع،وذلك تعليم له ولمن معه من المسلمين وتحد للمشركين بان الله حافظ اولياءه من شرهم عامة ومن شر تدبيرهم المقيد بالرسول وشر سواحرهم وحسادهم . وجيء فيها باسلوب التكرير في كلمة ومن شر اربع مرات رعيا لمقام الدعاء الذي يناسبه الاطناب . واذ قد افتتحت بالاستعاذة من شر كل مخلوق فعمت كل ما يأتي منه الشر وخص بالذكر من شرور المخلوقات ثلاثة وكان مقتضى الاستعمال ان لا يزاد في الموكدات على ثلاثة ، عُلم انتهاء الكلام.

سورة الناس

الاصح ان سورة الناس مدنيـة وقيل انها مكية والارجح عندي الاول وقد نزلت مقارنة لسورة الفلق على هذا الترتيب .

وهي مشتملة على تلقين الاستعاذة من شر الناس والشياطين وهو شر الاغراء بالشرور فوزانها وزان سورة الفلق ولك ما ثلتها في فاتحتها .

(قُل أعوذُ برَبِّ النَّاسِ مَلِك الناس إلَه الناس من شَرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ الذي يُوَسْوِسُ في صُدُور النَّاسِ من الجِنةِ والنَّاس)

مضى الكلام على قوله قل اعوذ في السورة السالفة .

واستحضار ما يدل على الذات العلية بوصف رب الناس ملك الناس اله الناس تمهيد لاجابة التعوذ به من شر الناس فـان خالقهم والمتصرف فيهم قـادر على ان يقي بعضهم شر بعض بحكمة يعلمها. وادماج للتذكير بصفات الله التي كان المشركون معرضين عن مراعتها ، ومَلِك الناس عطف بيان من رب الناس وكذلك اله الناس. وتكرير الناس بالاسم الظاهر دون الاضمار في الموضعين لان الاظهار هو المناسب لعطف البيان ليكون كل وصف مستقلا بمعناه بمنزلة الاسم العلم .

والوسواس اسم فاعل الوَسْوَسَة وهي الكـلام الخفي قال رؤبـة يصف صائدا ❊ وسْوَسَ يَدْعو مُخْلِصاً رَبَّ الفَلَقْ ❊ والمراد به هنا ما يشمل التخافت الذي يتخافت به اهل الجرائم والمكائد لاغتيال نفوس او اخذ امـوال او اغراء بالاعراض عن الهدى . وما يشمل الخواطر التي تلقيها الشياطين في النفوس لتزين لها الجرائـم والمعاصي والفسـاد في الارض . فكلاهما تَعَوَّذ منه الرسـول لان المفسدين مُغْرَوْن باذى الصالحين « وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهـم الى بعض زخرف القول غرورا » فالوسـواس الذى أمر الرسول بأن يتعوذ منه هو وسواس الشر سواء وسوس للرسول في نفسه ام وسوس على الرسول في نفس غيره لقصد اذاه والائتمار على ما ضره .

والخنَّاس مبـالغة في الخَانس وهو الذي يختفي كما تقدم في قوله فلا اقسم

بالخُنَّس والمراد الذي يختفي تخُتلا حتى يتمكن من عمله المؤذي وكذلك شأن الوسواس انه اذا احس بمن يطلع عليه تاخر واقبض وكذلك وسواس الشيطان يخطر في النفس ويغيب .

والذي يوسوس في صدور الناس بيان لمعنى الوسواس وأن له وسوسة يلقيها للناس ويزيّنها حتى تحوك في صدورهم اي نفوسهم . واسم الموصول مراد به الجنس اي كل من تقع منه الصلة وهي فعل الوسوسة. وقوله من الجنة والناس بيان للوسواس الخناس او الذي يوسوس في صدور الناس بانه صنفان صنف من الجنة بكسر الجيم وهي اسم جمع للجان والمراد به الشياطين فان ابليس كان من الجن ، وصنف من الناس وهم اولياء الشياطين ودعاة الضلالة والكفر وكلا الصنفين وسواس وخناس .

وتاخير الناس عن الجنة في البيان لانه احوج الى البيان لخفائه اذ قد اعتاد الناس ان يتعوذوا من الجن والشياطين ويغفلوا عن التعوذ من اهل جنسهم وهم بالتعوذ منهم اجدر . لانهم منهم اقرب واخطر . ولانهم في وسائل الاذى ادخل واقدر . والله يكفينا شر الفريقين ، وينفعنا صالح الثقلين . وفي هذا التعميم الذي ختم به التعوذ ايذان بتمامه . فكان ذلك من براعة ختامه .

اتمه محمد الطاهر بن عاشور

فهرس المقدمات والسور والمباحث

صفحة	الديباجة والمقدمات
٣	ديباجة التفسير : والسبب الداعي الى تاليفه . وتنظير تاريخي فيما اتفق من سبب تاليفه
	احوال التفاسير السابقة
٧	ما تميز به هذا التفسير
٩	المقدمة الاولى في التفسير والتاويل
	في الفرق بين فعّل المضاعف العين وبين المجرد من مادة واحدة
١١	الوجوه الستة لعد التفسير علما
١٣	تاريخ ظهور علم التفسير
١٤	معنى التاويل
١٦	المقدمة الثانية في استمداد علم التفسير
٢٣	المقدمة الثالثة في التفسير بغير المأثور والتفسير بالراي
٢٥	شرط صحة التفسير . وبيان الراي المذموم
٢٧	التفسير بالباطن
٢٩	تفسير اهل الاشارة
	التحذير من استعمال القرءان في غير ما اريد منه
٣٢	المقدمة الرابعة في غرض المفسر
	الحكمة من تنزيل القرءان ومراد الله من جعله بلسان عربي.
	المقاصد الثمانية الاصلية لنزول القرءان
	طرائف المفسرين في التفسير . بحث مع ابي اسحاق الشاطبي
٤١	المقدمة الخامسة في اسباب النزول
	افراط بعض المفسرين فيها
	اقسام اسباب النزول التي صحت اسانيدها
٤٦	المقدمة السادسة في القراءات وما له منها علاقة بالتفسير ما يروى من القراءات عن النبيء صلى الله عليه وسلم وما هو مرادهم منه

صفحة

التفسير

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة



اصلاح الاغلاط الواقعة في الكتاب

صفحة	سطر	الخطا	الصواب
١٨	١٦	وارث الارض	وارث بك الارض
٣٨	١٣	والسبب ورود	والسبب في ورود
١٠٢	٢٤	المقابلة	المطابقة
١١١	٢٤	يسرد	سيرد
١١٥	٢٠	تعالى فرعون	تعالى قال فرعون
١٣٢	١١	حتمبا	خلفها
١٣٣	٩	تتبعه من البعث	يتبعه من اليقظة اشبه الاحوال حال الموت وما يتبعه من البعث
١٣٧	١٨	صعق	فصعق
١٤٣	١٦	ان . واختيار	ان اختيار
١٦٣	١٥	عن معرفة	عن معرفته
١٦٥	٤	بين	وبين
١٦٥	١٥	التي ادوا	التي ما أدّوا
١٦٦	٥	قبول	قبوله
١٦٦	١٢	رسول الله ارسدني	رسول الله فجعل يقول « يا رسول الله ارشدني »
١٦٧	١٨	جهات صح	جهات صلاح
١٧٦	٨	والصب	اسناد الصب
١٧٦	١٢	والشق والابعاد	والشق الابعاد
١٧٦	١٨	ولا اشجارها	لا اشجارها
١٩٢	٢	وهذه السوره	هي مكيه . وهذه السوره
١٩٢	١١	في جعل	في جمل
١٩٣	١	وضعها	وضعه
١٩٣	٢٦	فمدبر	فتقدير
٢١٠	١٨	اغراضه	اغراض
٢١٤	١٠	بهم الجنة	بهم الى الجنة
٢١٤	١٠	نظرة	طهرة

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٢٢٠	١٥	الصائبة	الصابئة
٢٢١	٤	وهي احوالها	وهي واحوالها
٢٢٤	٤	الا يؤمنوا بان	الا أن يؤمنوا بالله
٢٢٤	١٢	لا يلفتون	لا يفلتون
٢٢٤	١٤	عذاب الحريق	عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق
٢٢٤	١٨	علة من	علة في
٢٢٩	١٢	تذكير	تذكيرا
٢٣٢	١١	طعام	طعامه
٢٣٦	١٩	خلق لتحصل	خلق الانسان
٢٣٩	٢٤	انا نزلنا	انا نحن نزلنا
٢٤٣	٥	الخ طريقة	الخ على طريقة
٢٤٣	١٣	الذُكر	الذكر
٢٤٩	٧	الصالح يعلم	الصالح كما يعلم
٢٥٤	١٩	بما القوه	بما الفوه
٢٥٥	٩	بفتح الواو الفرد	بفتح الواو وبه قرا الجمهور وبكسرها وبه قرأ حمزة والكسايي هو الفرد
٢٥٦	١	لا يعقلون	لا يقلعون
٢٥٧	٥	قصدا بهذا بيان تعريف المراد	قصد بهذا بيان المراد
٢٥٩	٩	ويظفر	ويضفر
٢٦٠	١٦	اداة شرطها	اداة شرط وشرطها
٢٦٤	١١	يدخل حرف	ان يدخل عليه
٢٦٤	٢٧	انعدام	انهدام
٢٦٦	١٥	عذاب	عذابه
٢٦٧	٢٥	معدمة بالبركة	معروفة بالبركة
٢٧١	٨	الذهبي	الذهني
٢٧٢	١٩	بعلم	بعلم
٢٧٤	٥	قصد	لقصد
٢٧٥	٢١	بالتقدم العرف	بالتقدم في المعرف
٢٨٦	١٨	البابي	الباني
٢٨٣	١٨	تفصيل	تفضيل

صفحة	سطر	خطا	الصواب
٢٨٤	٨	اذ تفرق	اذا تفرق
٢٨٤	١٧	من اعطى ومن بخل كل	من اعطى كل
٢٨٤	١٩	خلق	خلف
٢٨٦	١٧	المرتدية	المتردية
٢٨٦	٢٠	ان هداه	اذ هداه
٣٨٨	١	ما له كما	ما له للفخر كما
٢٩٠	٢١	ثمانية	ثمان
٢٩١	١٩	المعشر	المشعر
٢٩٣	٢٥	عملهم	علمهم
٢٩٧	٢٦	عليه وعُسره	على عُسره
٢٩٩	١٠	بالزيتون الذي	بالزيتون جبل الزيتون الذي
٣٠٢	١٢	كثيرة	كثير
٣٠٥	٢٠	اذا كان	اذ كان
٣٠٧	١٣	الا ان	الى ان
٣٠٩	٣	بقوله لتعلم	بقوله انك لتعلم
٣٠٩	٢٠	وصلية	عليه
٣٠٩	٢٣	بأن	بإن
٣١٠	٣	وتوليه ومفعول	وتوليه في المستقبل الا يعلم ان الله يعلم تكذيبه وتوليه ومفعول
٣١١	٢١	البعثة هذه	البعثة وحق
٣١١	٢٤	العرب	القرب
٣١٣	١٨	من الله لها	من الله فجمع الله لها
٣١٤	٢١	ذالك	ذكر
٣٢٠	٢٦	فالتفرقة	فالتفرق
٣٢٥	١٢	المؤمنين	المؤمنين وجيء بلفذلكة ايذانا بانتهاء السوره
٣٢٦	١٥	اشارة اي	اشارة الى
٣٢٧	٢٣	مفعول	المفعول
٣٣٠	٢٤	العبادة	لعبادة
٣٣١	٢٠	الصورة	السورة
٣٣٣	٥	ومفعول اعلم	ومفعولا يعلم

صفحة	سطر	خطـأ	الصـواب
٣٣٥	٤	وهو كون الجبال	وهو كون الناس كالفراش
٣٣٥			وكون الجبال
٣٣٥	٢٣	عن القارعة من	عن القارعة كانه قيل القارعة من
٣٣٥	٣٣	ولما حال	ولما كان حال
٣٣٦	٣	تذليـه	تدليـه
٣٣٦	٢٣	فقولهم	كقولهم
٣٣٨	٤	الحـال	المـال
٣٤١	١١	بالغلبة بالغيب اقسم	بالغلبة اقسم
٣٤٢	٧	حصلوه	ما حصلوه
٣٤٥	٤	لما سر وهو طلب	لما اسر وطولب
٣٤٧	٥	المخزون وفي	المخزون عند زوجه وفي
٣٤٧	١	بها شان	بها لان شان
٣٤٧	٢٠	نفوسهم . ذكرت	نفوسهم ثم ذكرت اوصافا
٣٤٧	٢٢	يحب	يحسب
٣٤٧	٢٥	موصلة	موصدة
٣٥٣	٢٧	اقراره	افراده
٣٥٤	١٥	تجبي	تجبى
٣٥٧	٥	رأى	راءى
٣٥٧	٢٤	او استطرد	واستطرد
٣٦٣	٢٧	تذليل	تذييل
٣٧٠	١٢	لَيف	لِيف
٣٧٢	٢٢-٢٣	الولدية لا لوهية	الولدية ابطال لا لوهية
٣٧٣	٩	ءاخر	ءاخره
٣٧٨	١٦	بن	ابن